بسام العسلي

المذهب العسكري الإسلامي



دار النفائس

مؤلف الكتاب مجاهد قديم، وكاتب عسكري غنيّ عن التعريف. وهو في هذا البحث يطرح سؤالين: ما هو موقع المذهب العسكري الإسلامي في فن الحرب؟ وهل بقي لهذا المذهب دوره في العصر الحاضر؟

ويجيب عن هذين السؤالين في ثنايا خمسة فصول، عناوينها: العقيدة الدينيَّة والجهاد في سبيل الله - فن القيادة - آفاق الاستراتيجية - مبادىء الحرب - أبحاث في الجهاد.

والذي يقرأ البحث تتجلى له أهمية المذهب العسكري الإسلامي للمسلمين في عصرهم الحاضر ودور العقيدة في تحقيق النصر.

إنه كتاب يسد ثغرة في المكتبة العربية ويضيء زوايا أهملها المؤرخون إلى حين.

الناشر

مقدمة

ما هو موقع المذهب العسكري الإسلامي من فن الحرب؟ وهل بقي لهذا المذهب دوره في عصر الثقافة المتقدمة، وفي زمن الفنون العسكرية المتطورة؟ سؤالان في جملة أسئلة كثيرة شغلت طويلاً فكر الباحثين والمؤرخين في أيام الصحوة الإسلامية الحديثة، فأقبل الاختصاصيون، من عسكريين وغير عسكريين، على اقتحام غمار التاريخ الإسلامي وغير الإسلامي في محاولات متنوعة ومتجددة للإجابة على ما تفرضه طبيعة التطور ومتطلباتها؛ وكان في ذلك الخير كل الخير؛ إذ من المحال تغطية تجربة تاريخية استمرت أربعة عشر قرناً من عمر الزمن، في دراسة واحدة وموحدة؛ كذلك فإن دراسة المادة التاريخية واستيعابها واستخلاص دروسها متباين بحسب المنطلق الفكري للباحث؛ أو الباحثين؛ وتتنوع بحسب ما يتوافر للباحث من القدرة العلمية والمعرفة التاريخية، والقناعة الدينية ومعارفها وعلومها، وهذا يفسر التباين في مناهج الأبحاث العسكرية الإسلامية، والاختلاف في أساليبها وحتى في مضامينها. واستطاعت هذه الأبحاث والدراسات بمجموعها أن تسدَّ ثغرات كثيرة في مواجهة الطوفان الفكري الذي غمر العالم العربي الإسلامي خاصة والعالم الإسلامي بصورة عامة. وقد تم على أساس ما سبق ذكره معالجة مسألة (الجهاد في سبيل الله) من خلال النظرية الإسلامية وتطبيقاتها العملية، منذ ظهور الإسلام وحتى الأزمنة الحديثة، وكان لا بد من اختيار بعض الشواهد الضرورية للبحث، إذ من المحال الإحاطة بكل ما هو متوافر من الأمثولات والشواهد؛ وكان لا بد من الإعراض عما تشابه منها قدر المستطاع، مع تكرار مثل هذه الشواهد إذا ما تطلبت ضرورة البحث ذلك.

ومن المعروف أن مسألة (الجهاد في سبيل الله) هي مسألة متكاملة قد يكون من المحال تفكيك جزئياتها وفصلها بعضها عن بعض ـ إلا لغرض البحث والدراسة ـ وعلى سبيل المثال، فإن مسألة (هدف الحرب وغاية السلم) في الإسلام تشمل (العنف في الحرب) وتشمل (بناء المجتمع الإسلامي) وتشمل موقف الإسلام من (أهل الذمة) وتشمل وضع (المسلم والمجتمع) الخ . . . وقد تكون الأمثولة ـ نظرية أو عملية ـ مما يستدعي إبرازها في أكثر من مناسبة وفي أكثر من موقف.

لقد جرى وضع مخطط البحث ليشمل خمسة فصول، على نحو ما هو واضح في فهرس الكتاب. وكان لا بد هنا أيضاً من اختيار ما يتضمنه كل فصل من هذه الفصول، بحيث يكون محتوى الكتاب جامعاً ومانعاً ووجيزاً في آن واحد. فالهدف من البحث في الأساس هو إبراز المبادىء والأسس التي شملها مفهوم (الجهاد في سبيل الله). ولهذا فقد تم اختيار خمس فقرات فقط في مسألة (فن القيادة في الإسلام)، واختيار خمس فقرات أيضاً في (آفاق الاستراتيجية الإسلامية)، واختيار أربعة مبادىء فقط من مبادىء الحرب، مع العلم أن هذه المبادىء قد بلغت ثمانية في بعض المذاهب العسكرية الحديثة ووصلت حتى ثلاثة عشر في مذاهب أخرى.

لقد تبين، من خلال البحث، أنه لا بدَّ من إجراء بعض المقارنات مع ما هو معروف في المذاهب العسكرية الأخرى؛ وذلك لإبراز أصالة معطيات (الجهاد في سبيل الله) من جهة؛ وللتأكيد على قدرة هذه المعطيات على التطور وعلى التكيف مع نظريات الأزمنة الحديثة. وإذن، فلم يكن الهدف هو إجراء دراسة مقارنة بين (الجهاد في سبيل الله) وبين المذاهب العسكرية الأخرى بقدر ما كان الهدف هو تأكيد فضائل (الجهاد والمجاهدين) والتي قد لا تحتاج للتأكيد ولا للإبراز؛ لولا الجائحات الفكرية المضادة.

ويبقى الأمل كبيراً في أن يقدم مضمون البحث رفداً جديداً في إغناء الفكر العسكري الإسلامي، وأن يسدَّ ثغرة من الثغرات الكثيرة التي فتحت على الجبهة العربية الإسلامية لتغيب حتى كلمة (الجهاد في سبيل الله). وابتهال إلى الله العلي القدير أن يجعل أفضل أعمالنا خواتيمها؛ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

بسام العسلي

١

الفَصْلُ الأول

العقيدة الدينية والجهاد في سبيل الله

١ ـ الجهاد في سبيل الله، والمصطلحات اللغوية.
٢ ـ هدف الحرب؛ وغاية السلم.
٣ ـ أشداء على الكفار؛ رحماء بينهم.
٤ ـ التحريض على القتال، وتقاليد الحرب.
٥ ـ المعاهدون؛ والهدنة في الإسلام.

١

الجهاد في سبيل الله والمصطلحات اللغوية

يصطدم الباحث المعاصر في الإرث الإسلامي بعقبة لا يمكن له تجاوزها، ولا يجوز له تجاهلها، وهي عقبة المصطلحات اللغوية، والتعابير اللفظية. فهل يجوز للمؤرخ المعاصر، أو الباحث في (فن الحرب الإسلامي) وفي (التاريخ العسكري الإسلامي) بصورة عامة أن يستخدم في أبحاثه وكتاباته تلك المصطلحات الحديثة أو التعابير المبتكرة أو التسميات المعاصرة؟ وهل يمكن إضفاء تسميات مستحدثة على أعمال متقادمة؟ وهل تستطيع الأثواب اللفظية البراقة أن تخفي ملامح التجارب التاريخية القديمة والموصوفة بالهرمة أحياناً، وبالمخلفات التي تجاوزها الزمن في أحيان أخرى؟.

لقد أثارت مثل هذه التساؤلات جدلاً كبيراً ـ ولو أنه جدل عقيم ـ بين أصحاب، وأنصار، مدرستين فكريتين:

أولاهما ـ تجد في الالتزام بالألفاظ والمصطلحات الإسلامية ضرورة حتمية، عند البحث في التراث الإسلامي، ومنه فن الحرب الإسلامي، مع تجنب الأخذ بالمصطلحات والتعابير اللغوية الحديثة.

وثانيتهما: تريد الانعتاق من كل التسميات القديمة، والاقتصار على استخدام المصطلحات الحديثة.

وقد كان باستطاعة أصحاب وأنصار كل من المدرستين دعم موقفه بالحجج المقنعة والأسباب المقبولة والتي لا يرفضها المنطق. وكثيراً ما حدث أن وصل الجدل

والنقاش بين أصحاب المدرستين إلى تبادل الاتهامات التي يـرفضها منـطق الحوار الفكري. فقد كـان من السهل على أصحـاب المدرسـة الأولى اتهام دعـاة وأنصار المدرسة الثانية بالاقتباس الأعمى من الغرب، وبالتقليد غير المتبصر، وبالتالي خدمة من يريدون الكيد للإسلام وأهله، عبر طمس معالم الفكر الإسلامي. ولم يكن من الصعب على أصحاب المدرسـة الثانيـة اتهام أصحـاب المدرسـة الأولى بالجمـود والتصلب والتعصب ـ وهي اتهامات تقليدية معروفة ـ بحجة عدم قدرة أصحاب هذه المدرسة بالاستجابة لمتطلبات العصر. وقد كانت نقطة الانطلاق في هـذا الجدل ـ على الأغلب ـ من خلال استخدام مصطلح (**العقيدة القتالية الإسلامية**) أو (**المذهب العسكري الإسلامي**) والمصطلحان هما ترجمة لاصطلاح غربي واحد[1]. وقد كان من السهـل جداً حسم الجـدل حول هـذه النقطة، لمصلحـة استخـدام (المـذهب العسكري الإسلامي). فالعقيدة الإسلامية هي الأسـاس الثابت والـذي تتفرع عنـه المذاهب الدينية (الحنبلي والحنفي والمالكي والشافعي) كذلك المذاهب التي لم تحمـل في الماضي اسم المـذاهب، ولكن بالمستـطاع اعتبارهـا مذاهب بمقتضى قواعد القياس والاجتهاد مثل (المذهب العسكري) و(المذهب الاقتصادي) الخ . . . ولكن هل هناك إجماع واتفاق واضح ومحدد بشأن مضمون (المذهب العسكري) أم أن هناك بدائـل أخرى يستخـدمها البـاحثون العسكـريون في العـالم مثل (النـظرية العسكرية) و(السياسة الاستراتيجية) أو (السياسة العليا)؟.

يظهر استعراض أدب الحرب العـالمي (الغربي والشـرقي) أنه ليس هنـاك ثمة مضمون واضح ومحدَّد بدقة لأي من هذه المصطلحات. فالباحثون، والمؤرخون، والمنـظِّرون في العالم، كثيـراً ما يتجـاوزون الحـدود المتعـارف عليهـا للتسميـات والمصطلحات، فينتقلون من استخدام مصطلح إلى استخدام مصطلح آخر، دون أن يثيـر ذلك بينهم شيئـاً من الجدل أو النقـاش، إذ من المهم، بالنسبـة لكل بـاحث، استخدام المصطلح الـذي يراه منـاسباً، والـذي يعتقد أنـه أكثر دقـة في التعبير عن وجهات نظره وأفكاره، وهذا ما يعطي تلك المصطلحات والتسميـات، في كثير من الأحيـان، مضامين جـديدة، ويكسبهـا مـرونـة أكبـر. ويمكن التـوقف عنـد بعض

---

(١) المذهب العسكري ـ أو العقيدة القتالية : (Military - Doctrine)

الشواهد، ففي بحث عن فن الحرب السوفييتي في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية، حيث ورد ما يلي:

«**اعتبرت النظرية العسكرية السوفييتية أن حرب المستقبل ستكون بالنسبة للاتحاد السوفييتي حرباً ثورية، وستنفذ لحماية الوطن الاشتراكي من عدوان الأحلاف الأمبريالية، وسيكون لهذه الحرب أهداف سياسية وعسكرية حاسمة.** فمن المتوقع بالتالي أن تكون طويلة الأمد، وعنيفة، مع استخدام أعداد ضخمة من مقاتلي القوات المسلحة، وكميات كبيرة من الأسلحة والأعتدة القتالية. وتعتبر الأعمال الهجومية الجبهية المنفذة على مسرح الأعمال القتالية، بآن واحد أو بصورة متسلسلة، هي الشكل الرئيسي للهجوم. ويتعين على الجيش الأحمر أن يكون جاهزاً لتنفيذ الأعمال الجريئة والحاسمة، والرامية إلى تدمير القوات المسلحة للأعداء الطبقيين». وقد تحدث المرجع ذاته عن المذاهب العسكرية في الدول الأخرى، خلال تلك الفترة الزمنية ذاتها، فجاء على ذكرها صراحة. وقال بالنسبة لليابان: «**كان المذهب العسكري الياباني موجهاً، بالدرجة الأولى، ضد الاتحاد السوفييتي، مع الإفادة من الظروف المناسبة لتوجيه الضربات إلى القوات المسلحة لدول أمريكا وبريطانيا وفرنسا وهولاندا بغية الاستيلاء على مستعمرات هذه الدول في آسيا والمحيط الهادي** - إذ يقع على اليابان واجب تنفيذ مهمة سماوية هي تحرير شعوب الشرق الرازحة تحت نير العِرْق الأبيض فآسيا للآسيويين - وستكون الحرب تبعاً لذلك حرباً شاملة وعالمية، وستشترك فيها الجيوش بملايين المقاتلين المجهزين بأحدث أنواع الأسلحة. **وقد أبرز المذهب العسكري الياباني ضرورة بناء الجيش من نوعين للقوات المسلحة هما:** القوات البرية والقوات البحرية، اللتين تضمان في تنظيمهما الطيران، باعتباره صنفاً من القوات له دوره الهام للغاية في العمليات البرية والبحرية»[١].

وفي مجال الحديث عن العسكرية الألمانية - خلال فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية أيضاً - ورد ما يلي:

---

(١) تطور فن الحرب (الجنرال جيلين) ترجمة محمد حسن حافظ - مركز الدراسات العسكرية - دمشق - ١٩٨١. ص ١٢١ و١٤٣.

«يجب أن تتم دراسة المسائل النظرية العسكرية والعلمية العسكرية، وتطورها اللاحق، في إطار العقيدة القومية الاشتراكية ـ النازيـة ـ. ويُربّى الجيش الألمـاني على العنصرية وروح الانتقام، ويوجه نظام التربية العقائدية ـ الأيديولوجية ـ بهدف الإعداد لحرب جديدة، ستكون صبغتها (الحرب الشاملة). وبما أن الحرب طويلة الأمد ستدفع بألمانيا إلى الفشل، فلهذا يجب على ألمـانيا الاعتمـاد على (الحرب الخاطفة) حيث يتم تركيز الجهـود الرئيسـة من أجل تـوجيه ضـربة أوليـة إلى العدو الأساسي». ومقابل ذلك: **«كان المذهب العسكري الإيطالي يشبه، وإلى حد كبير، المذهب الألماني، حيث تجلى فيه طابع الحرب الشاملة، وضرورة السحق السريع للعدو،** انطلاقاً من عدم توافر الموارد ـ الاحتياطات ـ الخاصة من أجل خوض حرب طويلة الأمد. ولما كانت إيـطاليا ذات شـواطىء ممتدة كبيـرة، مما يجعلهـا ضعيفة وعرضة للضربات من جهة البحر، فقد اعتبر المذهب العسكري الإيطالي أن الهجوم هو النوع الأساسي للأعمال القتاليـة، في حين اعتبر أن الـدفاع هـو نوع مؤقت من الأعمال القتالية، واعتبر أن النصر لا يتحقق إلا بتضافر جهود جميـع أنواع القـوات المسلحة وصنوفها».

وبالنسبة لبريطانيا: **«لم يحدد المذهب العسكري البريطاني عملياً دور القوات البرية، واعتمدت النظريات العسكرية البريطانية بصورة رئيسة على قـوة الأسطول البحري البريـطاني وعظمتـه،** من أجل منـع العدو من الـوصول إلى المستعمـرات البريطانية أو إلى الوطن الأم ـ إنكلترا ـ. وهكذا لم يتم إعداد القوات البـرية لتنفيـذ الأعمال الهجومية، وألقيت مسؤولية تنفيذ المهام الرئيسة على عاتق الطيـران الذي اعتبر أنه الأداة، أو الواسطة الاستراتيجية، لخوض الحرب».

وهناك شواهد لا نهاية لها بعدئذ عن تطور المذاهب العسكرية فيما بعد الحرب العالمية الثانية، ويمكن التوقف عند واحد منها، نص على ما يلي:

«تشكلت المذاهب العسكرية والنظريات الاستراتيجية للأمبريالية بعد الحرب العالمية الثانية، بناء على الموقف الدولي، والتبدُّلات في نسبة القوى بين الأمبريالية والاشتراكية، وظهور وسائط جـديدة للصـراع المسلح. ويميز في تـطور المذهب العسكـري الأمريكي ثـلاث مـراحـل: الأولى: وتمتـد حتى أواخـر الخمسينـات. والثانية: حتى أواخر الستينات. والثالثة: ما بعد أوائـل السبعينات حتى اليـوم...

وعلى الرغم من وجود اختلاف ظاهري للنظريات الاستراتيجية فيما بعد الحرب العالمية الثانية، فقد بقي جوهرها ثابتاً ولم يتعرض للتبديل، واعتمدت جميعها على القوة النووية»(١).

تظهر المقولات السابقة مجموعة من الحقائق المتعلقة باصطلاح (المذهب العسكري) ومنها:

أولاً: يمكن استخدام مصطلحات (المذهب العسكري) أو (النظريات العسكرية) أو (النظريات الاستراتيجية) أو (النظريات السياسية ـ العسكرية) وذلك دونما تمييز واضح فيما بينها.

ثانياً: إن اصطلاح (المذهب العسكري) هو اصطلاح مرن، ومتغير، بحسب متغيرات الأقاليم والأزمنة، حيث تعمل كل دولة على إعطاء مذهبها العسكري المضمون المناسب لتطلعاتها وأهدافها، كما تعمل على تطويره تبعاً للتطورات السياسية (الدولية) و(المحلية) وتبعاً لتطور وسائط الصراع المسلح (التقليدية ـ النووية).

ثالثاً: تشترك المذاهب العسكرية جميعها بعوامل مشتركة، فهذه المذاهب، على اختلافها، هي التي تحدد (هدف الحرب) وهي التي تعيِّن (الخصم أو مجموعة الخصوم)، وهي التي تضع للقوات المسلحة واجباتها وطرائق عملها، وتضع لجماهير الشعب دورها في الحرب، وكذلك فهي التي تحدد نسب القوى بين صنوف الأسلحة، وذلك تبعاً لمجموعة العوامل التي تتداخل وتتشابك في صلب الحرب كالقدرة البشرية، والقوة الديموغرافية، وطبيعة البلاد جغرافياً وسياسياً (جيواستراتيجياً) والموارد الاقتصادية، ووسائط التسلح المتوافرة، أو التي يمكن اعتمادها، وربط ذلك كله بعقيدة الدولة (الدينية) أو نهجها السياسي الذي ترفعه إلى مستوى العقيدة الدينية (النازية؛ الفاشية؛ الاشتراكية؛ القومية الخ...).

إذن، فقد يكون من الجائز، أو من المسموح به، للكاتب العسكري، وللباحث

---

(١) تطور فن الحرب (الجنرال جيلين) ترجمة محمد حسن حافظ ـ مركز الدراسات العسكرية ـ دمشق ـ ١٩٨١. ص ١٢١ و١٤٣.

السياسي، وللمنظِّر الاستراتيجي، استخدام الألفاظ والمصطلحات الأكثر شيوعاً، أو الأوسع انتشاراً للتعبير عن أفكاره ونظرياته، لا سيما عند عدم توافر مصطلحات مقابلة في اللغة المستخدمة للكتابة والتعبير. كما أنه ليست هناك مفاهيم دقيقة ومحددة لمضمون (المذهب العسكري) والذي بات يتداخل بقوة مع مصطلح حديث آخر هو (السياسة الاستراتيجية) فما هي العلاقة بين الاصطلاحين - أو - التعبيرين؟

إن الإجابة تتطلب، قبل كل شيء، التوقف عند تعريف (الاستراتيجية) وهو تعريف بدوره غير محدد بدقة، وغير متفق على مضمونه، وهذا ما يبرزه مضمون النص التالي:

«الاستراتيجية؛ هي تطوير القوى الوطنية - ومنها القوة العسكرية - تطويراً منظماً، واستخدامها في السلم والحرب للمحافظة على سلامة الأهداف الوطنية، وتحقيقها على النطاق الدولي.

ولكلمة استراتيجية آلاف التعاريف، وهي تختلف باختلاف الزمان والمكان، وبحسب الاهتمام الذي يعطيه الباحث أو المؤلف أو الكاتب لهذه الفكرة أو تلك. وإلى جانب الاستخدام العلمي لكلمة استراتيجية، الذي تعكسه التعاريف المتباينة، فهناك استعمال أبسط، يكتفي بوصف طريقة العمل أو الأسلوب الذي يقتضيه استخدام الأسلحة النووية الحرارية. **أما الاستراتيجية العليا - أو الكبرى - فهي الفن والعلم المتعلقان باستخدام جميع موارد الأمة في سبيل تحقيق الأهداف التي حددتها السياسة الوطنية.** وقد وصف المارشال السوفييتي سوكولوفسكي الاستراتيجية العسكرية بأنها نهج من المعرفة النظرية، يعالج قوانين الحرب عندما يندلع نزاع مسلح، باهتمام يتناسب ودرجة هذا النزاع؛ وعلى أساس الخبرة الحربية؛ والشروط السياسية والعسكرية؛ والظروف المعنوية والاقتصادية، والوسائط الجديدة في خوض الحرب؛ ونظرات العدو المحتمل. وتدرس الاستراتيجية ظروف الحرب المقبلة وطبيعتها، وطرق الاستعداد لها ولخوضها؛ وفروع صنوف القوات المسلحة وأسس استخدامها واستعمالها استراتيجياً، شأنها في ذلك شأن الأسس المادية والتكنولوجية في الحرب.

أما المعجم العسكري للولايات المتحدة الأمريكية فقد عرَّف الاستراتيجية بأنها فن وعلم لاستخدام القوى السياسية والاقتصادية والنفسية ـ السيكولوجية ـ والعسكرية؛ وتطويرها حسب الحاجة؛ خلال السلم والحرب؛ لتقديم الدعم الأقصى للسياسات؛ بغية زيادة احتمالات النصر والعواقب الحسنة، وتقليل فرص الهزيمة، في حين عملت مؤسسة تحاليل الدفاع الأمريكية، على تعريف الاستراتيجية بما يلي: على الرغم من وجود تداخل لغوي بين كلمتي: سياسية واستراتيجية؛ فهناك ثمة تمييز بينهما ينبغي أن يظل ماثلاً في الأذهان؛ وهو أن السياسة في جوهرها نهج لعمل أو قرار؛ بينما الاستراتيجية (وأية استراتيجية خاصة أو معينة؛ وليست الاستراتيجية كعلم أو فن) إنما هي في جوهرها خطة. وبتعبير آخر؛ السياسة هي القاعدة المتحكمة في الأعمال والقرارات، بينما الاستراتيجية هي الخطة التي توجَّه حسبها وبموجبها الوسائط المختلفة، ومنها الأعمال القتالية لتحقيق الأهداف المتوخاة.

فالاستراتيجية إذن هي علم؛ أو فن؛ أو خطة؛ خاضعة لإعادة النظر، تتحكم بتسليح القوات العسكرية لدولة ما أو تحالف ما؛ وباستخدام هذه القوات؛ وتطويرها إلى الحد الذي تكون فيها مصالحها مصانة وآمنة من الأعداء الحقيقيين أو المحتملين أو المفترضين.

وقد عرَّف الجنرال أندريه بوفر الاستراتيجية بقوله: الاستراتيجية هي الفن الذي يتيح؛ وبصورة مستقلة عن أية تقنية، السيطرة على المسائل أو المعضلات التي يطرحها كل نزاع بحد ذاته، وذلك لكي تتاح أيضاً لباقي التقنيات جميعها فرص من أجل استخدامها حتى الحدود القصوى من فاعليتها. إنها إذن فن الحوار بين القوى، أو بالأحرى أيضاً وبتعبير أصح، فن الحوار بين الإرادات التي تستخدم القوة في حل نزاعاتها»[1].

فما هي النتيجة التي يمكن استخلاصها من عرض بعض تعاريف

---

(١) معجم المصطلحات الاستراتيجية ـ ترجمة العقيد الركن عمر الأبرش. المجلة العسكرية السورية ـ العدد العاشر ـ السنة الواحدة والعشرون ـ أيار ـ ١٩٧١ ص ١١١.

(الاستراتيجية) والتي لا تمثل في الواقع إلا نماذج محدودة جداً من التعاريف الكثيرة والشائعة؟

أولاً: إن الاستراتيجية ـ مثلها كمثل اصطلاح المذهب العسكري ـ لا تحمل مفهوماً محدداً، أو مضموناً معيناً، بحيث يمكن لأي باحث متخصص، أو كاتب خبير، وضع تعريف جديد، أو إضافة تعابير وتعليقات مستحدثة على ما سبق طرحه من مفاهيم وتعاريف وتعابير.

ثانياً: إن مضمون الاستراتيجية ـ مثله كمثل اصطلاح المذهب العسكري ـ يتغير بحسب الظروف المكانية والزمانية، حيث تستطيع كل دولة صياغة استراتيجيتها على أساس العوامل السياسية والاقتصادية والجغرافية والسكانية الخاصة بها. . .

ثالثاً: على الرغم من ذلك فهناك ثمة اتجاه للتمييز بين استراتيجية عليا، واستراتيجية عسكرية، بحيث يمكن وضع الاستراتيجية العليا؛ أو السياسة الاستراتيجية بمرتبة المذهب العسكري، في حين تدخل الاستراتيجية العسكرية في إطار فن الحرب، الذي يضم على ما هو معروف ثلاثة مستويات هي: الاستراتيجية وفن العمليات والتكتيك.

يمكن على ضوء ما تقدم التساؤل: هل في التعابير الإسلامية لفظ، أو مصطلح، يمكن للباحث العربي المسلم استخدامه بديلاً عن اصطلاح (المذهب العسكري)؟ وهل يتطابق مضمون (الجهاد في سبيل الله) أو (القتال في سبيل الله) مع مضمون (المذهب العسكري الإسلامي)؟ وإذا كان هناك ثمة تطابق أوتشابه؛ فما هي الحاجة لاستخدام المصطلحات المستوردة، هذا مع العلم أن هذه المستوردات لا تخضع للرسوم ولا للتعرفات الجمركية المفروضة على المستوردات بجميع أنواعها؟.

قد يكون من المناسب هنا التوقف عند ثلاثة اتجاهات في مجال الاقتباس والاستيراد في الألفاظ والمصطلحات، باتت معروفة تماماً وبات أصحابها معروفين أيضاً:

الاتجاه الأول: يعمل أصحابه بروح من الإيمان الصادق على استخدام بعض المصطلحات الحديثة بهدف تقديم المعرفة العسكرية الإسلامية بأسلوب سهل

المتناول، قريب المأخذ، تقبله الأسماع، وتتفتح لـه العقول، على أن لا يؤثـر هذا الاقتباس في جوهر المعرفة ولا في هدفها.

الاتجاه الثاني: يعمل أصحابـه بروح الـردة والرفض؛ وبتصميم وعنـاد؛ على تجاهل كل المصطلحـات والتعابيـر الإسلاميـة، بهدف طمس المعـرفة الإسـلامية وإسدال ستار عليها، وترجمتها ترجمة غير صادقة ولا أمينة. وينسجم أصحاب هذه المدرسة؛ وأنصارها؛ انسجاماً تاماً مع أنفسهم ومع أهدافهم؛ فهم عندما لا يتحدثون عن (الجهـاد في سبيل الله) فـإنهم يستخـدمـون مصـطلحـات (الكفـاح والصـراع والنضال)، وهذا الانسجـام في الواقـع هو الـذي يحدد الفـارق المميز بين مفهـوم (الجهاد الذي هو في سبيل الله) وبين المصطلحات الأخرى التي لم يرد ذكـرها في مفردات القرآن الكريم والتي تعني بدقة العمل لتحقيق أهداف وأغراض دنيـوية (لا دينية).

الاتجاه الثالث: ويسير بين الاتجاهين السـابقين، وأصحابـه خاضعـون لهيمنة الفكر الغريب (شرقي أو غربي) ولكنهم يجدون في فكرهم العربي ـ الإسلامي إرثاً ثميناً لا بد من الإفادة منه والتعلُّم من تجاربه. ويتميـز أسلوب هذا الاتجـاه بروحـه الإسلامية وبثوبه الغريب؛ كمثل حال الناس الذين جرفهم تيار الاستغراب، بالإضافة إلى فئة انتهازية توصف بالفئة الطفيلية على الفكر وهي موجودة في كل تيار فكري، وتسير مع كل تيار.

قد يكون التعرض لهذه الاتجاهات الفكـرية الثـلاث ضروريـاً؛ قبل التعـرض للتشابه أو التباين بين (المذهب العسكري) وبين (الجهاد في سبيل الله). وقد تبين أن المـذاهب العسكريـة جميعها ـ والنـظريات العسكـرية بمجملهـا ـ هي التي تحدد **(حتمية الحرب وضرورتها)** في حين فرض الله تعالى (الجهاد) و(القتال) في محكم التنزيل؛ فالإسلام هو دين الحياة الدنيا وسبيـل الحياة الأبقى ـ حيـاة الآخرة ـ وهـو الذي فرض (حتمية الحرب وضرورتها) في آيات كثيرة منها: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ واللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾[1] وقوله تعالى: ﴿**فَلْيُقَاتِلْ في سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ**

---

(١) سورة البقرة ـ الآية ٢١٦.

يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الْدُنيَا بالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيـلِ اللَّهِ فيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَـوْفَ نُؤْتِيه أَجراً عَظِيماً﴾[1] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ ٱلْمُؤْمِنينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بـأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّـةَ يُقَـاتِلُونَ فِي سَبِيـلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْـداً عَلَيـهِ حَقّـاً فِي ٱلتَّـورَاةِ وَٱلْإِنْجِيلِ وَٱلْقُرءآنِ؛ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؛ فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بـايَعْتُمْ بِهِ وَذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ ٱلْعَظِيم﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وٱعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[3]. فالقتال هو في سبيل الله، والمقاتل قد يُقْتل وقد يُغْلب، وهو مثوب في الحالات كلها من الله عـز وجل (بـأجر عـظيم) و(بالفـوز العظيم)، وليس على المؤمن المقاتل أن ينتظر ثواباً أعظم من وعد الله الذي لا يخلف وعده. فأي ثـواب يعدل ثواب الله؟ ثم إن القتال هو كره؛ والإنسان بطبيعته يكره القتل والقتال، ويميل إلى الدعة والأمن والسلام. ولكن وعد الله، والإيمـان بهذا الـوعد، قـد حبب إلى الإنسان ما يكرهه، ونفره وكرهه مما يحب. **فأي مذهب عسكـري ذاك الذي صـاغ (حتمية الحرب) و(فرض القتال) بمثـل ما جـاءت به العقيـدة الدينيـة الإسلاميـة؟** و(الجهـاد في سبيل الله) هـو القرين المقـابل (لفـريضة القتـال) وهـو الـذي يكمله ويوضحه ويؤكده؛ ففي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَـرجُونَ رَحْمَـةَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[4] وقـوله تعـالى: ﴿**إِنْفِرُوا خِفَـافَـاً وَثِقَـالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيـلِ ٱللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُـونَ**﴾[5] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وهاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءأوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[6] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّـذِينَ آمَنُـوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجَـارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَـذَابٍ أَليم * تُؤْمِنُـون بِـاللَّهِ وَرَسُـولِـهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[7].

ويظهر من خلال الشواهد الكريمة سابقة الذكر أن هناك ثمة تطابق وتمـاثل في جملة (الجهاد في سبيل الله)، وجملة (القتال في سبيل الله) إلا أن مضمون الجهاد

(١) سورة النساء ـ الآية ٧٤.
(٢) سورة التوبة ـ الآية ١١١.
(٣) سورة البقرة ـ الآية ٢٤٤.
(٤) سورة البقرة ـ الآية ٢١٨.
(٥) سورة التوبة ـ الآية ٤١.
(٦) سورة الأنفال ـ الآية ٧٤.
(٧) سورة الصف ـ الآيتان ١٠ و ١١.

يبقى أكثر شمولاً ؛ وأكبر اتساعاً. وهذا هو يقيناً سبب إصرار مؤرخي العرب المسلمين ـ عبر التاريخ ـ على استخدام جملة (الجهاد في سبيل الله). وفي الحالتين ؛ لا يجوز الاقتصار على كلمة (القتال) أو (الجهاد) في تسجيل أحداث العرب المسلمين، وأحداث المسلمين عامة ؛ ولا بد من اقتران الكلمتين دائماً بالهدف وهو (في سبيل الله).

يمكن الآن العودة إلى مسألة المقارنة بين مضمون (المذهب العسكري الإسلامي) وبين مضمون (الجهاد في سبيل الله). فالجهاد في سبيل الله هو فرض من فرائض الله على عباده المسلمين المؤمنين ؛ لتحقيق أهداف حددها الله في محكم تنزيله ؛ وطبقها الرسول ﷺ حتى أصبحت سنَّة متبعة ؛ ثم سار عليها أمراء المسلمين عبر التاريخ ؛ وحتى الأزمنة الحديثة ؛ فعرفت الدنيا من خلالها ما عرف باسم (فضائل المسلمين)، في حين تتغير الأهداف في المذاهب العسكرية المختلفة ؛ تبعاً لتغير الأقطار، وتبدل الأمصار ؛ وتطور الأزمان.

فاستخدام جملة (الجهاد في سبيل الله) أو (القتال في سبيل الله) هو استخدام لا يحل محله استخدام مصطلح (المذهب العسكري الإسلامي) إلا تجاوزاً ؛ وفي هذا الاستخدام والتجاوز انتقاص من مضمون (الجهاد في سبيل الله)، وذلك على الرغم من التشابه الظاهري الكبير من حيث تحديد هدف الحرب ؛ ومن حيث (حتمية الحرب)، ومن حيث الإعداد للحرب وتنظيم القوات ؛ وحشد الإمكانات المادية والمعنوية. ويبقى تعبير (الجهاد في سبيل الله) أرفع وأسمى من أي مصطلح آخر من المصطلحات الوضعية والمميزة بالتغيير والتبديل.

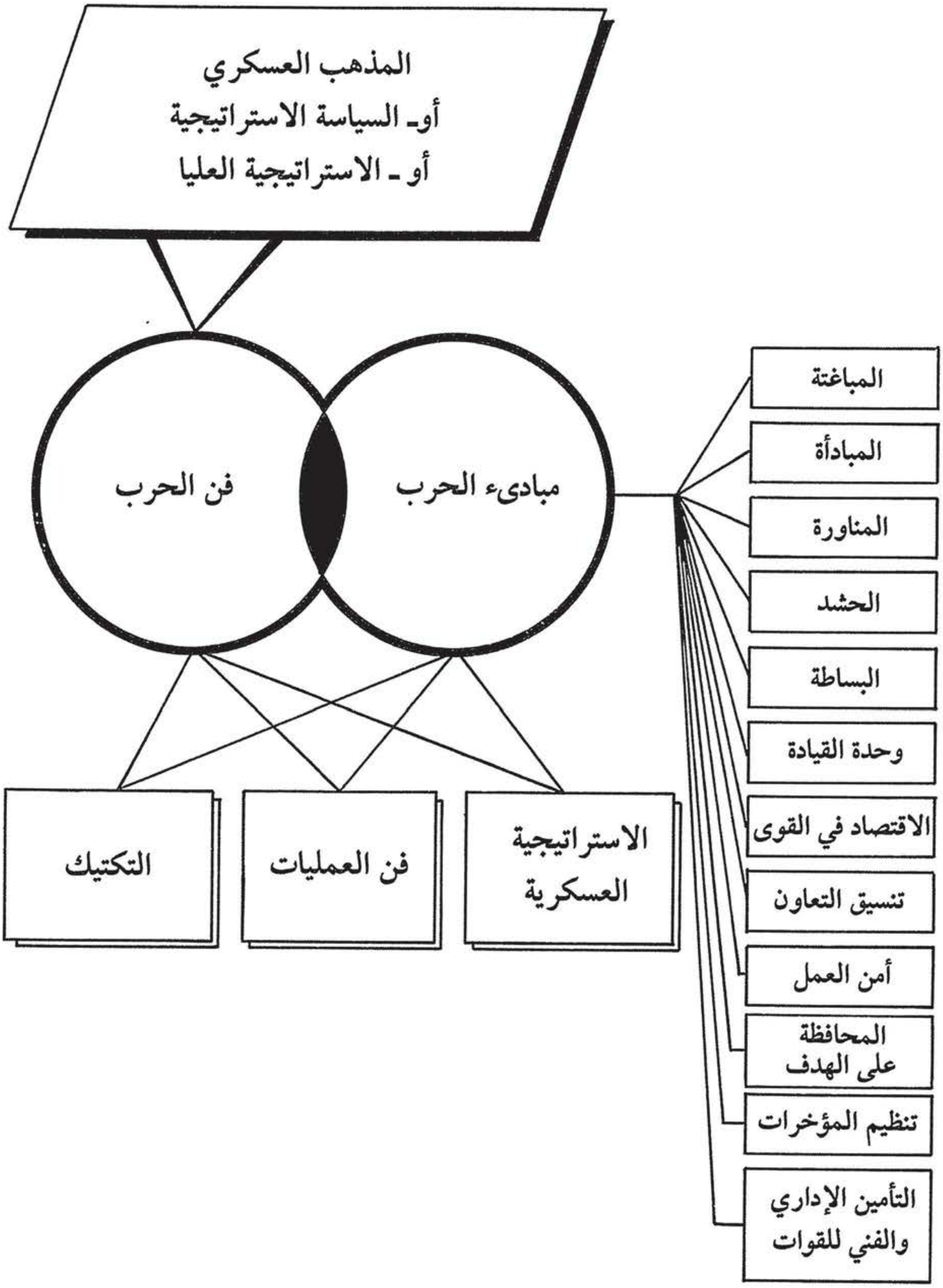
وعلى الرغم من هذه الحقيقة التي لا تقبل الجدل أو النقاش ؛ فهناك أسباب قد تسمح باستخدام اصطلاح (المذهب العسكري الإسلامي) في بحوث (فن الحرب الإسلامي)، وفي بحوث (التاريخ العسكري الإسلامي). ومن المعروف ؛ وكما سبق شرحه وإيضاحه ؛ فالمذهب العسكري هو المهيمن وهو الموجِّه لفن الحرب الذي تتفرع عنه المستويات الثلاث: الاستراتيجية العسكرية وفن العمليات والتكتيك. وهناك (مبادىء الحرب) التي تتداخل بفن الحرب وتمارس دورها في التأثير على مستوياته الثلاث ـ انظر المخطط المرفق ص ٢١ ـ وقد دخلت التسميات

والمصطلحات الحديثة في صلب فن الحرب (سواء في أسس الاستراتيجية أو في مبادىء الحرب) والتي لم تبدأ في الظهور إلا في القرن التاسع عشر؛ أو ربما قبل ذلك بقليل؛ لكنها لم تحتل مكانتها في الفكر العسكري، وفي الدراسات العسكرية إلا في الأزمنة الحديثة. **فهل يمكن تجاوز مصطلحات السياسات الاستراتيجية الحديثة؛ أو مفاهيم ومصطلحات مبادىء الحرب؟ وإذا ما أمكن الأخذ بالتسميات والمصطلحات المستجدة في مجالات فن الحرب كافة، فهل من ضرر أو من ضرار في استخدام اصطلاح المذهب العسكري أيضاً؟**. ألم تصبح هذه التسميات والمصطلحات هي المستخدمة في المدارس العسكرية على اختلاف مستوياتها، وفي كل أرجاء الوطن العربي؟ فهل يجب الأخذ ببعض ما يمكن الأخذ به؛ والتمسك بما يجب التمسك به من مصطلحات وتسميات؟ وهل يجوز ترك الأمر كله إن لم يكن بالمستطاع الأخذ به جميعه؟ تلك هي المسألة التي تجابه باحثي العرب المسلمين - من صدق النية منهم - في معالجة قضايا (فن الحرب) سواء في مجال (فن الحرب الإسلامي) أو حتى في مجال (الأبحاث المعاصرة). ويظهر بوضوح أن المسألة ليست في الانعزال عن التيار العالمي للفكر العسكري، ولا في الأخذ بكل ما تقدمه التيارات الفكرية الغربية من نظريات وأسس ومبادىء وإنما في الاختيار بما لا يتعارض مع فريضة (الجهاد في سبيل الله) وتراث (فن الحرب الإسلامي).

قد لا تكون هناك حاجة للقول إنه لا يجوز للمعارف التوقف عند الظواهر اللفظية، وإن اللغة ما كانت - في الإسلام بخاصة - إلا وسيلة المعرفة، والتي كانت القراءة أساساً لها، وإنه بالمستطاع دائماً اللجوء إلى المقارنة والاشتقاق والتشبيه؛ وتطوير علوم اللسان بمقتضى تطور الأزمان؛ ولولا ذلك ما أشرقت اللغة العربية ولا ازدهرت؛ ولا حافظت على وجودها عبر التاريخ.

فالمخلوقات تأتي إلى الوجود - في الحياة الدنيا - قبل أن تُعرف بأسمائها، كذلك تُحدد الأشياء بأوصافها وأشكالها ومميزاتها قبل أن تطلق عليها الأسماء المناسبة لها؛ وتظهر المبتَكرات والمكتشفات ثم تحدد لها التعاريف والمصطلحات المناسبة والتي تعرف بها.

وقد عاش (فن الحرب الإسلامي)، على امتداد أربعة عشر قرناً من عمر الزمن؛


المذهب العسكري
أو- السياسة الاستراتيجية
أو - الاستراتيجية العليا
فن الحرب
مبادىء الحرب
المباغتة
المبادأة
المناورة
الحشد
البساطة
وحدة القيادة
الاقتصاد في القوى
تنسيق التعاون
أمن العمل
المحافظة على الهدف
تنظيم المؤخرات
التأمين الإداري والفني للقوات
التكتيك
فن العمليات
الاستراتيجية العسكرية

وتطور بصورة مستمرة؛ وطبقت فيه مبادىء الحرب كافة، غير أن هذه المبـادىء لم تحمل الأسماء الحديثة؛ ومنها ما حمـل أسماء تـطابق في مضمونهـا وفي نظريـاتها وتطبيقاتها التسميات الحديثة؛ غير أنها تختلف في صياغتها؛ فكيف يمكن للباحث المعاصر تجاهل تسميات (مبادىء الحرب) الحديثة في حين تمتد جذور تجاربها إلى أعماق (فن الحرب الإسلامي)؟. ثم إن هذه المبادىء قد استخلصت واستنبطت من خلال دراسة تاريخ فن الحرب في العالم ـ وليس من خلال تجربـة محددة بـذاتها ـ فلماذا يسمح للباحث، في أي مكان من العالم، باستخدام التسميات الحديثة؛ فيما يحرم الباحث المسلم من استخدامها في مجال بحث التجربة الذاتية للمسلمين عبر تاريخهم الطويل؟ يمكن على سبيل المثال الأخذ (**باستراتيجية الحرب الوقائية**)(١) التي هي من استراتيجيات العصر النووي؛ وقد جاء في تعريفها ما يلي: «هي الحرب التي تشن لمنع العدو من جني مكاسب قد يستطيع الحصول عليها إذا ما أتيحت له فرصة البدء بشن الحرب، أو لمنع المكاسب التي يمكن له أن يحصل عليهـا بدون حرب إذا لم تتم معارضته قسراً، وإذا لم تتم مقاومته في الوقت المناسب. وبالتالي؛ فهي حرب تُشَنُّ بسبب الاعتقاد بأن النزاع المسلح لا بـدَّ منه؛ وإن لم يكن وشيـك الوقوع فيه، وأن تأخيرها سيجر أخطاراً كبيرة». ومن المعروف أن إسرائيل قد شنت عدوانها سنة ١٩٦٧ تحت اسم هذه (الحرب الوقائية) أو باسم (**الضربة الإجهاضية المسبقة**)(٢) والتي تضيف إلى التعريف السابق ما يلي: «إنها ضربة تعتمد على قيام العدو بسلسلة من التحضيرات والاستعدادات العدوانية التي لا تقبل التراجع؛ بحيث يكون الهجوم المعادي على وشك الوقوع، فيتم توجيه الضربة الإجهاضية المسبقة حتى لا يسمح للعدو بتدمير الإمكانات الانتقامية». فهل ضم (فن الحرب الإسلامي)

---

(١) الحرب الوقـائية ـ تـرجمة الاصـطلاح الإنكليزي: (WAR-PREVENTIVE) أو الاصـطلاح الفرنسي: (GUERRE-PREVENTIVE) ـ معجم المصطلحات الاستراتيجية ـ ترجمة العقيد الركن عمر أبـرش ـ المجلة العسكريـة السوريـة ـ العدد الثـاني، رجب ١٣٩١ هـ ـ أيلول ١٩٧١ ص ٨٦.

(٢) الضربة الإجهاضية المسبقة ـ ترجمـة اصطلاح إنكليـزي: (STRIKE - PREEMPTIVE) أو الاصـطلاح الإفـرنـسـي: (ATTAQUE PREEMPTIVE = RIPOSTE PAR - ANTICIPATION).

أعمالاً، ونماذج قتالية، تنطبق عليها هذه التسمية الحديثة؟ لقد كان العرب المسلمون يسبقون دائماً خصومهم وأعداءهم إلى ميادين القتال، وكان في ذاك السبق بعض أسباب نصرهم؛ وقد ضم تاريخ فن الحرب الإسلامي أمثولات لا نهاية لها عن إسراع جيوش المسلمين للتقدم ولنقل الحرب إلى بلاد العدو، بمجرد توافر المعلومات لدى قادة المسلمين وأمرائهم عن قيام العدو بحشد قواته؛ أو أنه (في سبيله للهجوم). وهل كان فتح مكة إلا نوعاً من الهجوم الإجهاضي المسبق، أو نوعاً من الهجوم الوقائي؟ ثم هل كان هجوم الرشيد على هرقلة (سنة ١٩٠ هـ ـ ٨٠٥ م) إلا (حرباً وقائية، أو ضربة إجهاضية مسبقة)؟ كذلك كانت معركة (ملازكرد سنة ٤٦٤ هـ ـ ١٠٧١ م) إذ لم يكد السلطان السلجوقي ألب أرسلان يعلم بتجمع الروم ـ البيزنطيين ـ لحرب المسلمين؛ حتى سبقهم إلى ملازكرد؛ وحاربهم وانتصر عليهم. كذلك لم تكن معركة الزلاقة ـ الشهيرة ـ في الأندلس (سنة ٤٧٩ هـ ـ ١٠٨٦ م) إلا لإحباط استعدادات الفرنج الذين تهددوا المعتمد بن عباد في قرطبة؛ فكان الرد عليهم بهجوم مسبق، والأمثلة أكثر من أن يحيط بها حصر.

يمكن كذلك الأخذ باصطلاح (**استراتيجية الردع**)[1] التي برزت بخاصة في العصر النووي؛ والتي ورد في تعريفها ما يلي: «الردع هو مجموعة التدابير التي تعدها وتتخذها دولة واحدة؛ أو مجموعة من الدول؛ بغية عدم تشجيع الأعمال العدائية التي يمكن أن تشنها دولة معادية أو مجموعة من الدولة المعادية؛ وذلك عن طريق بث الذعر في الطرف الآخر؛ إلى حد يصبح فيه هذا الذعر غير محتمل بالنسبة لهذا الطرف الآخر. وقد يكون الردع هو أفضل وسيلة لتقييد حرية خصمنا العسكرية، بالدرجة الأولى، ولكن ليس بالضرورة، وذلك عن طريق تهديده بعواقب يراها العدو غير مقبولة؛ ولا محتملة». فهل هذا الردع سوى وصف دقيق تماماً لما عرف في فن الحرب الإسلامي باسم (الصوائف والشواتي)، والتي اشتهر بتنظيمها وتَنفيذها ـ بخاصة ـ أمراء بني أمية في الشام والأندلس، وجعلوا منها غزوات دورية ومنتظمة بهدف (إشغال الروم والفرنج بأنفسهم وحرمانهم من فرصة الكيد للمسلمين وغزو بلادهم). ولم تكن (حرب الثغور) التي اشتهر بها الحمدانيون ضد الروم في شمال

---

(١) الردع ـ الترجمة للكلمة الإنكليزية: (DETERRENCE) وبالإفرنسية: (DISSUASION).

بلاد الشام؛ إلا تطبيقاً واضحاً لاستراتيجية الردع التي تشابكت في الوقت ذاته باستراتيجية الحرب الوقائية. فهل يمكن استخدام مصطلح (الردع) في فن الحرب الإسلامي؛ رغم أن هذا الاصطلاح لم يكن معروفاً في القديم؟ ألم تكن تجارب العرب المسلمين في هذا المضمار بمثابة المنجم الثرِّ لمجموعة من الخبرات والتجارب القتالية، والتي تحتفظ حتى اليوم بقيمتها وأهميتها؛ بحيث لا يجوز إهمالها أو تجاوزها والإعراض عنها؟ ألم تتشكل هذه المنجزات الرائعة والأعمال الخالدة قبل ظهور أوصافها وتسمياتها وتعاريفها بزمن طويل؟.

يمكن الانتقال بعدئذ إلى مجال (مبادىء الحرب) حيث تظهر هناك مجموعة من المبادىء المعترف بها على المستوى العالمي ـ رغم التباين في طريقة تصنيفها؛ والاختلاف في تقويم أهميتها ـ ومنها: **المباغتة؛ والمبادأة، والمناورة؛ والحشد؛ والبساطة؛ ووحدة القيادة؛ والاقتصاد في القوى؛ وتنسيق التعاون؛ وأمن العمل؛ والمحافظة على الهدف؛ وتنظيم المؤخرات؛ والتأمين الإداري والفني**. ولقد كان لكل من هذه المبادىء جذوره التاريخية العميقة في (فن الحرب الإسلامي). فهل هناك من ضرر أو ضرار إذا ما تم استخدام هذه التسميات عند البحث في التجربة التاريخية لفن الحرب الإسلامي؟

ليست المسألة في جوهرها ـ يقيناً ـ هي مسألة الأخذ بالمصطلحات الحديثة أو الإعراض عن استخدامها؛ وإنما هي ـ من جديد ـ مسألة كيف يمكن استخدام هذه الرموز والمصطلحات والتعاريف مع المحافظة على الهدف، وهو الإفادة من محصلة التجربة التاريخية للأمة العربية الإسلامية في مجال (فن الحرب الإسلامي)، وإبراز الدروس المستخلصة في إطار متجدد؛ يتناسب مع القيمة العظيمة لتلك التجربة. ولا ريب أن استخدام مصطلحات مثل (الصراع والنضال والكفاح) في المواضع التي لا يجوز فيها إلا استخدام مصطلح واحد هو (الجهاد في سبيل الله) أو (القتال في سبيل الله) إنما هو استخدام منحرف، وما هو إلا ترجمة سيئة وخبيثة لتلك المنجزات الرائعة التي ما اكتسبت عظمتها إلا بفضل (الجهاد في سبيل الله). أما استخدام تعبير (الحرب التشتيتية) لوصف تحرك جيوش العرب المسلمين إلى بلاد الشام، أو تحركها في بلاد الفرس وفي الأندلس؛ فهو وصف دقيق يضع حروب الماضي ضمن إطار واقعي وواضح، من شأنه إبراز ملامح تلك الحروب.

وكذلك؛ فإن وصف الأعمال القتالية للعرب المسلمين في بلاد الشام والعراق، وفي مسارح العمليات الأخرى، بأنها مزيج من (أساليب الحرب النظامية والحرب الثورية) إنما هو إضفاء تسمية لأعمال قديمة لم تحدد بأسمائها إلا في أبحاث الأزمنة الحديثة، وهي بذلك ليست عملية (وضع ثياب برّاقة لتجميل عجوز هرمة). إذ أن هذه الألفاظ والمصطلحات ليست بالثياب البراقة، كما أن فن الحرب الإسلامي لم يصبح عجوزاً هرماً. وكيف يكون هرماً وهو يرسل بظلاله المتقدمة إلى آفاق المستقبل؟ وكيف يكون هرماً وهناك أمة تعمل رغم كل ما نزل بها من نكبات وهزائم على إعادة بناء مستقبلها بصورة مستقلة عن التيارات العالمية المهيمنة والتي أغرقت في لججها كثيراً من دول العالم العظمى؟

أصبحت كلمة (مسرح العمليات) من المصطلحات الشائعة كثيراً والمستخدمة على نطاق واسع في اللغة العسكرية، وهذه بدورها من المستوردات المترجمة، والتي تستخدم بديلاً عن (دار الحرب) و(ميادين القتال)، ومثلها كمثل كثير من المصطلحات والتعابير الغربية والشرقية والتي غزت معاقل كل لغات العالم - ومنها اللغة العربية - واقتحمت مجال الاستخدام العسكري؛ وقيل في ذلك - في جملة ما قيل - بأن السبب هو استيراد الأسلحة مع ما تبع ذلك من استيراد للتعابير والمصطلحات، في كل فروع فن الحرب. وقد يكون لمثل هذا الرأي نصيب من الصحة، ولكنه يحتاج للدقة. فلقد قدمت اللغة العربية تسميات كثيرة لكل أنواع الأسلحة والأعتدة القتالية؛ بل حتى لجزئيات وأقسام تلك الأسلحة والأعتدة. وتحتفظ اللغة العربية بقدرتها لتقديم أوصاف وتسميات تغطي كل الاحتياجات اللفظية؛ في كل مجالات فن الحرب الإسلامي، وقد أصبحت كلمات: الاشتباك والمعركة والتراشق المدفعي والتمهيد، والإغارة والكمين وخط الدفاع وقاعدة الهجوم والأنساق الأولى الخ. . . وسواها كثير، من الكلمات الشائعة في المدارس العسكرية وفي اللغة العسكرية الحديثة؛ ولبعضها جذور في تاريخ فن الحرب الإسلامي، ومنها ما هو من الحداثة. كما أن هناك كلمات ومصطلحات تستخدم في صيغتها الغربية رغم وجود نظائر عربية لها؛ مثل المناورة والمقابلة للحركة، والاستراتيجية - المقابلة للسوقية، والتكتيك المقابلة للتعبئة - أو التعبوي الخ. . وسيضطر الباحث والمؤرخ والكاتب لاستخدام كل هذا المزيج من الألفاظ وذلك

للتعبير عما يستجد من أفكار، ولشرح ما يستحدث من نظريات.

تبقى هناك ناحية لا بد من التعرض لها؛ فهناك قسم كبير من الشباب العرب الذين يكتسبون معارفهم العسكرية من خلال دراستهم في الكليات والمعاهد الأجنبية (الغربية منها والشرقية) فتتشكل لديهم مفاهيم عسكرية معينة ومضامين معينة لأي من المصطلحات والتعابير العسكرية. وإذن فقد يصبح لزاماً على الباحث في التاريخ العسكري الإسلامي، وفي فن الحرب الإسلامي، أن يقدم مادة البحث بأسلوب يوازي ما يتعلمه المتعلمون في الكليات والمعاهد الأجنبية؛ وبذلك تكون مادة البحث أكثر إشراقاً ووضوحاً أمام كل من يريد إغناء معرفته العسكرية الحديثة؛ بما هو متوافر من الخبرات والدروس في التجربة الذاتية لأمته؛ فتترسخ بذلك جذور الأصالة الذاتية وتتعمق.

خلاصة القول؛ هناك من المصطلحات والأسماء ما يجب استخدامه دونما نظائر أو بدائل؛ وهناك ما يجب إسقاطه وإهماله؛ وهناك ما يجب الأخذ به وتطويره؛ ويبقى الهدف الثابت في الحالات كلها ـ لمن يبتغي رضوان الله في عمله ـ هو تقديم المعرفة بصورة مقبولة؛ تحفظ لذاك الإرث الضخم قيمته وأهميته وروعته الواقعية، وتضمن له عدم الإساءة أو التشويه، وتبعده عن كل تحريف بإخراجه من إطارَيْه الزمني والمكاني، لإعطائه ترجمة حديثة ومنفصلة عن أصوله وعن مضامينه.

٢

هدف الحرب وغاية السلم

فرض الله عز وجل فريضة الجهاد في سبيله، وأمر العرب المسلمين بحمل كره القتال واحتماله في سبيله؛ وهو في غنى عن قوة العرب المسلمين؛ فهو القوي العزيز. ولكن بهذا التكليف لخير أمة أخرجت للناس؛ إنما كان لصلاح الدنيا؛ ولهداية الناس لما فيه خيرهم وصلاح أمرهم في الدارين. ولم يترك الله عز وجل فريضة الجهاد حرة من القيود؛ ولا محرومة من الضوابط الناظمة للفريضة والموجهة لها. فالحرب في الإسلام حتمية؛ والقتال من طبيعة الحياة على أرض الله؛ حتى ينتصر الحق على الباطل؛ وحتى تظهر الفضيلة على الرذيلة؛ وحتى يعلو الخير على الشر. فكان في قوله تعالى ـ عز من قائل ـ:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ * وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْكَافِرِينَ * فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّالِمِينَ﴾(١).

وقد لا تكون الآيات الكريمة هذه بحاجة للشرح أو الإيضاح والتفسير؛ فالقتال هو في سبيل الله؛ ولكن ليس عدواناً؛ وإنما هو ضد من يعاند في الكفر ويصمم على

---

(١) سورة البقرة ـ الآيات ١٩٠ ـ ١٩٣.

قتال جند الله، فإن هو فَعَلَ فالقتل هو العقاب العادل، وهو القصاص الحق؛ وإخراج المسلمين من ديارهم هو عدوان يفرض عليهم القتال حتى يتم لهم إخراج عدوهم من حيث أخرجهم؛ وهو ما أكده تعالى في أمثال موسى وقومه إذ قال:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى المَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبيٍ لَهُمُ ٱبْعَثْ لَنا مَلِكاً نُقَاتِلْ في سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَليلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بالظَّالِمينَ﴾[1].

والله عز وجل الذي فرض القتال؛ على عباده المسلمين المؤمنين؛ أراد لهم القوة سبيلاً للعزة ولحماية وجودهم والدفاع عنه بقوله تعالى:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِجَالِ وَٱلْنِساءِ وَٱلْوِلْدَانِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَالم أَهْلُهَا وَٱجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِياً وَٱجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾[2].

وحدد الله عز وجل موقف المسلمين من الذين يعتدون عليهم، ويخرجونهم من ديارهم بقوله:

«لا يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَم يُقَاتِلُوكُمْ في الدِّين وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُ الْمُقْسِطينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُم وظاهَروا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمونَ﴾[3].

فإخراج المسلم من دياره من موجبات القتال، إذ أنه لولا اعتناقه للإسلام ما تعرض للعدوان؛ وما تعرض للطرد من دياره، ولزاماً على المسلمين القتال ونصرة من نصر الله وقاتل في سبيله.

---

(١) سورة البقرة ـ الآية ٢٤٦.

(٢) سورة النساء ـ الآية ٧٥.

(٣) سورة الممتحنة ـ الآيتان ٨ و ٩.

إن فـرض القتال على المسلمين يتضمن رفض ولايـة من يظاهـر على إخـراج المسلمين من ديارهم. فالكفار بعضهم أولياء بعض؛ ولزاماً على المسلمين جميعاً الرد على هذا المستوى من العدوان؛ برد مماثل:

﴿. . . وَقَـاتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَـافَّةً كَمَـا يُقَـاتِلُونَكُمْ كَـافَّـةً وَٱعْلَمُـوا أَنَّ ٱللَّهَ مَـعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(١).

وورد في الآيات الكريمة السابقة ضرورة القتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، وهو ما أكده الله عز وجل مرة أخرى بقوله:

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَـةٌ وَيَكُونَ ٱلـدِينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنْتَهَـوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَـا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٢).

والقتال في الحالات كلها هو في سبيل الله؛ ولإعلاء كلمة الله، وهو كذلك مـا أكده تعالى بقوله:

﴿. . . فَأَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلسُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٣).

كذلك فقد أمر عز وجل بقتال فئة مسلمة انحرفت عن إجماع المسلمين؛ واعتبر ذلك إصلاحاً للمسلمين؛ وذلك في قوله تعالى:

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَـأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَـا فَإِنْ بَغَتْ إِحْـدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَى تَفيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَـا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْـوَةٌ فَأَصْلِحُـوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٤).

ويتبين من الشواهد سابقة الذكر أن حمل المسلمين للسلاح؛ والتوجه للقتال؛ إنما فرض لبناء المجتمع الإسلامي وللدفاع عنه وحمايته؛ وليس للعدوان ﴿إن الله لا

---

(١) سورة التوبة ـ الآية ٣٦.

(٢) سورة الأنفال ـ الآية ٣٩.

(٣) سورة التوبة ـ الآية ٤٠.

(٤) سورة الحجرات ـ الآيتان ٩ و ١٠.

يحب المعتدين﴾ و﴿فلا عدوان إلا على الظالمين﴾. ولا يقصد، بداهة، بالدفاع عن المسلمين وحمايتهم؛ الالتزام بسياسة استراتيجية دفاعية، وإنما يقصد، وبدقة، تجنب العدوان؛ ومحاولة رفع راية الإسلام ونشر الدعوة والوصول بها إلى غايتها وهي إقامة المجتمع الإسلامي الصالح والعادل والخير؛ ولكن أئمة الكفر لن يتخلوا عن دنياهم دونما مقاومة؛ وسيتظاهرون بالقبول أحياناً لخداع المسلمين؛ وسيكيدون لهم ليردوهم كفاراً إن استطاعوا؛ ثم إنهم لن يهملوا مسألة الاحتكام إلى السلاح إن هم وجدوا الفرصة أو لمسوا من المسلمين ضعفاً؛ فجاء القول الحق ليحسم المسألة:

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلْصَلَاةَ وآتَوُا ٱلْزَّكَاة فَإِخْوانُكُمْ فِي ٱلْدِينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾[1].

وهكذا فقد أقر الإسلام وجود جبهتين متقاتلتين: جبهة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة معاندة، وحتمية الحرب قائمة بينهما؛ ولا تزول إلا عندما ينتقل الكافرون إلى صف الإسلام والمسلمين، فتزول أسباب الحرب ويصبح من كانوا كافرين إخواناً للمسلمين، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم من فرائض والتزامات من صلاة وزكاة وصوم وحج والشهادتين قبل كل شيء، ثم الجهاد في سبيل الله.

ولقد أظهر الإسلام بوضوح الفارق المميز بين أهداف القتال على جبهتي الإسلام وأعداء الإسلام بقوله تعالى:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلْطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ ٱلْشَيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ ٱلْشَيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾[3].

---

(١) سورة التوبة ـ الآيتان ١١ و١٢.
(٢) سورة آل عمران ـ الآية ١٣.
(٣) سورة النساء ـ الآية ٧٦.

هكذا عين الإسلام العدو وحدده بدقة، كما حدد أسلوب التعامل معه في الحالات المختلفة، إن كان معاهداً أو ذمياً أو كافراً معانداً، أو مشركاً. وجاءت التطبيقات العملية؛ والممارسات الواقعية؛ في عهد رسول الله ﷺ؛ فأصبحت سنّة متبعة؛ وأوضحت للصحابة والتابعين نهج العمل دونما لبس أو غموض.

ولقد عاش رسول الله ﷺ حياة الجهاد في سبيل الله؛ **وكانت الفترة التي عاشها في المدينة المنورة عشر سنوات قاد فيها سبعاً وعشرين غزوة، ووجه خلالها خمساً وثلاثين بعثاً وسرية؛ فيكون المعدل الوسطي السنوي للأعمال القتالية في فترة ما بعد الهجرة هو سبعة أعمال قتالية تقريباً**. ورغم ذلك؛ فلم تكن الحرب في حد ذاتها هي الهدف؛ إنما كان ذاك الهدف هو نشر الدعوة الإسلامية؛ والتعريف بها، وحماية أهلها؛ وبناء المجتمع الإسلامي المتماسك والقوي.

واستوعب الصحابة رضوان الله عليهم خلاصة التجربة؛ فلم يكن غريباً أن يعبِّر خليفة رسول الله ﷺ ـ أبو بكر الصديق رضوان الله عليه ـ يوم وفاة الرسول وبداية خلافته عن هذه الحقيقة بقوله: «**لا يدع أحد منكم الجهاد في سبيل الله؛ فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل**»[1].

هكذا سار القرآن الكريم يفتح القلوب والعقول أمام المسلمين؛ وسارت سيوف المسلمين تحمي القرآن وتدافع عنه؛ وترد كيد الحاقدين والموتورين إلى نحورهم. وكان تعريف الناس بالقرآن؛ وتعليمهم علوم الدين؛ يحتاج للسلم والأمن؛ فكان واجب السيوف هو ضمان السلم والأمن حتى يستطيع فقهاء الدين التفرغ للتعليم والهداية، والعمل بما أنزله تعالى: **﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾**[2].

وفي كتاب رسول الله ﷺ إلى عمرو بن حزَم حين وجهه إلى اليمن بيان في ذلك كله؛ حيث ورد في تلك الوثيقة التاريخية ما يلي: «بسم الله الرحمن الرحيم... هذا بيان من الله ورسوله: **﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ ءَآمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾** عقد من محمد

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٢١٠.

(٢) سورة التوبة ـ الآية ١٢٢.

(٣) سورة المائدة ـ الآية ١.

النبي لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن؛ أمره بتقوى الله في أمره كله؛ فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. وأمره أن يأخذ بالحق كما أمر به الله، وأن يبشر الناس بالخير ويأمرهم به، **ويعلم الناس القرآن ويفقههم في الدين**؛ وينهى الناس فلا يمس أحد القرآن إلا وهو طاهر. ويخبر الناس بالذي لهم؛ وبالذي عليهم؛ ويلين للناس في الحق؛ ويشتد عليهم في الظلم... **ويستألف الناس حتى يتفقهوا في الدين**. ويعلم الناس معالم الحج وسنته وفريضته... وينهى إذا كان بين الناس هيج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر؛ **وليكن دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له؛ فمن لم يدع إلى الله؛ ودعا إلى القبائل والعشائر فليقطعوا بالسيف حتى يكون دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له**. ويأمر الناس بإسباغ الوضوء؛ والصلاة لوقتها؛ ويأخذ من المغانم خمس الله وما كتب على المؤمنين في الصدقة... فإنها فريضة الله التي افترض الله عز وجل على المؤمنين في الصدقة... وأنه من أسلم من يهودي أو نصراني إسلاماً خالصاً من نفسه؛ ودان دين الإسلام؛ فإنه من المؤمنين، له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم. ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يفتن عنها. وعلى كل حالم؛ ذكر أو أنثى؛ حر أو عبد؛ دينار وافٍ أو عرضه ثياباً؛ فمن أدى ذلك؛ فإن له ذمة الله وذمة رسوله؛ ومن منع ذلك فإنه عدو لله ولرسوله وللمؤمنين جميعاً»(١).

كان العرب المسلمون يعملون جاهدين، منذ بداية ظهور أمرهم، على تحقيق هدفهم بكل وسيلة سلمية ممكنة؛ من ائتلاف للقلوب؛ ومن دعم للمعاهدين؛ لإقامة المجتمع العربي ـ الإسلامي؛ ولم يكن من هدف العرب المسلمين في الحرب إبادة الأعداء أو تدميرهم أو استنزافهم، وإنما كان هدفهم الوصول إلى غاية السلم، وضمان الأمن والاستقرار، لتسكين النفوس؛ وتعريفها بدين الله؛ وتركها لتمارس حياتها وذلك على نحو ما تحب وترغب؛ حتى إذا ما اختارت الإسلام أقبلت عليه برغبة صادقة لتسهم في إقامة بناء المجتمع العربي ـ الإسلامي.

وهكذا فعندما فتح الله (دمشق) للعرب المسلمين؛ دخلها خالد بن الوليد من الباب الشرقي حرباً؛ فأسرع أهل دمشق وفتحوا باب الجابية وسائر الأبواب، فدخلها أبو عبيدة بن الجراح وسائر القادة صلحاً «والتقى خالد والقواد في وسط دمشق ـ عند

---

(١) تاريخ الطبري ـ أحداث سنة ١١ هـ ـ ٣/١٢٨ ـ ١٢٩.

سوق النحاسين ـ هذا استعراضاً وانتهاباً؛ وهذا صلحاً وتسكيناً؛ فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح؛ فصار صلحاً»(١).

وقد كان من مصلحة العرب المسلمين لو أرادوا الأخذ بعرض الدنيا؛ أن ينهبوا دمشق أو يستبيحوها؛ على نحو ما كانت تفعله الجيوش في العالم القديم ـ وحتى في الأزمنة الحديثة ـ غير أنهم ما أرادوا إلا رضوان الله؛ ومرضاته، فصالحوا أهل دمشق؛ وما هي إلا سنوات قليلة حتى أصبحت دمشق عاصمة الدولة العربية ـ الإسلامية (الأموية) وارتفعت فيها مآذن بيوت الله التي يسبح لله فيها رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار.

وتلاحقت الكتب والرسائل تترى، إلى عاصمة العرب المسلمين ـ المدينة المنورة ـ وهي تحمل إلى أمير المؤمنين عمر رضوان الله عليه؛ وإلى المسلمين؛ بشائر ما كان يفتحه الله للعرب المسلمين من مدائن الشام والعراق؛ فكان أمير المؤمنين يرد على تلك الرسائل بوصاياه الحازمة؛ وأوامره البليغة؛ بالإحسان إلى أهل البلاد؛ وتجنب الظلم؛ والالتزام بالوفاء؛ ونشر العدل؛ وهل كان أولئك النفر من القادة بحاجة لمثل تلك الأوامر والزواجر وهم خيرة الصحابة وأفضل من عرفت الدنيا؟ إنها الأمانة؛ رفعها عمر من عنقه ووضعها في أعناق قادة الفتح؛ وألزمهم كلمة التقوى. وقد ضم الإرث التاريخي الإسلامي أمثولات قد تعجز كتب التاريخ في سائر ممالك الدنيا ودولها أن تجد مثيلاً لها في تحقيق التوازن بين (هدف الحرب)، الذي هو القضاء على كل مقاومة القوات المقاتلة، وبين (غاية السلم) التي هي إقامة مجتمع جديد له قيم مميزة؛ وتحكمه قوانين جديدة. ولم يكن هدف المحاربين هو الحصول على الغنائم على حساب إفقار البلاد وتجويعها، على نحو ما فعلته، وعلى نحو ما تفعله، كل دول العالم في العالم القديم وفي العالم الحديث في علاقاتها بعضها مع بعض (من نهب وسلب؛ لتزدهر تلك الدول على حساب إفقار سواها؛ ولتشبع على حساب جوع الشعوب الأخرى)، فقد كان ما ورد إلى بيت المسلمين ـ خمس الله ـ من فتح دمشق؛ ومن سواها؛ قدراً محدوداً؛ فوقف عمر يزف بشرى

---

(١) انظر فتح دمشق ـ تاريخ الطبري ـ والكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ١٣ هـ.

الفتح للمسلمين، وليقول لهم: «**إني حريص على ألا أدع حاجة إلا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض: فإذا عجز ذلك عنا؛ تآسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف**؛ ولوددت أنكم علمتم من نفسي مثل الذي وقع فيها لكم؛ ولست معلمكم إلا بالعمل؛ إني والله ما أنا بالملك فأستعبدكم؛ وأنما أنا عبد الله عرض علي الأمانة؛ فإن أبيتها ورردتها عليكم واتبعتكم حتى تشبعوا في بيوتكم وترووا سعدتُ؛ وإن أنا حملتها إلى بيتي شقيتُ؛ ففرحتُ قليلاً، وحزنتُ طويلاً»[1].

وعندما فتح الله للعرب المسلمين بلاد (الجزيرة) أراد (الوليد بن عقبة) أن يرغم عرب الجزيرة (بني تغلب) على الإسلام؛ فهم عرب؛ وهم أحق بمعرفة دين الله والإيمان به؛ وقد عز على (الوليد بن عقبة) أن ترفض أقوام من العرب الهداية؛ وأن تغمض عيونها عن نور الحق، فكتب إلى أمير المؤمنين عمر يستشيره في أمرهم، فرد عمر بقوله: «**إنما ذلك لجزيرة العرب ألا يسكنها دينان؛ وأن لا يقبل من العرب فيها إلا الإسلام؛ فدعهم؛ على ألا ينصروا وليداً؛ واقبل منهم إذا أسلموا**»[2]. فلا إكراه في الدين؛ وقد بعث الله محمداً هادياً لا جابياً؛ وتلك هي قواعد إقامة المجتمع العربي ـ الإسلامي؛ وتلك هي (غاية السلم) في بناء المجتمع الإسلامي؛ غير أن الظاهرة المثيرة هنا هي اهتمام الإسلام في توجيه جيل الأبناء الصغار نحو الإسلام، وعدم السماح لأهلهم بتنصيرهم؛ وترك الحرية لهم حتى يتعرفوا على دين الله؛ ويختاروا بعدئذ ما يريدون.

سارت الفتوحات العربية الإسلامية على هذا النهج الدقيق من التوازن المحكم بين (هدف الحرب) و(غاية السلم). وقد يكون من المحال على غير المسلم إدراك سرِّ تلك القوة الكابحة للانفعالات الغريزية والعواطف البدائية. إذ كيف يمتنع المجاهدون في سبيل الله عن قتل خصومهم أو سبيهمُ أو نهب ممتلكاتهم؛ وهم في نشوة النصر التي تحرر كل الانفعالات وتطلق كل العواطف البدائية؟ وكيف تتوارى غرائز الشر وتختفي لتحل محلها فضائل الرأفة بالمغلوب؛ والرحمة بالضعيف، وإعانة المحتاج؟.

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٥٨٤ (ذكر أحوال أهل السواد).

(٢) الكامل في التاريخ ـ وتاريخ الطبري (فتح الجزيرة) أحداث سنة ١٧ هـ.

إنها كلمة التقوى التي ألزمت المجاهدين في سبيل الله بالارتفاع عن مستوى صغائر الدنيا ؛ فالنصر من عند الله ؛ والفتح من الله ؛ وما يعانيه المجاهد في سبيل الله من نصب أو مخمصة إنما هو في سبيل الله ، فهو يحتسب جهده وتعبه في سبيل الله ؛ ويتوجه بالشكر لله ؛ وهو في ذروة انتصاره ؛ على ما يسّر له من الفتح ؛ وعلى صدق وعده ؛ فلا يبقى في نفس المجاهد أثر من كبر أو من غرور ؛ وترتفع المبادىء السامية على الانفعالات البدائية ؛ وتسمو التعاليم السماوية على النوازع الغريزية ، ويتحقق التوازن بين هدف الحرب وغاية السلم ؛ فالنصر في الحرب ليس الغاية في حد ذاته ، وإنما هو الوسيلة لتغيير العلاقات الاجتماعية ، ولتبديل المفاهيم السائدة ، ولإقامة المجتمع العربي ـ الإسلامي على أسس جديدة .

وقد يكون من الصعب المتوقف عند حادث معين ؛ أو اختيار موقف محدد ؛ للبرهان على ذاك التوازن المحكم بين غاية السلم وهدف الحرب في مسيرة الفتوحات ؛ فالأحداث متشابهة ؛ والمواقف متماثلة ، إذ أنها تستند إلى مبادىء ثابتة وأسس راسخة ، فلا غرابة أن تكون حلول المشكلات التي جابهها قادة الفتوح حلولاً موحّدة ومتماثلة . غير أن هناك حادثة مميزة قد تكون فردة في شكلها ومضمونها . فقد فتح (قتيبة بن مسلم الباهلي) مدينة (سمرقند) بفضل الله وتأييده سنة ٩٣ هـ ـ ٧١١ م ، وشعر أهل سمرقند أنهم ظُلِموا ؛ وأن قتيبة قد غدر بهم ؛ فلما كانت أيام عمر بن عبد العزيز ؛ كتب أهل سمرقند إلى أمير المؤمنين عمر يشكون إليه ما نزل بهم من الظلم على أيدي قتيبة ؛ فكتب عمر رضوان الله عليه إلى عامله (سليمان ابن أبي السري) : «**إن أهل سمرقند قد شكوا إلي ظلماً أصابهم ؛ وتحاملاً من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم ؛ فإن أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم . فإن قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن يظهر ـ ينتصر ـ عليهم قتيبة**»[1] . وقضى القاضي بخروج المسلمين من سمرقند إلى معسكرهم ، ويعاودوا الحرب فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً عنوة . وقال أهل سمرقند : «**قد خالطنا هؤلاء القوم ؛ وأقمنا معهم ؛ وأمنونا وأمناهم . . ونرضى بما كان**» . وارتضى أهل سمرقند بالصلح الذي كانوا قد عقدوه مع العرب المسلمين ؛ وزال ما كان في

(١) انظر أحداث سنة ٩٣ وسنة ١٠١ (ذكر بعض سيرة عمر بن عبد العزيز) في تاريخ الطبري .

نفوسهم من مشاعر الظلم.

فهل ضمت كتب تاريخ الأمم والشعوب نموذجاً كمثل نموذج (سمرقند)[1] برهاناً على العلاقة بين المنتصر وبين المغلوب؟ وهل من غريب أن تبقى (سمرقند) قاعدة من قواعد الإسلام بعد أربعة عشر قرناً، رغم ما تعرضت له من غزو واحتلال؟.

لقد كان من أول نتائج هذا التوازن إقبال شعوب بكاملها على اعتناق الإسلام ديناً؛ ومنافسة العرب المسلمين في شرف حمل راية الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الإسلام وأهله، وقد ظهر ذلك واضحاً عندما واجه العرب المسلمون في بلاد الشام غزو الفرنج الصليبيين؛ فقد هبت كل الشعوب الإسلامية، من أكراد وأتراك؛ من أفارقة وآسيويين، من بربر وصقالبة، أمم من كل العروق والألوان؛ هبت جميعاً للدفاع عن بلاد الإسلام؛ ولنصرة إخوانهم المسلمين في بلاد الشام. وقاتل المسلمون كافة كما قاتلهم المشركون كافة؛ على أرض بلاد الشام؛ طوال مائتي سنة تقريباً؛ وحدثت خلال ذلك تطورات كثيرة؛ لم يعرفها المسلمون؛ وكان من أول هذه التطورات اعتماد الفرنج الصليبيين على عامل الحقد والكراهية؛ والتعبير عن هذا الحقد بالمذابح الرهيبة والوحشية والتي امتدت واتصلت مع امتداد خط سير الحملات الصليبية ما بين بلاد الأناضول وإنطاكية ونهاية بالقدس التي عاشت أحداث مذبحة ربما لم يعرف التاريخ لها مثيلاً ـ إلا فيما أجراه اليهود من مذابح في فلسطين خلال النصف القرن الثاني من القرن العشرين ـ وأما التطور الثاني: فهو الغدر؛ وعدم الالتزام بالعهود والمواثيق التي كان يقدمها الفرنج ذاتهم للمسلمين ثم يعودون عنها عند كل فرصة سانحة.

ولم يكن باستطاعة المسلمين في مواجهة هذه التطورات التراجع عن قيمهم وفضائلهم الحربية؛ لارتباط هذه القيم والفضائل بعقيدتهم الدينية، فلم يكن باستطاعتهم مقابلة المذابح بمذابح إجماعية مماثلة؛ ولا كان باستطاعتهم الغدر أو

---

(١) سمرقند ـ مدينة قديمة من مدن بلاد ما وراء النهر (سيحون وجيحون) سيرداريا، وأموداريا، وتقع حالياً في جمهورية أزبكستان التي عاصمتها طشقند ومن مدنها بخارى؛ وقد جعل تيمور الأعرج (تيمورلنك ١٣٣٦ ـ ١٤٠٥ م) من سمرقند عاصمة له، وزينها بالمساجد. وجمهورية أزبكستان اليوم هي إحدى جمهوريات الاتحاد السوفييتي.

الخيانة لمقابلة الفرنج بمثل ما كانوا يفعلون. كما أنه لم يكن باستطاعة المسلمين التساهل في أمر هدر دماء المسلمين؛ أو الانتصار لمن يصيبهم الغدر؛ فكان ردهم من موقع القوة والاقتدار عنيفاً وقاسياً في ميادين الحروب؛ وإنزال العقاب العادل بالمعتدين؛ وهكذا فعندما انتصر المسلمون في حطين اقتصر العقاب على أمير الكرك (رينالد شاتيون) الذي اشتهر بالغدر بالمسلمين. ولم يتجاوز أيضاً حدود قتل أسرى فرسان الطوائف الدينية (الاسبتارية ـ والداوية) نظراً لما عرف عنهم من الكيد للمسلمين والنكاية بهم وإيذائهم. وعندما فتح المسلمون القدس، لم ينفذوا مذبحة مقابلة للمذبحة التي نفذها الفرنج يوم دخلوها؛ وتركوا للفرنج حرية مغادرة المدينة.

فتح الله للمسلمين مدينة القسطنطينية، عاصمة الروم البيزنطيين، على أيدي السلطان العثماني محمد الفاتح (يوم ٢٠ جمادى الأول ٨٥٧ هـ ـ ٢٩ أيار/ مايو سنة ١٤٥٣ م) فكان بين هذا الفتح وبين فتح دمشق ثمانية قرون ونصف القرن، ورغم هذا التباعد الزمني فقد كان نهج الفتح واحداً؛ فقد اقتحم المسلمون أسوار المدينة فجراً؛ ودخلوا المدينة حرباً؛ وأعملوا فيها قتلاً وسلباً؛ ولكن السلطان محمد دخل المدينة ظهراً؛ فأصدر أمره بمنع كل اعتداء والتوقف عن السلب فوراً، فساد الأمن حالاً؛ ثم زار كنيسة أيا صوفيا، وأمر بأن يؤذن فيها بالصلاة إعلاناً بجعلها مسجداً جامعاً للمسلمين، كما أعلن أنه لا يعارض المسيحيين، وأطلق على المدينة اسم (إسلام بول ـ أو مدينة الإسلام).

ولقد كان فضل الله كبيراً على الأتراك العثمانيين؛ إذ فتح قلوبهم للإيمان؛ فرفعوا راية الجهاد في سبيل الله؛ وتصدوا لمجابهة الحملات الصليبية على أرض أوروبا؛ فمنعوا هذه الحملات من الوصول إلى ديار الإسلام في بلاد الشام.

وهنا؛ وعلى أرض أوروبا؛ تكررت قصة الفتوحات وتطورت، بمثل ما جرى عليه تطورها في أيام الفتح الأولى؛ وسار الأتراك العثمانيون على نهج أسلافهم من العرب المسلمين في إقامة التوازن بين (هدف الحرب) و(غاية السلم) فأصبحت اليونان وبلغاريا وبلاد الصرب وبلاد المجر والأفلاق والبغدان (رومانيا)، بالإضافة إلى جزر البحر الأبيض المتوسط؛ خاضعة لسيادة الدولة الإسلامية؛ وانقسم الناس ما بين مسلم ومعاهد، وأقبل الناس على دين الله أفواجاً، وقد زالت هيمنة الكنيسة من نفوسهم وضعف تأثيرها عليهم، فعرفوا فضائل الإسلام وأهله؛ ودانوا بدين الحق.

غير أن الصليبية الحاقدة لم تتعلم من تجاربها شيئاً؛ فتابعت تحريضها؛ لا سيما بعد أن نجحت في إخراج المسلمين من الأندلس (من غرناطة سنة ٨٩٧ هـ - ١٤٩١ م)(١) واضطرت الدولة العثمانية الإسلامية لخوض حروب متصلة؛ وكان انتصارها في كل حرب يحمل إليها السيادة على بلاد جديدة؛ مع ما يتبع ذلك من إقبال جموع من الناس على الإسلام. وهكذا ارتفعت المآذن في أرجاء أوروبا؛ بأعداد كبيرة؛ رغم شدة التحريض الصليبي وقوته؛ ووصل الفرنج الصليبيون إلى ما أرادوه سنة ١٨٢٧ م عندما دمروا الأسطول الإسلامي في نافاران (في ٨ رجب ١٢٤٢ هـ) وفصلوا اليونان عن الدولة العثمانية، ثم عندما فصلوا (رومانيا وبلاد الصرب وبلغاريا وسواها من دول أوروبا) بموجب معاهدة سنة ١٨٧٨ م عن الدولة العثمانية؛ وأخيراً عندما أجهزوا على الدولة العثمانية سنة ١٩٢٠ م. ولقد مضت هذه المعاهدة؛ وما سبقها من معاهدات تم فرضها بالقوة على الدولة العثمانية؛ على إخراج المسلمين من أوروبا، وتعرض المسلمون لشتى أنواع الظلم والاضطهاد كمثل ما يبرزه النص التالي: «. . . **أما ما تحمَّله المسلمون من أنواع الإيذاء والتعدي من قبل البلغاريين بمجرد سماعهم باقتراب الجيوش الروسية - سنة ١٨٧٧ - فمما يعجز القلم عن وصفه؛ ولذا هاجر أغلب المسلمين إلى الآستانة - فبلغ عددهم ١٥٠ ألفاً - هرباً مما كانوا ينتظرونه؛ ووقع فيه فريق منهم من النهب والقتل؛ وتركوا أملاكهم وأمتعتهم قاصدين ملجأ الخلافة الإسلامية حتى غصت شوارع الآستانة بهم. . . ومات كثير منهم؛ فكانوا يؤثرون الموت على العودة إلى بلادهم التي احتلها الروس وساد فيها المسيحيون؛ وكان ذلك منتهى أمل الروسيا التي كانت تود مهاجرة المسلمين عن جميع الولايات المصممة على منحها الاستقلال؛ وفصلها عن الدولة العثمانية**»(٢).

تتشابه ملامح هذه القصة؛ مع الملامح العامة لقصة مذابح الفرنج الصليبيين في

---

(١) كانت محاكم التفتيش الدينية قد نُظمت في أسبانيا لملاحقة المسلمين والقضاء عليهم منذ سنة ٨٨٥ هـ ١٤٨٠ م (في مدينة أشبيلية). أما استيلاء الأسبانيين على جميع بلاد المسلمين في الأندلس، فقد تم سنة ٩٢٢ هـ - ١٥١٦ م، وجرى إخراج معظم من بقي من المسلمين في الأندلس سنة ١٠٢٠ هـ - ١٦١١ م.

(٢) تاريخ الدولة العلية العثمانية - دار النفائس - بيروت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م ص ٦٣٩ - ٦٤٠.

بلاد الشام بداية من أنطاكية حتى القدس، أي أن ثمانمائة سنة تقريباً من الاقتتال المستمر والمتصل، لم يتعلم الفرنج شيئاً عن التوازن بين (هدف الحرب) و(غاية السلم)، ولم يفد الفرنج شيئاً من احتكاكهم مع المسلمين في الأندلس؛ وبقيت أحقادهم وغرائزهم الحيوانية البدائية هي التي تقود سلوكهم وممارساتهم في ميادين الحروب؛ وأكدت ذلك حروب الاستعمار الأوروبي في الجزائر وليبيا والسودان وبلاد الشام وفلسطين - بخاصة - حيث عاود عساكر الغرب ممارسة الأساليب التي استخدمها قدامى الصليبيين؛ وهو أيضاً ما تمارسه عساكر اليهود - الصهاينة - في فلسطين منذ سنة ١٩٤٨، وقبل ذلك أيضاً؛ حيث اعتبرت ممارسات اليهود بأنها استطالة من استطالات حملات الغرب الصليبي. فلماذا عجز الغرب الصليبي عن تعلم أبسط أسس الحرب ومبادئها وهي التوازن بين متطلبات الحرب وشروط بناء السلم؟.

لقد اعترف فلاسفة الغرب، وكتّابهم العسكريين بداية من كلاوزفيتز وجوميني ونهاية بفوللر وليدل هارت، علاوة على المحدثين منهم في أرجاء العالم؛ وعلاوة على المؤرخين والباحثين الاستراتيجيين والاجتماعيين والاقتصاديين؛ بحقيقة **أن الحرب ليست هدفاً في حد ذاتها؛ وإنما هي وسيلة لتحقيق ما عجزت السياسة عن تحقيقه، فالسلم هو هدف الحرب وهو غايتها؛ ويجب أن تبقى غاية الوصول إلى السلم ماثلة أبداً أمام أنظار موجهي الحرب وقادتها بحيث لا يتجاوز العنف حدوده؛ وبحيث تنتهي الحرب بصلح مشرف ومقبول يسمح بإقامة علاقات سياسية واجتماعية جديدة**. فلماذا يفشل قادة الغرب ورجال حربها دائماً في بلوغ (غاية السلم)؟.

المسألة ليست مسألة تعلم؛ وإنما هي مسألة (الإيمان) و(القناعة) بفضائل وأسس ومبادىء؛ مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمسألة الحياة الأساسية؛ مسألة السلم والحرب. ولقد زعم باحثون أن ما عاشته أوروبا الغربية منذ القرن الثالث عشر من فضائل (الفروسية) إنما يعود لما تعلمه فرسان الغرب من المسلمين؛ مثل إيثار روح الجماعة (عبر شعار الفرسان: الواحد للجميع والجميع للواحد)، ومن مجابهة للشر والتآمر؛ ومن دعم للخير؛ ومن إقدام وبسالة الخ. . . ومع الاعتراف بأن هذه كلها وسواها ليست أكثر من ظواهر عامة، فلماذا لم يحافظ عليها الغرب؟ ولماذا لم يطبقها في حياته العامة والخاصة؟.

لقد ذهل الغرب عندما وجد أن بذور كل حرب من حروبه إنما تكمن في رماد الحرب التي سبقتها. فبذور الحرب العالمية الأولى قد نثرت في رماد الحرب الألمانية الفرنسية (١٨٧٠). وبذور الحرب العالمية الثانية قد كمنت في رماد الحرب العالمية الأولى. وكانت غرائز الحقد البدائي هي التي تحكمت في صياغة معاهدات السلم التي أعقبت كل حرب. وقد كانت نصوص هذه المعاهدات وبنودها جائرة ظالمة؛ تتنافى مع شروط إقامة السلم المستقر والعادل؛ مما أفسح المجال لمشاعر الحقد والكراهية والرغبة في الثأر والانتقام للنمو، فعادت الحروب للانطلاق من النقطة التي انتهت إليها الحروب السابقة لها؛ وغابت (غاية السلم) وأصبحت الحرب وتحقيق النصر فيها غاية في حد ذاتها؛ وليست مجرد وسيلة لإقامة مجتمع السلم.

كذلك كان الأمر بالنسبة للحروب الاستعمارية؛ فقد أخضع الاستعماريون الغربيون كل أرجاء العالم الإسلامي (ومن بينها أقطار العالم العربي ـ الإسلامي). وأذهلتهم تلك الرابطة القوية التي تربط المسلمين بعضهم ببعض؛ فعملوا كل ما بوسعهم لتدمير تلك الروابط وإقامة روابط جديدة، وركزوا جهدهم على تدمير رابطة اللغة والدين. ومن المثير هنا؛ هو أن أساليب الدول الغربية، البريطانية والفرنسية والإيطالية بخاصة، كانت أساليب متماثلة ومتشابهة رغم عدم وجود تنسيق ظاهري بين هذه الدول تجاه أقطار العالم الإسلامي، وقد كان ذلك تأكيداً على وحدة المنطلقات الغربية وعلى مفاهيمها الواحدة والموحَّدة من مسألة الحرب والسلام؛ ولهذا لم يكن غريباً ولا مباغتاً أن تنهار تلك الروابط التي حاول الغربيون إقامتها بالقهر القوة والبطش، فحاولوا استبدال تلك الروابط بروابط جديدة تقوم على المصلحة عبر تنظيمات جديدة (رابطة اللغة بما يعرف باسم الأنكلوساكون؛ والفرانكوفون) أو عبر تنظيمات اقتصادية (الكومنولث). ولقد حققت هذه التنظيمات والجهود المبذولة بعض النجاحات؛ غير أنها بقيت بعيدة عن بلوغ (غاية السلم).

وقد يكون من المثير ملاحظة أن هذا التطوير في المفاهيم الغربية تجاه مسألتي الحرب والسلام؛ قد جاء ضمن إطار التغيير الشامل في المفاهيم التي طرحتها المنافسة بين الدولتين العظميين: الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي؛ فيما بعد الحرب العالمية الثانية؛ حيث اعتمدت الدولتان مفاهيم متشابهة في

تعاملهما مع دول العالم؛ حيث عملت كل من الدولتين على دعم ومساعدة الدول التي خرجت من الحرب مستنزفة، وأصبحت تابعة لإحدى الدولتين (كتلة دول أوروبا الغربية؛ وكتلة دول أوروبا الشرقية).

أما بالنسبة لهدف الحرب؛ فقد حدده الاتحاد السوفييتي بالأسس التالية:

١ ـ الدفاع عن الاشتراكية وحماية الوطن الاشتراكي.

٢ ـ ضمان الدفاع عن الدول الحليفة أو المرتبطة بمعاهدات مع الاتحاد السوفييت.

٣ ـ تأمين مصالح الاتحاد السوفييتي في العالم.

ويقابل ذلك بالنسبة للولايات المتحدة:

١ ـ الدفاع عن النظام الحرّ في العالم (الموصوف بالأمبريالي؛ والرأسمالي).

٢ ـ الدفاع عن الحلفاء وعن الدول المرتبطة بمعاهدات مع الولايات المتحدة.

٣ ـ ضمان مصالح الولايات المتحدة وحلفائها في العالم.

ويظهر بوضوح أن الدفاع عن عقيدة الدولة في النظامين الاشتراكي والرأسمالي قد ارتفع إلى مرتبة الدفاع عن الدين في العقيدة الإسلامية، كما أن الدفاع عن الدول الحليفة والمعاهدة يتطابق تماماً مع العقيدة الإسلامية التي ضمنت الدفاع عن المعاهدين وأهل الذمة.

ولما لم تكن الدولة الإسلامية تضع العلاقات المادية من أهداف حربها؛ في حين ارتفعت العلاقات المادية في الأزمنة الحديثة إلى المرتبة الأولى؛ فإنها دخلت في أهداف الحرب. ويبقى هناك بالمقابل هدف من أهداف الحرب في الإسلام؛ ولم يرد له ذكر في أهداف حرب الدولتين العظميين وهو: «الدفاع عمن أخرجوا من ديارهم» و«وجوب قتال المعتدين» ذلك لأن كلًّا من الدولتين قد ضمنتا مثل هذا الأمر في إطار (الدفاع عن المصالح)، فيكون قتال المعتدي الذي يحاول إخراج السكان من ديارهم هو الهدف الأول من أهداف الحرب. وقد لا تكون هناك حاجة للقول إن الدفاع عن الوطن والقتال ضد من ينتهك حرمات الممتلكات والمنازل قد أصبح من

الحقوق الشرعية لأي مواطن في أية بقعة من بقاع الدنيـا (ويشكل الإنسـان العربي المسلم في فلسطين حالة استثنائية وظاهرة غريبة وشاذة في العالم المعاصر). وعلى كل حال؛ فالسؤال هنا هو: ما دام هناك ثمة تشابه يصل إلى حد التطابق بين (هدف الحـرب) في العقيدة الإسـلامية وبين (هـدف الحـرب) في أيـديـولـوجيـات الدول العظمى؛ فلماذا تجـاهر الـدول العظمى بـأهدافهـا، في حين لا يستطيـع الإنسان المسلم حتى التصريح بحقه في الدفاع عن دياره؟ لعل الإجابة تكمن في أنه لم يعد هناك ثمة حدود واضحة لتعـريف (ديار الإسـلام)، أو لعل السبب هـو غياب وجـود الدولة الإسلامية الواحدة؛ والتي يمكن لها أن تكون دولة عظمى عندما تضم، هذه الدولة الواحدة، كل الدول الإسلامية.

لقـد جاء الإسـلام؛ وحقق التوازن بين (هـدف الحرب) وبين (غـاية السلم)، وتعاقبت الأيام في دورة الزمن؛ ودول العالم في صعود وهبوط مع دورة الزمن؛ وهي تبحث جاهدة عن التوازن المفقود؛ وقد أمكن مؤخراً وضع نظريات ومبادىء تشابه ما جاء به الإسلام قبل أربعة عشر قرناً ونيف؛ وسيبقى هناك أبداً ثمة فارق كبيـر بين ما نزل من السماء لمصلحة أهل الدنيا، وبين ما وضعه أهل الدنيا لمصلحتهم. ويكفي أهل الإسلام فخراً على الدنيا أن ما حملوه لأهل هذه الدنيا؛ وما طبقوه، سيبقى من ثواب الدنيا ومن مرتكزاتها المستقرة، والدائمة، ما دامت السمٰوات والأرض.

٣

أشداء على الكفار رحماء بينهم

جعل الله من قبائل العرب المسلمين جسداً واحداً؛ فكلهم أخوة في الله؛ هدفهم واحد؛ وسبيلهم واحد؛ يتفاضلون بالتقوى وبالسبق إلى الجهاد في سبيل الله؛ بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خبيرٌ﴾(١).

وكان الرسول ﷺ الأسوة والقدوة في الرحمة بالمسلمين؛ والرفق بهم؛ بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْه ما عَنِتّم حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾(٢).

وكانت هذه الرحمة من رسول الله؛ والتراحم بين المسلمين؛ هي سبيلهم للتآخي والتآلف، وأكدته الآية الكريمة ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ في ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِين﴾(٣).

فالمسلمون بعضهم أولياء بعض، وهو ما أيده تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَآمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّه وَٱلَّذِينَ ءَآوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾(٤) وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَآمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ

---

(١) سورة الحجرات ـ الآية ١٣.
(٢) سورة التوبة ـ الآية ١٢٨.
(٣) سورة آل عمران ـ الآية ١٥٩.
(٤) سورة الأنفال ـ الآية ٧٢.

ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾(١).

مقابل هذه الرحمة بالمسلمين؛ ومقابل التراحم فيما بينهم؛ فرض الله على عباده المسلمين معاملة الكافرين بالشدة والعنف بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَآمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ أَشِداءُ عَلَى ٱلْكُفارِ رُحَماءُ بَيْنَهُم تَرَاهُمْ رُكعاً سُجَداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَاناً﴾(٣).

وكما كانت محبة المسلمين بعضهم لبعض، وأخوتهم هي محبة لله وأخوة في حب الله، فقد كانت كراهيتهم للكافرين هي كراهية ابتغاء رضوان الله. ولهذا فقد حذر الله المسلمين من قبول ولاية الكافرين؛ وأظهر السبب في ذلك بقوله: ﴿يَا أَيُّها ٱلَّذِين ءَآمَنُوا لَا تَتَخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلياءَ تُلْقُوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ ٱلْحَقِ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا باللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلي وَٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِٱلْمَودة وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ ٱلسَّبِيلِ * إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِٱلْسوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾(٤).

كذلك حذر الله عز وجل عباده المسلمين من اتخاذ بطانة من دون المسلمين بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها ٱلَّذِين ءَآمَنُوا لَا تَتَخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّم قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِم وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَر قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيات إِنْ كُنْتُم تَعْقِلُون * هَا أنتم أُوْلاء تُحبُّونَهُمْ وَلَا يُحبُّونَكُم وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَاب كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَآمَنَّا وَإِذَا خَلَوا عَضُّوْا عَلَيْكُمُ ٱلأَنَامِلَ مِنْ ٱلْغيظِ قُلْ مُوتوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلْصُدُورِ﴾(٥).

ذاك هو الدستور الخالد؛ والقانون الثابت؛ الذي حدّد العلاقة بين مجتمعي الإيمان والكفر؛ مجتمعي الإسلام وأعداء الإسلام؛ سلم بين المسلمين وحرب على

---

(١) سورة الأنفال ـ الآية ٧٤.
(٢) سورة التوبة ـ الآية١٢٣.
(٣) سورة الفتح ـ الآية ٢٩.
(٤) سورة الممتحنة ـ الآيتان ١ و ٢.
(٥) سورة آل عمران ـ الآيتان ١١٨ و ١١٩.

أعـداء المسلمين؛ رحمة وتـراحم بين المؤمنين بكتاب الله؛ وبـراءة من الكـافـرين بكتـاب الله وإعـراض عنهم؛ لين ورفق بـالأخ المسلم؛ وشـدة وغلظة على عـدو المسلم. وليس ذلـك الحب إلا لله؛ وليست تلك الكـراهيـة إلا في الله. فلو آمن المشركون لأصبحوا إخواناً للمسلمين؛ لا فوارق بينهم لا في اللون ولا في الأصل، ولا في العرق أو في الأحساب والأنساب. ليس ذلك فحسب؛ بـل إن العداء ضـد أعداء الله هو عداء تحكمه مواقف أعداء الله وأعداء عباده المسلمين المؤمنين؛ فإذا ما جنـح هؤلاء الأعداء للسلم؛ وإذا مـا امتنعوا عن حمـل السـلاح لقتـال المسلمين؛ وعـاهدوا المسلمين على ذلـك؛ فليس للمسلمين عليهم من سلطان، ولهم حريـة ممارسة شعائرهم الـدينية؛ لا يَـظْلمون ولا يُـظْلَمون؛ ولكنهم إذا خـانوا أو غـدروا بالإسلام وأهله؛ فعليهم قبول نتائج عدوانهم وغدرهم. وهنا تظهر فضائل الإسـلام وأهله؛ فلا حقد، ولا كراهية متأصلة؛ فالقتل للمعاندين المحاربين الذين يحاولون إعاقة انتشار الإسلام وتعـريف الناس بـه؛ وعدم تجـاوز ذلك أو تحـويله إلى انتقام شامل؛ أو إرهاب عام على نحو ما حـاولت صياغتـه المذاهب الفلسفيـة في الأزمنة الحديثة. فقد ذكر الفيلسوف (هيربرت سبنسر) في مؤلفـه الأخلاق التـطورية[1] مـا يتعلق (**بقانون الصداقة**) و(**قانون العداء**) ما يلي: «من الممكن أن نؤكد أنه كان على القبائل المتوحشة دوماً وباستمرار؛ مثلها كمثل الجماعات المتحضرة؛ أن تتابع عملاً دفاعياً في الخارج؛ مقابل عمل تعاوني في الداخل؛ وذلك على الرغم من وجود عدد صغير من الاستثناءات الناجمة عن الظروف الخاصة. وتبعاً لذلك كان أعضاء هـذه القبـائل يحتـاجون إلى نـوعين من العواطف والأفكـار الخاصـة بهذين النـوعين من الأنشطة... فحياة العداء المستمرة في الخارج تولد قانـوناً أخـلاقياً يلقن ويـرسخ العدوان والغزو والانتقام، ويستنكر ويرفض الاهتمامـات السلمية. وعلى العكس؛ تولِّد حياة تسود فيها الصداقة الداخلية المستتبة قانوناً أخلاقياً يرسخ الفضائل الإنتاجية لتعاون منسق؛ وتلقن العدالة والأمانة والصدق واحترام حق الآخرين. ولما كان من

---

(١) هيربرت سبنسر: (SPENCER-HERBERT) فيلسوف إنكليزي (١٨٢٠ ـ ١٩٠٣) وهو واضع الفلسفـة التـطوريـة (PHILOSOPHIE-EVOLUTIONNAIRE) أو (THE PRINCIPLES OF ETHICS) وقد صدر مؤلفه سنة ١٨٩٣ ـ والنص مستخلص من الترجمة الفرنسية التي صدرت سنة ١٨٩٦ المجلد ٢ ـ ص ٣١ و ٣٨ ـ ٣٩.

الواجب أن يتعايش قانون الصداقة مع قانون العداء في الوقت ذاته؛ لأنهما ولدا ضمن إطار كل مجتمع من المجتمعات رداً على ضرورات داخلية أو خاريجة؛ فإن لقاءهما قد أفسح المجال لمجموعة مركبة من المشاعر والأفكار غير الثابتة. وبهذا الشكل توصلنا إلى معرفة مجموعتين من الواجبات والفضائل التي تستصوب أو ترفض تبعاً لأسلوب واحد. **ولكننا نربط الأولى (قانون الصادقة) بالمفاهيم الأخلاقية، في حين تبقى المجموعة الأخرى (قانون العداء) غريبة عن المفاهيم الأخلاقية**. وبناء على هذا؛ يتأثر الفرد بمجموعة مزدوجة من الدوافع؛ تلك التي تمده بها الطبيعة وهي دوافع وراثية تصبح غريزية، وتلك التي يكتسبها بتأثير وسطه الاجتماعي عليه. **فلكي تبقى القبيلة على قيد الحياة، ينبغي على الفرد الذي يشكل جزءاً منها أن يملك إرادة التضحية بنفسه في المعركة؛ ولكي تستطيع القبيلة المحافظة على تماسكها؛ يجب عليه أن يطيع محرمات القبيلة ونواهيها**».

وجاء فيلسوف آخر؛ فأضاف ما يلي: «تقوم العلاقات بين القبائل على الانعزال وعلى الشك والعداء، ولكن المصلحة المشتركة للأفراد في داخل القبيلة ذاتها؛ وهي مصلحة تتعارض مع مصالح القبائل الأخرى؛ ترغم الأفراد على الاتحاد فيما بينهم للمحافظة على وجودهم. وهكذا ينشأ تمييز بين قبيلة خاصة (الجماعة الداخلية) وبين القبائل الأخرى (الجماعة الخارجية). ونجد أن السلم والتعاون ضروريان بين أفراد الجماعة الداخلية، كما نجد أن مشاعرهم الفطرية الموروثة تجاه كل الأجانب هي مشاعر الحقد والعداء. وهاتان العلاقتان مرتبطتان بعضهما ببعض... إن مطالب الحرب التي ينبغي خوضها ضد الجماعة الخارجية هي بالتأكيد المطالب التي تضع السلم في الداخل، إذ أن الخلافات الداخلية من شأنها أن تضعفها أمام الجماعة الخارجية في الحرب. وتصطنع الحكومة القوانين أيضاً لدعم هذه المطالب في الجماعة الداخلية؛ بسبب الحاجة إلى منع المنازعات وفرض النظام في الداخل. وبهذا الشكل؛ أثر السلم والحرب كلاهما على الآخر؛ وطوّر كل منهما الآخر؛ أحدهما داخل الجماعة؛ والآخر في العلاقة بين الجماعات؛ وكلما زادت قوة الجيران؛ كلما زادت حدة النشاط الحربي؛ وكلما تعزز التنظيم الداخلي والانضباط لكل منهما. **وهكذا تتشكل إذن مجموعتان من الأخلاقيات، أخلاقية الجماعة الداخلية وأخلاقية الجماعة الخارجية، وتتشكل كل من**

المجموعتين على أساس المصالح المتماثلة. فيعتبر عند أفراد الجماعة الخارجية كل فرد يقتل وينهب ويمارس الانتقام ويختطف النساء والعبيد بأنه فرد جدير بالاحترام - بطل - فيما يعتبر هذا الفرد على عكس ذلك بالنسبة لأفراد المجموعة الداخلية؛ إذا ما قام بهذه الأعمال داخل القبيلة. . . »(١).

لقد عملت هذه المدرسة الفكرية الفلسفية على إخراج أحداث التاريخ من إطاريها الزماني والمكاني؛ وعملت على تفسيرها تفسيراً منحرفاً، ومحدداً، شأنها كشأن بقية المدارس الفكرية الحديثة؛ الاقتصادية منها والاجتماعية، والسياسية وحتى النفسانية. وقد اشتركت هذه المدارس في معظمها ببعض المفاهيم والنظريات؛ منها الاعتماد على عامل الحقد والكراهية باعتباره المحرض الأقوى للصراع؛ ومنها الاعتماد على التباين الاقتصادي سواء بين أفراد المجتمع الواحد؛ أو بين المجتمعات المتجاورة؛ لتفسير الهجرات الاجتماعية والحروب الخ. . . والمهم في الأمر هو أن هذه المدارس الفكرية بمجموعها قد وجدت لها انعكاسات قوية على صفحة التاريخ الإسلامي العام، وعلى التاريخ العسكري الإسلامي بخاصة؛ وذلك عن طريق المتطوعين من المستشرقين؛ أو عن طريق (عرب اللسان)(٢) الذين كان منهم من شارك أولئك المستشرقين أحقادهم ضد الإسلام وأهله، ومنهم من مارس دوره مرغماً بعد أن خضع لعمليات غسل الدماغ من أجل الوصول إلى مكسب دنيوي (مثل الحصول على شهادة علمية)، ومنهم حتى من انساق مع تيار التقليد الأعمى لكل ما هو مستورد من أفكار وآراء حملتها مدارس البيض (المتفوقين) و(الممتازين المميزين). وهكذا برزت تفسيرات منحرفة لفن الحرب الإسلامي، منها على سبيل المثال لا الحصر:

---

(١) إدارة الحرب - الجنرال ج. ف. س. فوللر (تعريب أكرم ديري) دار اليقظة العربية - بيروت - ١٩٧١ ص ٥١ - ٥٣.

(٢) عرب اللسان؛ هو اصطلاح كان أول من استخدمه نصارى الحيرة، فأطلقوه على أنفسهم في مفاوضاتهم مع (خالد بن الوليد) ليبرهنوا له أن الرابطة الوحيدة التي تربطهم بعرب الجزيرة هي أنه (لا لسان لهم إلا العربية)، وأنهم على غير استعداد للارتباط بإخوانهم المسلمين برباط الدين، وقبلوا دفع الجزية مقابل البقاء على النصرانية. وانظر تاريخ الطبري - أحداث سنة ١٢ هـ (٣/٣٦١ - ٣٦٢).

١ ـ نجح محمد ﷺ في جمع الضعفاء وتنظيمهم وتوجيه حقدهم ضد الأغنياء، وذلك ليمارس دوره القيادي؛ في قبيلته؛ معتمداً على توافر طبقة كبيرة من العبيد المحرومين.

٢ ـ نجح الخليفة أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، في القضاء على الردَّة؛ وفي تثبيت حكمه؛ عن طريق توجيه قوى المسلمين ضد العدو الخارجي (الفرس والروم البيزنطيين).

٣ ـ نجح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في تطوير عمليات الفتح؛ مستفيداً من قبائل العرب في العراق والشام (المناذرة والغساسنة) الحاقدة على الفرس والروم والتي كانت تتوق للتحرير. فالفتح هو (حرب تحرير) بمفهوم هؤلاء الدعاة.

٤ ـ إن الفتوحات التي قام بها العرب المسلمون لم تكن إلا تطويراً وإلا استمراراً لموجات الهجرات العربية التي قذفتها الجزيرة العربية من قلبها إلى الأطراف، والتي كان الفقر والحرمان حافزاً لها؛ كما كان يحفزها الطمع بالاستيلاء على الأراضي الخصبة في بلاد الشام والعراق؛ حيث المياه المتوافرة، وحيث العشب والكلأ والمراعي الكثيرة.

٥ ـ إن عملية تطوير الفتوح في المشرق والمغرب؛ لم تكن إلا عملية استعمار قام بها العرب المسلمون على غرار من سبقهم من الرومان والفرس وقبلهم اليونان، حيث توافرت للعرب المسلمين، بعد استقرار الفتح في الشام والعراق ومصر، قدرات بشرية مقاتلة ذات قوة كافية للانطلاق نحو آفاق جديدة، تدعم استقرار البلاد المفتوحة، وتوسع دوائر الدولة.

لقد أخذت هذه المدارس الفكرية في فرض هيمنتها على الفكر العربي ـ الإسلامي منذ مطلع القرن العشرين؛ وانحسرت ظاهرياً مع زوال شمس الاستعمار الغربي في نهاية الحرب العالمية الثانية. غير أن استطالات هذه المدارس بقيت كامنة رغم ما تعرضت له من الهزائم بسبب تطور الفكر العربي ـ الإسلامي، وبسبب انتشار الوعي بحقائق الفضائل الإسلامية، ومنها مضمون الآية الكريمة ﴿أَشِدّاءُ على الكفّار رحماءُ بينهُم﴾ إذ أن مضمون هذه الآية هو مضمون يختلف تماماً عن نظريات الفلاسفة في شأن الصراع وفي (قانون الصداقة) و(قانون العداء). وقد كان في جملة

الحقائق التي عرفها العرب المسلمون ـ بخاصة ـ ودحضوا بها افتراءات أعداء الإسلام والمسلمين ما يلي:

١ ـ لقد كان تراحم المسلمين فيما بينهم من خلال حبهم لله؛ ومن خلال تقدير بعضهم لبعض بما أنعم الله عليهم من نعمة الإسلام؛ وكانت شدتهم وغلظتهم ضد أعداء الله تنطلق من المنطلق ذاته، منطلق المحبة لدين الله ورسوله؛ ولهذا لم يكن (قانون العداء) موجهاً ضد قبيلة من القبائل؛ ولا ضد شعب من الشعوب (فأكرم القبائل والشعوب عند الله أتقاهم). فكانت المشاعر الموصوفة بالمتناقضة في المذاهب الفلسفية، هي مشاعر متكاملة وغير متناقضة عند المسلمين لانطلاقها من منطلق يرتفع عن الأحقاد، ويسمو على الكراهية، ومعروف أن أشد أعداء الرسول ﷺ، وأعداء دين الله؛ هم (قريش) ذاتها. كذلك، فإن مشاعر الحقد والكراهية تتغذى من خلال (المصلحة الشخصية، أو مصلحة الجماعة التي ينتسب إليها الفرد)، وقد عرف العرب المسلمون بتجردهم عن المصلحة الشخصية وابتعادهم عن المصلحة الدنيوية الضيقة؛ واستعدادهم الدائم للتضحية في سبيل الله؛ فتجاوزوا بذلك (قوانين الصداقة) و(قوانين العداء) التي هي من (**العصبيات الجاهلية**) التي دمرها الإسلام؛ وحاربها، وارتفع عنها. وأية قوانين تلك التي تنطبق على موقف رسول الله ﷺ يوم دخل مكة المكرمة فاتحاً ومنتصراً على من أخرجوه من دياره، وعلى من آذوه وكادوا له وللمسلمين بشر ما يكيده كافر لمسلم، حيث نطق بكلمته الخالدة: (**اذهبوا فأنتم الطلقاء**)؟. وكم من مرة نطق الرسول ﷺ (بالعفو) عمن أرادوا قتله؛ أو من آذوه في نفسه وفي أهله وفي أصحابه؟ ولماذا؟ لطالما ردد الرسول ﷺ كلمته الخالدة: (عسى أن يكون في أعقابهم من يكون فيه خير للإسلام وأهله) أو ما في معنى هذه الكلمة. فالرسول؛ وصحابته ـ الأشداء على الكفار الرحماء بينهم ـ لا يحملون الحقد ولا الكراهية؛ حتى لمن كاد لهم أو عاداهم، إلا بقدر ما يظهره هؤلاء الكافرون من العداء وإلا بقدر ما يلحقونه بالمسلمين من الأذى، ذلك أن الرسول ﷺ وصحابته والتابعين بإحسان، لا يبتغون إلّا رضوان الله؛ ولا يعملون إلّا من أجل إبلاغ رسالته، لا في ظروفهم الزمانية والمكانية الضيقة والمحدودة؛ وإنما في كل زمان ومكان، وما دامت السماوات والأرض.

٢ ـ لقد توافرت الشواهد التاريخية في أيدي العرب المسلمين بشأن سيرة

الفتح؛ وهم أفضل من في الدنيا ممن عرف تلك الشواهد وحفظها واستوعبها. فالعرب المسلمون عندما أطلقهم أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، لم يطلقهم للتخلص منهم عن طريق إشغالهم بالفتوحات، ولم يطلقهم بحكم العداء للروم والفرس؛ وإن كانوا جديرين بذاك العداء لجورهم وظلمهم؛ وإنما لنشر راية الإسلام؛ ولأداء الأمانة التي حمَّلها الله عز وجل لعباده من العرب المسلمين. ولقد شرع الرسول ﷺ هذا التوجه منذ أيام (معركة-أوغزوة-الخندق)، ثم دعمه بتوجيه بعث (أسامة بن زيد)، وهو البعث الذي وجهه الصديق غداة وفاة الرسول ﷺ. ولم يخرج المسلمون من جزيرتهم؛ لا للتحرير؛ ولا للمغانم، ولا لضيق في العيش، وقد ظهر ذلك في محادثات رستم مع زهرة بن الحوية، حيث قال رستم: «أنتم جيراننا؛ وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا ـ يقصد المناذرة وأضرابهم ـ فكنا نحن جوارهم؛ ونكف الأذى عنهم؛ ونوليهم المرافق الكثيرة؛ ونحفظهم في أهل باديتهم؛ فنرعيهم مراعينا؛ ونميرهم من بلادنا؛ ولا نمنعهم من التجارة في شيء من أرضنا.. وقد كان لهم في ذلك معاش. **ونحن نجعل لكم جعلاً على أن تنصرفوا عنا**» فرد عليه زهرة بقوله: «صدقت؛ قد كان ما تذكر؛ وليس أمرنا أمر أولئك ولا طلبتنا؛ **إنا لم نأتكم لطلب الدنيا؛ إنما طلبتنا وهمتنا الآخرة**. كنا كما ذكرت: يدين لكم من ورد عليكم منا؛ ويضرع إليكم بطلب ما في أيديكم، ثم بعث الله تبارك وتعالى إلينا رسولاً، فدعانا إلى ربه، فأجبناه. فقال لنبيه ﷺ: إني قد سلطت هذه الطائفة على من يدين بديني، فأنا منتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرِّين به، وهو دين الحق؛ لا يرغب عنه أحد إلا ذلّ؛ ولا يعتصم به إلا عز...».

وسأل رستم: «**أرأيت لو أني رضيت بهذا الأمر ـ الإسلام ـ وأجبتكم إليه؛ ومعي قومي؛ كيف يكون أمركم؛ أترجعون؟**».

وأجابه زهرة: «**أي والله! ثم لا نقرب بلادكم أبداً إلا في تجارة أو حاجة**».

وفي الجولة الثانية من المفاوضات ـ قبل القادسية ـ قال رستم لمفاوضه، ربعي بن عامر: ما جاء بكم؟.

وأجابه ربعي: «**الله ابتعثنا؛ والله جاء بنا؛ لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله؛ ومن ضيق الدنيا إلى سعتها؛ ومن جور الدنيا إلى عدل الإسلام؛ أرسلنا**

الله بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه؛ فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه؛ ورجعنا عنه؛ وتركناه وأرضه يليها دوننا؛ ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نقضي إلى موعود الله: الجنة لمن مات على قتال من أبى؛ والظفر لمن بقي. . . اختر الإسلام وندعك وأرضك؛ أو الجزاء فنقبل ونكف عنك، أو المنابذة والحرب»(١).

وذاك هو (عقبة بن نافع) وقد فتح المغرب، ووصل إلى المحيط الأطلسي، يقف على صهوة جواده، ويرفع بيديه، ويدعو الله: «يا رب! لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك؛ اللهم إني قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك».

وذاك هو (قتيبة بن مسلم الباهلي) وقد وصل إلى أقصى الشرق (فرغانة وسمرقند) يحضُّ جنده على القتال ويحرضهم بقوله: «أما بعد. . إن الله أحلَّكم هذا المحل ليعز دينه؛ ويذب بكم عن الحرمات. . . ووعد نبيه ﷺ النصر بحديث صادق؛ وكتاب ناطق؛ فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ ٱلْحَقِ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِينِ كُلِّه وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾(٢).

وبين فتح بلاد الشام والعراق؛ وفتح أقصى المشرق وأقصى المغرب؛ شواهد كثيرة تؤكد جميعها أن العرب المسلمين ما خرجوا للفتح بحثاً عن المغانم، ولا عن دنيا يريدونها، ولا مغانم يبتغونها، ولا للتوسع والاستعمار، ولا للتحرير والاستقلال، وإنما لتحقيق هدف محدد وواضح: (نشر الإسلام) ورفع رايته، وتعريف أهل الدنيا بفرائضه وفضائله (دونما حقد ولا كراهية)، ودونما تناقض بين **(قوانين الصداقة)** و**(قوانين العداء)**. وما كان للعرب المسلمين أن يأخذوا بمثل ما تتضمنه هذه القوانين والتي تمثل لهم (عصبية القبلية ـ وعصبية الجاهلية الأولى) وهم الذين عرفوا فضل الله عليهم بالإسلام والإيمان؛ وعرفوا أن الحد الفاصل بين (التراحم فيما بينهم والشدة والغلظة على الكفار) إنما تتعلق بحد دقيق هو الإيمان؛ وقد كان لهم في إبراهيم عليه السلام أسوة حسنة؛ وفقاً لما بينه الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ **فِي إِبْرَاهِيمَ وَٱلَّذِين مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرءَآؤُ مُنْكُمْ وَمِمَّا تَعبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةُ وَٱلْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ**

---

(١) تاريخ الطبري ـ أحداث سنة ١٤ هـ ـ ٣/٥١٩ ـ ٥٢٠. (٢) سورة الصف ـ الآية ٩.

وَحْدَهُ. . . ﴾[1]. ويدحض ذلك كل مقولة عن التحرير؛ وعن العصبية القبلية؛ فتحرير مَنْ مِمَّن؟ ألم تكن قبائل المناذرة العربية هي القوات التي تعتمدها دولة الفرس لقتال العرب في الجزيرة أو لقتال العرب التابعين للروم؟ ثم ألم تكن قبائل الغساسنة هي القوات التي تعتمدها دولة الروم البيزنطيين لقتال العرب في الجزيرة أو لقتال العرب التابعين للفرس؟.

لقد حفظ تاريخ فن الحرب الإسلامي مما حفظه موقف (عرب اللسان) من إخوانهم العرب المسلمين في أيام العراق؛ حيث وقفت قبائل بهراء وكلب وغسان وتنوخ والضجاغم في (دومة الجندل) وموقف بكر بن وائل في موقعة (أليس على الفرات) وموقف قبائل النمر وتغلب وإياد في (عين التمر) وموقف الهذيل في (مصيخ بني الرشاء) وموقف ربيعة بن بجير التغلبي في موقعة (الثني والزمل) كذلك موقف تغلب وإياد والنمر وتشكيلهم جبهة واحدة بتنظيم من الفرس والروم في وقت واحد في (وقعة الفراض)[2]. وقد حارب عرب اللسان في هذه الأيام (إخوانهم) العرب المسلمين حرباً لا هوادة فيها، وكانوا أشد عليهم من الفرس والروم.

وبعد ذلك؛ وفي سنة ١٧ هـ، ألم تقف قبائل غسان وتنوخ وإياد في جبهة واحدة؛ واستثاروا الروم ضد العرب المسلمين مما دفع العرب المسلمين لفتح الجزيرة وأرمينية؟ ثم ألم تلحق قبائل إياد بن نزار بالروم؟ وقصة (جبلة بن الأيهم الغساني) والتحاقه بالروم؛ هل هي غير قصة (عصبية الجاهلية)؟

إقراراً بالواقع لقد وقف بعض (عرب اللسان) إلى جانب العرب المسلمين في بعض المواقع، غير أن مواقفهم تلك لم تكن بدافع (العصبية القبلية ـ أو العصبية الجاهلية) بقدر ما كانت خضوعاً للفاتح المنتصر؛ وربما شعر بعض هؤلاء بالزهو لانتصار العرب المسلمين باعتبارهم أقرب إليهم (باللسان) من الفرس ومن الروم. ومن المحتمل أن يكون بعض هؤلاء ممن وقف مع العرب المسلمين، لم يقف إلا للحصول على الغنائم، شأنهم في ذلك كشأن بعض الأعاجم ممن انضموا إلى

---

(١) سورة الممتحنة ـ الآية ٤.

(٢) انظر أحداث هذه الأيام؛ وتفاصيلها في تاريخ الطبري؛ وفي الكامل في التاريخ أحداث سنة ١٢ هـ.

العرب المسلمين وقاتلوا معهم لمعرفتهم بحتمية انتصار العرب المسلمين، بعدما شعروا بمدى تفوقهم فيما وقع من معارك.

وعلى كل حال؛ فإنه من المحال القبول بتفسير الفتح لبلاد الشام والعراق على أنه تحرير للعرب من سلطة الروم والفرس؛ وإنما كان فتحاً بهدف نشر الإسلام.

يمكن على ضوء ما تقدم أيضاً رفض كل تفسير مادي يقول بأن الصراع الطبقي كان العامل المحرض لظهور الإسلام وانتشاره. ذلك أنه، وكما سبق ذكره؛ لقد كانت شدة العرب المسلمين وغلظتهم كانت موجهة ضد أعداء المسلمين، غنيهم وفقيرهم، كبيرهم وصغيرهم؛ قويِّهم وضعيفهم؛ كذلك كان التراحم بين المسلمين بعيداً كل البعد عن ظواهر الحياة الدنيا من فقير وغني؛ من حر وعبد؛ من كبيرهم وصغيرهم؛ «إنهم كالجسد بعضهم من بعض؛ يجير أدناهم على أعلاهم» كما قال ربعي بن عامر لرستم.

وقد فرض الله الجهاد على العرب المسلمين بأنفسهم وأموالهم؛ فالمال هو مال الله؛ وهو ينفق في سبيل الله؛ فلطالما قدم أغنياء الصحابة أموالهم لتجهيز المجاهدين في سبيل الله ممن لا يملكون ما يتجهزون به، على نحو ما فعله عثمان بن عفان، رضوان الله عليه، يوم جهز جيش العسرة (غزوة تبوك) وهو الذي اشترى لإخوانه المسلمين (بئر رومة). وهل هناك نموذج للمؤاساة والأخوة يشابه أو يضارع مؤاخاة (المهاجرين والأنصار). فأين هي نظرية (الصراع الطبقي والحقد) من نداء الرسول ﷺ: (كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه) وقوله في خطبة الوداع: **(إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة بلدكم هذا في شهركم هذا في يومكم هذا)**[1].

من المحتمل هنا تقديم اعتراض بات معروفاً وهو: أين هو ذاك التراحم؛ وقد سالت دماء العرب المسلمين غزيرة في الاقتتال فيما بين المسلمين بعضهم ضد بعض: بداية من حروب الردة وموقعتي الجمل والصفين، ونهاية بما وقع من فتن في العصر العباسي بخاصة على أيدي الحركات الموصوفة بالباطنية (كالقرامطة

---

(١) تاريخ الطبري ـ والكامل في التاريخ (حجة الوداع) أحداث سنة ١٠ هـ.

والإسماعيلية والفاطمية الخ . . .)؟ ثم ماذا بقي من هذا التراحم في الأزمنة الحديثة، وقد قاتل المسلمون بعضهم بعضاً بضراوة وغلظة لم يبلغها اقتتالهم ضد أعداء الدين؛ مثل اقتتال الباكستانيين والبانغلاديش (سنة ١٩٧٢) ومثل اقتتال أهل الصحراء (البوليساريو) مع مسلمي المغرب؛ ومثل اقتتال أهل اليمن (منذ سنة ١٩٦٤) واقتتال الفلسطينيين والأردنيين (أيلول الأسود ١٩٧١)، ونهاية بالمذابح التي نزلت بالمسلمين الفلسطينيين في لبنان (بداية من تل الزعتر ١٩٧٦) ثم في صبرا وشاتيلا (سنة ١٩٨٢) علاوة على المذابح اليومية التي يتعرض لها المسلمون في فلسطين والتي لم تحرك مسلماً في أرجاء العالم الإسلامي؛ ولا حملت للفلسطينيين عوناً ولا دعماً إلا بقدر محدود لا يصل حتى إلى حدود المؤاساة؟ . . .

قد يكون الرد على مثل هذه التساؤلات معروفاً بقدر ما هي معروفة مثل هذه التساؤلات الخبيثة. فالدماء التي سالت في حروب الردة كانت لتقويم مسيرة العرب المسلمين؛ ولتصحيح الانحرافات. أما موقعتا الجمل والصفين؛ فكانتا ابتلاء للعرب المسلمين أيضاً؛ وهو ابتلاء من الله عز وجل ـ يقيناً ـ دفع العرب المسلمون ثمنه غالياً؛ ولكن النتيجة كانت تصفية رواسب الفتنة الكبرى والقضاء على رؤوسها والذين أسهموا فيها، ثم إقامة دولة عربية إسلامية كان لها شرف نشر الإسلام في أرجاء العالم القديم شرقاً ومغرباً.

ولقد كان الاقتتال ـ رغم ضراوته وقسوته ـ غير بعيد عن التراحم، وهو ما ظهر في مواقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه من أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ وفي مواقف كثير من الصحابة. ثم هل كان الاحتكام للقرآن الكريم في (صفين) والموادعة بين علي ومعاوية رضوان الله عليهما إلا نوعاً من التراحم، وإلا حرصاً على دماء المسلمين التي حرم الله؟ ثم ألم يظهر الإسلام؛ في تعاليم القرآن؛ احتمال وقوع الاقتتال بين طائفتين ـ أو فئتين ـ من المسلمين، وحدد ما يجب أن يكون عليه موقف المسلمين في مثل هذا الاقتتال من قتال للفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله؟.

أما ذاك الاقتتال بين المسلمين، وبين أصحاب الملل والنحل؛ في العصر العباسي، فإنه لم يكن إلا نوعاً من حروب الردَّة؛ وإلا استطالة لها؛ فأصحاب هذه البدع لم يتمكنوا على الأغلب من التنكر للإسلام وتعاليمه؛ ولا استطاعوا مجابهته

بعد أن أصبح وطيد الأركان، فأخذوا ببعض ما في الكتاب، وانحرفوا عن الطاعة والجماعة ـ شأنهم كشأن المرتدين تماماً ـ فوجب قتالهم انتصاراً للإسلام وأهله. ونصر الله عباده المؤمنين؛ واضمحلت دعوات الردة والانحراف.

وإذن؛ فإن ما يعيشه العالم الإسلامي في ظروفه المعاصرة؛ ما هو إلا استطالات للردة؛ وإلا استمرار لها، ولكن بأثواب غريبة، بعضها يأخذ بالظواهر القومية الغربية؛ التي فقدت رصيدها حتى في مواطنها (مثل إيطاليا وألمانيا)، وبعضها يأخذ بالظواهر الاقتصادية (الاشتراكية)، والهدف من ذلك كله هو تدمير المجتمع الإسلامي من الداخل، وإشغاله بنفسه وهمومه؛ وإبطال (التراحم) ليحل محله (قانون العداء) سواء كان هذا العداء داخلياً (عبر الصراع الطبقي في المجتمع الواحد) أو قبلياً وعصبياً (ضد المجتمعات الإسلامية المجاورة).

وتبرز هنا ظاهرة مدمرة؛ وهي أن دعاة هذه الانحرافات وأصحابها، لم يعودوا يخفون عداءهم للإسلام وأهله؛ مستفيدين أو معتمدين على دعم الدول العظمى لهم، والتي يرتبطون بها لفرض قوانينهم في الصداقة والعداء؛ عبر الفرز القومي والطبقي والديني، مما ساعد على تفتيت المجتمع العربي الإسلامي، والمجتمع الإسلامي بعامة؛ تفتيتاً مدمراً؛ بحيث بات كل فرد هو مجتمع وحده؛ وبحيث انتفى كل أثر للتراحم.

ولقد كان ذاك التراحم هو العامل الأساسي في اندماج الأمم والشعوب بعضها ببعض بما لم يعرف التاريخ له مثيلاً أو نظيراً؛ فقد كان الإنسان المسلم؛ ومنذ ظهور الإسلام حتى اليوم؛ يستطيع الارتحال إلى حيث يشاء، وأن يقيم حيث يريد؛ وزاده من الدنيا هو الأخوة في الله، حيث يستطيع في حلِّه وترحاله أن يجد في كل مكان إخواناً له يساعدونه على احتمال هموم الحياة الدنيا ومتاعبها؛ فلا غرابة إن ضم كل شعب من الشعوب الإسلامية أخلاطاً من الأقوام والأجناس لا عدَّ لها ولا حصر؛ ولا تربط بعضها ببعض إلا رابطة التراحم والتي تتجاوز حدود (قوانين الصداقة) و(قوانين العداء).

ولقد استطاعت التيارات الفكرية المعاصرة أن تجد لها أصداء في أقطار العالم الإسلامي؛ وأن تصطنع لها قواعد ومرتكزات؛ ولكن هل استطاعت رغم بطشها

وجبروتها إلغاء (التراحم)، وهل هناك عربي مسلم؛ أو أي مسلم؛ لم ينفطر قلبه لما وقع بين الإخوة في (أفغانستان) أو في (اليمن) الذي فقد سعادته عندما حرم من التراحم، أو في (الصحراء المغربية) أو في (فلسطين)؟ صحيح أن هذا التراحم قد بات عاجزاً عن إثبات وجوده بقوة كمثل ما كان عليه في الماضي بتأثير عامل البطش والقهر، غير أنه ما من إنسان مسلم إلا ويعرف أن تيار (التراحم) كالنار تحت الرماد؛ وسيبقى كذلك، يقيناً، إلى أن يأذن الله بانجلاء الغمة، وانفراج الكربة، وانحسار الظلمة التي هيمنت على أقطار العالم الإسلامي منذ أن غابت عنه (الطاعة والجماعة).

لقد أصبحت (قوانين الصداقة) و(قوانين العداء) هي الناظمة للمجتمعات الحديثة؛ وهي الموجهة لأنشطتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحربية. فلقد ارتفع مستوى (القبيلة المسلَّحة) ليصل إلى مستوى (الأمة المسلَّحة)، وهو ما يتم التعبير عنه (بسباق التسلح)، ووجدت المذاهب الفلسفية والفكرية لها سبيلاً لدعم توجُّهات الأنظمة المعاصرة.

وقد يكون من العصب، إن لم يكن من المحال، الإحاطة بكل ما صدر عن الدولتين العظميين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوڤييتي، وعن الدول التابعة لهما (الغربية والشرقية) في موضوع تأجيج الصراع بالاعتماد على عامل الحقد والكراهية؛ وهناك ركام ضخم من النشرات والكتب والدوريات علاوة على الإصدارات السرية؛ وكلها تستند إلى (قوانين الصداقة) و(قوانين العداء) للإبقاء على عوامل الصراع محتدمة بين المعسكرين المتصارعين والمتنافسين على السيطرة العالمية.

قد يكون من المحتمل تفسير هذه الظاهرة، أو تأويلها؛ على أنها نوع من (الدفاع عن الذات) أو أنها وسيلة لحماية كل معسكر من هجمات المعسكر الآخر التي أخذت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ـ بخاصة ـ شكل حرب فكرية ـ عقائدية ـ بالدرجة الأولى.

ومهما كان عليه التفسير أو التأويل؛ وبصرف النظر عن حججه ومرتكزاته؛ فقد أصبحت قوانين الصداقة والعداء هي المهيمنة على سياسات العالم ـ منذ انفجار الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ تحديداً، ولقد تسببت هذه القوانين في تفجر حروب لا نهاية لها؛ أغرقت العالم بالدماء وأزهقت أرواح عشرات الملايين؛ وامتدت إلى

المجتمعات الصغرى فأحرقتها بنيرانها؛ والسؤال هو: ألم يحن الوقت بعد لإعادة النظر في تلك القوانين الوضعية التي قدمت للعنف وللقهر غطاءه البراق وستاره الخادع؟ ومقابل ذلك: ألم يحن الوقت بعد لإعادة النظر في مواقف العالم الإسلامي من ﴿أشداء على الكفار؛ رحماء بينهم﴾ بعد ما عاشه الإنسان المسلم من التدمير والتمزق والضياع؟ ألم يحن الوقت لإعادة وضع (عصبيات الجاهلية) تحت أقدام المسلمين؟.

قد يستطيع قائل القول إن (الحروب الصليبية المعلنة) قد أصبحت في محفوظات الماضي، وأن الزمن قد تجاوزها؟ ولكن هل هناك من ينكر أن عدم إعلان الحروب؛ وعدم إرسال قوات للغزو والاجتياح والعدوان؛ قد استبدل بما هو أشد فتكاً وتدميراً عبر تطوير مفاهيم الحروب وأساليبها، بحيث بات كل مسلم؛ وفي معظم أرجاء الدنيا؛ ضحية لمفاهيم هذه الحروب وأساليبها؛ وبحيث أصبح هناك اتفاق إسلامي شامل على وجود هذه الحروب غير المعلنة؛ غير أن ظواهرها تبرز كل يوم وبأشكال متباينة وألوان مختلفة، وما من سبيل لتجاوز الابتلاء إلا بالعودة للتراحم، فالمسلم ضعيف بنفسه قوي بإخوانه، وقد يكون من الأسهل على الجماعة احتمال الابتلاء الذي يعجز الفرد عن احتماله بمفرده. والمسألة هنا ليست مسألة عظة أو مسألة نصح، وإنما هي مسألة استجابة لمتطلبات الحياة المتجددة، فإذا ما عملت الدول العظمى على تبني (قوانين الصداقة وقوانين العداء) للدفاع عن نهجها ولحماية معتقداتها ومصالحها ووجودها، فإنه لا أقل على المسلم الإفادة من تجربته التاريخية الطويلة والتي أكدت له، المرة بعد المرة، أن ذاك التراحم الذي يبدأ بالفرد وبالأسرة؛ وصولاً إلى المجتمع القوي والمتماسك، هو الذي حفظ للشعوب الإسلامية وجودها رغم ما نزل بها من النوائب والكوارث؛ ورغم ما تعرضت له من الابتلاء على أيدي أعداء الإسلام والمسلمين.

ولقد عملت الدول العظمى على تنظيم الجمعيات الخيرية والهيئات الإنسانية لدعم (قوانين الصداقة). ولقد كان السلف أسبق في مجال تقديم تلك الخدمات في إطار التراحم. ولقد تزايد حجم الأمراض الاجتماعية في العالم الإسلامي بحكم العدوان الخارجي، وبات لزاماً العمل بسرعة أكبر لوضع (التراحم) في موضعه الصحيح على طريق إعادة بناء المجتمع الإسلامي، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

٤

التحريض على القتال وتقاليد الحرب

ارتبطت فريضة (الجهاد في سبيل الله) منذ البداية؛ بالتحريض على القتال؛ بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ؛ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2] إلى قوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً؛ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3].

وقد كانت آيات الجهاد في سبيل الله بمجموعها تحرض على القتال؛ وتحض المسلمين المؤمنين على حمل السلاح وخوض الحرب.

وكان وجود رسول الله ﷺ، في ميدان القتال؛ هو وحده تحريضاً كافياً ليندفع المجاهدون للقتال بكل ما أتاهم الله من القوة والعزيمة؛ فقد كان الرسول ﷺ أحب على نفس كل مسلم مؤمن من نفسه ومن أهله وصحبه؛ فكان كل واحد منهم على استعداد لفداء الرسول بنفسه؛ وللدفاع عنه بسلاحه؛ فلم تكن بالرسول حاجة للتحريض على القتال؛ إلا أنه اضطر في غزوة حنين؛ وقد تفرق المسلمون وتشتتوا

(١) سورة الأنفال ـ الآية ٦٥.

(٢) سورة التوبة ـ الآيتان ٣٨ ـ ٣٩.

(٣) سورة التوبة، الآية ٤١.

وقد باغتهم كمين المشركين؛ فارتفع صوته على ضجيج المعركة وهو ينادي: **(أين أيها الناس! هَلُمَّ إلي! أنا رسول الله! أنا محمد بن عبد الله)**. بل إنه ارتجز الشعر، والعرب يرتجزون الشعر في حروبهم لإثارة الحماسة؛ وللتحريض على القتال. غير أن الرجز في كلمات رسول الله[1] لم يكن إلا لتسكين نفوس المسلمين؛ التي أصابها الهلع؛ والتي هيمن عليها الاضطراب؛ وإلا للتعريف بمكان الرسول حتى يلوذ به المجاهدون في سبيل الله.

غير أن هناك نموذجاً رائعاً للتحريض على القتال؛ جاء على لسان الصحابي عبد الله بن رواحة، رضي الله عنه، في (غزوة مؤتة)[2] إذ قال: «**يا قوم! والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون الشهادة؛ وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة؛ ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به؛ فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة**».

ولقد أصبح مضمون كلمة الصحابي عبد الله بن رواحة هو أساس كل تحريض على القتال؛ ذلك أن هذا المضمون هو خلاصة التجربة التي عاشها العرب المسلمون منذ حملوا السلاح لقتال المشركين؛ ما هزم لهم جمع؛ ولا انتكست لهم راية؛ رغم قلة عددهم؛ وضعف تسليحهم؛ وكان بحثهم عن إحدى الحسنين هو هدفهم، فالتحريض ما هو إلا تذكير بوعد الله لمن يصدق النية في القتال.

لقد سن رسول الله ﷺ للمسلمين سنَّة أصبحت هي المتبعة في التحريض على القتال: «**ومن السنة التي سن رسول الله ﷺ؛ بعد بدر؛ أن تُقرأ سورة الجهاد عند اللقاء؛ وهي الأنفال؛ ولم يزل الناس بعد ذلك على ذلك**»[3].

وكان أبو سفيان قد رافق جيش العرب المسلمين إلى اليرموك؛ فلما فرغ القارىء المقداد من قراءة سورة الأنفال؛ سار إلى الكراديس، وحرضها على القتال بقوله:

---

(١) كان ما قاله الرسول ﷺ: أنا الرسول لا كذب أنا ابن عبد المطلب. وانظر غزوة حنين (أحداث سنة ٨ هـ) في تاريخ الطبري وفي الكامل للتاريخ.

(٢) انظر غزوة مؤتة (أحداث سنة ٨ هـ) في (تاريخ الطبري وفي الكامل في التاريخ).

(٣) خبر اليرموك ـ أحداث سنة ١٣ هـ (تاريخ الطبري والكامل في التاريخ).

«الله الله! إنكم ذادة العرب؛ وأنصار الإسلام؛ وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك! اللهم إن هذا يوم من أيامك؛ اللهم أنزل نصرك على عبادك».

عرف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أهمية التحريض على القتال، ولهذا فعندما علم بحشد الفرس قواهم ـ قبل القادسية ـ قال: «والله لأضربنَّ ملوك العجم بملوك العرب» **فلم يدع رئيساً؛ ولا ذا شرف، ولا ذا سلطة؛ ولا خطيباً؛ ولا شاعراً؛ إلا رماهم به؛ فرماهم بوجوه الناس وغررهم.**

وجاء يوم القادسية؛ وأمر سعد ـ بن أبي وقاص ـ الناس أن يقرؤوا سورة الجهاد ـ الأنفال ـ وكانوا يتعلمونها. ثم أنه أرسل الذين انتهى إليهم رأي الناس؛ وانتهت إليهم نجدتهم؛ وأصناف الفضل منهم إلى الناس؛ فكان منهم من ذوي الرأي: المغيرة وحذيفة وعاصم؛ ومن أهل النجدة: طُليحة وقيس الأسدي وغالب وعمرو بن معدي كرب وأمثالهم؛ **ومن الشعراء: الشماخ والحطيئة وأوس بن مغراء وعبدة بن الطبيب؛** ومن سائر الأصناف أمثالهم؛ وقال لهم سعد قبل أن يرسلهم: «انطلقوا فقوموا في الناس بما يحق عليكم ويحق عليهم عند مواطن البأس؛ فإنكم من العرب بالمكان الذي أنتم به؛ **وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم؛ فسيروا في الناس فذكروهم وحرضوهم على القتال**»(1).

قال قيس بن هبيرة الأسدي ـ محرضاً على القتال ـ: «أيها الناس! احمدوا الله على ما هداكم وأبلاكم يزدكم؛ واذكروا آلاء الله؛ وارغبوا إليه في عاداته؛ فإن الجنة أو الغنيمة أمامكم؛ وإنه ليس وراء هذا القصر إلا العراء والأرض والقفر؛ والفلوات التي لا تقطعها الأدلة».

وقال غالب: «أيها الناس! احمدوا الله على ما أبلاكم؛ وسلوه يزدكم؛ وادعوه يجبكم؛ يا معاشر معد؛ ما علتكم اليوم وأنتم في حصونكم ـ يعني الخيل ـ ومعكم من لا يعصيكم ـ يعني السيوف ـ؟ **اذكروا حديث الناس في غد، فإنه بكم غداً يبدأ عنده؛ وبمن بعدكم يثني**».

وقال بسر بن أبي رُهم الجهني: «احمدوا الله؛ وصدقوا قولكم بفعل؛ فقد

---

(1) القادسية (يوم أرماث) أحداث سنة ١٤ هـ (تاريخ الطبري ـ والكامل في التاريخ).

حمدتم الله على ما هداكم له ووحدتموه ولا إله غيره؛ وكبَّرتموه؛ وآمنتم بنبيه ورسله؛ فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون. ولا يكونن شيء بأهون عليكم من الدنيا؛ فإنها تأتي من تهاون بها، ولا تميلوا إليها فتهرب منكم لتميل بكم. انصروا الله ينصركم».

وخطب أمير كل قوم أصحابه؛ وسير فيهم؛ وتحاضوا على الطاعة والصبر وتواصَوْا؛ ورجع كل أمير إلى موقفه... وقرئت سورة الجهاد؛ في كل كتيبة؛ فهشت قلوب الناس وعيونهم؛ وعرفوا السكينة مع قراءتها. وقال سعد بن أبي وقاص: «إلزموا مواقفكم؛ لا تحركوا شيئاً حتى تصلّوا الظهر؛ فإذا صليتم الظهر **فإني مكبر تكبيرة؛ فكبروا واستعدوا. واعلموا أن التكبير لم يعطه أحد قبلكم؛ واعلموا أنما أعطيتموه تأييداً لكم.** ثم إذا سمعتم التكبيرة الثانية فكبروا ولتستتم عدتكم؛ ثم إذا كبرت الثالثة فكبروا؛ ولينشط فرسانكم الناس ليبرزوا وليطاردوا؛ فإذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم؛ **وقولوا لا حول ولا قوة إلا بالله**».

ومضت أيام القادسية الثلاث بشدتها وقسوتها وغلظتها؛ وجاءت الليلة الرابعة (ليلة الهرير). وقرر سعد تطوير الأعمال القتالية؛ واستمرارها في الليل؛ واستعد المسلمون لذلك؛ ووقف قيس بن هبيرة يحرض من يليه على القتال بقوله: «إن عدوكم قد أبى إلا المزاحفة؛ والرأي رأي أميركم؛ **وليس بأن تحمل الخيل ليس معها الرجالة؛ فإن القوم إذا زحفوا وطاردهم عدوهم على الخيل ولا رجال معها عقروا بهم؛ ولم يطيقوا أن يقدموا عليهم؛** فتيسروا للحملة».

وقال دريد بن كعب النخعي: «إن المسلمين تهيؤوا للمزاحفة، فاسبقوا المسلمين الليلة إلى الله والجهاد؛ فإنه لا يسبق الليلة أحد إلا كان ثوابه على قدر سبقه؛ **نافسوهم في الشهادة؛ وطيبوا بالموت نفساً؛ فإنه أنجى من الموت إن كنتم تريدون الحياة؛ وإلا فالآخرة ما أردتم**».

وقال الأشعث بن قيس: «يا معشر العرب! إنه لا ينبغي أن يكون هؤلاء القوم أجرأ على الموت؛ ولا أسخى أنفساً عن الدنيا؛ تنافسوا الأزواج والأولاد؛ **ولا تجزعوا من القتل، فإنه أماني الكرام؛ ومنايا الشهداء**».

وقال حنظلة بن الربيع؛ وأمراء الأعشار: «**ترجلوا أيها الناس؛ وافعلوا كما نفعل، ولا تجزعوا مما لا بد منه، فالصبر أنجى من الفزع**».

وقال القعقاع بن عمرو التميمي: «إن الدبرة بعد ساعة لمن بدأ القوم؛ فاصبروا ساعة واحملوا؛ فإن النصر مع الصبر؛ فآثروا الصبر على الجزع».

تمثل الشواهد السابقة الذكر نماذج واضحة للتحريض على القتال؛ ويمكن من خلال هذه النماذج استخلاص مجموعة من الحقائق؛ لعل أبرزها هي قصر المقولات وإيجازها؛ وتجنب الإسهاب والإطالة؛ ثم استنادها جميعاً إلى تعاليم القرآن الكريم وأوامره والتذكير بفضل الشهادة والشهداء، مع إيضاح بعض المتطلبات المتعلقة بالموقف؛ مثل وصية سعد بن أبي وقاص بعدم التحرك للهجوم إلا مع التكبيرة الرابعة؛ ومثل قول غالب: «إذكروا حديث الناس في غد؛ فإنه بكم غداً يبدأ عنده» لإبراز أهمية المعركة التي سيخوضها العرب المسلمون في بناء مستقبل الأمة العربية الإسلامية؛ وما أشبه هذا القول بقول الشاعر الألماني (جوته) في معركة فالمي سنة ١٧٩٢ عندما قال: «من هذا المكان؛ وفي هذا اليوم؛ تشرق شمس يوم جديد؛ وباستطاعتكم أن تفخروا بأنكم شهدتم فجر هذا اليوم». وكذلك وصية قيس بن هبيرة؛ بمرافقة المشاة ـ الرجالة ـ للفرسان؛ وتكليف المشاة بحماية الفرسان حتى لا يتمكن فرسان العدو من حصار فرسان المسلمين وتطويقهم، وهم في حالة ضعف لعدم وجود من يدافع عنهم من المشاة. وكذلك التحريض بالأمثولة في قول حنظلة بن الربيع وأمراء الأعشار ـ قادة الجماعات: «ترجلوا أيها الناس؛ وافعلوا كما نفعل». وأخيراً، **تبرز حقيقتان مميزتان في التحريض على القتال عند المسلمين: أولاهما: التكبير الذي لم يعط لأحد غير المسلمين. وثانيتهما: إعطاء المعركة نداء خاصاً يردده المجاهدون في تلك المعركة، وقد كان في القادسية: «لا حول ولا قوة إلا بالله».**

ومثال آخر لهذا النداء برز عندما عبر العرب المسلمون نهر دجلة في طريقهم للمدائن القصوى، حيث قال سعد بن أبي وقاص للمسلمين عندما أذن لهم باقتحام النهر: «**قولوا نستعين بالله؛ ونتوكل عليه؛ حسبنا الله ونعم الوكيل؛ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم**»(١).

كان ذاك هو نهج قادة الجيوش من صحابة رسول الله ﷺ في التحريض على

---

(١) تاريخ الطبري ـ والكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ١٦ هـ.

القتال؛ فهل تغير هذا النهج عندما وصلت قيادة جيوش الفتح إلى أيدي التابعين؟

يمكن الأخذ بنهج القائد (**قتيبة بن مسلم الباهلي**) الذي تولى سنة ٨٦ هـ - ٧٠٥ م إمارة ولاية خراسان؛ فلما وصلها، استعرض جندها؛ استعداداً لمتابعة الفتوح؛ وخطب جنده؛ وحثهم على الجهاد بقوله: «أما بعد! إن الله أحلكم هذا المحل ليعز دينه؛ ويذب بكم عن الحرمات؛ ويزيد بكم المال استفاضة؛ والعدو وَقَماً - ذلاً - ووعد نبيه ﷺ النصر بحديث صادق، وكتاب ناطق؛ فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[1] ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده؛ فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِن عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِين * وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2] ثم أخبر عمن قتل في سبيله أنه حي مرزوق فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُون﴾[3]فتنجزوا موعود ربكم، ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم؛ وإياي والهوينى»[4].

ويظهر أن قتيبة في حثه على الجهاد في سبيل الله؛ قد اختار من كتاب الله آيات تغنيه عن كل قول؛ وتكفيه البحث عن كل تعبير؛ وهل هناك ما هو أبلغ تأثيراً؛ على نفس المسلم المؤمن من آي الذكر الحكيم؟.

وقد اتبع (قتيبة بن مسلم) هذا النهج ذاته مرة أخرى في سنة ٩٣ هـ - ٧١١ م، وذلك عندما توجه لفتح (سمرقند). إذ كان ملكها (طرخون) قد تحالف مع المسلمين؛ على الجزية؛ وأقره قتيبة على حكم قومه الصغد، لكن الصغد نكثوا؛ وقتلوا ملكهم؛ فأصبح لزاماً على قتيبة أن يثور بدم طرخون، وأن ينتقم له؛ وأن يخضع أولئك الذين ثاروا بالمسلمين؛ فقاد جيشه، وتوجه به إلى سمرقند وخطب الناس؛ فقال: «إن الله قد فتح لكم هذه البلدة في وقت الغزو فيه ممكن؛ وهذه

---

(١) سورة الصف - الآية ٩.
(٢) سورة التوبة - الآيتان ١٢٠ و ١٢١.
(٣) سورة آل عمران - الآية ١٦٩.
(٤) تاريخ الطبري - أحداث سنة ٨٦ هـ (٦/٤٢٤).

الصغد شاغرة برجلها ـ مقاتليها ـ قد نقضوا العهد الذي كان بيننا؛ ومنعونا ما كنا صالحنا عليه طرخون؛ وصنعوا به ما بلغكم. وقال الله: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾[1] فسيروا على بركة الله؛ فإني أرجو أن يكون خوارزم والصغد كالنضير وقريظة. وقال الله: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾[2] وقد نزلنا بساحة القوم صبحاً ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾[3]»[4].

وبذلك يكون (قتيبة بن مسلم) قد أوضح للمجاهدين في سبيل الله، من خلال كلمته الوجيزة؛ أنه قد اتخذ ما هو ضروري من الإجراءات والتدابير؛ بحيث صار الغزو ممكناً؛ وبحيث باتت البلاد شاغرة من حماتها والمدافعين عنها؛ كما بيَّن لهم أن هذا الغزو ليس عدواناً، ولا نقضاً لعهد، وإنما هو رد على نقض العهد؛ وهذه مسألة حاسمة بالنسبة للمسلمين الذين لا يمكن لهم نقض العهود، أو النكث بالمواثيق؛ وهو بعد ذلك يقارن بين موقف خوارزم والصغد وموقف النضير وقريظة؛ ويبشر المسلمين بأن يكون مصير الأولين كمصير الآخرين جزاء وفاقاً لنكثهم وغدرهم.

يمكن الانتقال من أقصى المشرق؛ إلى أقصى المغرب؛ ولله المشرق والمغرب جميعاً؛ حيث تولى (عقبة بن نافع) ولايته الثانية (سنة ٦٣ هـ ـ ٦٨٢ م) وقاد جيش المجاهدين في سبيل الله لقتال تجمع الروم والبربر؛ قرب تاهرت؛ وهناك وقف عقبة خطيباً؛ فحمد الله وأثنى عليه وقال: «أيها الناس! إن أشرافكم وخياركم الذين رضي الله عنهم وأنزل فيهم كتابه؛ بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان على قتال من كفر بالله إلى يوم القيامة؛ وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة؛ باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة. وأنتم اليوم في غربة؛ وإنما بايعتم رب العالمين؛ وقد نظر إليكم في مكانكم هذا؛ ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضاه وإعزازاً لدينه فأبشروا؛ فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى؛ وربكم عز وجل لا يسلمكم؛ فالقوهم بقلوب صادقة؛ فإن الله عز وجل جعلكم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين؛ فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه، والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين».

---

(١) سورة الفتح ـ الآية ١٠.
(٢) سورة الفتح ـ الآية ٢١.
(٣) سورة الصافات ـ الآية ١٧٧.
(٤) تاريخ الطبري ـ أحداث سنة ٩٣ (فتح سمرقند).

وصـدق الله وعده؛ ونصـر جنده؛ وسـار عقبة بـالجيش؛ وقد ودع أولاده وداع مفارق، وقال لهم: «إني قد بعت نفسي من الله عز وجل؛ فلا أزال أجاهد من كفـر بالله؛ اللهم تقبل نفسي في رضاك؛ واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك».

ووصل الجيش إلى أقصى المغرب، فخاض عقبة مياه المحيط بجواده، ورفع يديه داعياً: «يا رب! لولا هذا البحر لمضيت في البلاد، مجاهداً في سبيلك؛ اللهم اشهد إني قد بلغت المجهود؛ ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبـد أحد من دونـك»[1] ووقف في ـ آسفي ـ ساعـة، ثم قال لأصحـابـه: «ارفعوا أيديكم وأمِّنوا» ثم أقبل على الدعاء: «اللهم إني لم أخرج بطراً ولا أشـراً؛ وإنك لتعلم أن ما نطلبه هو أن تعبد ولا يشرك بك شيء. اللهم إنـا معانـدون لدين الكفر؛ ومدافعون عن دين الإسلام. فكن لنا ولا تكن علينا، يا ذا الجلال والإكرام».

وجاء (**موسى بن نصير**) بعدئذ إلى أفريقية (سنة ٨٦ هـ ـ ٧٠٥ م) واستعـرض جند الله؛ وخطب فيهم: «أيهـا الناس! إنمـا كان قبلي على أفـريقية أحـد رجلين؛ مسالم يحب العافية؛ ويرضى بالدون من العطية؛ ويكره أن يكلم ـ يجرح ـ ويحب أن يسلم. أو رجل ضعيف العقيدة، قليـل المعرفـة؛ راضٍ بالهـوينى؛ وليس أخو الحرب إلا من اكتحل السهر؛ وأحسن النظر؛ وخاض الغمر؛ وسمت به همته؛ ولم يرضَ بالدون من المغنم لينجو ويسلم دون أن يُكلم أو يَكْلِم، ويبلغ النفس عذرها في غير خرق يريده؛ ولا عنف يقاسيه؛ متوكلاً في حزمه؛ جازماً في عزمه؛ مستزيداً في عمله؛ مستشيـراً لأهل الـرأي في إحكام رأيـه؛ متخذاً بتجـاربه؛ ليس بـالمتجـابن إقحاماً؛ ولا بالمتخاذل إحجاماً؛ إن ظفر لم يزده الـظفر إلا حـذراً؛ وإن نكب أظهر جلادة وصبراً؛ راجياً من الله حسن العاقبة؛ فذكر بها المؤمنين؛ ورجاهم إياها لقول الله تعالى: ﴿إنَّ العاقِبَةَ للمتَّقِينَ﴾ أي الحذرين. وبعد! فإن كل من كان قبلي كـان يعمد إلى العدو الأقصى؛ ويترك عدواً منه أدنى، ينتهز منه الفرصة، ويدل منه على العـورة؛ ويكون عـوناً عليـه عند النكبـة. وأيم الله؛ لا أريم هـذه القـلاع والجبـال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها؛ ويذل أمنعهـا؛ ويفتحها على المسلمين بعضهـا أو

---

(١) عقبة بن نافع ـ مشاهير قادة الإسلام ـ دار النفائس ـ بيروت ـ ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م، ص ٦٧ و ٨٧.

جميعها؛ أو يحكم الله لي؛ وهو خير الحاكمين»[1].

وعندما عزم على السير نحو الغرب خطب الجند فقال: «إنما أنا رجل كأحدكم؛ فمن رأى مني حسنة فليحمد الله؛ وليحض على مثلها، ومن رأى مني سيئة فلينكرها؛ فإني أخطىء كما تخطئون؛ وأصيب كما تصيبون؛ وقد أمر الأمير أكرمه الله لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثاً؛ فخذوها هنيئاً مريئاً؛ ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا؛ وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان؛ مع المؤاساة إن شاء الله؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله».

وتثير كلمات (موسى بن نصير)، سابقة الذكر، مجموعة من التساؤلات. فقد جاءت هذه الكلمات مغايرة للنهج الذي سار عليه قادة جيوش الفتح الإسلامي؛ إذ لم يسبق أن طعن قائد عربي مسلم بكفاءة؛ أو بقدرة؛ من سبقه من القادة. كما لم يسبق أن عمل قائد عربي مسلم على الإشارة بكفاءته الشخصية، وبمواهبه القيادية. كذلك لم يسبق أن طرح قائد عربي مسلم مسألة الأعطيات ـ الرواتب ـ وجعلها مسألة أساسية كمثل ما أبرزها موسى بن نصير. غير أن معرفة الموقف الذي كانت عليه أفريقية يوم جاءها موسى بن نصير، هي التي تقدم التفسير المناسب والتأويل الصحيح لهذا التحول في نهج التحريض على القتال؛ وفي هذا التغيير في أسلوبه؛ فقد كانت أفريقية تضطرم ناراً؛ وكان المسلمون فيها قد تعرضوا لنكبات متتالية، فوجد موسى بن نصير أنه لزاماً عليه تعريف نفسه، واكتساب الثقة بصورة شخصية! مع إبراز مخططه للعمل الجديد.

على كل حال؛ يمكن مطالعة أسلوب مغاير في التحريض على القتال عند السلطان السلجوقي ألب أرسلان؛ ففي سنة ٤٦٣ هـ ـ ١٠٧٠ م؛ خرج ملك الروم أرمانوس في جيش لجب ضم مائتي ألف مقاتل ـ من الروم والفرنج والروس والبجناك والكرج ـ ولم يكن مع ألب أرسلان أكثر من خمسة عشر ألفاً من المقاتلين؛ فحاول ألب أرسلان تجنب القتال ومهادنة أرمانوس؛ غير أن هذا رفض المهادنة، وأظهر تصميمه على القتال واجتياح عاصمة السلاجقة (همذان). فقاد ألب أرسلان جيشه

(١) الإمامة والسياسة ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٧٧ هـ (٢/ص ٦١ ـ ٦٣).

إلى (ملازكرد) وهو في حال من الانـزعاج والضيق. غيـر أن إمامـه وفقيهه أبـو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي؛ قوّى من عزيمته بقوله له: «إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله تعـالى قد كتب باسمك هذا الفتح؛ **فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال؛ في الساعة التي يكون الخطباء على المنابر**؛ فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر، والدعاء مقرون بالإجابة».

فلما كانت تلك السـاعة؛ صلى بهم، وبكى السلطان، فبكى النـاس لبكائـه؛ ودعا ودعوا معه. وقال لهـم: «من أراد الانصراف فلينصرف، فما ههنا سلطان يـأمر وينهى» ولبس البياض وتحنط؛ وقال: «إن قتلت فهـذا كفني». وزحف إلى الروم، فلما قاربهم؛ ترجل وعفّر وجهه على التراب وأكثر الدعاء وقال: «إنني أقاتل محتسباً صابراً فإن سلمت فنعمة من الله تعالى؛ وإن كانت الشهادة فإن ابني ملك شـاه ولي عهدي»[1]. وأنزل الله نصره على المسلمين.

وتثير هذه القصـة مسألتين تتعلقـان بالتحـريض على الجهاد؛ أولاهمـا مسألـة توقيت بدء المعركة بموعد الظهيرة؛ وبخاصة في يوم الجمعة. وثانيتهما مسألة الدعاء للمجـاهدين في سبيـل الله على المنابـر في أرجاء العـالم الإسلامي. ومعـروف أن سعد بن أبي وقاص قد أنشب القتال ظهراً في القادسية.

أما في نهاوند (فتح الفتوح) سنة ٢١ هـ، فقد عمل النعمان بن مقرن على تنظيم قوات المسلمين للقتال، وأمرهم، وكان اليوم جمعة؛ أن يلزمـوا الأرض ولا يقاتلوا الفـرس حتى يأذن لهـم؛ ففعلوا واستتـروا بالجحف من الـرمي، وأقبل المشـركـون عليهم يرمونهم حتى أفشوا فيهم الجراحات؛ وشكا بعض الناس ذلك إلى بعض؛ ثم قالوا للنعمان: ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما لقي الناس؟ فما تنتظر بهم؟ إئذن للنـاس في قتـالهم. فقـال لهم النعمـان: «رويـداً، رويـداً». وكثـر الإلحـاح على النعمان، وتكرر قوله بالتمهل، إلى أن قال لمخاطبه المغيرة بن شعبة: «**رويداً ترى أمرك! وقد كنت تلي الأمر فتحسن؛ فلا يخذلنا الله ولا إياك؛ ونحن نرجو في المكث مثـل الذي تـرجو في الحث. وأنـا أنتظر بـالقتال إكمـال ساعـات كـانت أحب إلى**

(١) الكامل في التاريخ (خروج ملك الروم إلى خلاط وأسره) أحداث سنة ٤٦٣.

رسول الله ﷺ في القتال أن يلقى فيها العدو؛ وذلك عند الزوال، وتفيؤ الأفياء، ومهب الرياح ـ أو الأرواح ـ أرواح الجنة»(1).

ومن القصص المعروفة في فضل دعاء المسلمين للمجاهدين في سبيل الله، قصة أمير العراق الحجاج بن يوسف الثقفي «**عندما تأخرت عليه أخبار قتيبة بن مسلم الباهلي لمدة شهرين (سنة ٨٧ هـ) فأشفق الحجاج على الجند؛ فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد؛ وكتب بذلك إلى الأمصار**».

تبقى قصة **(طارق بن زياد)** من القصص المعروفة في مجال التحريض على القتال؛ فقد عمل طارق على إحراق السفن التي نقلت المجاهدين في سبيل الله من عدوة المغرب إلى الأندلس؛ وعندما اكتمل حشد القوى في مواجهة جيش لذريق (رودريك) في وادي لكة (سنة ٩٢ هـ ـ ٧١٠ م) وقف طارق خطيباً؛ وألقى كلمة مطوَّلة جاء فيها: «**أيها الناس! أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم؛ وليس لكم والله إلا الصدق والصبر؛ واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام؛ في مأدبة اللئام**؛ وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته؛ وأقواته موفورة؛ وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم؛ ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم؛ وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم؛ وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم؛ فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية؛ فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة؛ وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت؛ **وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة؛ ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس إلا وأنا أبدأ بنفسي**؛ واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً؛ استمتعتم بالأرفه الألذ طويلاً؛ **فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي**؛ فما حظكم فيه بأوفى من حظي... **وقد انتخبكم الوليد ابن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً**؛ ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً؛ ثقة منه بارتياحكم للطعان؛ واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان؛ **ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته؛ وإظهار دينه بهذه الجزيرة؛ والله تعالى وليُّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين. واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه؛ وأني عند ملتقى**

---

(1) تاريخ الطبري ـ (وقعة المسلمين والفرس بنهاوند) أحداث سنة ٢١ هـ.

الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لزريق فقاتِلُه إن شاء الله تعالى؛ فاحملوا معي فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره؛ ولم يعْوزكم بطل عاقل تسندون إليه أموركم؛ وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه؛ واحملوا بأنفسكم عليه؛ واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله؛ فإنهم بعده يخذلون»[1].

لم يكن (طارق بن زياد) يرغب في عرض قدرته الخطابية؛ أو إظهار كفاءته الأدبية التي نافست كفاءته القتالية؛ غير أنه كان يعرف أهمية المعركة التي سيخوضها بعد قليل؛ وما سيكون لها من الأثر والتأثير في مستقبل الأمة الإسلامية؛ فأظهر لقادته وجنده موقفهم في تلك البقاع المنعزلة؛ وضرورة قتل ـ الطاغية ـ رودريك، حيث ستنفتح بقتله أبواب الأندلس، وهذا ما حدث في الواقع؛ مما يؤكد صحة وجهات نظر طارق في تقديره للموقف؛ وفقاً لما أوضحه طارق وهو يحرِّض جند الله على القتال؛ وقد صدق هؤلاء الجند ما عاهدوا الله عليه، فأيدهم بنصره. وكانت معركة (وادي لكة) التي حفظها التاريخ بكل دقائقها وتفاصيلها نموذجاً لحروب الإيمان.

أخذت مسألة (التحريض على القتال) مضمونها الثابت، وطرائقها الواضحة والمحددة على امتداد صفحة الفتح؛ ومن خلال (حروب الإيمان). ولقد كان للأدب والشعر؛ وخاصة الرجز؛ دوره في التحريض على القتال؛ وفي تسجيل أحداث القتال، مثل مدة الحرب وقسوتها ومجرياتها ونتائجها الخ . . . غير أن التحريض على القتال قد أخذ بعدئذ شكلاً مميزاً عندما بدأت الحروب الصليبية على أرض الأندلس؛ ثم على أرض الشام. فقد استيقظ المسلمون مباغتة ووجدوا أنهم أصبحوا أمام تجمع كل الأمم النصرانية التي شرعت بشن هجوم شامل؛ وانتزاع ما كان بأيدي المسلمين من البلاد، بداية من طليطلة ـ سنة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م ـ ونهاية بوصول الفرنج إلى القدس ـ سنة ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٧ م ـ. وقد صدم المسلمون بوحشية الفرنج الصليبيين؛ وبما أجروه من المذابح؛ مما أثار خيال الكتّاب؛ وألهب مشاعر الشعراء فانطلقوا للتحريض على القتال؛ مذكِّرين بما كان عليه السلف من الشدة والقوة؛ مع رثاء المدن التي احتلها الفرنج؛ والحض على استردادها؛ ومطالبة المسلمين بتشكيل قوة واحدة؛ والانتقام من المعتدين؛ والثأر ممّا ارتكبوه من

---

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٨ (١/ ٢٤٠ ـ ٢٤١).

الجرائم والآثام بحق المسلمين شهداء الحق.

وقد حفظ تاريخ الأدب الأندلسي، وأدب الحرب، أيام الحروب الصليبية؛ شواهد لا نهاية لها عن هذا النهج في الحض على القتال والتحريض عليه؛ سواء في رثاء المدن شعراً؛ أو في الرسائل المتبادلة بين الملوك والأمراء وقادة الأجناد. وقد كان لهذا التحريض دوره بالتأكيد في توجيه الجهود الإسلامية وتوحيدها لقتال أعداء الإسلام وأهله. فقد كان التحريض هنا ليس موجهاً للمقاتلين، وإنما لكل مسلم قادر على حمل السلاح؛ وتحريضاً لكل مسلم ليقدم ما يستطيع؛ ولبذل كل ما هو ممكن؛ لنصرة المسلمين وإعزاز دين الله. ولقد استجابت جماهير المسلمين للتحريض؛ فكان النصر في كل معركة هو السبيل للنصر النهائي؛ الذي انتهى بطرد الفرنج من بلاد الشام؛ وبنقل القتال إلى أوروبا ـ على أيدي العثمانيين ـ.

ولقد أخذ التحريض على القتال في العهد العثماني طرائق خاصة؛ مع محافظته على الهدف. فقد بقيت سورة الجهاد ـ الأنفال ـ وآي الذكر الحكيم هي أساس التحريض على القتال، وبقي التهليل والتكبير هو صيحة الحرب للمجاهدين في سبيل الله؛ غير أن عملية التحريض أصبحت من اختصاص (شيخ الإسلام) المقيم في العاصمة والذي يصدر الإفتاء بشرعية الحرب وعدالة قضيتها وصحتها! ثم يقوم الشيوخ المنتشرون في التشكيلات المقاتلة (قاضي عسكر) بواجباتهم في التحريض على القتال. وقد اضطلعت الطرق الصوفية (وبخاصة النقشبندية) بالدور الأساسي في عملية التحريض على القتال؛ ومثلها كان دور علماء الدين والشيوخ في المساجد والتكايا والزوايا. **وقد ظهر ذلك واضحاً عندما تعرضت الأقطار الإسلامية للغزو الصليبي الذي حمل اسم (الاستعمار) حيث كان شيوخ المساجد وأئمتها ـ في معظمهم ـ هم الذين رفعوا رايات الجهاد في سبيل الله؛ فأضاؤوا بها الطريق للخروج من ليل الاستعمار. وتجدر الإشارة إلى أن (الثورات الإسلامية) التي جابهت القوى الصليبية ـ الاستعمارية؛ بداية من ثورة الجزائر سنة ١٢٤٦ هـ ـ ١٨٣٠ م؛ ومروراً بثورة السودان المعروفة باسم ثورة المهدي (١٣٠٠ هـ ـ ١٨٨٣ م) وثورة طرابلس وبرقة والمعروفة باسم ثورة عمر المختار ١٣٣٧ ـ ١٣٥٩ هـ، ١٩١٨ ـ ١٩٣٢ م)**، بالإضافة إلى بقية الثورات، لم تكن إلا ثماراً للتحريض على الجهاد في سبيل الله؛ وهو الجهاد الذي رفع رايته شيوخ

الإسـلام وأئمتهم؛ وحتى الثورة الجـزائريـة الأخيرة (١٩٥٤ ـ ١٩٦٢) لم تكن في أساسها إلا ثورة إسلامية رفع رايتها شيوخ (رابطة العلماء) التي أسسهـا الشيخ عبـد الحميـد بن بـاديس سنـة ١٣٤٩ هـ ـ ١٩٣٠ م في الجـزائـر وقسنـطينـة والأوراس وسواها، فكانت المهد الذي احتضن بذور الثورة، وتعهـد برعـايتها حتى نضجت؛ فهل من غريب إذا كان قادة هذه الثورات من الشيوخ الذين عـرف العالم العـربي ـ الإسلامي أعداداً كبيرة منهم؛ ليس أقلهم شهرة عز الدين القسـام وأمين الحسيني. فهل من الغريب إن تركز حقد الصليبيين وهجومهم على بيوت الله في جميع أرجـاء العالم الإسلامي؛ بحيث تحول المساجد إلى متاحف ـ للذكريات ـ في أقطار كثيرة ـ مثل تركيا في عهد أتاتورك؛ وأقـطار أوروبا بعـد إخراج المسلمين منهـا ـ؟ وكمثل تحديد دور هذه المساجد؛ والتضييق على روادها؛ في أقطار إسلامية أخرى؟. وهل من الغريب أيضاً أن تستبدل نداءات الحرب الإسلامية ـ **التهليل والتكبير** ـ بنداءات مضادة للإسلام؛ أو على الأقل بعيدة عنه؟.

هنـا يمكن الإشارة إلى حـادثـة مميـزة وقعت في الحـرب العـالميـة الثـانيـة؛ فالمعروف أن فـرقة المـظليين البريـطانية الأولى قـد نظمت في مصـر، في شباط ـ فبراير؛ ١٩٤٢، وتبنت شعاراً لها هـو «**الله ـ يا محمـد**». وقد ورد في يـوميات هـذه الفرقة ترجمة النص التالي: «**تبنت الفرقـة في تلك الفترة شعـاراً لها هـو: يا الله يـا محمد، لتكون صيحة حرب لها، فقد كـانت أصداء هـذه الصيحة تتـردد في وسط المرتفعات الرملية؛ فتثير في جنودنـا ـ الإنكليز ـ الحمـاسة؛ وتـدفعهم إلى أقصى حدود الشجاعة والتهور؛ وتبذر الرعب في قلوب أعدائنا. ويظهر أن هذا الشعار؛ ليس أكثر من تعبير كـان يستخدمـه العرب لإثـارة الشجاعـة في نفوسهم؛ فقلدهم الإنكليز تقليد القرود**»(١).

لقد أصبح (التحريض على القتال) في الأزمنة الحديثة علماً وفنـاً؛ تتعاون في سبيل إنجاحه مؤسسات وتنظيمات اجتماعية ونفسية ودينية وسيـاسية؛ بـل إن بعض الـدول العظمى عملت ـ بخـاصة فيمـا بعد الحـرب العالميـة الثانيـة ـ على تنـظيم أكـاديميات ـ مـدة الدراسـة فيها أربـع سنوات أو خمس سنـوات ـ لإعداد وتـأهيـل

---

(١) DU CIEL AU COMBAT (BY AIR TO BATTLE) CHARLES- LAVAUZELLE & Cie- PARIS- FRANCE- 1949 (P.65).

الموجِّهين السياسيين. وتختلف مناهج البحث والدراسة بحسب الدول؛ وبحسب تباين أهدافها الاقتصادية والسياسية والعقائدية الخ . . . وتعتمد المدارس الغربية بعامة على رجال الكنيسة المنتشرين في كل المدارس العسكرية والتشكيلات المقاتلة؛ بالإضافة إلى الخبراء الاختصاصيين في علم النفس والاجتماع، بحيث يعمل الجميع بمثابة فريق واحد من أجل الإعداد الفكري والنفسي للمقاتلين، وبكلمة أكثر وضوحاً (التحريض على الحرب). ويشترك في هذا التحريض الأدباء والشعراء، وحتى الفنانين من مغنين؛ وراقصين؛ وممثلين؛ وإعلاميين، لا سيما عندما تندلع الحرب، على نحو ما حدث في الحرب العالمية الثانية؛ وكذلك في الحروب التي أعقبت ذلك على نحو ما هو معروف وبخاصة الحرب الڤيتنامية، التي كانت مختبراً للدراسات الاجتماعية والنفسية الهادفة لرفع الروح المعنوية للمقاتلين و(التحريض على القتال). وقد يكون من المثير حقاً أن هذه الأبحاث والدراسات قد انتهت إلى نتيجة مشابهة لما قرره الإسلام قبل أربعة عشر قرناً في مسألة التحريض على القتال من حيث الاعتماد على الإيمان والتسليم بحقيقة أنه لا علاقة للإنسان بمسألة الحياة أو الموت؛ فهذه مسألة تعود ليد القدر؛ وليس على المقاتل إلا أن يقوم بواجبه دونما خوف من الموت. **فأي فارق كبير بين ما وعد الله به عباده المجاهدين في سبيله؛ وبين الاستسلام لحقيقة الموت وتجنب الخوف منه باعتبار تدخله خارج على إرادة الإنسان؟ وأي فارق مميز بين من يسعى لإحدى الحسنيين صابراً محتسباً؛ وبين من يستسلم للموت باعتباره حقيقة لا مفر منها؟ وهل يجب بعد ذلك البحث عن بدائل غير عربية ـ إسلامية في التحريض على القتال؟.**

مقابل ذلك؛ يعتمد (التحريض على القتال) في الكتلة الشرقية (الاتحاد السوڤييتي ومنظومة الدول الاشتراكية) على جهاز (الموجهين السياسيين ـ الحزبيين) الذين يعتمدون في توجيههم على المذهب الاشتراكي ومبادئه وتطوره ـ اقتصادياً وتاريخياً ـ وهم يرفعون من قيمة هذا المذهب إلى مرتبة العقيدة الدينية؛ مما يتضمن بالتالي محاربة الأديان الأخرى السماوية، وبخاصة الدين الإسلامي الذي كان هو المهيمن في منطقة ما وراء الأورال بداية من حوض الفولغا (تتار القرم) وجورجيا ومنطقة بحر قزوين، ونهاية بجمهوريات الشرق (أزبكستان وتركستان)، إلى جانب محاربة القوميات والنزعات الوطنية ـ كمثل محاولات الأرمن الاستقلالية والتي تستند

بدورها إلى جذور دينية ـ. ومعروف أن الاتحاد السوفييتي يضم قوميات لا عدد لها ولا حصر ـ تزيد على مائتي قومية رئيسة ـ. وقد ساعد فرض الاشتراكية على الحد من النزعات القومية؛ بل إنه سخَّر النزعات القومية لخدمة الاشتراكية. ولهذا فإن مسألة التحريض على القتال تأخذ هنا ظاهرة مذهبية حيث يرتبط (التحريض على القتال) بمبدأ (الدفاع عن الاشتراكية) في كل وطن اشتراكي. ويتم اختيار الموجهين السياسيين اختياراً دقيقاً، من بين العناصر المنتقاة في صفوف الشبيبة وفي الأجهزة الحزبية، كما يجري إعدادهم إعداداً إضافياً ـ وعالياً ـ في الأكاديميات الاختصاصية.

وهنا أيضاً تتشابه مسألة التحريض في ظواهرها مع دور رجال الدين في التحريض على القتال، غير أن هناك ثمة فارق كبير ومميز بين مضمون التحريض في العقيدة الدينية الإسلامية؛ وبين هذا المضمون في المذهب الاشتراكي.

ويعود السؤال: هل هناك ثمة حاجة للتخلي عن نهج برهن على فاعليته طوال أربعة عشر قرناً من عمر الزمن، من أجل الأخذ بنهج وضعي (مستورد) قد لا يتناسب مع أوضاع شعوب العالم الإسلامي؛ ويفقد هذه الشعوب مميزاتها وخصائصها التي شرفها الله بها منذ أن هداها الله إلى الإسلام.

قد يكون من المناسب بعد ذلك مطالعة نماذج من التحريض على القتال؛ مما حفظه أدب الحرب في الحرب العالمية الثانية، **ومن ذلك توجيه القائد العام لقوات الحلفاء ـ الجنرال دوايت أيزنهاور ـ عشية الإنزال في النورماندي (مساء يوم ٦ حزيران ـ يونيو ١٩٤٤) لقوات الغزو** ـ وهو التوجيه الذي جاء فيه:

«أيها الجنود! يا رجال البر والبحر والجو!

إنكم على وشك القيام بحملة مقدسة؛ صرفنا الكثير من الجهد والوقت في سبيل الاستعداد لها. إن أنظار العالم متجهة إليكم؛ وإن آمال الشعوب المحبة للحرية في كل مكان ترافقكم. إن مهمتكم عظيمة بقدر ما هي شاقة؛ غايتها سحق آلة الحرب الألمانية؛ والقضاء على جبروت النازيين؛ وإنقاذ العالم من قسوتهم وطغيانهم. إنكم ستواجهون جيشاً حسن التدريب؛ متمرساً بالحرب؛ كامل العدد والعدة، يعرف كيف يقاوم بعناد ويقاتل بشراسة. ولكن لا خوف ولا وجل؛ فاليوم غير البارحة؛ وسنة ١٩٤٤ هي غير سنة ١٩٤٠. بالأمس سيطرت ألمانيا لأنها تهيأت

للحرب؛ بينما كان غيرها يتهيأ للسلم. أما اليوم؛ فقد أصاب الحلفاء جيشها بجراحات أليمة، وأنزلوا به هزائم كبرى؛ كما أوقع سلاحنا الجوي بجهاز صناعة ألمانيا وخطوط مواصلاتها خسائر أنقصت من القدرة الانتاجية الألمانية؛ وأضعفت من تحركاتها الحربية، بينما زودتنا جبهاتنا الداخلية بأسلحة أقوى من الأسلحة الألمانية؛ ومعدات أشد فتكاً وأكثر وفرة بما لا يقاس، ووضعت بين أيدينا من الرجال المدرَّبين على القتال ما لا يحصى؛ مما جعل المد أن ينقلب لصالحنا. لقد بدأ الأحرار زحفهم، وإن لي الثقة الكاملة بشجاعتكم وإقدامكم وإخلاصكم لواجباتكم ومهارتكم في القتال. ولهذا فإني لا أقبل منكم أقل من النصر الكامل.

سيروا محروسين؛ وليسدد الله خطاكم؛ ويبارك عملكم، حتى تؤدوا المهمة التي اختاركم القدر لأدائها»(1).

ومقابل ذلك؛ فقد اجتاحت القوات الألمانية حدود الاتحاد السوفييتي في ليل ٢٢ حزيران - يونيو ١٩٤٢. **وفي يوم ٣ تموز - يوليو وجه جوزيف ستالين كلمة بالإذاعة شرح فيها الموقف على الجبهات** وأهاب بالشعب السوفييتي أن يحول النشاط الحيوي والاقتصادي في البلاد بما يتلاءم ومقتضيات الحرب ضد عدوٍّ قوي، وغادر؛ وجائر. ودعا ستالين الحزب والشعب أن يهبَّ إلى الكفاح المقدس ضد العدو، وأن يهجرا التواكل والغفلة؛ وأن يتسلحا باليقظة والحذر. وردد كلمات لينين **الوطن الاشتراكي في خطر**، وطرح الحزب شعاره: كل شيء للجبهة؛ كل شيء للنصر.

وعندما وصلت القوات الألمانية إلى موسكو وشرعت في تطويقها، أصدر المجلس الحربي للجبهة في ٢٠ تشرين الأول - أكتوبر ١٩٤٢ نداء جاء فيه: «أيها الرفاق! في ساعة الخطر الرهيب على وطننا ودولتنا؛ تصبح حياة كل مقاتل ملكاً للوطن. إن الوطن يتطلب من كل منا بذل طاقته الكاملة برجولة وبطولة وثبات. إن الوطن يدعونا أن نقف سداً منيعاً لسد الطريق أمام الفاشيست ومنعهم من الوصول إلى الأم موسكو؛ الآن وأكثر من أي وقت؛ يتطلب من كل منا اليقظة والانضباط الفولاذي والنظام والعمل الحاسم؛ والإرادة التي لا تقهر في النصر؛ والاستعداد للتضحية بالنفس»(2).

---

(1) حرب صليبية في أوروبا - دوايت أيزنهاور - دار اليقظة العربية - دمشق - ١٩٦٠ص١٦٨ - ١٦٩

(2) مذكرات جوكوف - وزارة الدفاع - دمشق - ١٩٧٢ ص ٢٨٢.

٥

المعاهدون والهدنة في الإسلام

أشرقت السماء والأرض بنور ربها، وجاء الحق وزهق الباطل؛ وأظهر الله دينه ونصره؛ وهاجر الرسول ﷺ وصحابته إلى المدينة المنورة؛ وبدأت مرحلة جديدة من مراحل حياة عباد الله على أرض الله؛ فكان لزاماً أن تنتظم نماذج جديدة من العلاقات. غير أن إقامة مثل هذه العلاقات يعني الاعتراف بوجود الإسلام والمسلمين؛ ولم يكن المشركون المعاندون يعترفون بوجود هذه القلّة المستضعفة، بحسب مقاييسهم الدنيوية في قياس القوة والضعف. ولكن (بدراً) و(أحداً) و(الخندق) وما سواها من الأيام أرغمت أعداء دين الله على الاعتراف بما كانوا ينكرونه؛ فبعثوا وفدهم إلى (الحديبية) في السنة السادسة للهجرة «**وتم الصلح على وضع الحرب عن الناس عشر سنين؛ يأمن فيهن الناس؛ ويكفّ بعضهم عن بضع . . . وأنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله وعهده دخل فيه؛ ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه**»[1].

وأنزل الله أمره إلى عباده المؤمنين فألزمهم كلمة التقوى؛ كلمة الوفاء للعهد وتجنب الغدر، في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا ٱلْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[3]، وقوله تعالى:

(١) الكامل في التاريخ ـ وتاريخ الطبري ـ (صلح الحديبية) أحداث سنة ٦ للهجرة.
(٢) سورة الإسراء ـ الآية ٣٤. (٣) سورة النحل ـ الآية ٩١.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

فالعهد هو عهد الله؛ ويد الله فوق يد المعاهدين؛ وليس على عباد الله المؤمنين برسالته إلا الوفاء لما عاهدوا الله عليه.

ومن المعروف أن أسباب نزول هذه الآيات قد اختلفت؛ وسواء ما نزل منها بشأن بيعة الرضوان؛ أو ما نزل بشأن صلح الحديبية؛ أو ما نزل بشأن أقوام أخرى؛ فالقاعدة الثابتة والمبدأ الراسخ هو إلزام المسلمين بالوفاء لما عاهدوا الله عليه. غير أن ما تضمنته معاهدة (صلح الحديبية) يستوقف كل متأمل؛ ويسترعي انتباه كل إنسان؛ وذلك بصرف النظر عن مواقف صحابة رسول الله ﷺ عندما تم عقدها؛ وبصرف النظر أيضاً عما حققته من النتائج إذ دخل في الإسلام خلال السنتين اللتين أعقبتا عقدها؛ أي حتى فتح مكة، أعداد تزيد على من دخل في الإسلام طوال العشرين سنة تقريباً والتي سبقت صلح الحديبية. فقد أتاحت فرصة السلم للناس بالتعرف على الإسلام وأهله، ومخالطتهم؛ فأقبل الناس يدخلون في دين الله أفواجاً.

بصرف النظر عن ذلك كله؛ **فالعلاقة المضيئة في نص المعاهدة هي تحديدها بمدة معينة (عشر سنوات)**. أما النقطة المضيئة الثانية فهي **شموليتها** - بحيث تضمن الأمن والسلام لكل القوى التي تقبل الانضواء تحت أي من الرايتين: راية الإسلام أو راية الشرك، فكان هذا تأكيداً بوجود جبهتين متقاتلتين، هما في حالة حرب دائمة؛ غير أنهما ارتضتا إيقاف الاقتتال بينهما لمدة زمنية محدودة؛ ولا تثريب؛ ولا بأس؛ أن يمتنع المسلمون عن الاحتكام للسلاح لمدة معينة إذا ما كان في ذلك خيراً ومصلحة لهم. وأما النقطة المضيئة الثالثة فهي - **الطوعية وعدم الإكراه**، في عقد المعاهدات (فمن أحب أن يدخل في عقد رسول الله وعهده دخل فيه؛ ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه).

ولكن إذا كان المؤمنون يعقدون عهودهم باسم الله الذي به يؤمنون مما يلزمهم

---

(١) سورة الفتح - الآية ١٠.

بالتالي بالوفاء؛ فإن المشركين لهم شأن آخر؛ أمرهم غير أمر المسلمين، ولهذا فنكث العهود ليس غريباً عليهم؛ والغدر منهم أمر متوقع وهذا ما أيده تعالى ـ عز من قائل ـ في آيات محكمات، منها: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] ومنها: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾[2] ومنها: ﴿ٱلَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾[3]. ولهذا فقد أذن الله للمسلمين بالتحلّل من عهودهم إذا ما نكثها المشركون بالله بقوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُم مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[4] إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُم مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِم عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[5].

ولقد كان أول نكث؛ هو نكث المشركين بصلح الحديبية؛ فكان فتح مكة. وكان (يهود بنو النضير)، من قبل، قد نكثوا (عقد الجوار) الذي عقده لهم رسول الله ﷺ، فأجلاهم رسول الله عن المدينة المنورة[6]. وكذلك؛ فقد غدر يهود (بني قريظة) بالمسلمين (في غزوة الخندق)، فما كان من الرسول ﷺ إلّا أن أعقب غزوة الخندق (غزوة الأحزاب) بغزوة (بني قريظة)، وفتح الله على المسلمين؛ وأخضعوا هذه الطائفة من اليهود[7].

وأصبحت معاهدة (صلح الحديبية) وما أعقبها من غدر بالمسلمين؛ وما أنجزه الله من وعد للمسلمين بالنصر؛ نهجاً ثابتاً؛ سار عليه العرب المسلمون؛ ومن جاء بعدهم في علاقاتهم مع المعاهدين؛ وأصبحت (قريظة وبنو النضير) بدورهما من

---

(١) سورة البقرة ـ الآية ١٠٠.
(٢) سورة الأعراف ـ الآية ١٠٢.
(٣) سورة الأنفال ـ الآية ٥٦.
(٤) سورة التوبة ـ الآية ١.
(٥) سورة التوبة ـ الآية ٤.
(٦) تاريخ الطبري ـ والكامل في التاريخ (ذكر خبر جلاء بني النضير) أحداث سنة ٤ للهجرة.
(٧) تاريخ الطبري ـ والكامل في التاريخ (غزوة بني قريظة) أحداث سنة ٥ للهجرة.

النماذج البارزة في علاقات المسلمين بسواهم من المعاهدين.

أما بالنسبة للعلاقات مع غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، فيمثلها (**عقد رسول الله ﷺ مع أهل اليمن**) والذي بدأه كما يلي: «بسم الله الرحمن من الرحيم - هذا بيان من الله ورسوله: ﴿**يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**﴾[1]» وختمه بفرض الجزية على أهل الذمة **الذين أصبحوا ذمة لأن لهم ذمة الله ورسوله**»[2]. وهذه الذمة؛ تعني التزام المسلمين بحماية الذميين، وتأمينهم؛ والدفاع عنهم؛ وضمان حرياتهم، ومنها الحريات الدينية؛ مقابل جزية (تشابه وتقابل البدل الذي يدفعه المجندون في الأزمنة الحديثة لقاء إعفائهم من خدمة العلم أو الخدمة الإلزامية).

وإذن فهناك نوعان من المواثيق التي نظمها الإسلام وهما (العهود) للقوى المعادية (والعقود) لليهود والنصارى الذين يفضلون البقاء على دينهم؛ مع تكليف المسلمين بحمايتهم وضمان حقوقهم. وجاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب؛ رضي الله عنه؛ فأدخل تعديلاً على (العهود والعقود)، وهو ما يتضمنه النص التالي: «**فإن تحصَّنوا منكم في حصن فسألوكم أن ينزلوا على حكم الله وحكم رسوله؛ فلا تنزلوهم على حكم الله؛ فإنكم لا تدرون ما حكم الله ورسوله فيهم؛ وإن سألوكم أن ينزلوا على ذمة الله وذمة رسوله فلا تعطوهم ذمة الله وذمة رسوله؛ وأعطوهم ذمم أنفسكم**»[3].

ذلك أن الرسول ﷺ؛ كان يتنزل عليه الوحي، فيحكم بما أنزله الله عليه؛ أما المسلمون فلا يعرفون حكم الله ورسوله، وليس لهم إلا ذمم أنفسهم يملكونها؛ ويلتزمون بها، ويجير بها أدناهم، فيأخذون بها جميعاً.

وانطلق العرب المسلمون إلى دنيا الفتوح وهم يعرفون جيداً قواعد إقامة المجتمع العربي - الإسلامي الجديد. فهناك المسلمون؛ وهناك أهل ذمة (أو أصحاب عقود) وهناك أهل حرب يمكن أن يصبحوا إما مسلمين أو أصحاب عقود أو

---

(١) سورة المائدة - الآية ١.

(٢) تاريخ الطبري - أحداث سنة ١٠ هـ.

(٣) تاريخ الطبري (خبر سلمة بن قيس الأشجعي والأكراد) أحداث سنة ٢٣ هـ (١٨٧/٤).

(أصحاب عهود ـ معاهدين ـ). وهذا ما ردده قادة العرب المسلمين في كل لقاء لهم مع أعداء الإسلام وأهله؛ وهذا ما كانت تتضمنه توصيات أمراء المؤمنين إلى أمراء الأجناد وعمال الخراج؛ وفي رسالة لخالد بن الوليد؛ يمكن قراءة ما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس؛ أما بعد، فأسلموا تسلموا؛ وإلا فاعتقدوا مني الذمة؛ وأدوا الجزية؛ وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر».

وصالحت أقوام خالد بن الوليد؛ واكتتب عمال الخراج؛ وكتبوا البراءات لأهل الخراج من نسخة واحدة: «بسم الله الرحمن الرحيم. براءة لمن كان من ـ كذا وكذا ـ من الجزية التي صالحهم عليها الأمير خالد بن الوليد؛ وقد قبضت الذي صالحهم عليه خالد؛ وخالد والمسلمون لكم يد على من بدل صلح خالد؛ ما أقررتم بالجزية وكففتم؛ أمانكم أمان؛ وصلحكم صلح؛ نحن لكم على الوفاء ـ وشهد هشام والقعقاع وجابر بن طارق وجرير، أو بشير، أو حنظلة، وأزداذ والحجاج بن ذي العنق، ومالك بن زيد».

وكذلك، فقد كتب أهل الحيرة لخالد: «إنا قد أدينا الجزية التي عاهدنا عليها خالد العبد الصالح والمسلمون عباد الله الصالحون؛ على أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم»[1].

ومن وصايا عمر، ما كتبه إلى عامله على البصرة ـ عتبة بن غزوان ـ: «أعزب الناس عن الظلم؛ واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغي؛ فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه؛ وقد تقدم إليكم فيما أخذ عليكم؛ فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً».

وبلغ عمر أن حرقوص بن زهير قد نزل جبل الأهواز، والناس يختلفون إليه؛ والجبل كؤود ـ صعب ـ على من رامه؛ فكتب إليه: **«بلغني أنك نزلت منزلاً كؤوداً لا تؤتى فيه إلا على مشقّة؛ فأسهلْ ولا تشقَّ على مسلم ولا معاهد؛ وقم في أمرك على**

---

(١) تاريخ الطبري (خبر ما بعد الحيرة) أحداث سنة ١٢ هـ (٣/ ٣٧٠ ـ ٣٧١).

رجْـل؛ تدرك الآخـرة؛ وتصف لك الـدنيا؛ ولا تـدركنك فتـرة ولا عجلة؛ فتكدر دنياك؛ وتذهب آخرتك»[1].

ويظهر هنا أن عمر قد ساوى بين المسلمين وبين المعـاهدين من حيث تحقيق العـدل؛ وتجنب الظلم. وقـد يكون مثـل هذا الاهتمـام من أمير المؤمنين عمـر بن الخطاب رضي الله عنه؛ بمسألة الوفاء لأهل الذمة والمعاهدين؛ هو أمر طبيعي؛ إذ أن أوامـر الله في محكم تنزيله وسنـة نبيـه؛ قـد حـددت النهـج الـواضـح للعـرب المسلمين؛ جنـد الله وحاملي رسـالته. ولهـذا فقد أظهـر أمير المؤمنين عمـر ضيقه وانزعاجه من نكث أهل الذمة والمعاهدين على حدود بلاد فـارس؛ فلما جـاءه وفد منهم جلس إليهم؛ وسألهم: «لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى وبأمور لها ما ينتقضون بكم؟ فقالوا: ما نعلم إلا وفاء وحسن ملكة. قال: فكيف هذا؟ فلم يجد عند أحد منهم شيئاً يشفيه ويبصر به مما يقولون؛ إلا ما كان من الأحنف بن قيس الذي قال: يا أميـر المؤمنين! أخبرك أنـك نهيتنا عن الانسيـاح في البلاد؛ . . . وإن ملك فارس حي بين أظهرهم. . وهـو الذي يبعثهم. . » وأذن عمـر للمسلمين بفتح بـلاد فارس وإزالة ملك فارس عن مملكته؛ حتى يتوقف التحريض الخارجي.

وحـدث عند (فتـح السوس) أن قـرر ملك السـوس ومستشـاروه الـدخـول في الإسـلام؛ وأرسلوا وفداً من عشـرة أساورة إلى أبي مـوسى الأشعري بـرئاسـة رجل منهم ـ اسمه (شيرويه) ـ لأخذ شروط من موسى. وقابل الوفد أبو موسى وقال شيرويه له: «**إنا قـد رغبنا في دينكم؛ فنسلم على أن نقـاتل معكم العجم ولا نقـاتل معكم العرب؛ وإن قاتلنا أحد من العرب منعتمونا منه؛ وننزل حيث شئنا؛ ونكـون فيمن شئنا منكم؛ وتلحقونا بأشرف العطاء؛ ويعقد لنا الأمير الذي هو فوقك بذلك**» فرد أبو موسى: «**بل لكم ما لنا وعليكم ما علينا**» قالوا: «لا نرضى». وكتب أبو مـوسى إلى عمر بن الخطاب: فرد عليه: «**أعطهم ما سألوك!**» فكتب لهم أبو موسى؛ فـأسلموا وشهدوا معه حصار (تستر)، فلم يكن أبـو موسى يـرى منهم جداً ولا نكـاية. فقـال لسياه: «يا أعور! ما أنت وأصحابك كما كنا نرى؟!» فقال سياه: «**لسنا مثلكم في هذا**

---

(١) تاريخ الطبري (فتح تستر) أحداث سنة ١٧ هـ (٤/ ٧٨).

الدين؛ ولا بصائرنا كبصائركم؛ وليس لنا فيكم حُرَم نحامي عنها؛ ولم تلحقنا بأشرف العطاء ولنا سلاح وكراع وأنتم حسر». فكتب أبو موسى إلى عمر في ذلك؛ فكتب إليه عمر: «**ألحقهم على قدر البلاء في أفضل العطاء؛ وأكثر شيء أخذه أحد من العرب**» ففرض لمائة منهم في ألفين ألفين؛ ولستة منهم في ألفين وخمسمائة[1]. وأحسن هؤلاء البلاء، وبذلوا أحسن الجهد؛ وفتحوا بعض الحصون. ثم اقتحم المسلمون بجموعهم (مدينة السوس) فألقى المشركون ما بأيديهم وتنادوا: الصلح؛ الصلح. وأمسكوا بأيديهم؛ فأجابوهم إلى ذلك بعدما دخلوها عنوة. فكانت قصة فتح السوس كقصة فتح دمشق من قبل؛ فتحها العرب المسلمون عنوة واقتداراً، ثم صالحوا أهلها وأمنوهم وعقدوا لهم عقداً بالصلح.

وتبقى هناك قصة فتح (**جندي سابور**) من القصص البارزة للوفاء في سيرة الفتح. فقد وصل جند الله إلى مدينة جندي سابور؛ (بعد أن فتحوا السوس) وأقاموا على حصارها؛ وهم يغادون أهلها القتال ويراوحونهم. ولم يفجأ المسلمون إلا وأبوابها تفتح؛ ثم خرج السرح ـ الأغنام والخيول وسواها ـ وخرجت الأسواق؛ وانبث أهلها، فأرسل المسلمون يسألون: «ما لكم؟» وأجاب أهل جندي سابور: «**رميتم إلينا بالأمان فقبلناه، وأقررنا لكم بالجزاء على أن تمنعونا**». فقال المسلمون: «ما فعلنا». وأجابهم أهل جندي سابور: «ما كذبنا» فسأل المسلمون فيما بينهم؛ فإذا عبد يدعى ـ مكنفاً ـ كان أصله منها؛ هو الذي كتب لهم. فقال المسلمون: «إنما هو عبد». **فقالوا: «إنا لا نعرف حركم من عبدكم. قد جاء أمان فنحن عليه قد قبلناه؛ ولم نبدل؛ فإن شئتم فاغدروا»**. فأمسكوا عنهم؛ وكتبوا بذلك إلى عمر؛ فكتب إليهم: «**إن الله عظم الوفاء؛ فلا تكونون أوفياء حتى تفوا؛ ما دمتم في شك أجيزوهم ووفوا لهم». فوفوا لهم؛ وانصرفوا عنهم.**

---

(١) وفي ذلك قال الشاعر:

ولما رأى الفاروق حسن بلائهم	وكان بما يأتي من الأمر أبصرا
فسن لهم ألفين وقد رأى	ثلاثمئين فرض عك وحميرا

وانظر تاريخ الطبري (ذكر فتح السوس) أحداث سنة ١٧ هـ (٤/ ٨٩ ـ ٩١).

تكـاد قصص (المعاهـدات) و(المعاهـدون) تكون قصصـاً متشابهـة، ويمكن تجاوزها إلى ما حدث أيام (الحروب الصليبية) التي بدأت سنة ٤٩٢ هـ ـ ١٠٩٨ م باستيلاء الفرنج الصليبيين على القدس؛ ومرت على ذلك زهاء ستين سنة؛ والاقتتال مستمر بين الفرنج الذين كانوا يحاولون جهدهم للاستيلاء على بلاد جـديدة؛ وبين المسلمين الذين كانوا يعملون بأكثر مما يستطيعون لإعادة تنظيم قواتهم وإيقاف المد الصليبي. وحـدث في سنة ٥٥٤ هـ ـ ١١٥٩ م أن تقـدم ملك الروم البيـزنـطيين ـ مانويل ـ بجيشه ودخل أنطاكية لإثبات سيادته المعنـوية على الفـرنج؛ **ولم يكن من مصلحة المسلمين أن تنضم قوة الروم إلى قوة الفرنج**؛ كما لم يكن من مصلحة الروم إضعاف قوة المسلمين التي كان لها دورها في إرغام الفـرنج على قبـول سيادة ملك الروم؛ **فتم عقد هدنة بين (نور الدين زنكي وبين مانويل). ووافق ملك الروم على تأجيل حملته مقابل إطلاق سراح ستة آلاف من أسرى المسيحيين الذين كـانوا في سجـون المسلمين**. وقد اغتـاظ أمراء الفـرنج من هـذه الهدنـة؛ غيـر أنـه لم يكن باستطاعتهم التدخل فيما قرر ملك الـروم إنجازه. ولم تنعقـد مثل هـذه الهدنـة مع الفرنج إلا في سنة ٥٧١ هـ ـ ١١٧٥ م، عندمـا وجد صـلاح الدين الأيـوبي أن من مصلحة المسلمين عقد هدنة مع الفرنج؛ مقابـل إطلاق سـراح الأسرى المسيحيين الذي كانوا في سجون المسلمين؛ غير أن الفرنـج نقضوا الهـدنة في السنـة التاليـة فتجدد القتال[١].

وفي سنة ٥٧٦ هـ ـ ١١٨٠ م وقعت في معسكر الفـرنج مجـاعة قـاسية خـلال فصل الشتاء؛ وأحرز المسلمون انتصارات كبيرة في البر والبحر بقيادة صلاح الدين الأيوبي؛ فأرسل ملك القدس بطلب الهدنة؛ **ووافق صلاح الدين على هدنة مدتهـا سنتين**، كما عقد صلاح الدين هدنة مماثلة مع كونت طرابلس ـ ريموند ـ. ولكن أمير الكرك ـ رينالد شاتيون ـ وتذكره المصادر العربية باسم أرناط ـ نقض الهدنة في السنة التالية؛ ٥٧٧ هـ ـ ١١٨١ م فانقض على قافلة تجـارية للمسلمين كـانت متجهة من بلاد الشام إلى مكة؛ وقتل حرسها؛ واستـولى عليها؛ ولم يتمكن ملك القـدس من

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية (ستيفن رنسيمان) دار الثقافـة ـ بيروت ـ لبنـان ـ ١٩٦٨ (٥٧٢/٢ و ٦٦١ و ٦٧٩ و ٧١٩ و ٧٢٨).

الاستجابة لطلب صلاح الدين، بإعادة القافلة؛ والتعويض على من قتلهم؛ فكان لا بد من تجدد الحرب.

توفي ملك القدس سنة ٥٨١ هـ ـ ١١٨٥ م، واتفق أمراء الفرنج الصليبيين على طلب الهدنة من صلاح الدين؛ وكان صلاح الدين بحاجة لمثل هذه الهدنة لتسوية بعض المشكلات الداخلية وإعادة تنظيم القوات؛ **فتم عقد هدنة لمدة أربع سنوات**؛ غير أن أمير الكرك ذاته ـ رينالد شاتيون ـ عاد فنقض الهدنة في السنة التالية وهاجم قافلة تجارية للمسلمين كانت قريبة من مؤاب. وكان لا بد من تجدد الحرب؛ فقرر أمير طرابلس ـ ريموند ـ عدم التورط بحرب في ظروف لم تكن من مصلحة الفرنج في تلك الفترة؛ فسارع لتجديد الهدنة مع صلاح الدين؛ وأفاد صلاح الدين من هذه الهدنة لإرسال قواته عبر الجليل الذي كان إمارة لزوجة ريموند، حيث وقعت معركة (عيون كريسون) سنة ٥٨٣ هـ ـ ١١٨٧ م، وجرى فيها ذبح قوات من فرسان الطائفتين الدينيتين: الداوية والاسبتارية. وكان هذا النصر هو طليعة النصر الكبير الذي أنزله الله على المسلمين في (حطين)[1].

ولم يكن المسلمون بعدئذ بحاجة للهدنة؛ كما لم يكن باستطاعة الفرنج طلب مثل هذه الهدنة؛ فاستمر الاقتتال الذي زاد من حدته وصول الحملة الصليبية الثالثة (بقيادة ملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد). غير أن فشل هذه الحملة في استعادة القدس؛ حمل الفرنج والمسلمين على التماس الطريق للهدنة؛ وجرت المفاوضات بصورة متقطعة؛ على امتداد سنة كاملة تقريباً. وأخيراً تم عقد هذه الهدنة بين ممثلين عن صلاح الدين وريتشارد ملك انكلترا ـ **لمدة خمس سنوات** ـ وسمح بموجبها للمسيحيين الحجاج بزيارة القدس؛ ومنح الحرية للمسلمين والمسيحيين في أن يجتاز كل فريق منهم بلاد الفريق الآخر. (وقد جرى التوقيع على هذه الهدنة يوم ٢ أيلول ـ سبتمبر ١١٩٢ م).

غير أن هذه الهدنة لم تمنع وقوع مجموعة من المعارك والاشتباكات، حتى إذا ما كانت سنة ٥٩٥ هـ ـ ١١٩٨ م، انعقدت هدنة جديدة بين الملك العادل الأيوبي وملك قبرص ـ إملريك ـ الذي حمل، في الوقت ذاته اسم ملك مملكة القدس

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنتي ٥٨٢ و٥٨٣ هـ.

(الضائعة)، وحددت مدة هذه الهدنة **بخمس سنوات وثمانية أشهر**، وتم بموجبها إلحاق (يافا)-بالملك العادل مقابل حيازة الفرنج لمدينتي جبيل وبيروت؛ مع اقتسام مدينة صيدا بين الطرفين[1].

ولم يكن من السهل على الفرنج المحافظة على السلام؛ بسبب وصول قوات من الغرب ما جاءت إلا للقتال. فكان لا بد من وقوع معارك متفرقة؛ لم تفسد بصورة عامة الهدوء الذي كان الطرفان المتقاتلان يحرصان على تأمينه. **فتم تجديد الهدنة لمدة ست سنوات (اعتباراً من سنة ٦٠١ هـ - ١٢٠٥ م)** بين العادل وإملريك؛ وتنازل العادل بموجبها للفرنج عن يافا والرملة، وتعهد بتسهيل زيارة الحجاج المسيحيين للقدس والناصرة.

وتجددت الهدنة بين العادل وملك عكا (يوحنا بريين) الذي أصبح الملك الاسمي لمملكة القدس؛ **وذلك لمدة خمس سنوات**؛ بدأ العمل بها في تموز - يوليو ١٢١٢ م. وأرسل يوحنا إلى روما رسائل تطلب إلى البابا عدم إرسال حملات صليبية جديدة قبل انتهاء أجل هذه الهدنة.

ومن المعروف بعدئذ أن حملة صليبية جديدة نزلت بمصر (في ٢ ربيع الأول ٦١٥ هـ/ ٢٤ أيار - مايو ١٢١٨ م)، ووصلت إلى دمياط واحتلتها. واستطاع أبناء العادل (الكامل أمير مصر، والمعظم أمير حماه) إيقاف الفرنج في مصر؛ وعرض عليهم الصلح للانسحاب من مصر مقابل إعادة القدس وقلب فلسطين والجليل للصليبيين. لكن الفرنج رفضوا هذا العرض، واستمر الاقتتال، **حتى انسحب الفرنج من مصر (في ٢٦ آب - أغسطس ١٢٢١ م) بموجب هدنة مدتها ثماني سنوات.**

وتم تبادل الأسرى من الجانبين وجاءت حملة صليبية بقيادة الأمبراطور فريدريك الألماني، ونزلت في عكا سنة ٦٢٦ هـ - ١٢٢٨ م. وكان الاقتتال بين الأمراء الأيوبيين (الكامل في مصر؛ والمعظم في الشام، والأشرف في إقليم الجزيرة؛ وابن

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية (ستيفن رنسيمان) ١٣٨/٣ و ١٨٠ و ١٨٨ و ٢٤٠ و ٣٠٠ و ٣٠٨ و ٣٣٠ و ٣٦٤.

أخيهم الناصر داود في دمشق) قد وصل ذروته مما ساعد **فريدريك على فرض معاهدة على السلطان الكامل (في ١٨ شباط - فبراير ١٢٢٩ م) لمدة عشر سنوات بالتاريخ الشمسي (عشر سنوات وخمسة أشهر هجرية) ونصت على إعادة مدينة القدس وبيت لحم والناصرة وغرب الجليل إلى الفرنج الصليبيين. وكان من نتيجة هذه المعاهدة إعلان الحداد في العالم الإسلامي.**

واستمرت هذه الهدنة حتى سنة ٦٣٥ هـ - ١٢٣٧ م، حيث قام فرسان الطوائف الدينية بمهاجمة قبائل التركمان؛ ثم قاموا بالهجوم على قلعة (درب ساك). وفي المرتين خرج جيش حلب فأنزل بالفرنج خسائر كبيرة، وقام بمحاصرة (قلعة بغراس) مما أرغم الفرنج على تحديد الهدنة مقابل دفع مبالغ كبيرة لافتداء الأسرى. ووافق البابا على هذه **الهدنة التي حددت مدتها بعشر سنوات**، وكان لزاماً على البابا أن يؤدي معظم الأموال اللازمة للفدية[١].

ويظهر أن أنطاكية التي عقدت هذه الهدنة؛ قد عقدتها بصورة منفصلة ومستقلة عن تلك المعاهدة التي كانت معقودة ما بين الكامل وفريدريك، والتي ما إن اقترب موعد انتهائها؛ حتى أوفد البابا في سنة ٦٣٧ هـ - ١٢٣٩ م مندوبين عنه إلى فرنسا وإنكلترا لإرسال حملة صليبية جديدة. ولما كان السلطان الكامل قد مات في السنة السابقة (٦٣٦ هـ - ١٢٣٨ م) فقد أراد الفرنج الإفادة من النزاع الذي نشب بين ورثته للحصول على امتيازات سخية من كل من الأحزاب المتناحرة أو منها جميعاً، لا سيما من الصالح أيوب حاكم مصر والصالح إسماعيل حاكم دمشق: فاستعادوا بذلك صفد وهونين وعسقلان، ثم أضيف إليها جبل الطور وطبرية. وبذا استعادت مملكة القدس ما كانت قد فقدته من أراضي الضفة الغربية للأردن التي امتدت حتى أرباض غزة - باستثناء نابلس وإقليم السامرة -.

غير أن هذه الانتصارات الديبلوماسية لم تعمر طويلاً، ففي سنة ٦٤٢هـ - ١٢٤٤ م وصلت قوة من (فرسان الخوارزمية) فطردوا الفرنج من القدس ومن الجليل، ثم انسابوا جنوباً؛ وانضموا إلى جيش الصالح أيوب في مصر؛ ودعموه

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ٣/ ٣٣٠ و ٣٦٤ و ٣٧٠.

في قتاله ضد الفرنج وضد أمير دمشق (الصالح إسماعيل) الذي كان يتعاون مع الفرنج، وفقد الفرنج ما حازوه من ممتلكات في فلسطين. والأهم من ذلك هو أن المسلمين قد استعادوا القدس من جديد.

جاءت حملة صليبية بقيادة ملك فرنسا (لويس التاسع) فنزلت في مصر (سنة ٦٤٧ هـ - ١٢٤٩ م) ووصلت إلى دمياط. وتوفي الملك الصالح أيوب؛ وقامت زوجته (شجرة الدر) بإدارة الأمور بمعاونة قائد الجيش (أتابك) عز الدين أيبك؛ وفشلت قوات الصليبيين في الاستيلاء على المنصورة التي نظم (ركن الدين بيبرس البندقداري) الدفاع عنها (وذلك سنة ٦٤٨ هـ - ١٢٥٠ م). ولم يلبث ملك فرنسا أن وقع في أسر المسلمين - ومعه عدد كبير من أمرائه - فاضطر لدفع فدية كبيرة وانسحب وبقية قوات حملته إلى (عكا).

وخلال ذلك ظهر خطر المغول التتار القادم من الشرق فجرى عقد معاهدة مع الفرنج لمدة عشر سنوات (بين حاكم مصر عز الدين أيبك والملك لويس التاسع وذلك في سنة ٦٥٣ هـ - ١٢٥٥ م) بينما كان الملك لويس التاسع قد عقد هدنة مماثلة مع دمشق في ٢١ شباط - فبراير ١٢٥٤، حددت مدتها بسنتين وستة أشهر وأربعين يوماً.

وقد ظهرت أهمية هذه الهدنة في سنة ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م، عندما وقعت معركة (عين جالوت)، إذ أفاد المسلمون من الهدنة في تحركهم من مصر إلى عين جالوت على طريق الساحل حتى عكا، علاوة على منع الفرنج من التعاون مع المغول (باستثناء إمارتي أنطاكية وأرمينية اللتين تحالفتا مع المغول، وقدمتا جيشيهما لمرافقة جيش المغول خلال تقدمه في بلاد الشام). ولهذا فقد كان أول عمل للظاهر بيبرس، بعد انتصار المسلمين في عين جالوت، هو قيادة جيوش المسلمين لإعادة فتح (أنطاكية) وطرد الفرنج الصليبيين منها (سنة ٦٦٧ هـ - ١٢٦٨ م) ثم اجتياح أرمينية وتدميرها. **وفي سنة ٦٦٩ هـ - ١٢٧٠ م، تم عقد هدنة لمدة عشر سنوات بين بيبرس وأمير طرابلس (بوهمند)** ضمنت لهذه المدينة بقاء الفرنج فيها لفترة إضافية. **وفي سنة ٦٧١ هـ - ١٢٧٢ م**، وكان قد تم إخراج الفرنج الصليبيين من معظم القلاع والحصون الساحلية، **جرى عقد هدنة مع عكا لمدة عشر سنوات وعشرة شهور.**

وتجددت هذه **الهدنة لمدة عشر سنوات أخرى** (جددها السلطان قلاوون الذي خلف الظاهر بيبرس بعد وفاته سنة ٦٧٦ هـ ـ ١٢٧٧ م). **وقد عقدت هذه الهدنة في حزيران ـ يونيو ـ سنة ١٢٨١ م** وكان هدف السلطان قلاوون من عقدها: هو التفرغ لقتال المغول التتار الذين حاولوا من جديد الهجوم على بلاد الشام؛ فتم دحرهم قرب حمص في سنة ٦٨٠ هـ ـ ١٢٨١ م. ولما لم تكن مدينة اللاذقية مشمولة بهذه الهدنة باعتبارها كانت تابعة لإمارة أنطاكية، التي سبق أن تم طرد الفرنج منها؛ فقد عمل السلطان قلاوون على إعادة فتحها وطرد الفرنج منها؛ وأتبع ذلك بإعادة فتح طرابلس؛ وطرد الفرنج منها سنة ٦٨٨ هـ ـ ١٢٨٩ م. وكان باستطاعة عكا أن تنعم بالهدوء؛ مستفيدة من الهدنة المعقودة مع المسلمين، غير أنه حدث في **سنة ٦٨٩ هـ ـ ١٢٩٠ م**، أن قام الفرنج بإجراء مذبحة سقط فيها عدد كبير من المسلمين الذين كانوا يفدون إلى عكا للتجارة، فغضب السلطان قلاوون، وأقسم ألّا يترك في عكا مسيحياً واحداً؛ ودارت مناظرة بين فقهاء المسلمين؛ أقر فيها الفقهاء شرعية قتال الفرنج الذين نقضوا الهدنة. وتوفي السلطان قلاوون، بينما كان يستعد لقيادة الحملة لإعادة فتح عكا، فقام ابنه الأشرف خليل بفتح عكا وطرد الفرنج منها، ولم تعد هناك حاجة لمعاهدات الصلح أو الهدنة.

إذا كانت قصة الفتوحات العربية ـ الإسلامية؛ في جانب من جوانبها على الأقل؛ هي قصة وفاء المسلمين لعقودهم ومواثيقهم مقابل غدر أعداء الإسلام والمسلمين ونكثهم للعهود والمواثيق. وكذلك إذا كانت قصة انتصار المسلمين في الحروب الصليبية القديمة على أرض بلاد الشام؛ هي بدورها قصة وفاء المسلمين لعقودهم ومواثيقهم مقابل غدر الفرنج الصليبيين بها والتنكر لها، فقد جاءت فتوحات المسلمين العثمانيين وانتصاراتهم على الفرنج الصليبيين في أوروبا وهي تحمل الأسباب والحجج ذاتها.

ومن المعروف أن السلطان العثماني (أرطغرل) قد توفي سنة ٦٨٧ هـ ـ ١٢٨٨ م، وخلفه أكبر أولاده عثمان الذي اعتبر مؤسس الدولة العثمانية، وكان ذلك متوافقاً في توقيته مع طرد آخر بقايا الفرنج الصليبيين من بلاد الشام. فشرع العثمانيون في توطيد سلطانهم في آسيا الصغرى ـ الأناضول. وكان لا بد من الصدام

مع القوى المحيطة بهم، غير أنه لم تكن تتوافر لهم القدرة القتالية الكافية لمجابهة كل خصومهم في وقت واحد؛ فكان لزاماً عليهم تحقيق التوازن بين العمل السياسي (الديبلوماسي) وبين العمل العسكري. وقد يكون من الصعب جداً الإحاطة بمجموع الأعمال الديبلوماسية (المتمثلة بالمعاهدات والاتفاقات) مع ما يقابلها وما يتفرع عنها؛ وما يلازمها من الأعمال القتالية لسببين على الأقل:

أولهما: كثرة مراكز القوى التي جابهت الدولة العثمانية؛ وتحالفت معها أحياناً وحاربتها في أحيان أخرى؛ إذ كانت كل مدينة وكل جزيرة تشكل في تلك الحقبة التاريخية دولة (ملكية أو إمارة أو جمهورية) وكانت كل واحدة تدخل في أحلاف معقدة لإقرار السلم أو خوض الحرب.

وثانيهما: كثرة التقلبات في التحالفات، وفي القيادات؛ وعلى هذا فقد يكون من المناسب التوقف عند أبرز الشواهد التي يقتضيها مجرى البحث.

لقد أقام العثمانيون كيانهم على تخوم الأمبراطورية البيزنطية؛ ولم تكن العلاقة بين العثمانيين والروم البيزنطيين علاقة عدوانية؛ ويذكر أنه في سنة ٧٥٦ هـ - ١٣٥٥ م استنجد ملك الروم - جان باليولوج - بالسلطان العثماني أورخان الأول، لمحاربة ملك الصرب دوشان الذي أغار على الحدود الغربية لأمبراطورية الروم. وعرض ملك الروم على أورخان أن يزوجه ابنته مقابل هذه المساعدة؛ واستجاب أورخان للطلب؛ فأرسل جيشاً ضخماً عبر الدردنيل، ونزل على أرض أوروبا؛ ولم يحدث قتال؛ غير أن هذه العملية كانت بمثابة غزوة استطلاعية أفاد منها العثمانيون فاستولوا على (غاليبولي وأبسالا ورودوستو) من المدن الواقعة على بحر مرمرة. وتبع ذلك احتلال (فيليبوبوليس وورد ار، وكوموتيني) فصارت مدينة القسطنطينية بذلك معزولة عن الإمارات المسيحية في أوروبها؛ وأصبحت الدولة العثمانية متاخمة لإمارات الصرب والبلغار وألبانيا.

وكان بالمستطاع استمرار التحالف بين ملك الروم والعثمانيين والذي ساد في فترة حكم خامس الخلفاء العثمانيين محمد جلبي (٨١٦ - ٨٢٤ هـ/ ١٤١٣ - ١٤٢١ م) غير أن قدوم حملات صليبية من الغرب؛

ودور ملك الروم التحريضي ضد العثمانيين؛ ووجود القسطنطينية بمثابة جيب خطر على مؤخرة العثمانيين، كل ذلك أدى بالسلطان محمد الفاتح إلى فتح القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ - ١٤٥٣ م، وذلك بعد أن تم حصارها مرات متتالية خلال السنوات التي سبقت الفتح.

كانت مملكة الصرب وإمارة بلغاريا أول من تحرك لمجابهة العثمانيين؛ فأرسل ملك الصرب (أوروك) طلباً إلى البابا أوربانوس حثّه فيه على تحريض ملوك أوروبا المسيحيين لإرسال نجدات للقضاء على العثمانيين. وتوافدت قوات من البوسنة والأفلاق (الفلاخ - أو والاشيا) والمجر، فسار بهم أوروك لمهاجمة مدينة (أدرنة)، غير أن العثمانيين باغتوا تجمع قوات الصليبيين **في ليلة مظلمة عند نهر ماريتزا في بلغاريا**؛ وجرت مقتلة عظيمة لم ينج منها إلا من سارع بالفرار. **وأدى هذا النصر الحاسم في سنة ٧٦٦ هـ - ١٣٦٣ م** إلى عقد أول صلح مع جمهورية راغوزة (دوبرونيك في يوغوسلافيا حالياً). فكانت هذه أول معاهدة ودية وتجارية عقدت بين الدولة العثمانية وبين دولة مسيحية؛ تعهدت فيها راغوزة بدفع ٥٠٠ دوكا ذهب للدولة العثمانية؛ مقابل حمايتها لها. وحاول ملك الصرب وأمير البلغار إقامة تحالف بينهما لقتال المسلمين؛ غير أنهما سرعان ما أدركا أنهما أعجز من خوض الحرب ضد العثمانيين، **فعقدا مع السلطان مراد الأول صلحاً تعهدا فيه بدفع جزية سنوية، وتزوج السلطان مراد بنت أمير البلغار؛ وذلك سنة ٧٨١ هـ - ١٣٧٩ م، ولكن ملك الصرب وأمير بلغاريا نكثا العهد؛ في سنة ٧٨٣ هـ - ١٣٨١ م**؛ فتوجه جيش عثماني إلى صوفيا (عاصمة بلغاريا حالياً) وفتحها مع مدن أخرى منها سلانيك وموناستير وبرليه وأستيب (في يوغوسلافيا حالياً). ولكن هذه النتيجة لم تقنع ملك الصرب بالعدول عن سياسته العدوانية؛ فتحالف مع أمير البلغار (سيسمان) سنة ٧٨٨ هـ - ١٣٨٦ م. وسارع الجيش العثماني - الإسلامي فاحتل توفوه (تيرنوفو) وشومن (في بلغاريا حالياً)؛ وضم السلطان مراد الأول نصف بلغاريا إلى بلادة، وعين أمير البلغار حاكماً على النصف الثاني من بلاده - بعدما أطلق سراحه من الأسر - وذلك ليحكمها بموجب قوانين البلغار وأعرافهم؛ وحتى لا يشغل العثمانيون أنفسهم بصراعات عقيمة. . أما ملك الصرب - لازار - فقد تمكن بعد فراره من إعادة تنظيم قواته وضم إليه قوات من ألبانيا (الأرناؤود - أو الأرناؤوط) وتوجه لقتال العثمانيين؛

فلحق بـه السلطان مراد في سهـل (قوص أوه) ودارت معـركة رهيبـة؛ انتصـر فيهـا المسلمون على الصربيين **وبذلك تم ضم الصرب نهائياً للدولة الإسلامية.**

بـدأ السلطان بـايـزيـد الأول حكمـه سنـة ٧٩١ هـ ـ ١٣٨٨ م بتعيين الأميـر أسـطفـان بن لازار ملكـاً على الصـرب ليحكم بـلاده بحسب قـوانين تلك البـلاد وأعرافها؛ وبشرط دفع جزية معينـة؛ وتقديم عـدد معين من الجنود لـدعم الجيوش العثمانية في حالة الحـرب. وقد ظهـرت فائـدة هذا الإجـراء بعدئـذ عندمـا زحف العثمـانيـون لفتـح الفـلاخ (الأفـلاق أو والاشيـا في رومـانيـا حـاليـاً) سنـة ٧٩٦ هـ ـ ١٣٩٣ م، فأعادوا تطبيق النهج ذاته؛ وتركوا لملكها (دوق مانيس) حرية حكم بلاده بموجب قوانينها وأعرافها؛ مقابل الاعتراف بسيادة الدولة العثمانية؛ ودفع جزية سنوية معينة.

تولى ملك المجر في هذه المرة (سيجسمون) توجيه الدعوة لقيام حملة صليبية ضد الدولة العثمانية ـ الإسلامية؛ واستجاب لهذه الدعـوة البابـا وفرسـان الطائفـة الـدينية المعـروفة بـاسم (الأسبتاريـة) والتي أصبح اسمهـا (طـائفـة فـرسـان حنـا الأورشليمي) بعد أن أصبحت قاعدتها في رودس.

وحشد الفرنـج جيشاً ضخمـاً ضم، بالإضـافة إلى جيش المجـر وقوات البـابا وقوات الفرسان الصليبيين، قوات من فرنسا وبافاريا والنمسا. وقاد ملك المجر هذا الجيش حتى وصل به إلى (نيقوبوليس) سنة ٧٩٨ هـ ـ ١٣٩٦ م[١]. وهناك اصطدم بجيش المسلمين الذي كان يقوده السلطان بايزيد بنفسه؛ وانتصر المسلمون انتصاراً رائعاً، وتم أسر عدد كبير من أمراء جيش الفرنج ـ بينهم الكونت دي نيفر ـ ابن أمير

---

(١) تجدر الإشارة إلى أن السلطان بايزيد قد أبرم في هذه السنة ذاتها (٧٩٨ هـ ـ ١٣٩٦ م) اتفاقاً مع ملك القسطنطينية، ألزمه فيه بدفع عشرة آلاف روكا ذهبية سنوياً، وأن يجيز للمسلمين بناء جامع مسجد في القسطنطينية لإقامة شعائر الدين الحنيف للمقيمين في عاصمة الروم؛ مع إقامة محكمة شرعية للنظر في أمور المسلمين المقيمين في القسطنطينية. أي أن مملكة الروم كانت قد أصبحت خاضعة للمسلمين قبل ٥٧ سنة من فتح القسطنطينية.
وانظر تاريخ الدولة العلية العثمانية (دار النفائس) بيروت ١٤٠١ هـ (١٩٨١ م) ص ١٤٠ ـ ١٤٤.

بورغونيا بفرنسا الذي أخذ على نفسه عهداً بألا يعود لقتال المسلمين؛ فقال له بايزيد: «**أجيز لك عدم الالتزام بهذا اليمين؛ وبإمكانك التحلل منه والعودة لمحاربتي؛ إذ لا شيء أحب إلي من محاربة جميع مسيحيي أوروبا والانتصار عليهم**».

تولى السلطان مراد الثاني سدة الخلافة سنة ٨٢٤ هـ - ١٤٢١ م، فكان أول عمل له هو الاتفاق مع ملك المجر **على هدنة مدتها خمس سنوات**، بهدف التفرغ لإعادة تنظيم الدولة، ودعم قدرتها؛ حتى إذا ما انتهى أجل الهدنة، توجه لمحاربة المجر؛ حيث دارت معارك طاحنة؛ انتصر فيها المسلمون وفتحوا مدينة (كولمباز - أو كوتشيفو) الواقعة جنوب بلغراد، على الشاطىء الأيمن لنهر الدانوب. وتم التوقيع على معاهدة تخلت فيها المجر عما كانت تحكمه على الشاطىء الأيمن للدانوب، والذي أصبح هو خط الحدود بين الدولة العثمانية وبين المجر.

كان أمير الصرب (جورج بونكوفيتش) يتابع صراع السلطان مراد مع المجر ليقرر موقفه، فلما رأى انتصار المسلمين؛ وأيقن بعدم قدرته على التصدي لهم، قَبِلَ أن يدفع الجزية السنوية، وتقديم فرقة من الصربيين للقتال إلى جانب العثمانيين؛ وزوج ابنته (مارا) إلى السلطان مراد، وقطع علاقاته مع المجر، وتنازل للدولة العثمانية، عن بلدة (كروشيفاتس) والمعروفة عند العثمانيين باسم (آلاجه حصار) وهي تقع في وسط بلاد الصرب؛ لتقيم فيها حامية عثمانية، وكذلك فعلت (ألبانيا) التي أعلن أميرها (جان كستريو) خضوع بلاده للدولة العثمانية؛ بشرط عدم التعرض لدين أهل البلاد وعاداتهم. وتم عقد صلح بذلك (سنة ٨٣٤ هـ - ١٤٣٠ م). واعترف أمير الفلاخ (دره قول - أو الشيطان) بسيادة الدولة العثمانية وذلك سنة ٨٣٧ هـ - ١٤٣٣ م. لكن ملك المجر (ألبير) استطاع تشكيل جبهة معادية للعثمانيين ضمت المجر وألبانيا والصرب، فسار السلطان مراد بجيشه، وانتصر على القوى المتحالفة واستمرت الحروب التي انتصر فيها المجريون والصربيون والألبان مرتين على القوات العثمانية؛ غير أن أحداً لم يحقق انتصاراً حاسماً؛ وظهرت الحاجة لهدنة تم إبرامها بين الأطراف المتحاربة؛ **وحددت مدة هذه الهدنة بعشر سنوات؛ بدأت بيوم توقيع الهدنة في ٢٦ ربيع الأول سنة ٨٤٨ هـ/ ١٣ تموز - يوليو**

١٤٤٤ م. وظن السلطان مراد أن باستطاعته أن يخلد إلى الراحة؛ غير أنه بوغت بغدر المجر؛ وبقيام القوات المجرية بالهجوم على حدود بلغاريا بتحريض من مندوب البابا (الكاردينال سيزاريني) الذي أصدر فتواه: «بأن عدم رعاية الذمة والعهود مع المسلمين لا تعتبر نكثاً ولا نقضاً»[١]. وقاد السلطان مراد جيش المسلمين؛ وانتصر على المجريين في ٢٨ رجب سنة ٨٤٨ هـ/ ١٠ تشرين الثاني - نوفمبر ١٤٤٤ م. وقتل في المعركة ملك المجر (لادسلاس) كما قتل الكاردينال سيزاريني، واستطاع القائد المجري (هونياد) التماس طريق الفرار من (فارنا) ومعه بقايا جيشه المجري الممزق، وأعاد تنظيم قواته؛ وعاد فهاجم بلاد الصرب؛ فحاربه السلطان مراد، وانتصر عليه مرة ثانية في وادي (قوص أوه) سنة ٨٥٢ هـ - ١٤٤٨ م.

هكذا سارت قصة الفتوحات في بقية أقطار أوروبا، بداية باليونان، وجزر البحر الأبيض المتوسط. وأصبحت الدولة العثمانية متاخمة لألمانيا والنمسا والروسيا، فكان كل غدر وكل نكث يحمل إلى الدولة العثمانية أقاليم ومناطق جديدة؛ ولم يعد باستطاعة الدول الأوروبية تجاهل وجود الدولة العثمانية الإسلامية؛ فأقبلت على عقد المعاهدات معها؛ والتعاون بما فيه مصلحتها؛ ثم النكث بتلك المعاهدات والمواثيق عندما تظهر فرصة للنيل من الدولة الإسلامية، أو الكيد لها ولشعوبها، فكانت تلك الحروب المستمرة والتي لم يخمد لهيبها طوال قرون متتالية.

وبإيجاز شديد: كان أول رد فعل للنمسا على انضمام المجر للدولة العثمانية؛ قيام ملك النمسا (فرديناند - وهو أخو شارلكان، أمبراطور الغرب) بقيادة جيشه؛ واجتياح المجر، ومحاصرته لعاصمتها (بودا) ثم فتحها وإقامة حامية نمساوية فيها (سنة ٩٣٥ هـ - ١٥٢٨ م)، فرد السلطان سليمان القانوني على ذلك بقيادة جيش من المسلمين ضم ربع مليون جندي وثلثمائة مدفع واستعاد (بودا) في (٨ أيلول - سبتمبر ١٥٢٩)، **ثم تابع تقدمه فحاصر عاصمة النمسا (ڤيينا) في ٢٠ صفر ٩٣٧ هـ/ ١٣ تشرين الأول - أكتوبر ١٥٣١**، ولكنه لم يتمكن من فتحها. وحاول ملك النمسا بعد انسحاب الجيش الإسلامي عقد صلح مع السلطان سليمان، فرفض السلطان شروط

---

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية - مصدر سابق ص ١٥٧.

الصلح ؛ واستمرت الحرب حتى أمكن عقد صلح في ٢٨ ذي العقدة سنة ٩٣٩ هـ/ ٢٢ حزيران ـ يونيو ١٥٣٣ م، تعهد بموجبها النمساويون بإعادة مدينة كورون إلى الدولة العثمانية.

وكان من سياسة فرنسا في تلك الفترة توثيق علاقتها بالدولة العثمانية؛ وإحباط كل محاولة للصلح أو الهدنة ما بين النمسا والدولة العثمانية؛ فبقي أوار الحرب مشتعلاً، حتى إذا ما مات ملك فرنسا ـ فرانسوا الأول ـ تمَّ عقد صلح بين النمسا والدولة العثمانية (في أول جمادى الأولى ٩٥٤ هـ ـ ١٩ حزيران (يونيو) ١٥٤٧ م). ولكن الحرب لم تتوقف؛ وتم عقد هدنة مدتها ستة أشهر بين النمسا والدولة العثمانية في سنة ٩٦٣ هـ ـ ١٥٥٥ م. كما تم عقد هدنة بين الطرفين مدتها ستة أشهر أيضاً (في سنة ٩٦٥ هـ ـ ١٥٥٧ م). وبعد ذلك تم عقد هدنة بين النمسا والدولة العثمانية لمدة ثماني سنوات (سنة ٩٧٠ هـ ـ ١٥٦٢ م) تعهدت فيها النمسا بدفع الجزية السنوية التي تم الاتفاق عليها في المعاهدات السابقة. ولكن الاقتتال لم يتوقف؛ **مما دفع الجيش العثماني لاجتياح النمسا ومحاصرة عاصمتها سنة ١٠٩٤ هـ ـ ١٦٨٣ م**. ولكن تدخل جيوش بولونيا (بقيادة ملكها سوبيسكي) وجيشي بافاريا والساكس (بقيادة منتخبيها) حرم الجيش العثماني من فرصة فتح النمسا؛ والاستيلاء على عاصمتها (ڤيينا). وأعقب ذلك تشكيل (**تحالف مقدس**) ضم النمسا وبولونيا والبندقية ورهبنة مالطا (يوحنا الأورشليمي) والبابا ومملكة الروسيا. وحدد هذا التحالف هدفه بالقضاء على الدولة العثمانية الإسلامية. ودارت رحى حرب ضارية؛ في البر والبحر؛ وعلى كل جبهات أوروبا؛ **واستمرت حتى سنة ١١١٠ هـ ـ ١٦٩٩ م، حيث عقدت الدولة العثمانية صلحاً مع النمسا والروسيا وبولونيا والبندقية (معاهدة كارلوفتس) تنازلت بموجبها الدولة العثمانية للنمسا عن بلاد المجر بأجمعها؛ بالإضافة إلى إقليم ترنسلفانيا، واتفقت مع النمسا على هدنة لمدة ٢٥ سنة**.

لقد برز دور فرنسا العدائي للإسلام والمسلمين ـ بخاصة ـ أيام الحروب الصليبية القديمة؛ وكانت فرنسا هي رأس الحربة في كل حملة صليبية. وقد استمرت فرنسا بممارسة هذا الدور؛ وكان من أعمالها المعروفة في هذا المضمار

تـوجيـه أسـطولهـا للعمـل مـع أسـطول البابـا وأسطول البنـدقيـة في سنـة ٩٠٧ هـ ـ ١٥٠١ م. ولكن الأسطول الإسلامي انتصر على هذا الأسطول؛ واستولى المسلمـون على مدينـة (رودستو) على الأدريـاتيكي. غير أن انتقـال قيادة الحـرب الصليبيـة إلى قبضة شـارل الخامس (شـارلكان) ملك أسبـانيا وأمبـراطور الغـرب، ومحاولة شارلكان السيطرة على فرنسا؛ دفع ملكها فرانسوا الأول لإرسال رسالة إلى السلطان سليمان القانوني يطلب دعمه ضد مطامع شـارلكان. واستجـاب السلطان سليمـان لهذا الـطلب؛ فقد كـان من مصلحة المسلمين التحـالف مع فـرنسا ضـد شارلكان الذي كان قد احتل سـواحل المغـرب العربي ـ الإسـلامي (ما بين تـونس والمغرب). فرد برسالـة سنة ٩٣٢ هـ ـ ١٥٢٥ م وعـده فيها بـالدعم والمسـاعدة؛ وأعقب ذلك عقد معاهدة (في سنة ٩٤٢ هـ ـ ١٥٣٦ م) حصلت بموجبها فرنسا على امتيازات تجارية ودينية. وقام الأسطول الإسلامي (بقيادة القبطان الشهير خير الدين بربروس) بفتح الجزائر وطرد الأسبانيين من الجزائر وتونس، كما قام بالهجوم وإنزال القوات في بعض شواطىء إيطاليا وفرنسا وأسبانيا.

واستطاع شارلكـان استثارة الـرأي العام الغـربي الصليبي ضد الملك فـرانسوا الأول؛ فأظهر هذا إحجامه عن التعاون مع العثمانيين؛ ولم ينفذ ما كان متفقاً عليه من أعمال قتاليـة (دخول القـوات الفرنسيـة إلى إيطاليـا) وذلك «خشيـة أن يتهم الملك فرانسوا بالارتداد عن دينه المسيحي؛ باتحاده مع دولة إسلامية لمحاربة دولة تـدين بـدينـه». وأعقب ذلـك بتـوقيـع إتفـاقيـة هـدنـة مـع شـارلكـان (معـاهـدة نيس ٩٤٤ هـ ـ ١٥٣٨ م)، غير أن هذه الهدنة لم تعمر طويلاً، فاستؤنف القتال بين ملك فرنسا وأمبراطور الغرب، فعاد ملك فرنسا (فرانسوا الأول) وأرسل سفيراً إلى (الباب العالي) سنة ٩٤٨ هـ ـ ١٥٤١ م، فقتله حاكم ميلانـو الذي كـان تابعـاً للأمبـراطور شارلكان. فأرسل فـرانسوا سفيـراً آخر (المسيـو بولان) لـطلب الدعم من السلطان سليمان القانوني؛ غير أن ما أظهره فـرانسوا الأول من التـردد؛ وعدم الثبـات؛ **دفع بالسلطان سليمان للتريث والتمهل في اتخاذ قراره؛ غير أن تأكيدات السفير الفرنسي حملت السلطان سليمان في النهاية على قبول العرض الفرنسي**، فقـاد جيوشـه إلى (المجر) فيما وجه أسطوله إلى (نيس) حيث انضم إليه الأسطول الفرنسي؛ فتم فتح

نيس سنة ٩٥٠ هـ ـ ١٥٤٣ م. وأمضى الأسطول العثماني فصل الشتاء في ميناء طولون؛ كما قدم ملك فرنسا مبلغ ثمانمائة ألف ريال فرنسي لتغطية نفقات الأسطول وبحارته. ولكن وفي ربيع السنة التالية **رفض ملك فرنسا مساعدة الأسطول العثماني؛ بحجة هياج المسيحيين عليه واتهامه بالمروق من الدين لاستعانته بالمسلمين**؛ وأبرم مع شارلكان معاهدة (كريسبي) في آذار ـ مارس ١٥٤٤ م، فعاد القبطان ـ أمير البحر ـ خير الدين بربروس بأسطوله إلى القسطنطينية.

جاء ملك فرنسا (هنري الثاني) فسار على نهج أبيه (فرانسوا الأول) في مجال التعاون مع الدولة العثمانية؛ ووقع معها معاهدة صداقة وتعاون في ١٦ صفر سنة ٩٦٠ هـ (الأول من شباط ـ فبراير ١٥٥٣). ونصت المعاهدة على شمول فرنسا لحماية كافة الكاثوليكيين الموجودين في أراضي الدولة العثمانية؛ كما نصت على تعاون الأسطولين العثماني والفرنسي لفتح جزيرة كورسيكا. وسار الأسطول المشترك فأغار على كالابريا وجزيرة صقلية؛ ثم فتح كورسيكا. وعاد بعدها الأسطول العثماني إلى قاعدته في القسطنطينية (إسلام بول)، وتوقف بعد ذلك كل تعاون فرنسي ـ عثماني في المجال العسكري.

أما في مجال العمل السياسي ـ الديبلوماسي؛ فقد أخذت العلاقات في التدهور حتى وصلت أحياناً إلى مرحلة الحرب بسبب مساعدة فرنسا لأعمال المقاومة المسيحية وللدول التي كانت تحارب الدولة العثمانية. وكان الهجوم على مصر (نابليون بونابرت سنة ١٧٩٧) ثم إغراق الأسطول العثماني ـ المصري في مياه نافاران (اليونان) سنة ١٨٢٧ م (بقوى أساطيل فرنسا وإنكلترا وروسيا)، ثم احتلال الجزائر (١٨٣٠) وما تبع ذلك من احتلال لأقاليم المغرب العربي ـ الإسلامي، ونهاية بالانتداب على سوريا ولبنان (١٩١٩) هو الخط الثابت الذي سارت عليه فرنسا منذ تدخلها في لبنان (طوشة النصارى ١٨٦٠) ودعمها للموارنة، ولكن دون الإعلان عن استمرار الحرب الصليبية؛ إلا في تعبيرات ضمنية وغامضة؛ غالباً ما يتم تغليفها بتعبيرات (روابط صداقة تاريخية) و(مصالح مشتركة) و(رابطة اللغة) و(وحدة دول البحر الأبيض المتوسط).

لم تكن قصة المعاهدات والاتفاقات مع روسيا ومع إنكلترا مختلفة عن قصة

مثيلاتها مما سبق عرضه بإيجاز؛ وتكفي قصة المعاهدات والاتفاقات التي أبرمتها بريطانيا مع الملك حسين (شريف مكة) لتؤكد الطابع الثابت للغدر وللنكث بالعهود لدى هذه الدول. كما قد تكون قصة العهود والمواثيق التي أصدرتها (بريطانيا العظمى) خلال فترة انتدابها لفلسطين لتؤكد أيضاً هذا الطابع. ثم هل إن قصة (الاستعمار والوصاية والانتداب) لأقطار العالم العربي ـ الإسلامي وللشعوب الإسلامية إلا قصة الغدر بالعهود والنكث بالمواثيق؟. فما هي الأسس أوالمبادىء التي يمكن استخلاصها من هذه التجربة التاريخية المتطاولة؟.

أولاً: من حيث مدة المعاهدات واتفاقات الهدنة: لقد حدد الرسول ﷺ مدة الهدنة في صلح الحديبية بمدة عشر سنوات. ومن الملاحظ أن العرب المسلمين؛ قد التزموا بهذه السنَّة طوال عهودهم؛ حتى إنهم كانوا أكثر دقة في الحروب الصليبية عندما كانوا يحددون مدة الهدنة بالشهور والأيام عندما يكون هناك ثمة تباين بين السنة الشمسية (الغربية) والسنة القمرية (الهجرية). وهناك بعض الاستثناءات؛ وعلى سبيل المثال؛ فقد عقدت الدولة العثمانية مع روسيا معاهدات واتفاقات هدنة مدتها ٢٥ عاماً (سنة ١١٢٣ هـ ـ ١٧١١ م) و(سنة ١١٥٢ هـ ـ ١٧٣٩ م). ويظهر أن مدة عشر سنوات هي المدة المناسبة لاتفاقات الهدنة وللمعاهدات؛ إذ أن هذه المدة تمثل (الأفق المنظور) للتطورات المحتملة؛ إذ بالمستطاع ـ تبعاً للنوايا وللممارسات ـ تجديد هذه الاتفاقات أو تعديلها أو إيقافها والرجوع عنها. ومن المثير أن كثيراً من دول العالم المعاصر تعتمد الأخذ بهذه المدة عند عقد اتفاقاتها ومعاهداتها.

ثانياً: من حيث الهدف: لقد عقد الرسول ﷺ صلح الحديبية لأنه رأى في ذلك مصلحة للمسلمين؛ وسار العرب المسلمون على سنة نبيهم؛ فكان هدفهم في أي اتفاق للهدنة؛ وفي أي صلح؛ هو ضمان مصلحة المسلمين؛ وتأمين حقوقهم؛ ودعم قدرتهم وزيادتها؛ ومثال ذلك؛ مهادنة طرف من الأطراف المعادية لحشد القوى ضد طرف معاد أكثر خطورة على المسلمين؛ ومثل مهادنة طرف لتفتيت وحدة جبهة معادية يمكن لها عند تحالفها تشكيل خطر على المسلمين؛ ومثل الإفادة من دعم خصم لمجابهة خصم أكثر قوة وأشد خطراً الخ... وذلك على نحو ما سبق

عرضه؛ ويبقى الهدف الثابت في ذلك هو مصلحة المسلمين في إطار ما يمكن تسميته (بالتوازن) ولكن بشرط ألا تتضمن شروط الهدنة قيوداً قد تضر بمصلحة المسلمين في المستقبل؛ وعلى سبيل المثال: فعندما كانت الدولة العثمانية في أوج قوتها؛ وذروة عنفوانها؛ لم يكن هناك ما تخشاه من منح الدول الأجنبية امتيازات خاصة (اقتصادية أو دينية)، ولكن وعندما ضعفت الدولة العثمانية؛ كانت هذه الامتيازات هي من المعاول الرئيسة التي أعملت في داخل الدولة هدماً وتدميراً؛ سواء على مسرح أوروبا، أو في أقطار العالم العربي ـ الإسلامي.

وقد يكون من الظواهر المثيرة في هذا المضمار أن الدولة العثمانية قد منحت تلك الامتيازات تعبيراً عن التسامح وعن الحريات الدينية التي ضمنها الإسلام، في فترة كانت أوروبا فيها تخوض أعنف الحروب الدينية (بين البروتستانتية والكاثوليكية في حرب الثلاثين عاماً ١٦١٨ ـ ١٦٤٨ م)، وفي وقت لم يكن بعيداً عن (محاكم التفتيش الأسبانية) ولا عن الحملات الصليبية الموجهة لقتال العثمانيين المسلمين. كذلك يجب ألا تتضمن معاهدات الهدنة قيوداً تحد من حرية العمل العسكري للمسلمين عند انقضاء أجل الهدنة؛ فالهدنة واتفاقاتها هي تأكيد على حتمية وجود أسباب الحرب، وتأكيد على حتمية الاقتتال، وهدف الهدنة هو تأمين فرصة لإعادة تنظيم القوى والوسائط القتالية؛ لمعاودة الحرب بإمكانات أكبر تسمح بحسم الصراع لمصلحة المسلمين. وإذن فقد يكون من غير الطبيعي فرض شروط أو وضع قيود تحرم المسلمين من زيادة قدرتهم ومن استخدام هذه القدرة، لحساب الخصم الذي قد يستفيد من الهدنة لبلوغ الهدف من الهدنة (وأفضل نموذج يظهر هذه الحقيقة تلك الفترات من الهدنة التي فرضت خلال الحرب العربية ـ الإسرئيلية الأولى ١٩٤٨؛ ثم الهدنة التي سبقت حرب ١٩٦٧).

ثالثاً: من حيث الالتزام: ولقد برهنت التجربة الإسلامية المتطاولة منذ صلح الحديبية وحتى الأزمنة الحديثة؛ أن المسلمين قد التزموا دائماً بشروط الهدنة، وبرهنت هذه التجربة في الوقت ذاته على التزام أعداء الإسلام والمسلمين بمبدأ الغدر والنكث والخيانة، فالمسألة هي مسألة مبدئية ثابتة؛ فلا المسلمون يستطيعون التنكر لمبدأ برهن على صحته عبر تجربتهم التاريخية؛ ولا أعداء الإسلام

والمسلمين يتخلون عن مبدأ اعتمدوه عبر تاريخهم الطويل، ولا يحق للمسلمين الانخداع بأي هدنة أو الاعتماد على أي تعهد أو ميثاق، فيركنوا إلى السكينة، ويتخلوا عن استعداداتهم لاستئناف الحرب، وعليهم أن يتوقعوا الغدر دائماً؛ وأن يكونوا على استعداد دائم لمجابهته؛ وذلك بتحصين جبهاتهم الداخلية، وتنظيمها؛ ودعمها؛ وإقامة التحالفات المفيدة مع مراكز القوى الإسلامية، وزيادة القدرة القتالية بما يضمن إحباط كل غدر؛ وبما يحرم الغادر من فرصة الحصول على ثمرة نصره.
هكذا كان المسلمون دائماً، وبذلك دانت لهم الدنيا؛ وخضعت؛ فهم يمثلون الفضائل الحربية في وفائهم، ويمثلون القوة في التزامهم، ويمثلون الواقعية في نهجهم؛ فالحياة على أرض الدنيا هي اقتتال دائم بين القوى. وليست الهدنة والمعاهدة والميثاق إلا لضمان فترة الهدوء بين الحربين بحسب التعاريف الحديثة، وهو ما حددته تعاليم القرآن الكريم والسنّة منذ أضاءت الدنيا بنور الإسلام.

٢

الفصل الثاني

فن القيادة

١ ـ وحدة القيادة

٢ ـ مركزية السلطة وحرية العمل.

٣ ـ القيادة والشورى

٤ ـ الطاعة والجماعة

٥ ـ المسلم والمجتمع

٦ ـ القائد؛ وموقعه في القتال

١

وحدة القيادة

دعم الإسلام مبدأ (وحدة القيادة) وجعله من المبادىء الثابتة في بناء المجتمع العربي ـ الإسلامي، في سلمه وحربه، وعلى مستويات المجتمع كافة، وربط هذا المبدأ ربطاً وثيقاً بوحدة المسلمين ورابطتهم الدينية وأخوتهم في الله، كما قيده بالهدف من هذه الرابطة (الجهاد في سبيل الله حتى تكون كلمة الله هي العليا)[1] وربطه أيضاً (بالطاعة والجماعة). ففي قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُول إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[2] ومن الأحاديث الشريفة: (إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهم)[3] و(من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد، يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه)[4] و(من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية)[5].

وقد أخذ مبدأ وحدة القيادة بعدئذ أبعاده الحقيقية ومفاهيمه الواضحة عبر الممارسة الواقعية والتطبيق العملي. ففي (غزوة ذات السلاسل)[6] بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى أرض بلى وعذرة، يستنفر الناس إلى الشأم،

---

(١) سنن أبي داوود ٣/١٤ وعيون المعبود ٢/٣٢١.

(٢) سورة النساء ـ الآية ٥٩.

(٣) و(٤) و(٥) صحيح مسلم ١٢/٢٣٨ و٢٤٢.

(٦) تاريخ الطبري ـ أحداث السنة الثامنة للهجرة.

فلما كان عمرو بن العاص بأرض جذام، خاف فبعث إلى رسول الله يستمده، فبعث إليه رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأولين، فيهم أبو بكر وعمر رضوان الله عليهم، وقال لأبي عبيدة حين وجهه: لا تختلفا. فخرج أبو عبيدة حتى إذا قدم عليه، قال له عمرو بن العاص: «إنما جئت درءً لي». فقال أبو عبيدة: «يا عمرو، إن رسول الله قد قال لي: **لا تختلفا. وأنت إن عصيتني أطعتك**». **قال عمرو: «فأنا أمير عليك»**. **وأجاب أبو عبيدة: «فدونك»**. **وصلى عمرو بن العاص بالناس**.

كان ذلك في السنة الثامنة للهجرة، وفي السنة ذاتها، بعث رسول الله ﷺ بعثه إلى مؤتة، واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال: (**إن أصيب زيد بن حارثة، فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن إصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس**)، ومعروفة قصة هذا البعث، فقد استشهد القادة الثلاثة على التتابع، وأخذ الراية ثابت بن أقرم. فقال: «يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم». فقالوا: «أنت». قال: ما أنا بفاعل؛ فاصطلح الناس على خالد بن الوليد. وقد رسمت أحداث هذا البعث حدود نهجين لتحقيق مبدأ القيادة: أولهما تعيين عدد من القادة لممارسة القيادة على التتابع، والثاني هو ترك الحرية لجمهور المسلمين المجاهدين في سبيل الله لاختيار قائد منهم لتولي القيادة وذلك إذا ما شغر منصب القائد.

لم يكن من الغريب أن يترك رسول الله ﷺ منصب الخلافة شاغراً وهو في أيامه الأخيرة، إذ لو فعل ذلك وعيَّن خليفة، لأصبح تنصيب الخليفة سنة ملزمة. ولهذا اكتفى الرسول ﷺ بالإشارة إلى أبي بكر وذلك بقوله: (انظروا هذه الأبواب الشوارع اللافظة ـ أو النافذة إليه ـ في المسجد فسدوها، إلا ما كان من بيت أبي بكر، فإني لا أعلم أحداً كان أفضل عندي في الصحبة يداً منه)[1]. وبقوله: (. . . **لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام، لا تبقى خوخة المسجد إلا خوخة أبي بكر**). وتوفي رسول الله ﷺ، واجتمع كبار المهاجرين والأنصار من صحابة رسول الله في سقيفة بني ساعدة. وتمت مبايعة أبي بكر يوم مات

---

(١) تاريخ الطبري ٣/١٩١.

رسول الله ﷺ **«فقد كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة»**[1].

لقد عرف العرب المسلمون ما تحقق لهم من القدرة عبر (وحدة القيادة) سواء على مستوى اتخاذ القرارات الحاسمة وتنفيذها، أو من خلال حشد القوى وتنظيمها، فساروا وراء الخليفة أبي بكر الصديق جميعاً لقتال المرتدين، حيث لم يكن هذا القتال في وجه من وجوهه إلا تعبيراً عن (وحدة القيادة) وعن الانقياد (للطاعة والجماعة). وسرعان ما جاءت النتائج مؤيدة للتجربة التي عاشها العرب المسلمون في عهد النبوة مما دعم من مبدأ وحدة القيادة، فانطلقت جموع المجاهدين في سبيل الله، والثقة تملأ نفوسهم، إلى رحاب دنيا الفتح.

مضت أيام الخليفة الأول متسارعة عجلى، وهي حافلة بجلائل الأعمال، وعظائم الأحداث، وشعر أبو بكر الصديق - رضوان الله عليه باقتراب المنية، ودنو ساعة الأجل، وخاف على أمة العرب المسلمين من الفرقة واختلاف الكلمة، فأجرى بعض الاستشارات مع كبار الصحابة، منهم عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان، ثم خرج إلى الناس؛ وخاطبهم فقال لهم: **«أترضون بمن أستخلف عليكم؟ فإني والله ما ألوت من جهد الرأي، ولا ولّيت ذا قرابة، وإني قد أستخلفت عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا، فقالوا: سمعنا وأطعنا»**[2].

وأغمض أبو بكر رضوان الله عليه عينيه عن الدنيا، وقد استخلف على عباد الله خير عباد الله. ومضى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لحمل الرسالة، فسار على نهج صاحبيه، وحذا حذوهما.

انفتحت الدنيا على العرب المسلمين في عهد أمير المؤمنين عمر رضوان الله عليه. ففي فترة زمنية لم تتجاوز حدود العقد تقريباً؛ فتح العرب المسلمون بلاد الشام والعراق ومصر وفارس وتبدلت الدنيا. ونظر أمير المؤمنين إلى ما حوله، وقد أدرك دنو الأجل؛ أين هو أمين الأمة: أبو عبيدة بن الجراح؟ وقيل لعمر: استخلف عبد الله بن عمر! فقال مقولته الخالدة: «بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد، ويسأل

(١) تاريخ الطبري، ٣/٢٠٧.

(٢) المرجع السابق ٣/٤٢٨.

عن أمر أمة محمد، أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي، وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر إني لسعيد. . . إني إن أنا استخلفت فقد استخلف من هو خير مني، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني، ولن يضيع الله دينه».

وفي صحوة الموت، أوصى عمر وصيته: «عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ﷺ أنهم من أهل الجنة ـ علي وعثمان ابنا عبد مناف، وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله ﷺ والزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ وابن عمته، وطلحة الخير بن عبد الله، فليختاروا منهم رجلاً. فإذا ولوا والياً فأحسنوا مؤازرته وأعينوه، إن ائتمن أحداً منكم، فليؤدِّ إليه أمانته». وأكمل وصيته بقوله: «إذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام، وليصلِّ بالناس صهيب، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم». ثم استدعى أبا طلحة الأنصاري وخاطبه بقوله: «يا أبا طلحة! إن الله عز وجل طالما أعز الإسلام بكم، فاختر خمسين رجلاً من الأنصار، فاستحث هؤلاء الرهط ـ الستة ـ حتى يختاروا رجلاً منهم» وخاطب صهيباً فقال له: «**صلِّ بالناس ثلاثة أيام، واجمع هؤلاء الرهط في بيت وقم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد، فاشرخ رأسه ـ أو اضرب رأسه بالسيف ـ. وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان، فاضرب رؤوسهما. فإن رضي ثلاثة رجلاً منهم وثلاثة رجلاً منهم، فحكموا عبد الله ابن عمر، فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس**»(1).

واجتمع أهل الشورى ـ الرهط الستة ـ وقام عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ومعه صهيب باستشارات كثيرة، وانقضى الأجل ـ في الأيام الثلاثة ـ وقضي الأمر باختيار عثمان بن عفان رضي الله عنه، أميراً على المؤمنين. وبذلك جمع عمر؛ الشورى، والتحكيم في بيعة أمير المؤمنين مع التأكيد على فكرة (ضرب عنق من يخرج عن الطاعة والجماعة، يريد تفرقة كلمة المسلمين).

وأقبلت سنة ٣٥ للهجرة (٦٥٥ م) ووقعت الفتنة الكبرى، واستشهد أمير

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٢٢٧ ـ ٢٤١.

المؤمنين عثمان رضي الله عنه على أيدي نفر من المنحرفين الذين خرجوا على الطاعة والجماعة، وحملوا السلاح ضد (مسلم)، وتفرق المسلمون شيعاً وأحزاباً. فقد بويع لعلي رضوان الله عليه في المدينة، فيما كان معاوية أميراً على الشام، وانقسم المسلمون في الجزيرة ومصر والكوفة والبصرة إلى ثلاث شعب: شعبة حافظت على ولائها لبيعة عثمان، وصممت على الثأر لقتله، فانضمت بذلك إلى معاوية الذي رفع في الشام راية الثأر من قتلة عثمان، الذين انضموا إلى علي ودعموه لتولي أمور الخلافة، وشعبة اعتزلت وابتعدت عن تيار الفتنة وما أعقبها من انقسام، وشعبة انضمت إلى أمير المؤمنين علي.

وهكذا غابت (وحدة القيادة) وظهرت قيادتان كان لا بد من وقوع الصدام بينهما. وقال المؤرخ العربي ـ ابن خلدون ـ في ذلك، ما يلي:

«لما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية، وهي مقتضى العصبية، كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد، ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيوي أو لإيثار باطل أو لاستشعار حقد، كما قد يتوهمه متوهم وينزع إليه ملحد، وإنما اختلف اجتهادهم في الحق، وسفَّه كل واحد نظر صاحبه باجتهاده في الحق، فاقتتلوا عليه، وإن كان المصيب علياً، فلم يكن معاوية قائماً فيها بقصد الباطل، إنما قصد الحق وأخطأ، والكل كانوا في مقاصدهم على حق. ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد، واستئثار الواحد به. ولم يكن لمعاوية أن يدفع ذلك عن نفسه وقومه، فهو أمر طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها، واستشعرته بنو أمية، ومن لم يكن على طريقة معاوية في اقتفاء الحق من أتباعهم، فاعصوصبوا عليه، واستماتوا دونه، ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم في الانفراد بالأمر، لوقع في افتراق الكلمة التي كان جمعها وتأليفها أهم عليه من أمر ليس وراءه كبير مخالفة. وقد كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول إذا رأى القاسم بن محمد بن أبي بكر: لو كان لي من الأمر شيء لوليته الخلافة. ولو أراد أن يعهد إليه لفعل، ولكنه كان يخشى من بني أمية أهل الحل والعقد لما ذكرناه، فلا يقدر أن يحول الأمر عنهم لئلا تقع الفرقة. وهذا كله إنما حمل عليه منازع الملك التي هي مقتضى العصبية. فالملك إذا حصل، وفرضنا أن الواحد انفرد به، وصرفه في مذاهب الحق ووجوهه، لم يكن في ذلك نكير عليه. ولقد انفرد

سليمان وأبوه داود صلوات الله عليهما بملك بني إسرائيل، لما اقتضته طبيعة الملك فيهم من الانفراد به، وكانوا ما علمت من النبوة والحق. **وكذلك عهد معاوية إلى يزيد خوفاً من افتراق الكلمة** بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر إلى من سواهم. فلو قد عهد إلى غيره اختلفوا عليه، مع أن ظنهم كان به صالحاً، ولا يرتاب أحد في ذلك، ولا يظن بمعاوية غيره، فلم يكن ليعهد إليه، وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق، حاشا لله لمعاوية من ذلك. **وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه، وإن كانوا ملوكاً، فلم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي، إنما كانوا متحرين لمقاصد الحق جهدهم إلا في ضرورة تحملهم على بعضها مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد.** يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والاقتداء، وما علم السلف من أحوالهم ومقاصدهم. فقد احتج مالك ـ بن أنس ـ في الموطأ بعمل عبد الملك، وأما مروان فكان من الطبقة الأولى من التابعين، وعدالتهم معروفة، ثم تدرج الأمر في ولد عبد الملك، وكانوا من الدين بالمكان الذي كانوا عليه، وتوسطهم عمر بن عبد العزيز، فنزع طريقة الخلفاء الأربعة والصحابة جهده، ولم يهمل. . . ومن تأمل سير هؤلاء الخلفاء والملوك واختلافهم في تحري الحق من الباطل، علم صحة ما قلناه»[1].

لقد كانت (الفتنة الكبرى) ابتلاء رهيباً، واختباراً صعباً، للعالم العربي ـ الإسلامي، الذي كان قد وصل إلى ذروة اندفاعته وجموحه، فإذا بالفتوحات تتوقف، وإذا ببعض أقاليم فارس تنتقض على أهل الإسلام، وإذا المسلمون أحزاباً متناحرة وشيعاً متنافرة، وقد شغلتهم أمورهم وشؤونهم عما حولهم، وعما نذروا أنفسهم لأدائه، وهو حمل الرسالة وأداء الأمانة حتى تكون كلمة الله هي العليا على أرض الله.

وبدأ التحرك على الاتجاه المضاد، اتجاه السنّة أهل الطاعة والجماعة. وتوادع علي ومعاوية رضوان الله عليهما، واتفقا على المهادنة، وغضب لذلك (المنحرفون

---

(١) مقدمة ابن خلدون ـ الفصل الثامن والعشرون (في انقلاب الخلافة إلى الملك) تاريخ ابن خلدون ـ دار الكتاب اللبناني ـ الطبعة الثالثة ـ بيروت ١٩٦٧ (١/٣٥٨ ـ ٣٦٦).

الحرورية ـ والذين لقبوا أنفسهم أو لقبهم سواهم بالخوارج) إذ عرفوا أن اتفاق الكلمة لن يتم إلا بالقضاء عليهم، فأثاروا فتنة (النهر)[1] التي تصدى لها أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وكان من أبرز نتائجها اتفاق ثلاثة من الخوارج على قتل أمراء المسلمين علي ومعاوية وعمرو بن العاص[2] وترك الأمة شتاتاً ممزقاً. وقام هؤلاء المتآمرون بتنفيذ مؤامرتهم في فجر يوم ١٧ رمضان من سنة ٤٠ للهجرة (٦٦٠ م). واستشهد أمير المؤمنين علي رضوان الله عليه، على يد من كان من المفروض أن يكون من أخلص شيعته وأشد أنصاره. واغتم العالم العربي الإسلامي لهذا المصاب الجلل، غير أن الطريق بات ممهداً لإعادة وحدة الأمة تحت قيادة أمير المؤمنين معاوية بن سفيان، فكان عام ٤٠ للهجرة هو (عام الجماعة)، فكان ذلك تعبيراً عن معاناة العالم العربي الإسلامي خلال سنوات الفرقة التي استمرت خمس سنوات تقريباً.

قد يكون من المثير حقاً التوقف عند أحداث (الفتنة الكبرى) واستيعابها، فقد أراد المنحرفون القتلة تطبيق مبدأ ـ أو فكرة ـ (العدمية)[3] باغتيالهم لقادة الأمة العربية الإسلامية، فطرحوا مبدأ (**لا حكم إلا لله**) وهو مبدأ وصفه أمير المؤمنين علي

---

(١) بدأت (فتنة النهر) بتعرض الخوارج للصحابي الجليل (عبد الله بن خباب) وقتله، وبقر بطن زوجته الحامل، مما أغضب علي والمسلمين، فطلب إلى الخوارج تسليمه القتلة لإنزال العقاب العادل جزاء لما ارتكبوه من الإثم، فرفض الخوارج، فكانت (معركة النهر ـ أو النهروان) والتي نكب فيها الخوارج، مما دفع من بقي منهم للانتقام؛
وانظر تاريخ الطبري ٥/٧٢ ـ ٩٣.

(٢) كان هؤلاء المتآمرون ثلاثة هم: ابن ملجم الذي أخذ على عاتقه اغتيال علي بن أبي طالب، فيما تعهد البرك بن عبد الله بقتل معاوية، وتعهد عمرو بن بكر بقتل عمرو بن العاص. وتمكن ابن ملحم من قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيما فشل الآخران في قتل معاوية وعمرو بن العاص.
وانظر تاريخ الطبري ٥/١٤٣ ـ ١٥٢.

(٣) العدمية: (NIHILISM) حركة سياسية ظهرت في روسيا القيصرية قبل الثورة السوفييتية الاشتراكية ورافقتها، ويعمل أصحابها ـ العدميون ـ على قتل القادة واغتيالهم ـ ومنهم القياصرة ـ بهدف القضاء على كيان الدولة وأجهزتها، حتى يبقى الحكم للشعب، الذي يختار لحكمه من يشاء.

رضي الله عنه (الله أكبر، **كلمة حق يلتمس بها باطل**)[1] وعمل على محاربة أصحابه ـ الخوارج ـ الذين ما أرادوا إلا تفريق كلمة الأمة، وتشتيت شملها، والقضاء على الطاعة والجماعة فهزمهم الله، ونصر جنده، وعادت للأمة وحدتها في (عام الجماعة). وكان رجل من أصحاب علي قد سأل علي بن أبي طالب عندما طعنه ابن ملجم. فقال له: «**يا أمير المؤمنين، إن فقدناك، ولا نفقدك، فنبايع الحسن؟ فأجاب علي: ما آمركم ولا أنهاكم**»[2].

وكان معاوية في أيام الفتنة يدعى ـ بالشام ـ بلقب أمير الشام، فيما كان علي يدعى بالعراق، بأمير المؤمنين. فلما استشهد علي، دعي معاوية: أمير المؤمنين[3] ويبرهن ذلك على أن معاوية قد كره أن يكون هناك أميران، وترك المجال مفتوحاً أمام إمكانات تسوية الخلاف مع أمير المؤمنين علي رضوان الله عليهما.

انصرف معاوية، بعد مبايعته، لتوطيد دعائم الدولة العربية ـ الإسلامية، بما عرف عنه من (العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء)[4] حتى إذا ما شعر بدنو الأجل، خاف على الأمة الإسلامية من فرقة الكلمة، والعودة للتناحر فأوصى بالخلافة من بعده لابنه (يزيد)، فجعلها وراثية، مع اشتراط أخذ البيعة من المسلمين.

ولكن يزيد لم يعمر كثيراً، فانتقل الحكم لمروان بن الحكم ـ أو الفرع المرواني ـ الذي سار على نهج معاوية إلى أن دالت دولة الأمويين ثم زالت.

وجاء العباسيون، فساروا على نهج أبناء عمومتهم في أمر الخلافة، يتوارثونها، وفي ذلك قال المؤرخ ابن خلدون: «ولا يتهم الإمام ـ أمير المؤمنين ـ في أمر ولاية العهد، إن هو عهد إلى أبيه أو ابنه، لأنه مأمون على النظر لهم في حياته، فأولى أن لا

---

(١) تاريخ الطبري ٥/٧٣.

(٢) المرجع السابق ٥/١٦١.

(٣) المرجع السابق ٥/١٤٦.

(٤) هذه الشروط الأربعة هي الشروط الواجب توافرها في الإمام، أو أمير المؤمنين، ويضاف إليها شرط ثانوي لم يؤخذ به، وهو أن يكون قرشياً. وانظر ابن خلدون ١/٣٤٢.

يحتمل فيها تبعة بعد مماته، خلافاً لمن قال باتهامه في الولد والوالد، أو لمن خصص التهمة بالولد دون الوالد، فإنه بعيد عن الظنة في ذلك كله، لا سيما إذا كانت هناك داعية تدعو إليه، من إيثار مصلحة، أو توقع مفسدة، فتنتفي الظنة عند ذلك رأساً، كما وقع في عهد معاوية لابنه يزيد، وإن كان فعل معاوية مع وفاق الناس له حجة في الباب.

والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس، واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية، إذ بنو أمية يومئذ، لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش، وأهل الملة أجمع، وأهل الغلب منهم، **فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه عند الشارع هو الأهم،** وإن كان لا يظن بمعاوية غير هذا، فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك. ثم إن حضور أكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه، فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادة، وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق، فإنهم كلُّهم أجلُّ من ذلك، وعدالتهم مانعة منه. وإن فرار عبد الله بن عمر من ذلك إنما هو محمول على تورعه من الدخول في شيء من الأمور مباحاً كان أو محظوراً، كما هو معروف عنه. ولم يبق في المخالفة لهذا العهد الذي اتفق عليه الجمهور إلا ابن الزبير، **وندور المخالف معروف.** وقد وقع مثل ذلك من بعد معاوية من الخلفاء الذين كانوا يتحرون الحق ويعملون به، مثل عبد الملك وسليمان من بني أمية، والسفاح والمنصور والمهدي والرشيد من بني العباس، وأمثالهم ممن عرفت عدالتهم وحسن رأيهم للمسلمين، والنظر لهم، ولا يعاب عليهم إيثار أبنائهم وإخوانهم، وخروجهم عن سنن الخلفاء الأربعة في ذلك، فشأنهم غير شأن أولئك الخلفاء، فإنهم كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك، وكان الوازع دينياً، فعند كل أحد وازع من نفسه، فعهدوا إلى من يرتضيه الدين فقط، وآثروه على غيره، ووكلوا كل من يسمو إلى ذلك إلى وازعه. وأما من بعدهم من لدن معاوية فكانت العصبية قد أشرفت على غايتها من الملك، والوازع الديني قد ضعف، واحتيج إلى الوازع السلطاني والعصباني، فلو عهد إلى غير من ترتضيه العصبية لرد ذلك العهد وانتقض أمره سريعاً، وصارت الجماعة إلى الفرقة والاختلاف.

سأل رجل علياً رضي الله عنه: ما بال المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر، فقال: لأن أبا بكر وعمر كانا واليين على مثلي، وأنا اليوم والٍ على مثلك، يشير إلى وازع الدين. أفلا ترى إلى المأمون لما عهد إلى علي بن موسى بن جعفر الصادق، وسماه الرضا، كيف أنكرت العباسية ذلك، وظهر من الهرج والخلاف وانقطاع السبل وتعدد الثوار والخوارج ما كاد أن يصطلم الأمر، حتى بادر المأمون من خراسان إلى بغداد، ورد أمرهم إلى معاهده، فلا بد من اعتبار ذلك في ولاية العهد، **فالعصور تختلف باختلاف ما يحدث فيها من الأمور والقبائل والعصبيات، وتختلف باختلاف المصالح، ولكل واحد منها حكم يخصه، لطفاً من الله بعباده**»[1].

لقد عمل الأمويون على تطوير مفهوم (وحدة القيادة) عبر ممارستهم للحكم، فأمير المؤمنين مسؤول عن رعاية أمور المسلمين، وجمع كلمتهم، وتوحيدهم، والقضاء على الفرقة بينهم. وتمتد هذه المسؤولية على امتداد حكم أمير المؤمنين، وحتى ما بعد وفاته. ولهذا كان من طبيعة الأمور، بعد القضاء على دولة الأمويين في الشام، وبعثها في الأندلس على يد صقر قريش (عبد الرحمن الداخل) أن يحرص أمراء بني أمية على التخلي عن لقب أمير المؤمنين لأبناء عمومتهم العباسيين الذين شمل حكمهم معظم أرجاء العالم العربي ـ الإسلامي (بما في ذلك الجزيرة العربية والشام والعراق ومصر وبلاد فارس وأفريقية) وذلك على الرغم مما كان من عداء مستحكم بين أبناء العمومة من أمويين وعباسيين. واقتصر أمراء بني أمية في الأندلس على تلقيب أنفسهم بأمراء الأندلس فقط وذلك حتى أيام عبد الرحمن الناصر ـ أو عبد الرحمن الثالث ـ (٢٧٨ ـ ٣٥٠هـ/ ٨٩١ ـ ٩٦١ م) والذي كان من أعظم أمراء بني أمية في الأندلس: «واستقامت له الأندلس في سائر جهاتها، ودامت أيامه نحو خمسين سنة، استفحل فيها ملك بني أمية بتلك الناحية، **وهو أول من تسمى منهم بالأندلس بأمير المؤمنين**، عندما التاث أمر الخلافة بالمشرق، واستبد موالي الترك على بني العباس، وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع عشرة

---

(١) تاريخ ابن خلدون ١/ ٣٧٢ ـ ٣٧٤.

وثلاثمائة ـ ٩٢٩ م ـ فتلقب بألقاب الخلافة»[١].

كان عمر بن الخطاب رضوان الله عليه هو أول من حمل لقب (أمير المؤمنين) وأصبح هذا اللقب من بعده خاصاً بخليفة المسلمين، والذي يمارس ويمثل السلطتين الدينية والدنيوية (الإدارية والحكم). غير أن الشيعة انفردوا عن أهل الطاعة والجماعة، أهل السنة، بإطلاق لقب (الإمام) على أميرهم. وذكر ابن خلدون بهذا الصدد ـ ما يلي ـ: «ثم إن الشيعة خصوا علياً باسم الإمام نعتاً له بالإمامة التي هي أخت الخلافة، وتعريضاً بمذهبهم في أنه أحق بإمامة الصلاة من أبي بكر، لما هو مذهبهم وبدعتهم، فخصوه بهذا اللقب ولمن يسوقون إليه منصب الخلافة من بعده، فكانوا كلهم يسمون بالإمام ما داموا يدعون لهم في الخفاء، حتى إذا هم استولوا على الدولة حولوا اللقب فيمن بعده إلى أمير المؤمنين، كما فعله شيعة بني العباس، فإنهم ما زالوا يدعون أئمتهم بالإمام إلى إبراهيم الذي جهروا بالدعاء له، وعقدوا الرايات للحرب على أمره، فلما هلك، دعي أخوه السفاح بأمير المؤمنين، وكذا الرافضة بأفريقية، فإنهم ما زالوا يدعون أئمتهم من ولد إسماعيل بالإمام حتى انتهى الأمر إلى عبيد الله المهدي، وكانوا أيضاً يدعونه بالإمام، ولابنه أبي القاسم من بعده. فلما استوثق لهم الأمر، دعوا من بعدهما بأمير المؤمنين»[٢].

عندما اتسعت حدود دولة العرب المسلمين، ودخلت أقوام كثيرة في الإسلام، حافظت هذه الأقوام على عصبياتها، وتشكلت مراكز للقوى كثيرة سواء في المشرق (آسيا) أو في المغرب (أفريقية). وكانت مراكز القوى هذه تحت قيادة سلالات حاكمة (السلاجقة، الأكراد، الأتراك، المرابطون، الموحدون، الخ...). وقد اعترف قادة هذه القوى بسلطة الخليفة أمير المؤمنين، وأظهروا خضوعهم له، وقاتلوا تحت رايته، ولم ينافسوه في اللقب، وإنما انتحلوا ألقاباً أخرى مثل: ملك، وسلطان. وكان الخليفة أمير المؤمنين ـ من العباسيين ـ يضفي مثل هذه الألقاب

---

(١) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٣٨٨ هـ، ١٩٦٨ م (٣٥٣/١).

(٢) تاريخ ابن خلدون ٤٠١/١ ـ ٤٠٥.

وسواها على أمراء أو ملوك أو سلاطين حكام الأقاليم التابعين لهم. وفي ذلك قال ابن خلدون: «كان الخلفاء يخصون ملوك المشرق من العجم بألقاب تشريفية، حتى يستشعر منها انقيادهم وطاعتهم وحسن ولايتهم، مثل شرف الدولة، وعضد الدولة، وركن الدولة، ومعز الدولة، ونصير الدولة، ونظام الملك، وبهاء الملك، وذخيرة الملك الخ»[1].

وفي المغرب، حمل ملوك المرابطين والموحدين لقب (أمير المؤمنين) بموافقة الخليفة العباسي ذاته، حيث كان (يوسف بن تاشفين) قد أرسل إلى الخليفة (المستظهر) وفداً لتقديم الولاء، والطلب بتقليد ملك المغرب والأندلس فوافق المستظهر، وأرسل (الخلع) والهدايا إلى يوسف بن تاشفين. وأصبح ملوك المرابطين والموحدين، ومن بعدهم من زناتة والحفصيين، يحملون لقب أمير المؤمنين، مع ولائهم الاسمي للخليفة العباسي في بغداد.

لقد جاء العثمانيون بعدئذ، فساروا على نهج من سبقهم في تحقيق مبدأ (وحدة القيادة). ومن المعروف أن المماليك هم الذين أبقوا على رمز الخلافة بعد اجتياح المغول لبغداد، فكان الخليفة مقيماً في القاهرة، رمزاً لوحدة المسلمين، رغم أنه لم يكن له شيء من الأمر، فلما فتح السلطان سليم بلاد الشام ومصر، تنازل الخليفة العباسي للسلطان سليم عن لقب أمير المؤمنين الذي أضيف إلى ألقاب السلطان.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٤٠١/١ ـ ٤٠٥.

٢

مركزية السلطة وحرية العمل

يمثل الخليفة، أمير المؤمنين، السلطة العليا في الأمور الدنيوية، وهو قبل ذلك المرجع الأعلى في الأمور الدينية، وإليه يعود أمر إقامة حدود الله على أرض الله، وتطبيق شريعته على عباد الله. فصلاحياته وسلطاته إذن غير محدودة، إلا بحدود الشريعة. وتعبيراً عن هذا الشعور بالمسؤولية، أطلق أمير المؤمنين عمر مقولته الشهيرة في خطبة له: «**والذي بعث محمداً بالحق، لو أن جملاً هلك ضياعاً بشط الفرات، خشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب**» **وهو يعني من آل الخطاب نفسه وما يعني غيرها.**

ومن ذلك قوله أيضاً: «لئن عشت إن شاء الله لأسيرنَّ في الرعية حولاً، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني، أما عمالهم فلا يرفعونها إلي، وأما هم فلا يصلون إلي، فأسير إلى الشأم فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين، والله لنعم الحول هذا»(١). وعلى هذا فقد تميزت ممارسة السلطة في صدر الإسلام بالمركزية القوية، وبالحد من حرية العمل لأمراء الجيش والولاة.

وحدث في حروب الردة، أن هاجم خالد بن الوليد (البُطاح) وقتل خطأ

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٢٠١ ـ ٢٠٢.

(مالك بن نويرة) مما أغضب عمر بن الخطاب الذي حدَّث أمير المؤمنين أبا بكر - رضي الله عنهما - وقال له: «**إن في سيف خالد رهقاً، فإن لم يكن هذا حقاً، حق عليه أن تقيده**». وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولا وزعته - عماله - فرد على عمر بقوله: «هيه يا عمر! تأوَّل فأخطأ، فارفع لسانك عن خالد. . . لم أكن لأشيم سيفاً سله الله على الكافرين»[1].

ولما كان أمير المؤمنين عمر يحرص كل الحرص على تحقيق مبدأ مركزية السلطة - وهو ما تؤكده كل أوامره وتوجيهاته إلى أمراء الجيوش والولاة - فقد كان أول عمل له بعد مبايعته بالخلافة، هو عزل خالد بن الوليد عن القيادة وقوله: «لا يلي لي عملاً أبداً»[2].

وتظهر سيرة خالد بن الوليد رضي الله عنه، أنه كان من القادة الذين يميلون إلى ممارسة (حرية العمل الكاملة) في قيادتهم وذلك بصرف النظر عن توجيهات أمير المؤمنين وأوامره، وهو ما عبر عنه في إغارته على (البُطاح) بقوله لأصحابه الذين أظهروا رغبتهم بعدم التوجه إلى (البطاح) لأن أمير المؤمنين لم يطلب إليهم ذلك، فقال: «أنا الأمير، . . . ولو أنه لم يأتني له كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة، فكنت إذا أعلمت - أمير المؤمنين بها - فاتتني، فلا أعلمه حتى أنتهزها. كذلك لو ابتلينا بأمر ليس من أمير المؤمنين عهد إلينا فيه، لم ندع أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به».

لقد كان أمراء الجيوش والعمال - الولاة - في أيام الخلفاء الراشدين، ينقادون إلى حكم مركزي قوي، وكان الخلفاء، أمراء المؤمنين، يعملون على تعيين أمراء الجيوش، والولاة، وتحديد واجباتهم، وتعيين أهدافهم، مع متابعة أعمال أمراء الجيوش متابعة دقيقة، والتدخل في إدارة الحرب وتنظيم الجيوش، وحتى تعيين القادة التابعين (مثل تعيين قادة الميمنة والميسرة والساقة - المؤخرة - الخ)، وكذلك متابعة أعمال الولاة بحيث لم يكن يخفى على أحد من الخلفاء، أمراء المؤمنين، شيء من أمور عمالهم وقادة جيوشهم.

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٢٧٨ - ٢٧٩. (٢) المرجع السابق ٣/٤٣٦.

ولقد حفظت كتب التاريخ والسير شواهد لا نهاية لها، وقصصاً لا يطالها حصر عن مركزية القيادة ودورها في عهود الخلفاء الراشدين من أجل بناء الدولة العربية الإسلامية، وتطويرها. **من ذلك وصية عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري وقد ولاه قضاء الكوفة** وكتب له رسالته الشهيرة التي بقيت بمثابة دستور لكل تشريع قضائي. وهي: «أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمة، وسنّة متبعة، فافهم إذا أدِيَ إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذَ له، وآسِ بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك **حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك. البيِّنة على من ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً**. ولا يمنعك قضاء قضيته أمس، فراجعت اليوم فيه عقلك، وهديت فيه لرشدك، أن ترجع إلى الحق. فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. **الفهمَ الفهمَ فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنّة. ثم اعرفْ الأمثال والأشباه، وقسْ الأمور بنظائرها**. واجعل لمن ادعى حقاً غائباً، أو بينة، أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه، وإلا استحللت القضية عليه، فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى. المسلمون عدول بعضهم على بعض، إلا مجلوداً في حد، أو مجرباً عليه شهادة زور، أو ظنيناً في نسب أو ولاء، فإن الله سبحانه عفا عن الأيمان، ودرأ بالبينات. وإياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم، فإن استقرار الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر، ويحسن به الذكر، والسلام»[1].

وجاء في وصية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى قائده (سلمة بن قيس الأشجعي)[2] ما يلي: «سر باسم الله، قاتل في سبيل الله من كفر بالله، فإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى ثلاث خصال: ادعوهم إلى الإسلام، فإن أسلموا فاختاروا دارهم فعليهم في أموال الزكاة، وليس لهم في فيء المسلمين نصيب. **وإن اختاروا أن يكونوا معكم فلهم مثل الذي لكم، وعليهم مثل الذي عليكم**. فإن أبوا فادعوهم إلى الخراج، فإن أقروا بالخراج فقاتلوا عدوهم من ورائهم. **وفرغوهم لخراجهم، ولا تكلفوهم فوق طاقتهم**، فإن أبوا فقاتلوهم فإن الله ناصركم عليهم،

---

(١) تاريخ ابن خلدون ١/ ٣٩٠ - ٣٩١.
(٢) تاريخ الطبري ٤/ ١٨٦ - ١٨٧.

فإن تحصنوا منكم فسألوكم أن ينزلوا على حكم الله وحكم رسوله، فلا تنزلوهم على حكم الله، فإنكم لا تدرون ما حكم الله ورسوله فيهم، وإن سألوكم أن ينزلوا على ذمة الله وذمة رسوله، فلا تعطوهم ذمة الله وذمة رسوله؛ وأعطوهم ذمم أنفسك، **فإن قاتلوكم فلا تغلُّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً**».

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا استعمل العمال، خرج معهم يشيعهم فيقول: «إني لم استعملكم على أمة محمد ﷺ على أشعارهم، ولا على أبشارهم، **إنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة، وتقضوا بينهم بالحق، وتقسموا بينهم بالعدل**، وإني لم أسلطكم على أبشارهم ولا على أشعارهم، ولا تجلدوا العرب فتذلوها، ولا تجمروها[1] فتفتنوها، ولا تغفلوا عنها فتحرموها. جردوا القرآن، وأقلوا الرواية عن محمد ﷺ، وأنا شريككم»[2].

وخطب مرة في يوم الجمعة فقال: «اللهم إني أشهدك على أمراء الأمصار، إني إنما بعثتهم ليعلِّموا الناس دينهم وسنة نبيهم، وأن يقسموا فيهم فيئهم، وأن يعدلوا، **فإن أشكل عليهم شيء رفعوه إلي**».

من المحتمل هنا القول بأن مثل هذه التوجيهات والوصايا للقضاة وأمراء الأجناد والعمال، ما هي إلا خطوطاً عامة، أو أسساً رئيسة، للقيادة والإدارة، وهي (لا تحد من حرية العمل للقضاة وأمراء الأجناد والعمل). غير أن مثل هذا الاعتراض يتجاهل ما كان عليه هؤلاء من الورع ومن التقى بحيث كانت حدود التوجيهات والوصايا ملزمة المعنيين بها إلزاماً شديداً «**وكان عمر يقصي من عماله، وإذا شكي إليه عامل جمع بينه وبين من شكاه، فإن صح عليه أمر يجب أخذه به، أخذه به**».

وإذن، فقد كانت هناك متابعة أيضاً من جانب أمراء المؤمنين لما يقوم به قادة الجند والعمال. وكم من القادة والولاة الذين تم عزلهم لمجرد مخالفة لتوجيه من التوجيهات، أو لظهور عجز في الكفاءة القيادية، أو لشكاية رفعها مسلم ضد أميره المباشر؟.

---

(١) جمر الجنود: حبسهم في أرض العدو ولم يقفلهم، أو يعيدهم إلى بلدهم.
(٢) تاريخ الطبري ٤/٢٠٤.

وبذلك كانت مراقبة المسلمين لقادتهم وولاتهم تشكل بدورها قيداً من القيود التي تحد من حرية عمل الولاة وقادة الجيوش. غير أن هذه القيود، سواء هذه التي يفرضها أمير المؤمنين على قادة جنده وولاته، أو تلك التي تتعلق بالرعية، لم تكن عوائق بقدر ما كانت ضوابط لتنفيذ الواجب على أفضل وجه، **يضاف إلى ذلك، بل وقبل ذلك كله، التزام المسلمين بقواعد وأسس دستور واحد يرجعون إليه جميعاً، بداية من أمير المؤمنين، ومروراً بعماله من قضاة وأمراء جند وعمال وسواهم، ونهاية بآخر فرد من المسلمين، وهذا الدستور هو كتاب الله وسنة رسوله، والمسلمون جميعاً عدول بعضهم بعضاً**، فلهذا لم يكن من الصعب، ولا العسير، أن تسير أعمالهم بصورة متكاملة، وبحيث يضطلع كلٌّ بما يلقيه عليه أمير المؤمنين من الأعباء والواجبات، في حدود قدرته واستطاعته، مع العودة إلى أمير المؤمنين في كل ما يستجد من مشكلات تفرضها طبيعة التطور المتسارع والمستمر للمجتمع الإسلامي.

ولم يكن باستطاعة أمراء الأجناد في الشام والعراق مثلاً ـ بعد فتوح الشام والعراق ـ تجاوز حدود البلاد التي تم فتحها إلا بأمر من أمير المؤمنين، كما لم يكن باستطاعة أمير الشام ـ معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ ركوب البحر والجهاد فيه، إلا بعد الحصول على موافقة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، بل كان لا بد من العودة إلى أمير المؤمنين حتى في كثير من مشكلات الإدارة المحلية ـ إذا ما جاز التعبير ـ.

ولقد جاء الأمويون في أعقاب الخلفاء الراشدين، فوطدوا دعائم الدولة العربية ـ الإسلامية على أساس المركزية القوية، مع منح العمال حرية العمل التي تتناسب مع واجباتهم ومسؤولياتهم. ولم يكن باستطاعة قائد كبير مثل موسى بن نصير أو قتيبة بن مسلم الباهلي أو محمد بن القاسم الثقفي ركوب البحر، أو تطوير الأعمال القتالية دون الرجوع إلى أمير المؤمنين. كذلك لم يكن باستطاعة والٍ كبير ـ مثل الحجاج بن يوسف الثقفي ـ التعامل مع ثورة متفجرة، أو القضاء على تمرد، بدون الرجوع إلى أمير المؤمنين في دمشق. **فكان العمال وأمراء الأجناد وسواهم ملزمين بالتالي، بإعلام أمير المؤمنين عن كل شأن من شؤون واجباتهم، والحصول على موافقته فيما**

يتعلق باتخاذ القرارات الحاسمة، سواء كانت هذه القرارات متعلقة بأحوال المسلمين، أو بأراضيهم وممتلكاتهم، أو بقية شؤونهم الحياتية، العامة، وحتى الخاصة أحياناً.

كذلك كان شأن خلفاء بني العباس في صدر العصر العباسي الأول، فقتل أبي مسلم الخراساني، والقضاء على البرامكة، لم يكن إلا نتيجة لمحاولات هؤلاء منازعة أمير المؤمنين في سلطانه، بحيث قيل لأبي جعفر المنصور يوم قتل أبي مسلم: «**يا أمير المؤمنين، عد من هذا اليوم خلافتك**»[1].

على كل حال؛ لم تكن قدرات أمراء المؤمنين وإمكاناتهم على درجة واحدة من الثبات والقوة لفرض مركزية الدولة، وكذلك لم تكن درجة استعداد قادة مراكز القوى التي دخلت في الإسلام ـ بعدئذ ـ واحدة للخضوع لتلك المركزية. ولهذا كانت العلاقة بين السلطة المركزية لأمير المؤمنين وبين أمراء الأجناد والعمال هي علاقة متحركة على شكل معادلة ثابتة، فكلما ضعفت سلطة أمير المؤمنين وهيمنته، ضعفت السلطة المركزية، وزادت بالمقابل حرية العمل للولاة والقضاة وأمراء الأجناد. ومقابل ذلك، فكلما تعاظمت مركزية أمير المؤمنين، كلما ضعفت حرية عمل الولاة والأمراء والعمال. وقد ظهر ذلك منذ أيام الفتنة الكبرى (مقتل عثمان وصراع علي مع معارضيه)، ثم تكرر ذلك عندما استحل نفر من المنحرفين قتل علي رضي الله عنه، غير أنه ما من أحد من المنحرفين استطاع الخروج عن دائرة الخلافة وإمارة المؤمنين. فقتلة عثمان لم يتمكنوا من اختيار أحدهم للخلافة، ومؤامرة (١٧ رمضان) لقتل أمراء المسلمين (علي ومعاوية وعمرو بن العاص) لم تخطط أو تفكر بالاستيلاء على السلطة وانتحال الخلافة. كذلك فعل المنحرفون والطامعون الذين شكلوا مراكز للقوى بعد الصدر العباسي الأول. **وكان عاشر خلفاء بني العباس (المتوكل) هو أول ضحية من خلفاء العباسيين الذين نازعهم الأتراك سلطانهم وسلطتهم المركزية.** فقد كان وزراء المتوكل (الفتح بن خاقان ووصيف وبغا) قد

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة سبع وثلاثين ومائة (طبعة دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧ م المجلد الرابع ـ ص ٣٥٥).

سيطروا عملياً على الحكم، وما لبثوا أن عملوا على قتله (سنة ٢٤٧ هـ - ٨٦١ م)[١] غير أنهم لم يحاولوا إخراج الحكم من دائرة الخلافة العباسية. فبايعوا ابنه، المنتصر بالله محمد بن جعفر (٢٢٣ - ٢٤٨ هـ/ ٨٣٧ - ٨٦٢ م) فكانت مدة خلافته ستة أشهر فقط، وبويع بعده المستعين بالله (٢٢٨ - ٢٥٢ هـ/ ٨٤٢ - ٨٦٦ م) فكانت مدة خلافته ثلاث سنين وتسعة أشهر ومات مقتولاً، بويع من بعده للمعتز بالله (٢٣١ - ٢٥٥ هـ/ ٨٤٥ - ٨٦٨ م) فكانت مدة خلافته أربع سنين وستة أشهر، ومات مقتولاً. وبويع من بعده للمهتدي بالله محمد بن الواثق (٢١٨ - ٢٥٦ هـ/ ٨٣٣ - ٨٦٩ م) فكانت مدة خلافته أحد عشر شهراً. **وهكذا فقد تم خلال ثمانية أعوام فقط، خلع أربعة خلفاء، ذهب ثلاثة منهم قتلاً على أيدي أعوانهم (٢٤٨ - ٢٥٦ هـ/ ٨٦٢ - ٨٦٩ م)**[٢].

هنا لا بد من التوقف عند مجموعة من الظواهر التي ارتبطت بهذه الأحداث، ولعل من أكثرها أهمية:

أولاً: احتفاظ الخليفة أمير المؤمنين بقدر كاف من السلطة الشرعية على قادة مراكز القوى.

ثانياً: وجود مقاومة قوية ضد قادة مراكز القوى المنافسة لسلطان الخلافة.

ثالثاً: الإفادة من منافسات القوى المتصارعة على السلطة للقضاء عليها جميعاً.

رابعاً: العمل المستمر للمحافظة على مركزية القيادة، ووحدتها.

لقد كان القائد التركي (وصيف) هو أحد المتآمرين الذين اشتركوا في قتل المتوكل، وتنصيب (المنتصر). وكان بين (وصيف) وبين (أحمد ابن الخصيب)، وهو متآمر ومشترك في عملية قتل المتوكل، قدر من الشحناء والتباغض، فعمل أحمد

---

(١) المتوكل على الله: جعفر بن محمد بن هارون ٢٠٧ - ٢٤٧ هـ/ ٨٢٢ - ٨٦١ م عاشر خلفاء بني العباس، كان تقياً، حازماً، غير أن الأتراك غلبوه على أمره وقتلوه عندما شعروا أنه يريد أن ينتزع منهم سلطانهم وقوتهم.

(٢) انظر - الكامل في التاريخ - ابن الأثير - أحداث السنوات الهجرية المذكورة وذلك لمعرفة المزيد من التفاصيل عن الأحداث المذكورة.

ابن الخصيب على تحريض المنتصر ضد وصيف، وأشار عليه بإخراجه من معسكره وتوجيهه إلى غزو الثغور. **فأمر المنتصر بإحضار وصيف، فلما حضر قال لـه: «قد أتانا عن طاغية الروم أنه أقبل يريد الثغر، وهذا أمر لا يمكن الإمساك عنه، ولست آمنه أن يهلك كل ما مر به من بلاد الإسلام، ويقتل ويسبي. فإما شخصت أنت، وإما شخصت أنـا» فقال وصيف: «بـل أشخص أنا يـا أميـر المؤمنين»**. فقـال المنتصـر لأحمد بن الخصيب: «انظر إلى ما يحتاج إليه وصيف» فقال ابن الخصيب: «نعم يا أمير المؤمنين» فقال المنتصر معقباً: «مـا نعم؟ قم الساعـة». وأصدر المنتصـر أمره بانتداب الناس إلى الغزو وترغيبهم فيه، وانتخب له الرجال، فكان معه اثنا عشر ألف رجل. وتوجه وصيف إلى ثغر ملطية، وهناك وافاه كتاب المنتصر يأمره بالمقام بالثغر أربع سنين، يغزو في أوقات الغزو منها، إلى أن يأتيه رأيه[1].

ما إن توفي المنتصر، حتى تولى (أحمـد بن الخصيب) أمر تـولية (أحمـد ابن محمد ابن المعتصم) ولقبه المستعين، وذلك حتى لا يتولى الخـلافة أحـد من ولد المتوكل فيعمـل على قتل الـذين اغتالـوا والده (ومنهم بغـا الكبير، وبغـا الصغير، وأتامش، والقواد الأتراك).

وفي الموعد المحدد للبيعة، بوغت الناس بانطلاق صيحة (يا منصور) وبهجوم خمسين فارساً تقريباً ومعهم أخلاط الناس والغوغاء والسوقة، ووقعت الحرب، وكثر القتل بين الطرفين، وتحرك أهل السجن بسـامراء، وهـرب منهم جماعـة، وانتصر الأتراك، وتمت مبايعة (المستعين). ولكن سرعان ما غضب الموالي على (أحمد بن الخصيب) فاستصفى المستعين أمواله وصادرها ونفاه إلى كريت.

وفي السنة التالية (٢٤٩ هـ ـ ٨٦٣ م)[2] تضمنت أحداثها ما يلي:

«اتصل بأهـل بغداد وسـامراء قتـل عمر بن عبيـد الله وعلي بن يحيى وهما من شجعان الإسلام، شديداً بأسهما، عظيماً غناؤهما عن المسلمين في الثغـور، فشق

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ثمان وأربعين ومائتين.

(٢) المرجع السابق ـ أحداث سنة تسع وأربعين ومائتين.

ذلك عليهم، مع ما لحقهم من استعظامهم قتل الأتراك للمتوكل واستيلائهم على أمور المسلمين، يقتلون من يريدون من الخلفاء، ويستخلفون من أحبوا، من غير ديانة ولا نظر للمسلمين، فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفير، وانضم إليهم الأبناء. . . ففتحوا السجون وأخرجوا من فيها، وأحرقوا أحد الجسرين وقطعوا الآخر. وفي سامراء، وثب الناس ففتحوا السجن، وأخرجوا من فيه، فبعث في طلبهم جماعة من الموالي، فوثب العامة بهم فهزموهم، فركب بغا وأتامش ووصيف وعامة الأتراك، فقتلوا من العامة جماعة».

لم يكن من الصعب بعد ذلك تحريض الطامعين بعضهم ضد بعض، فقد استأثر (أتامش) بالأموال، مما أغرى (وصيف وبغا) بتحريض الموالي ضده، وقتل (أتامش). وفي سنة ٢٥١ هـ - ٨٦٥ م قام وصيف وبغا بقتل (باغر) التركي. وفي السنة التالية أقدم الخليفة المعتز على إسقاط اسمي وصيف وبغا من الدواوين، ثم جرى قتل (وصيف) سنة ٢٥٣ هـ - ٨٦٧ م وجرى قتل (بغا الشرابي) التركي، فتم بذلك القضاء على رؤوس قادة جند الترك.

ولم تلبث المركزية أن استعادت قدرتها في عهد أمير المؤمنين المعتمد الذي اعتمد على أخيه الموفق للقضاء على ثورة الزنج (٢٥٥ - ٢٧٠ هـ/ ٨٦٨ - ٨٨٣ م).

ولقد تعرض أمراء المؤمنين في هذه الفترة لظروف قاسية، ومعاناة شاقة، وصلت إلى حد تجريدهم من كل رصيد مادي أو هيبة معنوية، ولكن سرعان ما كانت دار الإمارة تعود مزهوّة نضرة بفضل إصرار أمراء المؤمنين على التمسك بحقوقهم الشرعية، وبفضل ولاء أهل الطاعة والجماعة (السنة) وتأييدهم لمبدأ (وحدة القيادة وشرعيتها) في شخص أمير المؤمنين.

لقد كان تعيين القضاة والولاة وأمراء الأجناد من حق أمير المؤمنين ومن واجباته، وقد استطاع بعض الولاة وأمراء الأجناد الاستبداد بما كلفوا به من الأعمال، وتحويل هذه الأعمال إلى مواريث يخلفونها لأبنائهم وأحفادهم من بعدهم، مثل الطولونيين ومن بعدهم الأخشيديين في مصر، ومثل الزنكيين والأيوبيين من بعد وكذلك السلاجقة. وكثيراً ما كان هؤلاء ينافسون الخليفة العباسي أمير المؤمنين في سلطاته،

ويتجاوزون في حكمهم حدود الولايات والإمارات التي ولّاهم أمير المؤمنين عليها، مما كان يؤدي إلى حروب بينهم وبين أمير المؤمنين. غير أن هذه السلالات الحاكمة سرعان ما كانت تعاود خضوعها لأمير المؤمنين، وكان أمير المؤمنين يمارس دوره في كل مرة يشغر فيها شاغر بوفاة عامل أمير المؤمنين، أو بسبب تفجر صراع بين أفراد السلالة الواحدة، وبقي أمير المؤمنين باستمرار هو عامل الاستقرار ومحقق التوازن في إمارات المسلمين وبلادهم، ولهذا لم يكن مجرد رمز روحي كما تصوّره القراءة السطحية للأحداث، وإنما بقي له دوره الأساسي والحاسم في إدارة أقاليم العالم الإسلامي.

لقد ظهرت في العصر العباسي، بالإضافة إلى ما سبق ذكره، حركات انفصالية حاولت الاستقلال التام عن السلطة المركزية للخلافة، بل وانتحال سلطة الخلافة وألقابها وظواهرها ومضمونها. ولقد استطاعت بعض هذه الحركات إقامة كيان دولة، أو دولة، مثل حركة القرامطة، ودولة الفاطميين في مصر. وكان موقف السلطة المركزية ـ للخلافة ـ واضحاً ودقيقاً في مجابهة هذه الحركات المنحرفة عن مبدأ (الطاعة والجماعة). **فإذا ما كان الخليفة أمير المؤمنين على استعداد تام لمهادنة مراكز القوى التي تدين بالطاعة والجماعة، وإبقاء الجسور مفتوحة معها، إلا أنه لم يكن على استعداد أبداً للتفاهم مع الحركات السياسية ـ الدينية الانفصالية والمنافسة للخلافة ـ بحجة التشيع ـ**. وهكذا استمر الصراع العنيف بين بغداد وبين القرامطة ثم بين بغداد والقاهرة، إلى أن تم القضاء على دولة الفاطميين (على يد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧ هـ ـ ١١٧١ م).

تكررت هذه الظاهرة، بعد زوال الدولة العباسية وقيام الدولة العثمانية، فقد خاض أمراء المؤمنين من العثمانيين حروباً ضارية للمحافظة على المركزية، وأظهروا كذلك استعداداً كبيراً لمنح الأقاليم القاصية درجة كبيرة من حرية العمل في مجال الإدارة المحلية، مثل الجزائر ومصر وكثير من أقاليم المغرب الإسلامي والمشرق الإسلامي، غير أنهم لم يظهروا أي استعداد للتساهل في مواجهة الحركة الاستقلالية التي ظهرت في بلاد فارس (إيران) منذ أيام السلطان سليم الأول (٨٧٥ ـ ٩٢٦ هـ/ ١٤٧٠ ـ ١٥٢٠ م)، الذي اجتاح إيران ودخل تبريز بعد انتصاره على الشاه إسماعيل

سنة ٩٢٠ هـ ـ ١٥١٤ م. وكذلك فعل السلطان سليمان القانوني الذي اجتاح إيران ودخل تبريز في سنة ٩٤١ هـ ـ ١٥٣٤ م، وتكررت بعد ذلك الحروب بين العثمانيين والفرس (العجم) سنة ١٥٧٩ وسنة ١٥٨٣ وسنة ١٦٣٠ وسنة ١٦٣٥ وسنة ١٦٣٨ م.

هنا لا بد من القول إن السلطة المركزية قد تطورت تطوراً كبيراً، لا سيما بعد أن استقرت الدولة العثمانية منذ أيام السلطان سليم الثاني (وهو السلطان الحادي عشر بين الخلفاء العثمانيين ٩٣٠ ـ ٩٨٢ هـ/ ١٥٣٣ ـ ١٥٧٤ م) حيث أصبح لرئيس الوزراء (الصدر الأعظم) سلطات واسعة جداً. كذلك أصبح لقادة الجند (الإنكشارية) دور كبير في التأثير على السلطة المركزية، لا سيما بعد أن تخلى السلاطين العثمانيون عن دورهم في قيادة الجيوش، مما دفع بعض السلاطين إلى معاودة قيادة الجيوش بأنفسهم، وممارسة السلطة المركزية بصورة مباشرة (مثل السلطان محمد الثالث ٩٧٤ ـ ١٠١٢ هـ/ ١٥٦٦ ـ ١٦٠٣ م). غير أن قادة الدولة ما لبثوا أن استعادوا سيطرتهم على الموقف، فتمكن قادة الإنكشارية من قتل السلطان السادس عشر في سلسلة خلفاء العباسيين (عثمان الثاني) وذلك سنة ١٠٣١ هـ ـ ١٦٢٢ م، وصارت السلطة المركزية تحت إدارة قادة الإنكشارية الذين عادوا فقتلوا السلطان إبراهيم الأول (١٠٥٨ هـ ـ ١٦٤٨ م).

وظهر خلال هذه الفترة رؤساء وزراء أكفاء، استطاعوا المحافظة على قوة الدولة وهيبتها ودعم مركزية الدولة. وكان للقضاة وشيوخ الإسلام دورهم في هذا التطور، إذ كان إفتاء شيخ الإسلام، أو قاضي القضاة، أمراً لا بد منه لتنفيذ القرارات الحاسمة، مثل إعلان الحرب، أو عزل أمير المؤمنين، أو القضاء على تمرد، أو عزل الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) أو إقالة وعزل قادة الجند الخ... وهذا مما دعم السلطة المركزية، التي بقيت موزعة بين السلطان وبين مجلس وزرائه ومستشاريه، غير أن السلطان بقي، رغم كل التجاوزات والانحرافات، هو مصدر السلطة الحقيقية، وفي قبضته تتمركز إدارة الدولة، وهذا ما تؤكده كافة الوثائق المتوافرة خلال المائة سنة الأخيرة من عمر الدولة العثمانية، سواء عبر المعاهدات التي عقدتها الدولة مع الدول الأجنبية، أو عبر الإصلاحات التي صدرت عن الباب العالي

(السلطان)، أو عبر التصريحات والمنشورات التي كانت تصدر عن السلطان لرعيته.

ولقد تشكلت في المرحلة الأخيرة من عمر الدولة العثمانية هيئات دستورية ـ بحسب المفاهيم الحديثة ـ منها مجلس الأعيان ومجلس المبعوثين (النواب). ونُظمت السلطات التشريعية والإدارية ـ التنفيذية ـ ولم يؤثر ذلك على مركزية الدولة، بل إنه عمل على دعمها. ولا يمكن على كل حال، إدانة تلك المركزية، أو اتهامها بأنها كانت سبباً في انهيار الدولة العثمانية التي مزقت بخناجر الدول الأجنبية الحاقدة على الإسلام وأهله، بل إن الأمر على النقيض من ذلك، فقد بقيت تلك المركزية هي أساس قوة المسلمين، ولهذا لم يكن غريباً أن تجتاح العالم الإسلامي جائحة الغضب الشديد عندما ألغى (كمال أتاتورك) الخلافة سنة ١٩٢٤ م، وعرف المسلمون بعدئذ من النكبات والكوارث ما لم يعرفه شعب من شعوب الدنيا، مما جعل المسلمين في حالة بحث دائم عن (وحدة القيادة) وعن (المركزية) وعن (الطاعة والجماعة) وسيبقى هذا البحث ثابتاً ودائماً، وليست (منظمة الشعوب الإسلامية) إلا ظاهرة من ظواهر هذا البحث الذي يعتبر مطلباً أساسياً من ضرورات وجود الأمة والشعوب الإسلامية.

٣

القيادة والشورى

يظهر بوضوح أن مسألة (وحدة القيادة) ليست مسألة استبداد بالرأي، ولا مسألة جور وعسف، وإنما هي مسألة حرية القائد في اتخاذ القرار وتنفيذه بما يخص مصالح المسلمين وشؤونهم، وأن هذه الحرية مقيدة بحدود الله وشريعة الله.

كما أن (مركزية السلطة وحرية العمل) ما هي إلا مسألة تنظيمية خاضعة للمتغيرات الشخصية والاجتماعية والناجمة أيضاً عن المتحولات الزمنية والمكانية. ولقد كان من فضل الله على المسلمين حتى في هذه المسألة التنظيمية أن وضع لها الضوابط عن طريق (الشورى) ففي أدب القرآن الكريم للنبي ﷺ قوله تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ، وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾(١). وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾(٢). وأعطى الرسول ﷺ الأمثولة في الشورى، حيث استشار صحابته في أمور كثيرة، غير أنه احتفظ دائماً بحرية اتخاذ القرار وتنفيذه.

ففي معركة الخندق ـ على سبيل المثال ـ أشار سلمان الفارسي على رسول الله ﷺ بالخندق، وذلك بقوله: «يا رسول الله إنا كنا بفارس إذا حوصرنا

---

(١) سورة آل عمران ـ الآية ١٥٩.
(٢) سورة الشورى ـ الآية ٣٨.

خندقنا علينا» وأخذ الرسول بمشورته. وكذلك فعل أيضاً عندما أراد عقد صلح مع غطفان ـ من قيس عيلان ـ مقابل إعطائهم ثلث ثمار المدينة، وبعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فذكر لهما أمر الصلح، فقالا: «يا رسول الله، أمر تحبه فنصنعه، أم شيء أمرك الله عز وجل به، لا بد لنا من عمل به. أم شيء تصنعه لنا» فأجاب الرسول: (لا! بل لكم، والله ما أصنع ذلك إلا أني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم لأمر ما ساعة) فقال له سعد بن معاذ: «يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على شرك بالله عز وجل، وعبادة للأوثان، ولا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة إلا قرى ـ ضيافة ـ أو بيعاً، أَفَحِينَ أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك، نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم» فقال رسول الله ﷺ: (فأنت وذاك)(١) وصرف نظره عن أمر الصلح مع غطفان.

ما كان لصاحبة رسول الله ﷺ أن يحيدوا عن أمر الله، أو يخرجوا على سنة رسوله. فطبَّقوا مبدأ (الشورى) في أمور دنياهم ـ ومن ذلك اختيار عمر بن الخطاب رضي الله عنه لإمارة المؤمنين ـ وكانت أول وصية للأمير عمر بن الخطاب إلى قائد الجيش الذي وجهه لحرب العراق بقيادة أبي عبيد بن مسعود، حيث قال له: «**اسمع من أصحاب النبي ﷺ، وأشركهم في الأمر**، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين، فإنها الحرب، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث ـ الرزين غير المتعجل ـ الذي يعرف الفرصة والكف»(٢).

وعندما ابتدأ أمر القادسية «بعث ـ عمر ـ إلى أهل الرأي، فاجتمع إليه وجوه أصحاب النبي ﷺ وأعلام العرب، فقال: أحضروني الرأي، فإني سائر» فاجتمعوا جميعاً، وأجمع ملؤهم على أن يبعث رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، ويقيم، ويرميه بالجنود، فإن كان الذي يشتهي من الفتح، فهو الذي يريد ويريدون، وإلا أعاد

---

(١) تاريخ الطبري ـ غزوة الخندق ـ أحداث السنة الخامسة للهجرة (٢/٥٧٢).

(٢) تاريخ الطبري ـ أحداث سنة ١٣ هـ (٣/٤٤٥).

رجلاً وندب جنداً آخر، وفي ذلك ما يغيظ العدو، ويرعوي المسلمون، ويجيء نصر الله بإنجاز موعود الله»[1]. وأخذ عمر بهذه الشورى، ووجه الجيش الذي كان يعتزم قيادته إلى العراق، وأسند قيادته إلى سعد بن أبي وقاص.

وعندما فتح الله (رامهرمز، وتستر) للعرب المسلمين، توجه وفد من الكوفة إلى المدينة المنورة، وهو يحمل حصة بيت مال المسلمين من الفيء (الخمس) ومع الأسرى وفي مقدمتهم قائد الفرس (الهرمزان). وجلس أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه إلى الوفد، وتحدث إليه بقوله: «ما بال البلاد ـ بلاد فارس ـ تنتقض على المسلمين المرة بعد المرة؟ لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى وبأمور لها ما ينتفضون بكم؟» فقالوا: «ما نعلم إلا وفاء وحسن ملكة!». ولم يجد عند أحد منهم شيئاً يشفيه، ويبصر به مما يقولون، إلا ما كان من ـ الأحنف بن قيس ـ الذي قال: «يا أمير المؤمنين! أخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد، إيقاق الفتوح، وأمرتنا الاقتصار على ما في أيدينا، وإن ملك فارس حي بين أظهرهم، وإنهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم، ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه. وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شيء إلا بانبعاثهم، وأن ملكهم هو الذي يبعثهم، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فنسيح في بلادهم حتى نزيله عن فارس، ونخرجه من مملكته وعز أمته، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس». فقال عمر: «صدقتني والله! وشرحت لي الأمر عن حقه»[2]. وأخذ عمر بهذه المشورة، وأمر بفتح بلاد فارس، فكانت معركة فتح الفتوح (نهاوند)، واجتياح بلاد فارس وفتحها، وإزالة ملكها.

تجدر الإشارة إلى أنه عندما توافرت المعلومات عن حشود الفرس الضخمة في (نهاوند) والتي بلغت (١٥٠) ألف مقاتل، عمل أمير المؤمنين عمر، رضي الله عنه، على حشد جيشٍ واعتزم قيادته بنفسه، ولكن وقبل اتخاذ القرار النهائي عمل على استشارة المسلمين في عاصمة الإسلام (المدينة المنورة) ونودي في الناس: «الصلاة

---

(١) تاريخ الطبري ـ أحداث سنة ١٤ هـ (٣/ ٤٨٠).
(٢) المرجع السابق ـ أحداث سنة ١٧ هـ (٤/ ٨٩).

جامعة» فاجتمع الناس وفيهم سعد بن مالك، وسعد بن أبي وقاص، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، وعثمان بن عفان. **وقام أمير المؤمنين عمر على المنبر خطيباً، فأخبر الناس الخبر، واستشارهم وقال:** «هذا يوم له ما بعده من الأيام، ألا وإني قد هممت بأمر وإني عارضه عليكم فاسمعوه، ثم أخبروني وأوجزوا، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، ولا تكثروا ولا تطيلوا فتفشغ بكم الأمور ـ أي تتسع وتنتشر ـ ويلتوي عليكم الرأي. أفمن الرأي أن أسير فيمن قبلي ومن قدرت عليه حتى أنزل منزلاً واسطاً بين هذين المصرين، فأستنفرهم، ثم أكون لهم ردءاً حتى يفتح الله عليهم، ويقضي ما أحب، فإن فتح الله عليهم أن أضربهم عليهم في بلادهم، وليتنازعوا ملكهم». فقام أصحاب رسول الله ﷺ، وعارضوه، وتقرر تكليف قائد هو «النعمان بن مقرن»(1).

يظهر من خلال ذلك، أن نظام الشورى لم يأخذ في صدر الإسلام شكلاً محدداً ولا إطاراً صلباً جامداً، كما أنه لم يأخذ شكل هيئة ثابتة تنعقد بصورة منتظمة، ولم يكن عملاً وظيفياً. فالمسلمون جميعاً مسؤولون عن تقديم النصح لما فيه خير المسلمين جميعاً. فكانت الشورى تأخذ شكل استشارة فردية أحياناً، وفي أحيان أخرى تتم عن طريق المبعوثين والوفود، وفي أحيان ينعقد مجلس الشورى في المسجد الجامع للمسلمين. ويبقى الهدف في الحالات كلها هو تنفيذ مضمون الشورى، وتحقيق غايتها، كما تبقى مسألة الشورى متعلقة بتقديم المعطيات الضرورية لاتخاذ القرار ـ إذا ما جاز التعبير ـ وهو القرار الذي يتخذه، في البداية والنهاية، أمير المؤمنين، وهو الذي يشرف على تنفيذه ومتابعة نتائجه وتطوراته.

كان قادة الجيوش، أمراء الأجناد، والعمال الولاة يمارسون نظام الشورى بمثل هذه الطرائق أيضاً، بل إنهم كانوا أحياناً يمارسونها عن طريق المراسلات، لتبادل الرأي.

وحدث أثناء فتوح الشام ما هو معروف من مجابهة جيوش المسلمين بحشود الروم الضخمة، فتبادل أمراء الأجناد (أبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة) الرسائل، واتفقوا على الانسحاب إلى جنوب

(1) تاريخ الطبري ـ أحداث سنة ٢١ هـ (٤/١٢٣).

بلاد الشام (الجابية) وإعلام أمير المؤمنين أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فوافقهم على قرارهم (حتى يلقوا حشود الروم بحشود المسلمين). واجتمع قادة الجيوش في الجابية، ووافاهم هناك خالد بن الوليد، حيث عُقد مؤتمر للقادة تقرر فيه إسناد القيادة العليا لخالد بن الوليد، وإعادة دمج الجيوش وتنظيمها تنظيماً جديداً (نظام الكتائب ـ أو الكراديس)، وأنزل الله نصره على المسلمين.

هناك ثمة شواهد لا نهاية لها عن أسلوب الشورى وطرائقه، التي نفذت على مستوى أمراء الأجناد والعمال ـ الولاة ـ وهي متطابقة مع أسلوب أمراء المؤمنين وطرائقهم، ولكن على مستوى مسارح العمليات وجبهات القتال. وبالمستطاع تجاوز ما حدث في صدر الإسلام للتوقف عند بعض الظواهر في مراحل متأخرة نسبياً. **ففي سنة ٤٦٣ هـ ـ ١٠٧٠ م**، خرج ملك الروم أرمانوس في جيش من مائتي **ألف** من الروم والفرنج والغرب والروس والبجناك والكرج وغيرهم من طوائف تلك البلاد، لغزو بلاد الإسلام، ووصل إلى **(ملازكرد)**. فلما علم (سلطان السلاجقة ألب أرسلان)، وكان قد فرق جيشه على الأقاليم منذ فترة قريبة، عجل على جمع ما أمكن له من الجند، فحشد **خمسة عشر ألف فارس**، وأدرك أنه قد يصعب عليه مجابهة جيش الروم الضخم بهذا الحشد القليل، فأرسل إلى ملك الروم بطلب الهدنة، وأجابه ملك الروم: «لا هدنة إلا بالري» وهو يريد بذلك تأكيد تصميمه على اجتياح بلاد المسلمين. واستشار ألب أرسلان قادته، ومنهم إمامه وفقيهه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي الذي قال له: «**إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره، وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال، في الساعة التي يكون الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر، والدعاء مقرون بالإجابة**»[1].

وأخذ (ألب أرسلان) بمشورة الإمام، وخاض معركته في الموعد المقترح، وأنزل الله نصره على المسلمين، وكان نصراً اهتز له العالم، في ذاك الوقت، وحفظته صحائف التاريخ.

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ثلاث وستين وأربعمائة (٨/١٠٩).

حدثت بعد مائة سنة تقريباً من معركة (ملازكرد) استشارة مماثلة، غير أنها اتخذت اتجاهاً معاكساً أو مضاداً. ففي سنة ٥٥٨ هـ - ١٦٦٢ م كان السلاجقة الزنكيون قد تصدوا للفرنج الصليبيين الذين احتلوا ساحل بلاد الشام، وتابعوا محاولاتهم للتوسع نحو الداخل، غير أن جهود المسلمين بقيادة الزنكيين أحبطت كل محاولات الفرنج جميعها، وانتقل المسلمون بقيادة نور الدين محمود بن زنكي (الشهير بالشهيد) إلى الهجوم وأخذوا في منازعة الفرنج على الحصون والمعاقل التي سيطروا عليها، وأحرزوا مجموعة من الانتصارات الرائعة، غير أنهم أصيبوا بهزيمة مريرة سنة ٥٥٨ هـ، إذ بينما كانوا في معسكرهم (تحت حصن الأكراد)، والذي كانوا يحاصرونه، باغتهم جيش ضخم من جيوش الفرنج، فتمزق جيش المسلمين شر ممزق، وخسر أسلحته وأعتدته، ونجا قائده (نور الدين) بأعجوبة مثيرة، فانسحب نحو (بحيرة قدس) بالقرب من حمص، وأخذ في جمع شتات جيشه الممزق وإعادة تنظيمه، فقال له بعض قادته: «**ليس من الرأي أن تقيم ههنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا فنؤخذ ونحن على هذا الحال**» وأجاب نور الدين: «**إذا كان معي ألفا فارس لقيتهم ولا أبالي بهم، ووالله لا أستظل بسقف حتى آخذ بثأري وثأر المسلمين**». وظن الفرنج أن نور الدين لم يتوقف في ذاك المكان إلا لوجود جيش كبير معه، فامتنعوا عن مطاردته.

وكانت عملية إعادة تنظيم الجيش تتطلب أموالاً كثيرة وأسلحة جديدة، فقال بعض القادة لنور الدين: «**إن لك في بلادك إدرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء، فلو استعنت بهذه الأموال في هذا الوقت لكان أصلح**». فغضب نور الدين من ذلك وقال: «والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطىء، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رآني بسهام قد تصيب وقد تخطىء، وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال فكيف يحل لي أن أعطيه غيرهم»[1].

---

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ثمان وخمسين وخمسمائة (٩/٨٢ - ٨٣).

وأرسل نور الدين بطلب المال والسلاح والرجال من حلب ودمشق، فجاءه الدعم سريعاً، وتشكل جيش جديد، ووفى نور الدين ما عاهد الله عليه، وانتقم لنفسه وللمسلمين؛ ولم يأخذ في مرتين برأي مستشاريه وقادته، وتبين أنه على حق في رفض رأي المشيرين.

جابه صلاح الدين الأيوبي استشارة مماثلة عشية (معركة حطين) خالدة الذكر، فقد جمع الفرنج حشودهم، وساروا إلى صفورية، وجمع صلاح الدين أمراءه واستشارهم فأشار أكثرهم بترك اللقاء ـ تجنب المعركة ـ وأن يضعف الفرنج بشن الغارات وإخراب الولايات مرة بعد مرة، وقال له بعض أمرائه: «الرأي عندي أننا نجوس بلادهم وننهب ونخرب ونحرق ونسبي فإن وقف أحد من عسكر الفرنج بين أيدينا لقيناه، فإن الناس بالمشرق يلعنوننا ويقولون ترك قتال الكفار، وأقبل يريد قتال المسلمين، والرأي أن نفعل فعلاً نعذر فيه، ونكف الألسنة عنا». فقال صلاح الدين: **«الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار، فإن الأمور لا تجري بحكم الإنسان، ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا، ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجد بالجهاد»**(١). وسار صلاح الدين بجيشه إلى (حطين).

جاءت الدولة العثمانية، فسارت في بداية عهدها على نهج الدولة العباسية ـ في مسألة الشورى ـ سواء على مستوى إدارة الدولة، أو على مستوى إدارة الحرب وقيادة القوات المسلحة، وعلى سبيل المثال؛ فقد نظم السلطان محمد الفاتح (٨٣٣ ـ ٨٨٦ هـ/ ١٤٢٩ ـ ١٤٨١ م) الدولة تنظيماً جديداً. وحرصاً منه على تمييز شكل الحكم في الدولة الإسلامية عن شكل الحكم في الدول الأخرى، فقد أطلق على حكومته لقب (الباب العالي) وضمت هذه الحكومة، بصورة أساسية، أربعة أركان وهي: الوزير وقاضي العسكر وكاتم أسرار (دفتردار) ومستشار المالية (نيشانجي)، وكان هؤلاء الأربعة هم المجلس الاستشاري للسلطان بصورة أساسية. غير أن حرص الخلفاء العثمانيين على مركزية السلطة حملهم على التطرف في مجابهة معارضة وزرائهم، وقد أعدم السلطان سليم الأول (تاسع الخلفاء العثمانيين

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

٨٧٥ - ٩٢٦ هـ/ ١٤٧٠ - ١٥٢٠ م) سبعة من وزرائه (حتى صار يدعى على من يرام موته بأن يصبح وزيراً له)[1].

ولقد تطورت أجهزة الدولة - المدنية والعسكرية - سواء من أجل تلبية المتطلبات الطبيعية لتطور الدولة، أو بسبب الضغوط الخارجية للدول الغربية - الصليبية - بصورة خاصة. وكان لا بد لهذا التطور من أن يشمل، وبالدرجة الأولى، الأجهزة والتنظيمات العسكرية (المعروفة باسم الجيش الجديد أو الإنكشارية) ولكن هذه التنظيمات التي كانت درة في جبين الدولة العثمانية تحولت إلى عبء ثقيل يرهق التطور ويقاومه ويحبطه. فعندما حاول السلطان سليم الثالث (الثامن والعشرين في تتابع الخلفاء العثمانيين ١١٧٥ - ١٢٢٣ هـ/ ١٧٦٢ - ١٨٠٨ م) تنظيم الجيوش تنظيماً حديثاً، اصطدم السلطان بمقاومة قاضي العسكر ولفيف من العلماء الذين دعموا قادة الإنكشارية (بحجة إكراه الجند على لبس الملابس الغربية، والتزيي بزي النصارى مع مخالفة القرآن الشريف والشرع على زعمهم) وأصدر المفتي فتوى تضمن نصها: «**إن كل سلطان يدخل نظامات الإفرنج وعوائدهم ويجبر الرعية على اتباعها لا يكون صالحاً للملك**». فجرى الإعلان عن إلغاء النظام الجديد. واستمر الصراع بين أنصار النظام القديم (الإنكشارية) وأنصار النظام الجديد حتى جاء السلطان محمود الثاني (وهو الخليفة الثلاثين في تتابع السلاطين العثمانيين ١١٩٩ - ١٢٥٥ هـ/ ١٧٨٥ - ١٨٣٩ م)، **فأمر بجمع ذوات وأعيان الدولة وكبار ضباط الإنكشارية في بيت المفتي** (سنة ١٢٤١ هـ - ١٨٢٦ م). وعندما اجتمع المدعوون نهض الصدر الأعظم - سليم محمد باشا - فأظهر الشواهد عن تخلف الإنكشارية، وتجاوزهم لحدود واجباتهم العسكرية، وضرورة إصلاح الجندية، وتلا عليهم مشروعاً تضمن ستة وأربعين بنداً بشأن النظام الجديد المقترح. ووافق الجميع بمن في ذلك ضباط الإنكشارية، الذين ما لبثوا أن أعلنوا الثورة، **فحضر السلطان محمود على الفور، إلى مقر الحكومة، وجمع العلماء، فوافقوه على**

---

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية - دار النفائس - بيروت - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م ص ١٧٧ و١٩٧ و٣٩٢ - ٣٩٣.

ضرورة إحباط الثورة، فاستدعى السلطان ألوية المدفعية التي كان قد تم تنظيمها. وفي يوم ٩ ذي القعدة (٢٥ حزيران ـ يونيو) أخرج السلطان العلم النبوي الشريف وسار بجنود المدفعية إلى مكان تجمع الثائرين وتبعه العلماء، وتم القضاء على عدد كبير من الجنود الإنكشارية، وأصدر السلطان في اليوم التالي مرسوماً (فرماناً) بإلغاء طائفة الإنكشارية في كل أقاليم الدولة.

لقد أخذت التنظيمات العثمانية الجديدة أشكال التنظيمات الأوروبية، وقد أشرف قادة أوروبيون على تنظيم هذه الجيوش وتدريبها وتسليحها، وأصبح لكل جيش هيئة أركانه وأجهزته الإدارية والتسليحية، وعزز ذلك من مسألة الشورى، إذ كانت هيئات الأركان على المستويات القيادية المختلفة هي التي تمارس عملياً، وبحكم دورها الوظيفي، تقديم المشورة للقائد، وذلك عن طريق إعداد المعلومات والبيانات الضرورية لاتخاذ القرار. وكان شيخ الإسلام، والشيوخ في التشكيلات العسكرية يمارسون دورهم في الإعداد المادي والمعنوي للجيوش أثناء السلم والحرب، من ذلك أنه لما تجددت الحرب الروسية ـ العثمانية سنة ١٨٧٧ م، وهي الأخيرة في مجموعة الحروب الروسية العثمانية التي لم تتوقف طوال قرنين من عمر الزمن، أصدر شيخ الإسلام فتويين بتاريخ ٨ جمادى الأولى سنة ١٢٩٤ هـ الموافق ٢١ أيار ـ مايو سنة ١٨٧٧ م: «**إحداهما بوجوب القتال على كل مسلم**. والثانية إضافة لقب (غازي) على السلطان في الأوامر وعلى المنابر ـ استناداً إلى ما تضمنه الحديث الشريف من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا ـ».

هنا لا بد من القول إنه ظهر كثير من الانحرافات في خط مسار تطور مسألة الشورى، إذ لم يكن أعضاء الشورى دائماً على درجة واحدة من العفة والنزاهة والإخلاص، ولعل من أبرز الشواهد على ذلك موقف آخر الخلفاء العباسيين (**المستعصم بالله**)، وهو الثالث والثلاثين في تتابع الخلفاء العباسيين، وذلك يوم اجتاح المغول التتار عاصمة العباسيين (بغداد)، فقد كان المستعصم بالله يميل لمقاومة هولاكو وجيشه، وكان وزيره السني (أيبك) يؤيده ويدعمه، فيما كان **وزيره الشيعي (مؤيد الدين بن العلقمي)** على اتصال بالمغول التتار، فأشار على المستعصم بالله بعدم المقاومة، وتمكن من إحباط كثير من الاستعدادات القتالية

وأعمال التحصين مما ساعد (هولاكو) وجيشه على اجتياح عاصمة المسلمين[1] وقد كافأ (هولاكو) الوزير العلقمي بأن عينه حاكماً على بغداد ـ بعد تدميرها ونهبها ـ.

والأمثلة كثيرة عن مثل هـذه الانحرافات في أيام العثمانيين. والمسألة في جوهرها هي مسألة اختيار المستشارين، وهذه المسألة من المسائل الدقيقة والخطرة في كافة الأزمنة والعصور، وهو ما يتم التعبير عنه حديثاً (باختيار الشخص المناسب لوضعه في المكان المناسب).

وهناك ثمة أمثولات لا نهاية لها عن انحرافات المستشارين في هيئات أركان الجيوش وفي القيادات السياسية في الغرب والشرق خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، وما كان لأخطائهم وانحرافاتهم من نتائج مدمرة أحياناً. ولقد كان خلفاء المسلمين في كافة العصور، يحرصون أشد الحرص على اختيار المستشارين من بين أكثر الرجال صدقاً وتديُّناً، ولكن كان لا بد في مراحل ضعف الخلفاء لأسباب متباينة من ظهور مثل هـذه الانحرافات التي كان يجري تقويمها وتصحيحها باستمرار، بالاستناد إلى الشريعة. وإذن فلم تكن مثل تلك الأخطاء أو الانحرافات هي في مبدأ الشورى، وإنما في أسلوب تطبيقه على يد من لم تتوافر فيهم رجاحة العقل أو سداد الرأي، أو ممن فسدت قلوبهم وساءت نفوسهم، وهو ما يحدث في كل مكان وفي كل زمان.

إن مسألة الشورى، بعد ذلك، ليست مسألة شكل، وإنما هي مسألة مضمون، فالشورى هي النصيحة المخلصة، ولا يمكن لهذه النصيحة أن تكون مخلصة إلا إذا كانت مجرَّدة من الغاية، وإلا إذا كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهدف نبيل. وهل هناك ما هو أسمى أو أرفع أو أنبل وأقدس من ارتباط النصيحة بالعقيدة الدينية الإسلامية؟ وهل هناك من أمة على وجه الأرض ظهرت فيها على امتداد أربعة عشر قرناً من عمر الزمن مثل هذه المجموعات التي أخلصت النصح ابتغاء رضوان الله في كل ما يتعلق بأمور الدنيا وعباد الدنيا؟

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ـ ستيفن رنسيمان ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ لبنان ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م (٥١٨/٣).

٤

الطاعة والجماعة

ومن فضل الله على العرب المسلمين أن أعاد تشكيلهم تشكيلاً جديداً مميزاً بالتكامل والتناسق، يعتمد، فيما يعتمده، على الطاعة والجماعة بداية من الخلية الاجتماعية الأولى وهي الأسرة ونهاية بالمجتمع الإسلامي الكبير.

ففي أدب القرآن فرض الله على الابن الطاعة بقوله تعالى: **﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً، وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**[١] وقوله تعالى: **﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفاً، وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**[٢]. وفي الحديث الشريف: (أحب الأعمال إلى الله الصلاة على وقتها ثم بر الوالدين)[٣].

وهكذا ربط الإسلام مبدأ الطاعة للوالدين بالطاعة لله والخضوع لشريعته، فإذا ما انحرف الوالدان فليس على الابن إلا أن يصاحبهما معروفاً ولكن دونما طاعة لهما في معصية الخالق.

---

(١) سورة العنكبوت ـ الآية ٨.

(٢) سورة لقمان ـ الآيتان ١٤ و ١٥.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ لبنان (٢/ ٧٤).

وكما جاءت هذه الشريعة لتنظم علاقة الأسرة، فكذلك نظمت المجتمع بقوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا، وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ، مِنَ ٱلنَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ ٱللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1] وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2].

وهنا أيضاً فرباط الجماعة هو رباط الإسلام، والأخوة هنا أخوة في الله، الجميع مترابطون متماسكون بالعروة الوثقى لا انفصام لها، فبفضل من الله تكوَّن المجتمع الإسلامي فكان كالجسد الواحد، يشد بعضه بعضاً من أجل تحقيق رسالة الإسلام وإعلاء كلمة الله على أرض الله، ولولا هذا الرباط ما كان (لوحدة القيادة) دورها ومضمونها، ولما أمكن تحقيق (مركزية القيادية) ولما كان لمبدأ (الشورى) دوره الناجع والفعّال. إذ كيف يمكن تحقيق ذلك بصورة ثابتة ودائمة إذا لم يكن هناك رباط قوي ينظم كل الأسس والمبادىء ويوجهها على اتجاه واحد؟ . . . وهل برهن التاريخ منذ أقدم العصور حتى اليوم على رابطة تنظم المجتمع وتصهره في بوتقة واحدة كمثل ما فعله الإسلام؟. هذا المجتمع الذي شيَّده الإسلام على هدى القرآن الكريم والسنة الشريفة، وأحاديث الرسول ﷺ في هذا المجال كثيرة منها: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه) ومنها: (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر) ومنها: (من حمَل علينا السلاح فليس منا)[3].

وأما إذا اقتتل المسلمون فالحكم الفيصل هو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَى فَقَاتِلُوا ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[4].

---

(١) سورة آل عمران ـ الآية ١٠٣.
(٢) سورة آل عمران ـ الآية ١٠٥.
(٣) صحيح مسلم ٢/٢٠ و ٥٤ و ١٠٨.
(٤) سورة الحجرات ـ الآية ٩.

ولطالما حذر الرسول ﷺ من العودة إلى الجاهلية، وعصبياتها، فالمسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه، وإذا ما صينت هذه المحرمات، تماسك المجتمع، وتمكن للاضطلاع بدوره على الأرض: ﴿ٱلَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾(١).

ولطالما تحققت (روح الجماعة) فلا بد من تحقيق الطاعة، فالطاعة والجماعة في الإسلام متلازمتان متلاحمتان، ففي قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوا إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾(٣).

وجاءت أحاديث الرسول ﷺ لتحدد مضمون الطاعة، ومنها: (من يطع أميري فقد أطاعني، ومن يعصَ أميري فقد عصاني. ومن أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله) و(أسمع وأطع وإن كان عبداً مجدع الأطراف ـ وقبل عبداً حبشياً مجدع الأطراف ـ ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا) و(خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ويصلون عليكم وتصلون عليهم. وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم. قيل يا رسول الله: أفلا ننابذهم بالسيف. فقال: لا. ما أقاموا فيكم الصلاة. وإذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه، فاكرهوا عملهم ولا تنزعوا يداً من طاعة)(٤).

ويبقى المبدأ الثابت هو: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» سواء كان هذا المخلوق هو الوالد أو سواه، ووصولاً للعمال والولاة وأصحاب الأمر والنهي. وكما أمر الإسلام الولد (بوالديه إحساناً)، فكذلك أمر المسلم بعدم نزع اليد من الطاعة أو شق عصا الجماعة، وتوجيه جهد المسلمين جميعاً لأداء الأمانة التي حددتها آية وردت مرتين في القرآن الكريم بنص واحد: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَافِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٥). ومن هنا جاءت مبايعة المسلمين

---

(١) سورة الحج ـ الآية ٤١.
(٢) سورة الأنفال ـ الآية ٤٦.
(٣) سورة النساء ـ الآية ٨٠.
(٤) صحيح مسلم ١٢/٢٢٣ و ٢٢٥ و ٢٤٤.
(٥) سورة التحريم ـ الآية ٩، سورة التوبة الآية ٧٣.

لأمرائهم وقادتهم (على كتاب الله وسنة رسوله). فكتاب الله وسنة رسوله هي الجامعة للمسلمين، وهي الموحدة لكلمتهم، وهي التي تفرض عليهم الطاعة والجماعة.

لقد امتدت رقعة حدود بلاد المسلمين على أيام الأمويين امتداداً واسعاً، بحيث لم تنافسها في اتساعها أية أمبراطورية من أمبراطوريات العالم القديم، وعلى الرغم من ذلك، فقد كان كتاب الخليفة أمير المؤمنين إلى والٍ من الولاة، أو أمير من أمراء الأجناد، كافياً لعزل ذاك الوالي أو الأمير، وتعيين وال جديد مكانه، وذاك هو (موسى بن نصير) وقد حقق انتصارات لا يطالها طائل ولا ينافسها منافس، يأتيه رسول من قبل الخليفة فيعزله عن ميدان انتصاراته وينتزعه من مستقر عزه، وعشرات آلاف الجنود لا يعرفون سواه قائداً ولا يدينون لغيره بالطاعة، ولم تكن هذه الاستجابة الطوعية إلا امتثالاً (للطاعة والجماعة)، وحرصاً على وحدة كلمة المسلمين. وبمثل ذلك، وبهؤلاء الرجال المؤمنين، دانت الدنيا للعرب المسلمين وخضعت لعزتهم ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(1).

ومقابل ذلك، فعندما كانت تغيب الطاعة، وتتفرق الجماعة - إلى شيع وأحزاب متناحرة - كشأن العرب في جاهليتهم الجهلاء، كانت النوائب تجتاحهم من كل مكان، وكان البلاء ينزل عليهم دونما حسبان، فيزيد من ابتلائهم بلاء، ويزيد من معاناتهم ضيقاً وضنكاً. وقد عرف العرب المسلمون هذه الحقيقة بصورة عملية وواضحة - وكما سبقت الإشارة إليه - منذ أيام الردة الأولى، ثم في أيام الفتنة الكبرى، فزاد ذلك من إصرارهم على التمسك بالطاعة والانقياد للجماعة، ومحاربة الفتنة، والتصدي لعوامل الفرقة، والإعراض عن مثيري الاضطراب، فهل من غرابة أن ينجح إنسان مثل (الحجاج بن يوسف الثقفي) فيحقق من الاستقرار ما كانت بلاد المسلمين تحتاجه وذلك بفضل اعتماده على (الطاعة والجماعة)؟ وهل كان باستطاعة الحجاج إنجاز ما أنجزه لولا دعم (الجماعة) له، ولولا التزامهم بالطاعة؟ ثم هل ضاعت أندلس المسلمين إلا بسبب غياب الطاعة وتفرق الجماعة؟ ذاك هو ما حدده بدقة المؤرخ (المقري التلمساني) بقوله: «**لم تزل جزيرة الأندلس، منتظمة**

---

(1) سورة المنافقون - الآية ٨.

لمالكها في سلك الانقياد والوفاق، إلى أن طما بمترفيها سيل العناد والنفاق، فامتاز كل رئيس منهم بصقع كان مسقط رأسه، وجعله معقلاً يعتصم فيه من المخاوف بأفراسه، فصار كل منهم يشن الغارة على جاره، ويحاربه في عقر داره، إلى أن ضعفوا عن لقاء عدو في الدين يعادي، ويراوح معاقلهم بالعيث ويعادي، حتى لم يبق في أيديهم منها إلا ما هو في ضمان هدنة مقدرة، وإتاوة في كل عام على الكبير والصغير مقررة». وكذلك قوله: «. . . ومن استقرأ التواريخ المنصوصة، وأخبار الملوك المقصوصة، علم أن النصارى لم يدركوا في المسلمين ثأراً، ولم يرحضوا عن أنفسهم عاراً، ولم يخربوا من الجزيرة منازل ودياراً، ولم يستولوا على الأندلس، بلاداً جامعة وأمصاراً، **إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف، واجتهادهم في وقوع الافتراق بين المسلمين والاختلاف**، وتضريبهم بالمكر والخديعة بين ملوك الجزيرة، وتحريشهم بالكيد والخلابة بين حماتها في الفتن المبيرة، ومهما كانت الكلمة مؤتلفة، والآراء لا مفترقة ولا مختلفة، والعلماء بمعاناة اتفاق القلوب إلى الله مزدلفة، فالحرب إذ ذاك سجال، ولله تعالى في إقامة الجهاد في سبيله رجال، وللممانعة في غرض المدافعة ميدان رحب ومجال، وروية وارتجال»[1].

وصل الفرنج الصليبيون بعدئذ إلى بلاد الشام وهي ممزقة بين حكم الفاطميين الشيعة في مصر، وبين حكم المسلمين السنة في (بغداد) حيث الخلافة العباسية. وكان ذاك التمزق هو مما ساعد الفرنج على إقامة إماراتهم على ساحل بلاد الشام. فلما نجح الزنكيون في توحيد بلاد الشام، وأرسلوا أسد الدين شيركوه ـ وابن أخيه صلاح الدين ـ إلى مصر، وتم لهم القضاء على حكم الشيعة، ووحدوا مصر تحت راية الطاعة والجماعة، بدأت الهزائم تتتابع على الفرنج حتى تم القضاء على وجودهم في بلاد الشام.

وجاء العثمانيون فساروا على النهج ذاته. فعندما حاول الشيعة في بلاد فارس (إيران) الخروج عن الطاعة والتمرد على الجماعة، أصدر السلطان سليم الأول (تاسع الخلفاء العثمانيين) أمره «بحصر عدد الشيعة المنتشرين في الولايات

(١) نفح الطيب ـ دار صادر ـ بيروت ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م (٤/٤٤٦ و٥٠٨).

المتاخمة لبلاد العجم بطريقة سرية ثم أمر بقتلهم جميعاً. ويقال إن عددهم كان نحو الأربعين ألفاً. ولم تلبث قوات العثمانيين أن اجتاحت إيران ودخلت تبريز[1]. وتكررت الحروب بعد ذلك إلى أن أظهرت بلاد فارس رغبتها في الصلح على أساس الامتثال للطاعة والجماعة ولو بصورة رمزية.

هل كان الحرص على الطاعة والجماعة هو الذي حمل الخلفاء العثمانيين على الفتك بأبنائهم ـ أو بإخوتهم ـ على ما تذكره بعض المصادر التاريخية؟.

ليست المسألة هنا هي مسألة تثبيت أو نفي المزاعم القائلة بالنهج الذي سار عليه خلفاء بني عثمان من قتلهم لأبنائهم أو إخوانهم، فهذه مسألة حكمها لله، وهي في ذمة التاريخ. لكن ألم تحدث الحرب بين الأمين والمأمون في الصدر الأول للخلافة العباسية وذلك على الرغم من العهود والمواثيق التي أحكمها الرشيد في أمر الخلافة وذلك حرصاً فيه على الطاعة والجماعة؟ ثم ألم يجد خلفاء بني العباس أنهم مرغمين في بداية عهدهم على قتل أبناء عمومتهم من (الطالبيين) حرصاً منهم على تحقيق الاستقرار لضمان مسألة الطاعة والجماعة؟ وهل اختلف هذا الوضع عن وضع خلفاء بني أمية في مواجهتهم للفتنة الكبرى التي جرفت في تيارها الطالبيين والزبيريين وسواهم؟ لقد ابتليت الدولة العثمانية منذ بداية عهدها بظهور حركات تمرد الأبناء. ففي عهد ثالث الخلفاء العثمانيين السلطان مراد الأول. (٧٢٦ ـ ٧٩١ هـ/ ١٣٢٦ ـ ١٣٨٨ م) وبينما كان السلطان يخوض حرباً مريرة على جبهة الغرب، أعلن أحد أبناء السلطان (صاروجي) تمرده بدعم من ابن ملك الروم البيزنطيين (أندرونيقوس)، فما كان من (مراد) إلا أن أرسل جيشاً قضى على التمرد وقتل (صاروجي) سنة ٧٨٥ هـ ـ ١٣٨٣ م. وعندما توفي السلطان محمد الفاتح (سنة ٨٨٦ هـ ـ ١٤٨١ م) اضطر ابنه السلطان بايزيد لقتل أخيه (جم) حتى لا ينازعه الحكم وحتى لا يشق عصا الطاعة والجماعة. ولقد اضطر السلطان بايزيد لمحاربة ابنيه كركود وسليم لأنهما شقا عصا الطاعة. لكن سليم أرغم أباه على التنازل له عن الحكم بدعم من الإنكشارية (سنة ٩١٨ هـ ـ ١٥١٢ م). ولقد عمل السلطان

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٨٩.

سليمان الأول (القانوني) على قتل ابنه الأكبر مصطفى[1] وابنه الثاني بايزيد وأولاده الخمسة حتى ينفسح المجال لابنه (سليم الثاني) دونما منافس أو مزاحم. ولقد تكررت بعدئذ مثل هذه العمليات التي تم تصويرها بعدئذ تصويراً خيالياً يثير المشاعر، ويستنفر العواطف الإنسانية. وعلى كل حال؛ فإذا ما كانت مثل هذه المزاعم صحيحة، وإذا كان الهدف هو الحرص على مصلحة المسلمين ابتغاء الطاعة والجماعة، فهو أمر قد تحقق والحكم فيه لله، وقد يكون من المحال الافتراض بتجرد الخلفاء العثمانيين، الذين قاموا بمثل هذه الأعمال، من العاطفة الإنسانية، أو الشفقة والرحمة، ولو تجاه أبنائهم وإخوتهم على الأقل، لا سيما وأنهم جميعاً، في ذاك العهد، قد أظهروا حرصهم على بناء الدولة الإسلامية القوية، وصرفوا معظم أيام حياتهم للجهاد في سبيل الله، ورفع راية الحق والإسلام على جميع أرجاء ما يعرف حالياً باسم (أوروبا الشرقية ـ حتى المجر والنمسا بالإضافة إلى اليونان ورومانيا).

لقد ضم تاريخ الشعوب أمثولات مشابهة لما سبق ذكره، فقد عمل **(بطرس الأكبر)**[2] على قتل ابنه بسبب خروجه على إرادته والتمرد على طاعته. وأصدر ملك فرنسا **شارل التاسع** أمره بإجراء مذبحة **(سان بارثيليمي)** الشهيرة لإبادة (البروتستانت)[3] الذين تمردوا على كنيسته الكاثوليكية. ويحدث اليوم وكل يوم ما سبق حدوثه في الماضي، ولو بأشكال مختلفة، وطرائق متباينة، فالتمرد أو الخروج على الطاعة والجماعة هو عمل مدمر للمجتمع، أي مجتمع ﴿والفِتْنَةُ أشدُّ مِنَ

(١) تزعم بعض المصادر أن عملية القتل هذه قد تمَّت بإيحاء وتوجيه والدة السلطان سليم الثاني ـ وهي روسية الأصل اسمها (روكسلانة) أو (خرم بالتركية أو خورم ومعناها الباسمة) وانظر تاريخ الدولة العلية العثمانية م.س: ص ٢٤٦.

(٢) بطرس الأكبر: (PIERRE I) مؤسس روسيا القيصرية (١٦٧٢ ـ ١٧٢٥) تميز بكفاءته العسكرية وبانتصاره على ملك السويد، غير أن العثمانيين انتصروا عليه سنة ١٧١١ م.

(٣) سان بارثيليمي: (SAINT-BARTHELEMY) مذبحة شهيرة وقعت يوم ٢٣ آب ـ أغسطس ١٥٧٢ م وقتل فيها ستون ألفاً من البروتستانت. وقد جرت هذه المذبحة بإيعاز (كاترين دي مديتشي) والدة شارل التاسع، وذهب فيها عدد من نبلاء فرنسا، وامتنع عدد من حكام الأقاليم عن تنفيذ عملية الإبادة هذه.

القَتْلِ﴾ ولهذا تتركز كل الجهود لإجهاض كل عمل من شأنه إفقاد المجتمع توازنه، سواء أخذت عملية شق الطاعة والجماعة شكلاً عسكرياً (تمرداً أو عصياناً)، أو أخذت شكلاً سياسياً (عصياناً مدنياً)، أو كانت مزيجاً من العمل السياسي ـ العسكري (ثورة أو انقلاباً).

لقد برهنت مسألة (الطاعة والجماعة) أنها هي المسألة الأساسية والحاسمة في بناء الدول الإسلامية وغير الإسلامية. فالدولة الأموية والدولة العباسية، والدولة الأيوبية والزنكية من قبلها، ثم دولة المماليك ونهاية بالدولة العثمانية، لم تنهض ولم تكتب قوتها إلا عبر تحقيق الطاعة والجماعة. وكذلك فإن انهيار الدول الإسلامية، وغير الإسلامية، ما كان إلا نتيجة لغياب الطاعة، وتفرق الجماعة. فعندما تصبح الأمة شتاتاً، أو غثاء كغثاء السيل، يصبح من السهل على كل ريح أن تذروها كيف تشاء. وقد يكون من الصعب، إن لم يكن من المحال، تحقيق الطاعة والجماعة بدون توافر عقيدة دينية ـ أو فكرة سياسية ـ تستطيع أن تجتذب إليها الأفكار، ويمكن لها أن تروِّض النفوس. وقد برهنت التجربة التاريخية الطويلة أنه قد يستطيع قائد من القادة، أو حزب من الأحزاب، فرض الطاعة وإخضاع الجماعة بالقوة، وبالاعتماد على أفكار مناسبة لجماهير المجتمعات في مرحلة زمنية معينة، وفي بقعة جغرافية محددة، غير أن هذه المؤثرات الشخصية أو الفكرية سرعان ما تنتهي إلى زوال، وسرعان ما يتجاوزها الزمن، بينما تبقى المؤثرات الدينية ـ العقائدية ـ راسخة في النفوس، عميقة الجذور في المجتمعات. وهكذا كان الأمر بالنسبة للإسلام، فالدول الإسلامية التي ظهرت وعاشت وعمرت قروناً قد استندت في كل مرة إلى رابطة (الأخوة الإسلامية) وإلى (الطاعة والجماعة)، وكان أهل السنة (أهل الطاعة والجماعة) هم دائماً دعامة الدول الإسلامية ـ باستثناء دولة الشيعة في مصر أو دولة الفاطميين التي استندت إلى العقيدة الدينية الإسلامية ـ غير أن انحرافها عن الطاعة والجماعة قد ألَّب ضدها معظم المسلمين، مما أسهم في إسقاطها في نهاية الأمر.

هناك ثمة ظاهرة برهنت عليها التجربة الإسلامية بخاصة، وأكدتها المرة بعد المرة، **وهي أنه من الصعب حصر عملية الخروج على الطاعة والجماعة في نطاق قطاع معين ـ مثل المجتمع العسكري فقط ـ كما أنه من الصعب إبقاء عملية الخروج**

على الطاعة والجماعة في حدود النطاق الأساسي الذي انطلقت منه. إذ إن عملية الخروج على الطاعة والجماعة قد تبدأ بعمل عسكري، غير أن هذا العمل العسكري يحتاج دائماً إلى غطاء فكري، ولهذا لم يكن غريباً أن يتظاهر الخارجون على الطاعة والجماعة بصورة دائمة بتمسكهم في الإسلام ورغبتهم في تقويم الانحرافات. فالخوارج على اختلاف مذاهبهم، والقرامطة، وسواهم رفعوا راية الإسلام، وانحرفوا عن النهج القويم، فكان من طبيعة الأمور أن ينقسم قادة هؤلاء الخوارج بسرعة وأن يحاول كل حزب الزعم بأفضليته ودرجة إخلاصه، وهذا مما كان يؤدي باستمرار إلى اقتتال المنحرفين عن الطاعة والجماعة، وتصفية بعضهم بعضاً في معظم الأحيان وذلك قبل أن يقضي عليهم أصحاب الطاعة والجماعة، فيعيدون للمسلمين وحدتهم وقوتهم.

ويمكن على هذا الأساس اعتبار مسألة الخروج على الطاعة والجماعة في المجتمعات الإسلامية بمثابة ظاهرة مرضية، أو جائحة، مثلها كمثل الأمراض الكامنة في الوجود والتي لا تظهر إلا في مرحلة من مراحل الضعف. وبما أنها ظاهرة مرضية، فإنها قادرة على الانتشار مثلها كمثل الأمراض أيضاً. ففي كل مجتمع من المجتمعات يُوجد من لديه الاستعداد للعدوى، وهنا يأتي دور الدولة الإسلامية في تحصين المجتمعات الإسلامية ضد الأمراض وضد الأوبئة والجائحات، وذلك عن طريق العمل المزدوج الذي يستند من جهة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، ومن جهة إلى التوعية ضد الجائحات التي قد تحملها رياح وأنواء غريبة، يمكن لها أن تهبَّ من كل مكان. فالفتنة الكبرى قد انطلقت من تحريض يهودي على ما هو معروف (عبد الله بن سبأ) وسرعان ما وجدت لها آذاناً في الكوفة والبصرة ومصر. ويمكن أن يضاف إلى ذلك في الأزمنة الحديثة الأمراض التي تحملها عمليات الغزو الفكري أو العقائدي أو الديني، والتي تعمل على تدمير المرتكزات الأساسية للمجتمعات الإسلامية.

يمكن، على ضوء ما سبق، التمييز، وبشكل واضح، بين مضمون (الطاعة والجماعة) في الإسلام، وبين المفاهيم المستخدمة في الأزمنة الحديثة مثل (النظام) و(الانضباط) أو (الضبط والربط). فالمعروف أن دول العالم المعاصر ـ كبيرها

وصغيرها، قـويها وضعيفهـا ـ قد استنـدت في تنظيم مجتمعـاتها إلى مجمـوعة من المبـادىء والأسس لتوجيـه فعـاليـات النـاس العـاملين في الأجهـزة العسكـريـة أو المؤسسـات المدنيـة (الصناعيـة والتجاريـة والاقتصادية وسواهـا)؛ وتتجـدد هـذه المبادىء والأسس وتتطور على أسس أبحاث ودراسات نفسية واجتماعية. وقد يكون من المثير حقاً وصول معظم هذه الأبحاث والدراسات إلى نتيجة واحدة تقريباً، وهي ضرورة الاعتماد على مبدأ التوعية لرفع مستوى (الرقابة الذاتية) لدى الفـرد، وربط هذه الرقابة الذاتية (بالإيمان)، وإفسـاح المجال أمـام التوجيـه الديني، أو التـوجيه السيـاسي الحزبي، لـدعم القناعـات لدى الأفـراد بضرورة الالتـزام بأسس النـظام والانضباط لما فيه مصلحة الفرد، ولما فيه خير المجتمع الذي يعمل فيه، ويعمل من أجله.

وإذن فقد وصل الباحثون والعلماء والدارسون إلى النتيجة التي جاء بها الإسلام قبل أربعة عشر قرناً ونيف من عمر الزمن، والتي برهنت التجربة التاريخية المتطاولة للمسلمين على صحتهـا وصدقهـا. فهل يحتـاج المسلمون في عـالمهم المعاصـر لاستيراد الأسس أو تطبيق المبادىء (الموصوفة بـالحداثـة) ولديهم إرث ضخم من التجارب عن مسألة (الطاعة والجماعـة)؟ ألا يكفي عرض تفـاصيل تلك التجـارب التاريخية لإكساب المجتمعات الإسلامية مناعة ضد جراثيم التفـرقة وضـد عمليات (الفرز الاجتماعي) التي أوصلت بعض المجتمعات الإسلامية إلى مرحلة الضياع؟

٥

المسلم والمجتمع

ألقى الله عز وجل على العرب أمانة حمل رسالة الإسلام، وهي أمانة ثقيلة، تنوء عن حملها الجبال الراسيات، فكيف بالإنسان الضعيف والمحدود في قدراته وإمكاناته؟ ولكن ومقابل ذلك، فقد كان شرف حمل هذه الرسالة يفوق كل تقويم ويزيد على كل تكريم. إنه العزة بما وعد الله به عباده المؤمنين، والتي أشار الله إليها في محكم تنزيله في مرات كثيرة، وقد عرف رسول الله ﷺ ضعف العرب وقلة عددهم بالنسبة لثقل الأمانة، فكان شديد الحرص على المسلمين، وعلى حمايتهم، في أمورهم الدينية ثم في أمورهم الدنيوية، وورد ذلك في قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُوْلٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ**﴾[١].

ولقد عرف المسلمون هذا الحرص من خلال صحبتهم لرسول الله، ومن خلال أقواله وممارساته، وعرفوا العزة والقوة، فكان رصيدهم المعنوي أقوى وأكثر رسوخاً من الجبال الراسيات، وبذلك استطاعوا حمل الأمانة والاضطلاع بأعباء الرسالة. وفي وصية الخليفة أبي بكر الصديق إلى أمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما ـ وقد تولى أبو عبيدة قيادة جيش من جيوش فتح بلاد الشام ـ ورد ما يلي:

«... لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة، ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده لهم، وتعلم كيف مأتاه، ولا تبعث سرية إلا في كشف من الناس، وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة»[٢].

---

(١) سورة التوبة ـ الآية ١٢٨.

(٢) تاريخ الطبري ٣/٤٣٤.

وعندما فتح المسلمون (جلولاء)، سنة ١٦ هـ، أصدر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أمره بعدم مطاردة الفرس، وعدم التوغل وقال: «لوددت أن بين السواد وبين الجبل سداً لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم، حسبنا من الريف السواد، **إني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال**»[1].

وعلم أمير المؤمنين عمر أن عامله (حرقوص بن زهير) قد اتخذ له منزلاً في جبل الأهواز، والجبل كؤود بحيث يصعب وصول الناس إليه، فكتب إليه: «بلغني أنك نزلت منزلاً كؤوداً لا تؤتى فيه إلا على مشقة. فأسهل **ولا تشق على مسلم ولا معاهد**».

وعلم أمير المؤمنين عمر أن عامل البحرين (العلاء بن الحضرمي) قد ركب البحر لغزو بلاد فارس من جهته ـ بدون إذن من عمر ـ وأن الفرس قد أغرقوا مراكبه وحاصروه، فكتب إلى أمير الكوفة (عتبة بن غزوان): «.. إن العلاء بن الحضرمي حمل جنداً من المسلمين، فأقطعهم أهل فارس، وعصاني، وأظنه لم يرد الله بذلك، **فخشيت عليهم إلا ينصروا** وأن يغلبوا وينشبوا، فاندب إليهم الناس، واضممهم إليك من قبل أن يجتاحوا»[2].

وأراد (الحكم بن عمرو التغلبي) غزو إقليم (مكران) في جنوب بلاد فارس وعلى حدود الهند، واستعلم أمير المؤمنين عمر عن طبيعة هذا الإقليم، فقيل له: «يا أمير المؤمنين! أرض سهلها جبل، وماؤها وشل ـ قليل ـ وتمرها دقل ـ رديء ـ وعدوها بطل، وخيرها قليل، وشرها طويل، والكثير بها قليل، والقليل بها ضائع، وما وراءها شر منها» فقال عمر: «**لا! والله لا يغزوها جيش لي ما أطعت**» وكتب إلى الحكم بن عمرو: «لا يجوزنَّ مكران أحد من الجند، واقتصر على ما دون النهر»[3].

وقصة ركوب المسلمين للبحر من القصص المعروفة التي تبرز حرص أمراء المسلمين على مجاهديهم، فقد وجد أمير الشام ـ معاوية بن أبي سفيان ـ أنه لا بد من ركوب البحر للدفاع عن بلاد الشام ومصر وحمايتها من غدر الروم، ومن

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٨.
(٢) المصدر السابق ٤/٧٩ ـ ٨٠.
(٣) المرجع السابق ٤/١٨٢.

هجماتهم عبر البحر، ولكن كان لا بد له من استئذان أمير المؤمنين عمر، فكتب إليه يستأذنه، وأراد أمير المؤمنين معرفة ما يحمله البحر من الأخطار فكتب إلى عامله في مصر ـ عمرو بن العاص ـ: «صف لي البحر وراكبه، فإن نفسي تنازعني إليه». وورد عمرو بن العاص برسالته الشهيرة: «إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء؛ إن ركن ـ أو سكن ـ خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق». فكتب أمير المؤمنين عمر إلى معاوية: «إنا سمعنا أن بحر الشام يشرف على أطول شيء على الأرض، يستأذن الله في كل يوم وليلة في أن يفيض على الأرض فيغرقها، **فكيف أحمل الجنود في هذا البحر الكافر المستصعب، وتالله لمسلم أحب إلي مما حوت الروم**، وإياك أن تعرض لي، وقد تقدمت إليك، وقد علمت ما لقي العلاء بن الحضرمي مني، ولم أتقدم إليه في مثل ذلك».

فلما كان عهد أمير المؤمنين عثمان، عاد معاوية واستأذنه في ركوب البحر، فأجابه أمير المؤمنين عثمان: «لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم، **خيِّرهم، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه**»[1].

وكما كان أمراء المسلمين يحرصون على المسلم، ويحوطونه بالرعاية والاهتمام، فكذلك كان العمال وأمراء الأجناد، سواء في إدارة الحرب أو في الأعمال القتالية، أو حتى ما بعد الأعمال القتالية، وقد برز ذاك الاهتمام واضحاً في معاهدات الصلح التي عقدها أمراء المسلمين وأمراء الأجناد مع أهالي البلاد التي فتحها الله للمسلمين. وكان أمير المؤمنين عمر يصالح أهل الذمة على أساس النص التالي: **«إنهم إن غشوا المسلمين لعدوهم برئت منهم الذمة، وإن سبوا مسلماً أن ينهكوا عقوبة، وإن قاتلوا مسلماً أن يقتلوا، وعلى عمر منعتهم، والدفاع عنهم، وبريء عمر إلى كل ذي عهد من معرة الجيوش»**[2].

وتضمنت وثيقة صلح (النعمان بن مقرن) مع أهل (ماه بهراذان) ما يلي:

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٢٥٨ ـ ٢٦٠ (أحداث سنة ٢٨ هـ) فتح قبرس.

(٢) المرجع السابق (أحداث سنة ١٦ هـ) ٤/٣٢.

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى النعمان بن مقرن أهل ماه بهراذان. أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأراضيهم، لا يغيرون على ملة، ولا يحال بينهم وبين شرائعهم، ولهم المنعة ما أدوا الجزية في كل سنة إلى من وليهم، على كل حالم في ماله ونفسه على قدر طاقته، **وما أرشدوا ابن السبيل، وأصلحوا الطرق، وقروا جنود المسلمين ممن مر بهم فأوى إليهم يوماً وليلة، ووفوا ونصحوا، فإن غشوا وبدلوا، فذمتنا منهم بريئة.**

شهد عبد الله ابن ذي السهمين، والقعقاع بن عمرو، وجرير بن عبد الله»[1] وكتب في المحرم سنة تسع عشرة.

وورد في وثيقة صلح (عبد الله بن ورقاء) مع أهل (أصبهان) ما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم. كتاب من عبد الله للفاذوسفان وأهل أصبهان وحواليها؛ إنكم آمنون ما أديتم الجزية، وعليكم من الجزية بقدر طاقتكم في كل سنة تؤدونها إلى الذي يلي بلادكم عن كل حالم، **ودلالة المسلم وإصلاح طريقه وقراه يوماً وليلة، وحملان الراجل إلى مرحلة، لا تسلطوا على مسلم، وللمسلمين نصحكم وأداء ما عليكم، ولكم الأمان ما فعلتم، فإن غيَّرتم شيئاً، أو غير مغير منكم ولم تسلموه فلا أمان لكم، ومن سب مسلماً بلغ منه، فإن ضربه قتلناه.**

وكتب وشهد عبد الله بن قيس، وعبد الله بن ورقاء، وعصمة بن عبد الله»[2].

وعندما فتح الله (جرجان) للمسلمين جرى الصلح على أساس ما تضمنه النص التالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من سويد بن مقران لرزبان صول ابن رزبان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان: إن لكم الذمة وعلينا المنعة، على أن عليكم من الجزاء في كل سنة على قدر طاقتكم، على كل حالم، ومن استعنا به منكم فله جزاؤه في معونته عوضاً من جزائه، ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم

---

(١) تاريخ الطبري (أحداث سنة ٢١ هـ) ٤/١٣٧.
(٢) المرجع السابق (أحداث سنة ٢١ هـ) ٤/١٤١.

ومللهم وشرائعهم، **ولا يغير شيء من ذلك هو إليهم ما أدوا وأرشدوا ابن السبيل، ونصحوا وقروا المسلمين، ولم يبد منهم سَلٌ ولا غَلٌ، ومن أقام فيهم فله مثل ما لهم، ومن خرج فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، وعلى أن من سب مسلماً بلغ جهده، ومن ضربه حل دمه.**

شهد سواد بن قطبة، وهند بن عمرو، وسماك بن مخرمة، وعتيبة بن النهاس، وكتب في سنة ثمان عشرة»[1].

وعندما فتح الله الباب (أو باكو حالياً) للمسلمين، عقد القائد سراقة بن عمرو - وكان يدعى ذا النور - صلحاً مع أهلها من الأرمن وسواهم تضمن ما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى سراقة بن عمرو، عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، شهربراز وسكان أرمينية والأرمن من الأمان. أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وملتهم ألا يضاروا ولا ينتقضوا، وعلى أهل أرمينية والأبواب، الطراء منهم والتناء - المقيمين - ومن حولهم، فدخل معهم أن ينفروا لكل غارة، وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالي صلاحاً، على أن توضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك إلا الحشر، والحشر عَوضٌ من جزائهم ومن استغنى عنه منهم وقعد **فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء والدلالة والنزل يوماً كاملاً، فإن حشروا وضع ذلك عنهم**، وإن تركوا أخذوا به.

شهد عبد الرحمن بن ربيعة، وسلمان بن ربيعة، وبكير بن عبد الله، وكتب مرضي بن مقرن وشهد».

وتضمنت وثيقة الصلح مع أهل أذربيجان:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عتبة بن فرقد، عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على أهل أذربيجان بسهلها وجبلها وحواشيها وشفارها وأهل مللها، كلهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم، على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم، ليس على صبي ولا امرأة ولا زمن - ضعيف وفقير - ليس في يديه شيء

---

(١) تاريخ الطبري (أحداث سنة ٢٢ هـ) ١٥٢/٤.

من الدنيا، ولا متعبد متخلٍّ ليس في يـديه من الـدنيا شيء، لهم ذلـك ولمن سكن معهم، **وعليهم قرى المسلم من جنود المسلمين يوماً وليلة ودلالته**، ومن حشر منهم في سنة، وضع عنه جزاء تلك السنة، ومن أقام فله مثل ما لمن أقام من ذلك، ومن خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حرزه.

وكتب جندب، وشهد بكير بن عبد الله الليثي، وسماك بن خرشـة الأنصاري. وكتب في سنة ثمان عشرة».

وتضمنت وثيقة الصلح مع أهل موقان من جبال القبج ـ في أرمينية ـ ما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى بكير بن عبد الله أهل موقان من جبال القبج، الأمان على أموالهم وأنفسهم وملتهم وشرائعهم على الجزاء، دينار على كل حالم أو قيمته، **والنصح ودلالة المسلم ونـزله يـومه وليلتـه**، فلهم الأمان مـا أقروا ونصحوا، وعلينا الوفاء والله المستعان. فإن تركوا ذلك واستبان منهم غش فلا أمان لهم إلا أن يسلموا الغششة برمتهم، وإلا فهم متمالؤون.

شهد الشماخ بن ضرار، والرسارس بن جنادب، وحملة بن جوية. وكتب سنة إحدى وعشرين»[1].

وهناك من الوثائق المشابهة عدد كبير، وهي ذات نص يكاد يكون واحداً تقريباً، ويرتكز هذا النص على ثلاث مرتكزات أساسية، أولها ضمان أمن أهل الذمة والتعهد بحمايتهم والدفاع عنهم، وضمان حريتهم الدينية وحرية التملك، مقابل دفع الجزية مع التعهد بحماية الإنسان المسلم، واستضافته (لمدة يـوم وليلة)، وكذلـك التعهد بعدم الغدر بالمسلمين ومحاربة من يحاربهم، وفي هذه الحالة تسقط عنهم الجزية.

وهناك ثمة اختلافات في النصوص تبعاً لخصوصية الأقاليم، والطبيعة الخاصـة لسكان الأقاليم. وقد تستخدم هذه الوثائق وأمثالها على أنها براهين ثابتة على عدالة المسلمين الفاتحين الذين لم يكن لهم من هدف إلا نشر الإسلام والتعريف به. وهي قد تستخدم أيضاً لتأكيد حقيقة أن الجزية المفروضة على أهل الذمة ما هي إلا (بدلاً)

---

(١) تاريخ الطبري ـ أحداث سنة ٢٢ هـ ـ (٤/١٥٥ ـ ١٥٧).

عن الخدمة العسكرية التي يضطلع بها العرب المسلمون للدفاع عن أهل الذمة بدلالة إسقاط هذه الجزية عمن يحمل السلاح ويقاتل مع المسلمين. ولكن المهم في الأمر، هو أن هذه المعاهدات قد ركزت على مسألة حماية الإنسان المسلم، وعدم سبِّه أو شتمه أو التعرض له، وتأمين حمايته واستضافته ريثما يتم إيصاله إلى مأمنه.

هذا الإنسان المسلم - عربياً أو غير عربي - كان قادراً على الانتصاف من أي والٍ أو حاكم أو أمير إذا ما نزل به ظلم، أو أصابه ضيم. وهناك من القصص التي حفظتها أمثولات لا نهاية لها عن مكانة المسلم في مجتمعه، فها هي امرأة مسلمة، نزل بمنزلها واحد من جند الشام، عندما توجه جيش من جيوش الشام إلى العراق في عهد **الحجاج بن يوسف الثقفي**، وقد تجاوز هذا الجندي حدود الضيافة، فجاء زوج المرأة وقتله، وجاءت المرأة إلى الحجاج وشرحت له الأمر على حقيقته، فنادى منادي الحجاج: «**لا ينزلنَّ أحد على أحد، واخرجوا فعسكروا**». وخرج يستريد مكاناً لبناء مدينة خاصة بالجند، فكانت مدينة (واسط)[1].

وهذا هو المعتصم، وقد اعترضه شيخ وشكا إليه جور جنده وظلمهم بقوله: «**يا أبا إسحاق؛ لا جزاك الله عن الجوار خيراً، جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك، فأسكنتهم بيننا، فأيتمت صبياننا وأرملت بهم نسواننا وقتلت رجالنا**». وعاد المعتصم فأمر بإخراج الجند من بغداد، وبنى لهم (سامراء) أو (سر من رأى)[2].

ثم هو ذاك (أبو جعفر المنصور) وقد ارتقى منبر الخطابة - في الجامع - وبدأ خطبته بقوله: «الحمد لله، أحمده وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له» فيعترضه رجل ويقطع عليه خطبته ويقول له: «**أذكرك من ذكرت به**» فما كان من المنصور إلا أن قال: «سمعاً، سمعاً، لمن حفظ عن الله، وأعوذ بالله أن أكون جباراً عنيداً، أو تأخذني العزة بالإثم، لقد ضللت إذاً وما أنا من

---

(1) تاريخ الطبري - أحداث سنة ٨٣ هـ (٦/٣٨٣ - ٣٨٤) خبر بناء مدينة واسط.
(2) الكامل في التاريخ - أحداث سنة عشرين ومائتين (٥/٢٣٦).

المهتدين. وأنت أيها القائل فوالله ما أردت بهذا القول الله، ولكنك أردت أن يقال: قام فقال، فعوقب فصبر، وأهـون بها. **ويلك، لقـد هممت، واغتنمها إذ عفـوت، وإياك وإياكم معاشر المسلمين أختها**، فإن الحكمة علينا نزلت، ومن عندنا فصلت، فـردوا الأمر إلى أهله تـوردوه موارده وتصـدروه مصادره» ثم عـاد إلى خطبتـه كأنمـا يقرؤها...[1].

ثم ألم يشن المعتصم حرباً شعواء ضد بلاد الروم؟ عنـدما بلغتـه صيحة امـرأة هاشمية كانت في أسر الروم، فأرسلت من أسرها صيحة رددتها الآفاق: «وامعتصماه» فرد عليها المعتصم: «لبيك» ونادى في قصره «النفير ـ النفيـر» وكانت وقـائع «فتـح عمورية»[2] **التي أعز الله بها الإسلام انتصافاً لامرأة مسلمة**.

وحدث مثل ذلـك في الأندلس عنـدما طـرقت أذني أمير المؤمنين (**الحكم بن هشام**) صيحة امرأة مسلمة قالت وهي في الأسر: «واغوثاه بك يا حكم، لقد أهلمتنا حتى كَلِبَ العدو علينا، فأيمنا وأيتمنا». فنادى الحكم على الفور بالجهاد والاستعداد إلى (**وادي الحجارة**) فأثخن في تلك الناحية، وفتح الحصون، وخرب الديار، وقتل عدداً كثيراً، وأسر عدداً أكبر، وأمر بإحضار المرأة المستغيثة، وجميع من أسر له أحد في تلك البلاد، فأحضر، وأمر بضرب رقاب الأسرى بحضرتها. فقالت المرأة: «**والله لقد شفى الصدور، وأنكى العدو، وأغاث الملهوف، فأغاثه الله وأعز نصره**»[3].

ولم تكن مثـل هذه العمليـات العسكريـة إلا وجهـاً من وجـوه إعـزاز الإنسـان المسلم، وإلا تأكيداً لمكانته في مجتمعه. أما الوجه الثاني فيبرز من خلال ما عرف باسم (فداء المسلمين) ذلك أنه كان من نتائـج الصراع المستمـر على الحدود وفي الثغور، وقوع أعداد من الأسرى في قبضة أعداء الإسلام والمسلمين، والذين كانوا يقتلون أو يسجنون أو يباعون، ولم يكن أمراء المسلمين ليتركوا أسراهم تحت رحمة الأعداء، فكان في جملة أساليبهم لتحرير الأسرى بافتدائهم بالأموال، أو بالمبادلـة

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ثمان وخمسين ومائة (٥/٤٧).
(٢) المرجع السابق ـ أحداث سنة ثلاث وعشرين ومائتين (٥/٢٤٧ ـ ٢٥٠).
(٣) نفح الطيب (١/٣٤٣ ـ ٣٤٤).

عليهم. ومما ذكرته المصادر التاريخية بهذا الصدد: «أنه توفي رجل في أيام أمير الأندلس هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان سنة ثمانين ومائة، وأوصى أن يفك أسير من المسلمين من تركته، فطلب ذلك فلم يوجد في دار الكفر أسير يشترى ويفك، لضعف العدو، وقوة المسلمين»[١].

ووجَّه الرشيد سنة سبع وثمانين ومائة جيشاً بقيادة ابنه القاسم لغزو بلاد الروم... فبعث إليه الروم ثلاثمائة وعشرين أسيراً من المسلمين على أن يرحل عنهم، فأجابهم ورحل عنهم صلحاً.

وفي سنة تسع وثمانين ومائة، كان الفداء بين المسلمين والروم، **فلم يبق بأرض الروم مسلم إلا فودي به**[٢].

ثم كان الفداء الثاني بين المسلمين والروم سنة اثنين وتسعين ومائة، وكان عدد الأسرى من المسلمين ألفين وخمسمائة أسير.

وفي سنة إحدى وثلاثين ومائتين، كان الفداء بين المسلمين والروم، واجتمع المسلمون فيها على نهر اللامس ـ على مسيرة يوم من طرسوس ـ واشترى الواثق أمير المؤمنين من ببغداد وغيرها من الروم، فلما كان في عاشوراء، اجتمع المسلمون ومن معهم من الأسرى على النهر، وأتت الروم ومن معهم من الأسرى، وكان النهر بين الطائفتين؛ فكان المسلمون يطلقون الأسير، فيطلق الروم الأسير من المسلمين فيلتقيان في وسط النهر، ويأتي كلٌّ أصحابه، فإذا وصل الأسير إلى المسلمين كبروا، وإذا وصل الأسير إلى الروم صاحوا حتى فرغوا. **وكان عدة أسرى المسلمين أربعة آلاف وأربعمائة وستين نفساً، والنساء والصبيان ثمانمائة، وأهل ذمة المسلمين مائة نفس.**

---

(١) الكامل في التاريخ (أحداث سنة ثمانين ومائة).

(٢) وفي ذلك قال مروان بن أبي حفصة ممتدحاً الرشيد:

وفكّت بك الأسرى التي شيدت لها ... مجالس ما فيها حميم يزورها
على حين أعيا المسلمين فكاكها ... وقالوا سجون المشركين قبورها

وانظر هذه الأحداث في (الكامل في التاريخ) بحسب السنوات المشار إليها بالنص.

وعملت ملكة الروم (تذورة) بعدئذ على قتل اثني عشر ألفاً من أسرى المسلمين، **وكانت (تذورة) قد عرضت النصرانية على الأسرى، فمن تنصر جعلته أسوة من قتله من المتنصرة، ومن أبى قتلته**، ثم أرسلت تطلب المفاداة لمن بقي منهم، فأرسل المتوكل قاضي القضاة ليحضر الفداء، الذي وقع على نهر اللامس، فكان أسرى المسلمين من الرجال سبعمائة وخمسة وثمانين رجلاً، ومن النساء مائة وخمساً وعشرين امرأة (وكان ذلك سنة إحدى وأربعين ومائتين).

ولم تكن المفاداة تتم دائماً بالمبادلة، وإنما كانت تتم أحياناً مقابل مبالغ محددة تزيد أو تنقص بحسب أهمية الأسير ومكانته. ففي سنة خمس وأربعين ومائتين، أغارت الروم على (سميساط) في أرمينية، وتمكن المسلمون من أسر بطريق الروم، وأرسلوه إلى (المتوكل) **فبذل الروم في فدائة ألف مسلم**. ويظهر أن عملية الحصول على الأسرى وفدائهم قد أصبحت في تلك الفترة غاية في حد ذاتها، بدلالة العدد الكبير من الأسرى الذين كانوا يقعون في قبضة الروم عن طريق الإغارات المباغتة على ثغور المسلمين وحدودهم، ففي سنة ست وأربعين ومائتين كان الفداء في شهر صفر، ففودي بألفين وثلثمائة وسبع وستين نفساً من المسلمين. وفي سنة (تسع وخمسين ومائتين) **سارت سرية للمسلمين إلى (سرقوسة)** في صقلية، فصالح أهلها على أن يطلقوا الأسرى الذين كانوا عندهم من المسلمين، **وهم ثلثمائة وستين أسيراً**، فلما أطلقوهم عادت السرية عنهم. وكان المستنصر بالله الخليفة العلوي حاكم مصر، قد ضم إليه بلاد الشام سنة ٤٢٩ هـ - ١٠٣٧ م، وصالح ملك الروم، وشرط عليه إطلاق خمسة آلاف أسير من المسلمين، وشرط ملك الروم عليه بالمقابل أن يعمروا بيعة قمامة - كنيسة القيامة - فأرسل ملك الروم من عمَّر الكنيسة، وأنفق عليها مالاً جليلاً.

وهناك من قصص الفداء ما لا يتعلق بمكانة الإنسان المسلم في مجتمعه بقدر ما يتعلق بمكانة المسلمين عامة، وهيبتهم، من ذلك ما حدث سنة خمس وخمسين وأربعمائة (١٠٦٣ م) حيث وقع بعض ملوك الروم في قبضة إبراهيم ينال شقيق السلطان طغرل بك، مما حمل ملك الروم على بذل كل جهد مستطاع لفدائهم، وتعهد بدفع مبلغ أربعمائة ألف دينار مقابل إطلاق سراحهم. ورفض إبراهيم ينال

كافة العروض، وعندما علم طغرل بك سلطان السلاجقة أصدر أمره بإطلاق سراح الأسرى بدون فداء، فرد ملك الروم على ذلك بأن أرسل إلى السلطان طغرل بك «ما لم يحمل في الزمان المتقدم وهو ألف ثوب ديباج وخمسمائة ثوب أصناف، وخمسمائة رأس من الكراع إلى غير ذلك، وأنفذ مائتي ألف دينار ومائة لبنة فضة، وثلثمائة شهري، وثلثمائة حمار مصرية، وألف عنز بيض الشعور سود العيون والقرون. وعمر ملك الروم الجامع الذي كان مسلمة بن عبد الملك قد بناه بالقسطنطينية، وعمر منارته، وعلق فيه القناديل، وجعل في محرابه قوساً ونشابة وأشاع المهادنة».

وعندما وقع ملك الروم أرمانوس في أسر السلطان ألب أرسلان في معركة ملازكرد (سنة ٤٦٣ هـ ـ ١٠٧٠ م)، استقر الصلح على أساس فداء الملك نفسه بمبلغ ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار، وأن يرسل إليه عساكر الروم أي وقت طلبها، وأن يطلق كل أسير مسلم في بلاد الروم وهادنه السلطان خمسين سنة، وسيره إلى بلاده.

جاءت الحملات الصليبية بعدئذ لتنال من مكانة الإنسان المسلم على أرضه، وعبر الفرنج الصليبيون عن ذلك بالمذابح التي أجروها على المسلمين، في سائر بلاد الشام، بداية من أنطاكية وحتى القدس، وكانت مذبحة القدس (سنة ٤٩٢ هـ ـ ١٠٩٨ م) من أشد المذابح وقعاً على نفوس المسلمين، وبقيت ذكرى هذه المذابح ماثلة أمام المسلمين وقادتهم طوال سنوات الجهاد الشاق، وتمكن المسلمون في كل مرة من الانتقام لشهدائهم الأبرار، من ذلك ما حدث سنة ٥٨٢ هـ ـ ١١٨٦ م وفقاً لما ذكرته المصادر التاريخية على النحو التالي:

«كان البرنس أرناط ـ رينالد دو شاتيون ـ صاحب الكرك ـ من أعظم الفرنج وأخبثهم وأشدهم عداوة للمسلمين، وأعظمهم ضرراً عليهم، فلما رأى صلاح الدين الأيوبي ذلك قصده بالحصر مرة بعد مرة، وبالغارة على بلاده كرة بعد أخرى، فذل وخضع وطلب الصلح من صلاح الدين، فأجابه إلى ذلك وهادنه وتحالفا.

وترددت القوافل من الشام إلى مصر ومن مصر إلى الشام، فلما كانت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، اجتاز به قافلة عظيمة، غزيرة الأموال، كثيرة الرجال، ومعها

جماعة صالحة من الجند، فغدر اللعين بهم، وأخذهم عن آخرهم، وغنم أموالهم ودوابهم وسلاحهم، وأودع السجون من أسر منهم، فأرسل إليه صلاح الدين يلومه ويقبِّح فعله وغدره، ويتوعده إن لم يطلق الأسرى والأموال. فلم يجب إلى ذلك وأصر على الامتناع. فنذر صلاح الدين نذراً أن يقتله إن ظفر به» ووفى صلاح الدين نذره فقتله بيده بعد نصره الحاسم يوم حطين. وقصة فداء الفرنج بعد فتح المسلمين لمدينة القدس من القصص المحفوظة على مدى التاريخ[١].

لم تكن المسألة هنا هي مسألة قافلة تجارية، ولا مجرد سجن وسبي لعدد من المسلمين، وإنما هي مسألة حماية من الدولة الإسلامية لمواطنيها المسلمين؛ وحرصاً منها على مكانة المسلم في مجتمعه، إذ أن التهاون في أمر أي مسلم إنما ينال من المجتمع الإسلامي بمجموعه.

وهكذا فعندما جاء المغول التتار إلى بلاد الشام، كان موقف المسلمين منهم مثل موقفهم من الصليبيين وهو ما يبرزه النص التالي: «دخل كتبغا ـ قائد المغول ـ دمشق في أول مارس سنة ١٢٦٠ م ـ ٦٥٩ هـ وصحبه ملك أرمينية وأمير أنطاكية، وشهد سكان العاصمة السابقة للخلافة الأموية، ولأول مرة منذ ستة قرون، ثلاثة أمراء مسيحيين يركبون معاً يشقون بموكبهم شوارع المدينة... وأضحى المسلمون بداخل سوريا، لأول مرة منذ القرن السابع، يعتبرون أقلية مغلوبة على أمرها، فأخذوا يتحرقون للانتقام»[٢].

ولم يطل الانتظار، فقد انتصر المسلمون على المغول في عين جالوت بعد ذلك بخمسة أشهر فقط، وقاد الظاهر بيبرس جيش المسلمين فدمر إمارتي أرمينية وأنطاكية وأعادهما لحكم المسلمين.

ومن المعروف أن جيوش المسلمين الظافرة تابعت جهادها لطرد الفرنج من بلاد الشام حتى لم يبق إلا مدينة عكا وبعض القلاع الساحلية تحت حكم الفرنج، وعقد

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (١٧٥/٩ ـ ١٩٠).
(٢) تاريخ الحروب الصليبية ٦٥٩/٣.

حكام عكا هدنة طويلة المدى مع السلطان قلاوون؛ وأعادت هذه الهدنة بعض الثقة في عكا، إذ جرى استئناف التجارة من جديد، وأخذ تجار دمشق في إرسال قوافلهم إلى الساحل، وتوافر المحصول سنة ٦٨٩ هـ ـ ١٢٩٠ م. وتزاحم الفلاحون من الجليل في نقل منتجاتهم إلى عكا، بحيث لم تشهد المدينة من الحيوية والنشاط كمثل ما عاشته في تلك السنة. ولكن حدث أن قدم إلى عكا فوج من الصليبيين الإيطاليين لقتال (الكفار) وأخذوا يهاجمون التجار والفلاحين المسلمين. واندلعت الفتنة في نهاية شهر آب ـ أغسطس ١٢٩٠ م فانطلق الصليبيون الرعاع فجأة يجوبون الشوارع، وخرجوا إلى الضواحي، **وهم يذبحون من صادفهم من المسلمين**.

وبلغت أنباء المذبحة أسماع السلطان قلاوون، فغضب وقرر استئصال الفرنج من أرض سوريا. ودارت مناظرة بين الفقهاء أقنعته أن باستطاعته نقض الهدنة من الناحية الشرعية. فأمر بإعداد الجيوش وحشدها، ولكن السلطان قلاوون مات وهو في أوج استعداداته، فتولى ابنه (الأشرف خليل) قيادة الحملة، وطرد الفرنج الصليبيين من عكا، ومن سائر بلاد الشام[1]. ودفع الفرنج ثمن اعتداءاتهم على المسلمين، وعاد الإنسان المسلم عزيزاً على أرضه وفي دياره.

لم تنهض الدولة العثمانية بعدئذ إلا من خلال رفع راية الجهاد في سبيل الله، وإلا من أجل نصرة الإسلام وأهله ضد الحملات الصليبية الحاقدة، فخاضت حروباً مريرة على جبهة الغرب طوال قرون متتالية، ولقد استنزفت هذه الحروب قدرة الدول الصليبية في الهجوم الشامل على أقطار العالم الإسلامي، وكانت روسيا هي الدولة الأكثر ضراوة، والأشد حقداً على الدولة العثمانية، بسبب مطامع روسيا التوسعية في شرق الأورال. وإذا كانت الدول الغربية (إنكلترا وفرنسا) بخاصة، قد رفعت راية الاستعمار والانتداب والوصاية لاقتطاع الأقاليم القاصية من أطراف الدولة العثمانية، فقد رفعت روسيا راية (تحرير الإخوة السلاف) لإخراج المسلمين من أوروبا، مع رفع راية (حماية الأرثوذكسيين) للتدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية، ولتمزيقها وتفتيتها من الداخل. ويمكن تجاوز كل الحروب التي خاضتها روسيا

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٦٩٠ ـ ٧٠٩).

لتحقيق هذه الغاية، للتوقف عند ما حدث سنة ١٨٧٧ م حيث وجهت إنكلترا وروسيا مذكرة إلى الدولة العثمانية عرفت باسم لائحة (لندن) وتضمنت فيما تضمنته: «**أن يبذل الباب العالي جهده لاتخاذ الوسائل من أجل تحسين أحوال النصارى التي اتفقت الدول على وجوبها لضمان الأمن والسلام في أوروبا. . . وأن دول أوروبا تعلن أن تحتفظ لنفسها بالنظر في اتخاذ الوسائل التي تراها مناسبة لضمان مصالح النصارى، وتأمين السلم**»[(١)] ورفضت الدولة العثمانية هذا البيان الذي حمل مضمون الإنذار، وردت على البيان ببيان جاء فيه: «إن الباب العالي لا يقبل الإصلاح الخاص بولايات ثلاث هي بوسنة وهرسك والبلغار، وليس عنده شك أيضاً أن مصلحته، ومن الواجب عليه، أن يقضي حقوق رعيته من النصارى قضاء كافياً، **ولكن لا يسلم أن يكون الإصلاح مقصوراً على النصارى فقط، بل يجب أن يكون شاملاً لجميع سكان الممالك المحروسة، رعية الدولة العلية، المتصفين بالولاء والطاعة حتى يكونوا بمنزلة جسم واحد**. وعلى هذا، فمن حق الباب العالي أن يدفع الأوهام التي تثيرها عبارة البروتوكول من جهة إخلاص قصده ونيته نحو رعيته المسيحيين، وأن يعترض على عدم المبالاة المفهومة من فحوى هذه العبارة بباقي رعيته من المسلمين وغيرهم. فمن المنكر أن الإصلاح الذي من شأنه أن يشمل المسلمين بالراحة والمنفعة، يكون في عيون أوروبا البصيرة المنصفة مما لا يُبالى به، ولا يُلتفت إليه. **ولذا كان من قصد الدولة اليوم إحداث تنظيمات مخصوصة يحصل بها لجميع رعاياها التأمين على حقوقهم ومنافعهم المعنوية والمادية على التساوي من دون فرق**، وتحسب من موجبات شرفها أن تحافظ على القانون الأساسي، وذلك آكد ضمان وعهد»[(٢)].

سرعان ما أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية، ودعمت الثورة في الجبل الأسود (مونتينيغرو) وفي بلغاريا وسواها، وما يهم البحث هنا التوقف عند النص التالي:

«**تحمَّل المسلمون من أنواع الإيذاء والتعدي، من قبل البلغاريين، بمجرد**

---

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية ٦٢٠.

(٢) المرجع السابق ٦٢٥.

سماعهم باقتراب الجيوش الروسية، مما يعجز القلم عن وصفه، ولذا هاجر أغلب المسلمين إلى الآستانة هرباً مما كانوا ينتظرونه، ووقع فيه فريق منهم من النهب والقتل، وتركوا أملاكهم وأمتعتهم، قاصدين ملجأ الخلافة الإسلامية أفواجاً، حتى غصت شوارع الآستانة بهم. . . ولولا إسراع الدولة بتوزيعهم على ولايات الأناضول لهلكوا عن آخرهم، **إذ أنهم كانوا يؤثرون الموت على العودة إلى بلادهم التي احتلها الروس، وساد فيها المسيحيون**، وكان ذلك منتهى أمل الروسيا التي كانت تود مهاجرة المسلمين عن جميع الولايات المصممة على منحها «الاستقلال»(١).

ونظمت الروسيا (بموجب معاهدة ١٨٧٨) عملية إخراج المسلمين وتصفية أملاكهم في رومانيا ويوغوسلافيا وبلغاريا وسواها من الأقطار الأوروبية.

لقد كانت الدولة العربية الإسلامية ـ على الأغلب ـ هي أول دولة ربطت بين مكانتها وبين مكانة الإنسان المسلم الذي يمثلها وينتمي إليها وذلك منذ ظهور الإسلام وإشراق نوره على أرض الدنيا. فلقد كان على الإنسان المسلم شرف حمل رسالة الإسلام، وكان على الدولة الإسلامية توجيه وقيادة مسلميها بمجموعهم لحمل هذه الرسالة. ولم يكن العرب المسلمون ـ ولا المسلمون من بعد ـ إلا أعداداً قليلة في مواجهة الكثرة من غير المسلمين، فكان حرص رسول الله ﷺ، من قبل، وحرص أمراء المسلمين وسلاطينهم وملوكهم، من بعد، هو الحرص على الإنسان حامل الرسالة لتمكينه من أداء أمانته على أفضل وجه ممكن.

لقد أصبحت عملية الربط بين مكانة الإنسان المعاصر وبين مكانة الدولة التي يمثلها وينتمي إليها، من العمليات المعروفة والتي يمكن متابعة ظواهرها على سطح الأحداث اليومية. فالدولة العزيزة الجانب تعتبر نفسها مسؤولة عن مواطنيها، حتى لو كان الإنسان منهم في أقاصي الدنيا، فإذا ما أصابه مكروه، أو تعرض لشر، اهتمت كل أجهزة الدولة بمد يد المساعدة لدعم ذاك الإنسان، سواء كان مسؤولاً أو غير مسؤول، وسواء كانت له صفة التمثيل الرسمي لبلاده أو لم تكن له مثل هذه الصفة، وذلك على نحو يشابه تماماً ما كان عليه وضع الإنسان المسلم في دولته الإسلامية،

---

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية ٦٣٩ ـ ٦٤٠.

وكذلك فإن الدول العظمى في الأزمنة المعاصرة، ورغم ما يتوافر لها من القـدرات البشرية الضخمة، فإن طموحها لممارسة دور عالمي يجعلها تحرص على مواطنيها حتى تمكنهم من أداء هذا الدور العالمي، والاضطلاع بأعبائه والتزاماته.

ومقابل ذلك، يعاني الإنسان المسلم في كل مكان تقريباً، باستثناء بعض الدول العربية ـ الإسلامية وقلة من الدول الإسلامية من المطاردة والملاحقة واحتمال أنواع الضغوط وشتى أشكال القمع والاضطهاد، وقد بـرزت هذه المشكلة خـلال الحقبة الأخيرة من حياة الـدولة العثمـانية، على نحـو ما سبقت الإشـارة إليه، ثم تـطورت المشكلة عبـر نقـل طـوائف الأقليـات غيـر الإسـلاميـة إلى مـواقـع السيـطرة على المجتمعات الإسلامية، وزرع الأحقاد في نفوس هذه الأقليات ودعمها، حتى بات الإنسان المسلم غريباً على أرض آبائه وأجداده، وعلى أرض ما كان معـروفاً بـاسم (أرض الإسلام) وأبرز نموذج لها (فلسطين ولبنان).

بدأ الرسول، ﷺ، ببناء المجتمع العربي ـ الإسلامي بناء جـديداً، من خـلال تأديب الصحابة بأدب القرآن، ومن خلال رعاية الإنسان المسلم وحمايته والاهتمام بـه، وسار أمـراء المسلمين وعمالهم وقـادتهم على نهج الإسـلام (كتاب الله وسنـة رسوله) فأعزهم الله بعزته. وكان الالتزام بين العرب المسلمين وبين أمرائهم وعمالهم هو الرابطة القائمة على شريعة الإسلام. وهـذه الرابـطة هي بدورهـا المهيمنة على عـلاقات الـدول العظمى ومـواطنيها، فقـد تساوي أجهـزة هذه الـدول بين حقـوق المواطنين وواجباتهم، ولكن في حدود الالتزام بسياسة الدولة، إذ من المعروف أن الدول العظمى لا تسمح مطلقاً، رغم ما تزعمه من (الحـريات)، بـظهور التيـارات الغريبة والتي تتعارض أو تتناقض مع سياساتها (الداخلية والخارجية). وإذن، فإن من طبيعة الأمور، وحتى في الأزمنـة الحديثـة، أن تعطي الـدولة الإسـلامية لمـواطنيها المسلمين مكانتهم التي يستحقونها والتي أعزهم الله بها، دونما خوف ولا حرج من الدول المعادية للإسلام وأهله، وذلك للمحافظة على الرابطة الثـابتة بين المسلمين وبين دولتهم الإسلامية.

٦

القائد؛ وموقعه في القتال

كان أول ما فعله العرب المسلمون، وقد وصلوا إلى ميدان المعركة في بدر، أن بنوا (عريشاً) للرسول ﷺ، فكان (العريش)، على مرتفع من الأرض، يشرف على ميدان المعركة بكامله، وقام الرسول بتنظيم القوات للمعركة، ثم عاد إلى العريش **«وسعد بن معاذ قائم على باب العريش؛ متوشحاً السيف، في نفر من الأنصار؛ يحرسون رسول الله ﷺ؛ يخافون عليه كرة العدو»**[1]، فتوافرت بذلك الشروط الأساسية المطلوبة لمركز القيادة؛ وهي الإشراف على ميدان المعركة؛ وعدم بعده عنها؛ وسهولة الاتصال بقادة القتال؛ وتأمين الحماية الضرورية للقائد.

وفي المسير إلى مكة؛ سارت كتائب القبائل في المقدمة؛ **ثم جاءت الكتيبة الخضراء، كتيبة رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار في الحديد؛ لا يرى منهم إلا الحدق**. . . وبعث الرسول بالزبير؛ وأعطاه رايته وأمَّره على خيل المهاجرين والأنصار؛ وأمره أن يغرز رايته بأعلى مكة ـ بالحجون ـ. . . **وسار الرسول بعدئذ حتى نزل بأعلى مكة؛ وضربت هنالك قبته**[2]. فكان الرسول ﷺ في المسير؛ خلف المقدمات؛ ومع الكتلة الرئيسة من القوات. أما في التوقف؛ فكان مقر قيادته في موقع مشرف على مكة؛ وبه قوات كافية من الفرسان للحماية.

قاد الرسول ﷺ بنفسه ستاً وعشرين غزوة؛ فكان يضطلع في أعماله هذه بما

---

(١) الكامل في التاريخ ـ وتاريخ الطبري ـ أحداث سنة ٢ للهجرة.

(٢) المرجع السابق ـ أحداث سنة ٨ هـ.

يسمى في الأزمنة الحديثة (بقائد الميدان) أو (قـائد العمليـات)، ولكنه أرسـل في حياته خمساً وثلاثين بعثاً وسرية، فكان يضطلع في ذلك بدور (القائد الاستراتيجي) أو (القـائد الأعلى للقـوات المسلحة)، وقـد اعتُبـر ذلـك دليـلاً على أنـه ليس من الضروري؛ وليس أمراً ملزماً؛ أن يكون القائد الأعلى مع كل قوة مقاتلة؛ وليس عليه أن يقود الحرب بنفسه، وإنما باستطاعته عقد اللواء (لواء الحرب)؛ لمن يجـد فيه الكفاءة من بين الرجال.

جاء أمراء المؤمنين فأخذوا بهذه السنة، فكانوا يتولون بأنفسهم قيادة الجيش إذا ما وجدوا ضرورة لذلـك؛ وكانـوا يسندون القيـادة لمن يختارون؛ وكـانوا غـالباً مـا يختـارون ـ لا سيمـا في العهـد الأمـوي ـ أبنـاءهم أو إخـوانهم أو أقـاربهم لقيـادة الجيوش؛ رغبة في الجهاد والثواب؛ وأسوة حسنة للناس؛ وثقة منهم بمن يعـرفون عن قرب ممن تتوافر فيهم الكفاءة القيادية والفضائل الحربية.

كان أمير المؤمنين أبو بكر رضي الله عنه أول متَّبع للسنة؛ فعندما طرق المرتدون أبـواب المدينـة المنورة؛ تـولى بنفسه قيـادة قوات المسلمين؛ رغم معـارضة كبـار الصحابة له؛ إذ قالوا له: «ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن تعرض نفسك؛ فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام؛ ومقامك أشـد على العدو؛ فـابعث رجلاً؛ فـإن أصيب أمَّرت آخر». فقـال: «**لا والله؛ لا أفعل؛ ولأواسينَّكم**»[1] وكـانت هذه هي القيـادة الميدانية الوحيدة التي مارسها الخليفـة الأول، خلال مـدة حكمه أميـراً للمؤمنين، واكتفى بعد ذلك الاضـطلاع بدور (القـائد الأعلى) وهـو في قاعـدته ـ في المـدينة المنورة ـ وقد يكون ذلك أمراً طبيعياً؛ بعد أن اتسع أفق العمليات الحربية؛ وبعد أن انطلقت جيوش الفتح في كل اتجاه.

ظهر التمييز الواضح بين القيادة الاستراتيجية وبين القيادة في الميدان؛ في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضوان الله عليه. فقد اضـطلع أمير المؤمنين عمـر بـأعباء القيـادة الاستراتيجيـة؛ فكان يحشـد القوى وينـظمها، ويعقـد لها الألـوية؛ ويوجهها إلى ميادين القتال؛ ويعين القادة؛ ويجمع المعلومات، ويتخذ القرارات؛

(١) الكامل في التاريخ ـ وتاريخ الطبري ـ أحداث سنة ١١ هـ.

ويصدر الأوامر؛ ويتابع تنفيذها؛ وينظم التعاون بين القوى بعضها مع بعض. وقد حاول أمير المؤمنين عمر ممارسة قيادة الميدان؛ عندما تأزم الموقف على جبهة العراق (سنة ٢١ هـ) غير أن الصحابة، الذين كانوا يشكلون المجلس الاستشاري لأمير المؤمنين، منعوه من ذلك؛ فأسند قيادة الجيش إلى النعمان بن مقرن (في معركة نهاوند). كذلك لم يغادر أمير المؤمنين عمر قاعدته ـ المدينة المنورة ـ إلا مرتين: مرة لاستلام مفاتيح القدس؛ وتوقيع معاهدة الصلح مع أهلها؛ ومرة عندما انتقل إلى (الجابية) في بلاد الشام ليكون قريباً من الأحداث وليتابع تطورات هجوم الروم؛ الذين وصلوا بهجومهم حتى مدينة حمص في وسط بلاد الشام (سنة ١٧ هـ). ومقابل ذلك، كان قادة الميدان ملازمين لجنودهم باستمرار؛ إذ تقع عليهم مسؤولية تنظيم تحرك القوات؛ واتخاذ تدابير الأمن لحماية القوات أثناء تحركها وإقامتها؛ وتنظيم أعمال الاستطلاع وجمع المعلومات؛ والتأمين الإداري للقوات؛ وقيادة القوات للمعركة، وإدارة الحرب؛ والمحافظة على الاتصال مع القيادة الاستراتيجية (أمير المؤمنين)، ومع قادة القوات المجاورة. وكان مكان قائد الميدان في المسير مع الكتلة الرئيسة من قواته؛ وقريباً من قوات الاستطلاع (الطلائع والمقدمات). أما في التوقف فكان مقر قيادته (خيمته) في موقع متوسط من قواته؛ ومع المؤخرات عند التراجع أو الانسحاب.

كان (خالد بن الوليد) نموذجاً لقائد الميدان الملازم لجنده دائماً؛ وحقق في العراق (سنة ١٢ هـ) انتصارات مذهلة؛ فلما انتهى من (معركة الفراض) قاد جيشه نحو (الحيرة)، ثم انفصل عن المؤخرة، وتوجه إلى الحج ـ بدون إذن الخليفة ـ ولم يطل غيابه، إذ رجع من حجته ودخل الحيرة مع المؤخرة. غير أن الخليفة أبا بكر رضي الله عنه علم بذلك، فكتب إليه رسالة وجَّهه فيها إلى الشام؛ وجاء في الرسالة: **«سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك. . وإياك أن تعود لمثل ما فعلت؛ فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة؛ ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل؛ وإياك أن تدل ـ تتباهى ـ بعمل؛ فإن الله له المن؛ وهو ولي الجزاء»**[1].

---

(١) تاريخ الطبري ـ أحداث سنة ١٢ هـ.

وتولى (المثنى بن حارثة الشيباني) حرب العراق؛ بعد تحرك خالد بن الوليد إلى الشام؛ وقاد معارك ناجحة، إلا أن قوات المسلمين هزمت في معركة (قس الناطف - أو قرقس - أو المروحة؛ أو معركة الجسر) ودهش المسلمون؛ فأخذوا يلتمسون طريق الفرار، وقذف عدد منهم بأنفسهم في الماء، ماء الفرات؛ فماتوا غرقاً. وأسرع المثنى لمعالجة الموقف فنادى في الناس: «**يا أيها الناس! أنا دونكم فاعبروا على هينتكم ولا تدهشوا؛ فإنا لن نزايل حتى نراكم من ذلك الجانب؛ ولا تغرقوا أنفسكم**» ونظم المثنى العبور على الجسر الذي عقده، ووقف مع فئة من أبطال المسلمين يقاتل الفرس حتى تم العبور؛ وكان آخر من عبر الجسر(١).

وفي القادسية؛ نظم سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - قوات العرب المسلمين للمعركة؛ غير أنه لم يكن قادراً يومئذ على ركوب الخيل؛ ولا الجلوس؛ لما أصابه من عِرْق النسا والدماميل (الحبون ومفردها حبن) فحملوه إلى سطح المنزل الذي كان يقيم فيه؛ وكان متاخماً لميدان المعركة ومشرفاً عليها؛ وتمدد على وجهه؛ في صدره وسادة، هو مكب عليها؛ واستخلف خالد بن عرفطة على الناس؛ فاختلف عليه الناس، فكتب سعد إلى حملة الرايات: «**إني قد استخلفت عليكم خالد بن عرفطة؛ وليس يمنعني أن أكون مكانه إلا وجعي من الحبون؛ فإني مكبٌّ على وجهي؛ وشخصي لكم بادٍ؛ فاسمعوا له وأطيعوا؛ فإنه إنما يأمركم بأمري، ويعمل برأيي**». فقرىء على الناس؛ فزادهم خيراً؛ وانتهوا إلى رأيه. فكان سعد يرمي إلى خالد **بالرقاع فيها أمره ونهيه**. ورغم ذلك؛ فإن بعضاً من المجاهدين في سبيل الله لم يرضهم عدم اشتراك سعد في القتال، وقالوا فيه شعراً أحزنه لما علم به(٢) فخرج إلى

---

(١) تاريخ الطبري - أحداث سنة ١٣ هـ.

(٢) قال جرير ابن عبد الله:

أنا جرير كنيتي أبو عَمر ... قد نصر الله وسعد في القصر

وقال رجل من المسلمين أيضاً:

نقاتل حتى أنزل الله نصره ... وسعد بباب القادسية معصم

فأبنا وقد آمت نساء كثيرة ... ونسوة سعد ليس فيهن أيم

وانظر تاريخ الطبري - القادسية - أحداث سنة ١٤ هـ.

الناس، فاعتذر إليهم؛ وأراهم ما به من القرح في فخذيه وإليتيه، فعذره الناس.

لقد استخدم سعد طريقة (الأوامر الخطية) لإدارة المعركة؛ وكان يشرف على المعركة إشرافاً مباشراً ـ بالنظر ـ ويتابع تطوراتها، ويعالج مواقفها المستجدة؛ وعلى الرغم من ذلك كله؛ فإن المجاهدين في سبيل الله كانوا يعتبرون أن مشاركة القائد في القتال هو ضرورة لا بد منها؛ وأن هذه المشاركة لا تعني (زيادة سيف في القتال) بقدر ما تعني المؤاساة، ومشاركة المقاتلين في كره القتال.

ويكون من السهل فهم وإدراك سبب شكوك أبي عبيدة بن الجراح عندما اجتاحت جيوش العرب المسلمين في الشام جائحة الطاعون (طاعون عمواس سنة ١٧ هـ) وأراد أمير المؤمنين عمر إنقاذ أمين الأمة، وإخراجه من المنطقة الموبوءة؛ فكتب له: «إنه قد عرضت لي إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها؛ فعزمت عليك إذا نظرت في كتابي هذا ألا تضعه من يدك حتى تقبل إليّ» فرد أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح: «**يا أمير المؤمنين! إني قد عرفت حاجتك إلي، وإني في جند من المسلمين؛ لا أجد في نفسي رغبة عنهم؛ فلا أريد فراقهم حتى يقضي الله فيَّ وفيهم أمره وقضاءه؛ فحللني من عزمتك يا أمير المؤمنين؛ ودعني في جندي**». وأصاب أبا عبيدة ما أصاب الناس، وانتقل إلى الرفيق الأعلى.

كان أمراء البلاد؛ بعد استقرار الفتح؛ يمارسون، بدورهم، واجبات (القيادة الاستراتيجية) ولا يغادرون عاصمتهم (قاعدتهم) لممارسة القيادة الميدانية؛ إلا عند الضرورة. فمعاوية بن أبي سفيان، أمير الشام؛ بقي مقيماً في دمشق، ولم يتول قيادة الجيش إلا في (فتح قبرس) وفي غزوة (ذات الصوراي) باعتبار ما كان لهما من الأهمية في الاقتتال مع الروم؛ وباعتبار أن معاوية هو الذي حمل على كاهله مسؤولية ركوب الناس في البحر، وفيما عدا ذلك فإنه كان يرسل السرايا؛ ويوجه الحملات لغزو بلاد الروم، ويسند قيادة القوات إلى أهل الغناء (الكفاءة). ولكن؛ وفي الحالات كلها؛ لم يكن لمعاوية أن يقطع أمراً؛ أو يتخذ قراراً؛ بشأن الحرب؛ أو بشأن إدارة البلاد؛ إلا بعد الرجوع إلى أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ـ رضوان الله عليهما). كذلك فعل سعد بن أبي وقاص، في العراق ما بعد القادسية؛ ومثله فعل عمرو بن العاص في مصر؛ إذ كان يرسل السرايا إلى أطراف

مصر (غرباً نحو برقة وطرابلس وجنوباً نحو النوبة) وهو في قاعدته (الفسطاط).

لقد كان عقبة بن نافع الفهري من كبار قادة الميدان في الفتوح الإسلامية؛ وكان ملازماً لجنده دائماً؛ يكون حيث يجب له أن يكون تبعاً للموقف؛ فهو في المقدمة إذا تطلب الموقف؛ وهو مع الكتلة الرئيسة في المعركة الحاسمة؛ وهو مع المؤخرة عند التراجع أو الانسحاب؛ وقد كان ذلك سبب استشهاده. ففي سنة اثنتين وستين؛ وبينما كان عائداً من المغرب الأقصى بعد فتوحاته الكبرى؛ وصل إلى مدينة طبنة؛ وبينها وبين القيروان ثمانية أيام؛ «**أمر أصحابه أن يتقدموا فوجاً فوجاً؛ ثقة منه بما نال من العدو؛ وأنه لم يُبْقِ أحداً يخشاه؛ وسار إلى تهوذا لينظر إليها في نفر يسير**؛ فلما رآه الروم في قلَّة؛ طمعوا فيه؛ وقاتلوه وهو يدعوهم إلى الإسلام فلم يقبلوا منه؛ . . . وكثر جمع الروم بمن انضم إليهم من البربر بقيادة أميرهم كسيلة؛ فأطلق عقبة سراح أبي المهاجر بن دينار؛ وقال له: **إلحق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا أغتنم الشهادة**. فلم يفعل أبو المهاجر وقال لعقبة؛ وأنا أيضاً أريد الشهادة؛ فكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم؛ وتقدموا إلى البربر وقاتلوهم؛ فقتل المسلمون جميعهم ولم يفلت منهم أحد، **وكان عقبة وأبو المهاجر في طليعة الشهداء على أرض تهوذا**»(١).

وقد كان باستطاعة (عقبة بن نافع) تجنب خوض المعركة؛ والنجاة بنفسه إن أراد النجاة؛ غير أن مثل هذا السلوك لم يكن معروفاً ولا مقبولاً؛ إن على مستوى جموع المجاهدين في سبيل الله؛ وإن على مستوى القيادات العربية الإسلامية. فكان من طبيعة الأمور أن يستأثر القادة بمواطن الخطر؛ وأن يتسابقوا لطلب الشهادة؛ طالما أن الشهادة هي منية كل مجاهد في سبيل الله.

لم يكن (موسى بن نصير) بدوره إلّا نموذجاً لقائد الميدان في الجيوش العربية الإسلامية، وقد قاد فتوحات المغرب وهو على رأس قواته؛ وفي مقدمتها. وعندما أمر مولاه (طارق بن زياد) بالعبور إلى الأندلس؛ وقد وردت في سيرة الفتوحات مقولات كثيرة منها: «عندما انتصر طارق على لذريق كتب إلى موسى بن نصير بالفتح وبالغنائم؛ **فحركته الغيرة؛ وكتب إلى طارق يتوعده إن توغل بغير إذنه؛ ويأمره أن لا**

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة اثنتين وستين (ذكر ولاية عقبة بن نافع أفريقية).

يتجاوز مكانه حتى يلحق به». كما ورد في مصدر تاريخي ما يلي: «**لقد نقم موسى بن نصير على مولاه طارق؛ إذ غزا بغير إذنه**». وذُكر أيضاً: «لما بلغ موسى بن نصير ما صنعه طارق بن زياد؛ وما أتيح له من الفتوح حسده؛ وتهيأ للمسير إلى الأندلس»[1].

ويمكن، على ضوء ما تقدم ذكره عن مكان القائد، وموقعه؛ فهم المقولات التي تعرضت لسيرة فتح الأندلس؛ فالمسألة ليست مسألة (غيرة) ولا هي مسألة (حسد)، ولو أن الغيرة والحسد من الأمور المقبولة في السباق للجهاد؛ ولكن المسألة وبدقة هي مسألة شعور القائد بالمكان الذي يجب أن يكون فيه. فلقد أصدر موسى أمره إلى طارق بالتوقف، وعدم التوغل؛ حتى لا تصاب قوات المجاهدين في سبيل الله بانتكاسة أو بهزيمة. فالقائد ـ وهو موسى بن نصير ـ مسؤول أمام ربه قبل كل شيء؛ ثم أمام أمير المؤمنين الوليد؛ عن قيادة القوات وعن مصيرهم وحياتهم؛ فكان لزاماً عليه أن يكون في الموقع الذي يسمح له باتخاذ القرار؛ والإشراف على تنفيذه؛ وقد كانت مخالفة طارق وتقدمه ـ بغير إذنه ـ مثيرة للغضب حقاً بالنسبة لأي قائد يحمل تلك القيم والمفاهيم، فكيف إذا كان الأمر بالنسبة لقائد من نوع موسى بن نصير؟ . . .

لقد كان تخلف القائد عن قيادة قواته؛ أو الفرار من المعركة والتخلي عن القوات؛ هو عار كبير، ومهانة لا تعدلها مهانة؛ ولقد تعرض (عبد العزيز بن عبد الله) لمهانة كان القتل أسهل منها عندما تخلى عن قيادة جيشه؛ وفر طالباً النجاة بنفسه؛ مما أطلق لسان الشعراء بأقذع أنواع الهجاء[2]، وكان ذلك برهاناً ثابتاً على حتمية

---

(١) نفح الطيب: (١/٢٣٣، ٢٤٣، ٢٦٩).

(٢) وفي ذلك قال الشاعر ابن قيس الرقيات:

عبد العزيز فضحت جيشك كلهم ... وتركتهم صرعى بكل سبيلِ
من بين ذي عطشٍ يجود بنفسه ... وملحب بين الرجال قتيلِ
هلّا صبرت مع الشهيد مقاتلاً ... إذ رحتَ منتكث القوى بأصيلِ
وتركت جيشك لا أمير عليهم ... فارجع بعارٍ في الحياة طويلِ

وانظر الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة اثنتين وسبعين ـ (ذكر أمر الخوارج).

وجود القائد مع قواته في الميدان؛ وعلى تأمين حمايتها؛ وتحمل كامل المسؤولية عنها.

يمكن هنا الإشارة إلى موقف الحجاج بن يوسف الثقفي عندما علم برجوع قتيبة بن مسلم الباهلي من شومان إلى أمل عبر النهر؛ وترك جنده وراءه يسيرون على طريق بلخ إلى مرو؛ فكتب إليه يلومه: «**إذا غزوت فكن في مقدم الناس؛ وإذا قفلت ـ رجعت ـ فكن في أخرياتهم وساقتهم**»(١).

لقد كان وجود رسول الله ﷺ على رأس قواته في (حنين) وصموده في المعركة سبباً لا في إنقاذ المجاهدين في سبيل الله فحسب؛ وإنما عاملاً في تحويل خط مسار المعركة من الهزيمة إلى النصر. فكانت موقعة حنين درساً استوعبه العرب المسلمون؛ وعرفوا فيه ضرورة استئثار القائد الميداني بموطن الخطر؛ لا حباً بالمجازفة؛ وإنما من أجل معالجة المواقف الخطرة والتحولات الحاسمة بصورة فورية. وقد أخذ كثير من قادة العرب المسلمين بهذا الدرس؛ واستوعبوه، وتبنوه مبدأً ثابتاً لهم، ومن ذلك ما حدث (للعباس بن الوليد بن عبد الملك) يوم قاد قوات العرب المسلمين لغزو بلاد الروم ـ سنة ثمان وثمانين ـ فأنزل الله نصره على المسلمين في بداية المعركة، ثم قام الروم بهجوم مضاد (فانهزم المسلمون حتى ظنوا ألا يجتبروها أبداً) وبقي العباس مع نفير؛ منهم ابن محيريز الجمحي؛ فقال العباس لابن محيريز: «**أين أهل القرآن الذين يريدون الجنة؟!**». فقال له ابن محيريز: «**نادهم يأتوك**» فنادى العباس: «يا أهل القرآن» فأقبلوا جميعاً؛ فهزم الله العدو، حتى دخلوا طوانة، وفتح الله على المسلمين حصن طوانة؛ وشتوا بها(٢).

كذلك كان أمر المعتمد بن عباد في موقعة الزلاقة الشهيرة، عندما هاجم ألفونسو ـ الأذفونش ـ معسكره بصورة مباغتة: «فغدر الأذفونش ومكر؛ وبادر ابن عباد للركوب؛ وبث الخبر في العساكر فماجت بأهلها؛ ووقع البهت؛ ورجفت الأرض؛ وصار الناس فوضى على غير تعبية ولا أهبة؛ ودهمتهم خيل العدو؛ فأحاطت بابن

---

(١) تاريخ الطبري ـ أحداث سنة ٨٦ هـ ـ ذكر ما كان من أمر قتيبة بخراسان.
(٢) المرجع السابق ـ أحداث سنة ٨٨ هـ ـ (خبر فتح حصن طوانة من بلاد الروم).

عباد من كل جهة؛ وحمي الوطيس؛ واستحر القتل في أصحاب ابن عباد؛ وفر رؤساء الأندلس وتركوا محلاتهم وأسلموها؛ وظنوا أنه وهن لا يرقع؛ ونازلة لا تدفع؛ **وصبر ابن عباد صبراً لم يعهد مثله لأحد؛ واشتد عليه وعلى من معه البلاء؛ وانكشف بعض أصحابه وفيهم ابنه عبد الله؛ وأثخن ابن عباد جراحات؛ وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت إلى صدغه؛ وجرحت يمنى يديه؛ وطعن في أحد جانبيه وعقرت تحته ثلاثة أفراس؛ كلما هلك واحد قدم له آخر؛** وهو يقاسي حياض الموت؛ ويضرب يميناً وشمالاً»[١].

لقد كان وجود المعتمد؛ وقبله العباس بن الوليد، على رأس قوات المسلمين؛ وصمودهما في المعركة؛ عاملاً حاسماً في تحول المعركة من الهزيمة إلى النصر؛ وليس المهم أن يكون هذا القائد أو ذاك؛ ولكن المهم هو أن يكون قائد الميدان؛ والمسؤول عن القيادة؛ على رأس قواته، وفي الموقع الذي يجب أن يكون فيه تبعاً للموقف.

ولقد كان (قتيبة بن مسلم الباهلي) بدوره من كبار قادة الحرب في التاريخ الإسلامي؛ ولم يكن قتيبة ملزماً بالبقاء في موقع ثابت؛ وفي كل المواقف؛ إذ كان لا بد له من التحرك طالما أن الحرب هي حرب حركة في أساسها، ففي (غزو نومشكت وراميثنة) كان قتيبة بن مسلم يسير مع الكتلة الرئيسة من قواته؛ وغير بعيد عن أوائل العسكر ـ المقدمات والطلائع ـ فيما كان عبد الرحمن بن مسلم الباهلي يسير مع الساقة ـ المؤخرة ـ وقد جعل بينه وبين أخيه مسافة ميل تقريباً، وإذا بجموع من الترك ومعهم السغد وأهل فرغانة تنقض على الساقة فأسرع عبد الرحمن وأرسل رسولاً إلى أخيه قتيبة يخبره «فرجع قتيبة بالناس، فوصل إلى عبد الرحمن وهو يقاتلهم؛ وقد كاد الترك يستعملونهم، فلما رأى الناس قتيبة طابت أنفسهم فصبروا وقاتلوهم إلى الظهر؛ فهزم الله الترك؛ وفض جمعهم؛ ورجع قتيبة إلى مرو»[٢].

توجه قتيبة في سنة تسعين للهجرة لفتح بخارى، فلما وصلها قادماً من مرو؛ نظم قواته للقتال واختار موقعاً مشرفاً على ميدان المعركة. وقد ورد في وصف المعركة ما

---

(١) نفح الطيب (٤/٣٦٦ ـ ٣٦٧).

(٢) تاريخ الطبري ـ أحداث سنة ٨٨ هـ ـ «ذكر غزو قتيبة نومشكت وراميثنة».

يلي: «قال قتيبة لقبائل الأزد: تقدموا؛ فتقدموا يقاتلون ـ أهل بخارى ـ **وقتيبة جالس عليه رداء أصفر فوق سلاحه**؛ فصبروا صبراً ملياً؛ ثم جال المسلمون؛ وركبهم المشركون فحطموهم حتى **دخلوا في عسكر قتيبة** وجاوزوه حتى ضرب النساء وجوه الخيل وبكين؛ فكرُّوا راجعين؛ وانطوت مجنبتا المسلمين على الترك؛ فقاتلوهم حتى ردوهم إلى مواقفهم؛ فوقف الترك على نشز ـ مرتفع ـ **فقال قتيبة: من يزيلهم لنا عن هذا الموضع**، فلما لم يتقدم أحد لإزالتهم؛ مشى قتيبة إلى بني تميم. فقال: يا بني تميم! إنكم أنتم بمنزلة الحطمية فيوم كأيامكم إني لكم الفداء!. وانطلق التميميون؛ وتمكنوا بعد قتال عنيف من إزالة الترك عن موقفهم. **ونادى قتيبة: أما ترون العدو منهزمين؟ من جاء برأس فله مائة!**»[1].

قاد قتيبة جيش العرب المسلمين لفتح سمرقند (سنة ٩٣ هـ)، فألقى الحصار عليها؛ وعلم أن جموعاً من الشاش وفرغانة، من أبناء الملوك ومن شجعان الفرسان، قد ساروا لنجدة أهل سمرقند «فنظم قتيبة قوة من ثلثمائة من أهل النجدة الذين تم انتخابهم، واستعمل عليهم أخاه ـ صالح بن مسلم ـ وكلمهم وحضّهم، فخرجوا من المعسكر عند المغرب؛ فساروا؛ فنزلوا على فرسخين من المعسكر؛ وفرق صالح خيله.. وأكمن كميناً عن يمينه، وكميناً عن يساره... حتى إذا مضى نصف الليل أو ثلثاه، جاء العدو باجتماع وإسراع وصمت... ودارت معركة عنيفة؛ **وتبين لأحد المقاتلين، تحت الليل؛ قتيبة وهو يقاتل مع الجند؛ وضرب ذاك المقاتل ضربة أعجبته وهو ينظر إلى قتيبة، وقال له: كيف ترى بأبي أنت وأمي! فرد عليه قتيبة: اسكت؛ دق الله فاك!**... وتمكن المسلمون من إبادة هذه القوة.

واستمر القتال أمام سمرقند؛ وفي اليوم الأخير من القتال أمر قتيبة بسريره فأبرز، وقعد عليه، **وهجم المشركون حتى جازوا قتيبة؛ وإنه لمحتبٍ بسيفه ما حلَّ حبوته**؛ وانطوت مجنبتا المسلمين على المشركين فهزموهم حتى ردوهم إلى عسكرهم، وقتل من المشركين عدد كثير، ودخل المسلمون سمرقند»[2].

---

(١) تاريخ الطبري ـ أحداث سنة ٩٠ (خبر فتح بخارى).

(٢) المرجع السابق ـ أحداث سنة ٩٣ (فتح سمرقند).

وقد تكون النصوص السابقة كافية لإبراز الموقع الذي كان يختاره قتيبة لممارسة قيادته؛ فهو مع القوات الرئيسة دائماً؛ ومع القوات التي تجابه المواقف الأكثر خطورة؛ ولم يكن هناك من يعرف أنه سيلحق بقوة الكمين في الليل؛ وأنه سيقاتل معها؛ ولكن نفسية الجندي تكاد تكون ثابتة منذ أقدم العصور حتى اليوم؛ إذ سيتحدث الجنود في سمرهم عن اشتراك قتيبة في المعركة الليلية؛ فيزيد ذلك من رصيده في نفسية الجنود؛ فهل من الغريب أن يحقق قتيبة مثل تلك الانتصارات المثيرة؟ ثم إن الجنود يتحدثون دائماً عن قادتهم؛ ويحبون فيهم فضائلهم الحربية؛ ومنها شجاعتهم في مواجهة الخطر. ففي المعركتين السابقتين تقدم أعداء المسلمين حتى دخلوا عسكر قتيبة وجاوزوه؛ وقتيبة «محتبٍ بسيفه ما حلَّ حبوته» ولم يظهر أي اكتراث أو انفعال لما تعرض له المسلمون من تراجع أمام ضغط العدو؛ إذ كان على ثقة بأن تنظيمه للمعركة سيتمكن من معالجة هذا الموقف، وقد كانت قوات المجنبتين تمتلكان القدرة على محاصرة القوات المعادية؛ وتدميرها، وهذا ما تكرر حدوثه في المعركتين. وقد اختار قتيبة في الحالات كلها الموقع المشرف على ميدان المعركة (لإقامة سرادقه) وبحيث يبقى قريباً من القوات للتدخل في الوقت المناسب من أجل المواقف الطارئة؛ ومن أجل مجابهة الحالات المستجدة.

ما إن أشرف العهد الأموي على نهايته؛ ولمَّا يمضِ على ظهور شمس الإسلام أكثر من مائة عام؛ حتى اكتملت ملامح فن الحرب العربي ـ الإسلامي؛ بأسسه ومبادئه وتفاصيله؛ وأصبح دور القائد ومكانه معروفاً ومحدداً بدقة؛ كما بات واجب القائد واضحاً؛ ولو أن هذا الواجب كان يكتسب بعض المرونة تبعاً لما يستحوذ عليه القائد من الثقة وتبعاً لما يلقى على عاتقه من الأعباء والمسؤوليات؛ وعلى سبيل المثال؛ فقد ظهر بوضوح، ومنذ البداية، ذاك التمييز بين القيادة الاستراتيجية (العليا) وبين قيادة العمليات (الميدان)؛ إلا أن تباعد مسارح العمليات؛ والحاجة للمزيد من حرية العمل؛ قد دفع بأمراء بني أمية لمنح بعض الصلاحيات والسلطات الإضافية لأمراء الأقاليم؛ ولكن في حدود المركزية ودونما تجاوز لها؛ وقد كان حشد الجيوش وتوجيهها وعقد الألوية وتعيين القادة هو من اختصاص القيادة الاستراتيجية (المقيمة في دمشق)؛ إلا أن الوليد بن عبد الملك منح (الحجاج بن يوسف الثقفي) حرية

تجنيد الأجناد وتوجيه الجيوش وتعيين قادتها؛ ومتابعة إدارة حرب الشرق (خراسان وبلاد فارس) مع إعلام أمير المؤمنين بكل تطور؛ ومع الالتزام بأوامره التي كان يصدرها عندما كان الموقف يتطلب تدخله المباشر. كذلك كان الأمر بالنسبة لأمير أفريقية، التي فصلت في عهد موسى بن نصير وأصبحت تابعة لأمير المؤمنين (الوليد) تبعية مباشرة، **وأصبح باستطاعة موسى بالتالي ممارسة دور القيادة الاستراتيجية ودور قيادة الميدان؛ غير أن دور قيادة الميدان بقي هو الأساس الثابت؛ فكان موقع قائد الميدان ومكانه محدداً بالتالي بحركة الجيوش على امتداد جبهة القتال.** ولهذا كان من طبيعة الأمور أن يلتزم السلف بالأسس والمبادىء التي أصبحت تشكل بمجموعها قواعد حروب العرب المسلمين. وعلى سبيل المثال؛ فعندما وجه (نور الدين زنكي) جيشاً من المسلمين إلى مصر بقيادة (أسد الدين شيركوه بن شاذي) سنة تسع وخمسين وخمسمائة (١١٦٣ م) وحاصره الفرنج والمصريون في (بلبيس) لمدة ثلاثة أشهر؛ وانتهى الأمر بعقد اتفاق لانسحاب شيركوه والفرنج من مصر، بقي شيركوه خلال مرحلة الانسحاب والجلاء مع قوات المؤخرة - الساقة - وهو ما تبرزه القصة التالية: «. . . حين خرج أسد الدين شيركوه من بلبيس؛ عمل على إخراج أصحابه؛ وبقي في آخرهم وبيده قضيب من حديد؛ يحمي ساقتهم؛ والمسلمون المصريون والفرنج ينظرون إليه فأتاه جندي من الفرنج وقال له: أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج، وقد أحاطوا بك وبأصحابك؛ فلا يبقى لكم بقية؟ فرد عليه شيركوه: يا ليتهم فعلوه حتى كنت ترى ما أفعله؛ كنت والله أضع السيف؛ فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجال. . . وسار شيركوه إلى الشام فوصل سالماً؛ وكان الفرنج قد وضعوا له على مضيق في الطريق رصاداً - كميناً - لينالوا منه ظفراً؛ فعلم بهم، فعاد عن ذلك الطريق»[1].

وفي حطين، نظم صلاح الدين بن أيوب قوات المسلمين؛ فطوّق ميدان المعركة؛ وطاف بنفسه على المسلمين يحرِّضهم ويأمرهم بما يصلحهم؛ وينهاهم عما يضرهم والناس يأتمرون لقوله؛ ويقفون عند نهيه. . . ثم ارتفع إلى تلٍّ مشرف

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٥٩ هـ.

على ميدان القتال؛ وأقام فيه خيمته. وقد وصف الأفضل، ولد صلاح الدين، الذي وقف إلى جانب أبيه يتابع القتال فقال: «حمل الفرنج حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي؛ فنظرت إليه وقد علته كآبة واربدَّ لونه وأمسك بلحيته وتقدم وهو يصيح: كذب الشيطان... فعاد المسلمون على الفرنج الذين رجعوا فصعدوا إلى التلّ؛ فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي: هزمناهم. فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى؛ وألحقوا المسلمين بوالدي؛ وفعل مثل ما فعل أولاً؛ وعطف عليهم المسلمون فألحقوهم بالتل؛ فصحت أنا أيضاً: هزمناهم؛ فالتفت والدي وقال: اسكت؛ ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة - خيمة ملك الفرنج على التل المقابل - وإذا الخيمة سقطت؛ فنزل السلطان صلاح الدين؛ وسجد شكراً لله تعالى؛ وبكى من فرحه».

وقاد صلاح الدين بن أيوب جموع المجاهدين في سبيل الله - في السنة ذاتها (٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م) وبقي صلاح الدين خمسة أيام وهو يطوف حول المدينة القدس لينظر من أين يقاتل؛ (استطلاع القائد) لأن المدينة كانت في غاية الحصانة والامتناع «فلم يجد موضعاً للقتال إلا من جهة الشمال نحو باب عمود أو كنيسة صهيون؛ فانتقل إلى هذه الناحية؛ ونزلها؛ ونصب المنجنيقات؛ فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها»(١).

لم يكن صلاح الدين بن أيوب قائداً للعمليات (قائد ميدان) بقدر ما كان قائداً استراتيجياً؛ مثله كمثل سلفه (نور الدين زنكي) الذي شمل حكمه بلاد الشام جميعها وبلاد مصر واليمن والحجاز؛ وكان هو الذي يجند الأجناد؛ وينظم الجيوش؛ ويحدد لها أهدافها؛ ويعين قادتها؛ معتمداً في ذلك على أمراء المدن وحكام الأقاليم. وكان باستطاعته التفرغ لأعمال هذه القيادة الاستراتيجية؛ غير أن أهمية الأعمال القتالية في تلك المرحلة الحاسمة؛ قد فرضت عليه الجمع بين القيادة الاستراتيجية وقيادة الميدان؛ مع إعطاء الأفضلية لقيادة الميدان؛ فكان موقعه في القيادة إما على صهوة جواده؛ وإما في خيمته التي تتنقل معه في حله وترحاله.

---

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ٥٨٣ هـ.

جاء سلاطين العثمانيين فاضطلعوا بالدور ذاته؛ وحملوا أعباء القيادة العليا الاستراتيجية إلى جانب قيادة الميدان؛ رغم وجود قيادات لكل ميدان من ميادين القتال؛ وعلى سبيل المثال ففي سنة ٧٦٦ هـ ـ ١٣٦٣ م؛ وبينما كان ثالث الخلفاء العثمانيين ـ السلطان مراد ـ منصرفاً للقتال في آسيا الصغرى؛ جمع ملك الصرب ـ أوروك ـ جيشه؛ واستعان بأمراء بوسنة والفلاخ ـ والاشيا ـ والمجر، فتقدم العثمانيون؛ وباغتوا معسكر الفرنج على شاطىء نهر ماريتزا في ليلة مظلمة؛ وهزموهم هزيمة ساحقة.

وفي سنة ٧٨٩ هـ ـ ١٣٨٧ م وبينما كانت معظم الجيوش العثمانية تقاتل في الأناطول ـ الأناضول ـ جمع أمير البلغار وملك الصرب جيشيهما؛ غير أن الوزير علي باشا باغت جيوش البلغار واحتل ترنوه وشومله؛ وهرب أمير البلغار؛ فتوجه ملك الصرب نحو الغرب وانضم إليه أمراء ألبانيا ـ الأرناؤود ـ فلم يمكنه السلطان مراد، بل جد السير في مطاردته حتى لحقه في سهل (قوص أوه) سنة ٧٩٢ هـ ـ ١٣٨٩ م. ودارت معركة طاحنة؛ وأنزل الله نصره على المسلمين؛ ولكن؛ وبينما كان السلطان مراد يمر من بين القتلى؛ نهض جندي صربي ـ اسمه ميلوك كوبلوفتش ـ وطعن السلطان مراد بخنجر؛ فارق السلطان على أثرها الحياة، واستشهد على الأرض التي حقق فوقها أعظم انتصاراته[1]. ويظهر ذلك أنه كان باستطاعة السلطان العثماني إسناد قيادة الميدان إلى من يختاره من القادة؛ أو إلى وزيره؛ ولكنه كان يفضل دائماً قيادة القوات في المعارك الحاسمة.

وهكذا تولى السلطان بايزيد ـ رابع الخلفاء العثمانيين ـ قيادة الجيش في معركة نيقوبوليس الشهيرة سنة ٧٩٨ هـ ـ ١٣٩٦ م.

وهكذا أيضاً قاد السلطان محمد الفاتح ـ سابع الخلفاء العثمانيين ـ عمليات فتح القسطنطينية (سنة ٨٥٧ هـ ـ ١٤٥٣ م). وقد جرت معظم فتوحات المسلمين في أوروبا تحت قيادة السلاطين العثمانيين مباشرة؛ **فهل كانت ممارسة السلاطين العثمانيين للقيادة الميدانية هي سبب ما تحقق للمسلمين من انتصارات في أوروبا؟**

---

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية (١٣١ ـ ١٣٥).

وهل كان سبب ما نزل بالمسلمين بعدئذ من هزائم هو عدم ممارسة السلاطين العثمانيين لهذه القيادة؟ لقد كان مما قيل بهذا الصدد ما يلي: «. . . وكان من أسباب الانحطاط؛ أن الإنكشارية كانوا لا يخرجون إلى الحرب إلا إذا كان السلطان معهم؛ ولذا كانت أهم الحروب والغزوات تحت أمرة السلطان وقيادته؛ لأنه إن لم يخرج بنفسه؛ امتنعت الإنكشارية عن الحرب. . ولقد غير السلطان سليمان القانوني هذه السنَّة الحميدة؛ وأجاز للإنكشارية القتال تحت إمرة قائدهم الأكبر ولو لم يكن السلطان موجوداً؛ فكان هذا التغيير سبباً في تقاعس أغلب من خلفه من السلاطين عن الخروج للقتال وتكبد مشاقه»[1].

لقد توفي السلطان سليمان القانوني - وهو عاشر الخلفاء العثمانيين - سنة ٩٧٤ هـ - ١٥٦٦ م، وكانت الدولة العثمانية قد فتحت معظم أرجاء أوروبا وجزر البحر الأبيض المتوسط؛ وأصبحت الدولة ثابتة الأركان وطيدة الدعائم؛ وإذن فلم تكن هناك ضرورة ليمارس السلطان قيادة القوات في الميدان بنفسه؛ هذا إذا كانت هناك ثمة ضرورة لممارستها من قبل. وكان باستطاعة السلطان العثماني الاكتفاء بممارسة القيادة العليا (الاستراتيجية) على نحو ما فعله خلفاء المسلمين وأمراؤهم منذ الأيام الأولى من الفتح. وبالإضافة إلى ذلك؛ فقد تابع السلاطين العثمانيين بعدئذ ممارسة القيادات الميدانية؛ وإذن فإن سبب الانحطاط، على ما يظهر، هو ليس لأن السلاطين العثمانيين تركوا القيادة الميدانية؛ وإنما لانصرافهم عن ممارسة القيادة الاستراتيجية (العليا)، ولترك الأمور في قبضة الوزراء وكبار رجال الدولة، وضياع (وحدة القيادة). إذ لو أمسك السلاطين بمفاتيح القيادة العليا بقوة كتلك التي فرضها كبار قادة حروب المسلمين؛ لما تمكن الإنكشارية - أو سواهم - من فرض إرادتهم على الدولة. ولقد اضطلع بعض رؤساء الوزراء العثمانيين بأعباء القيادة الاستراتيجية - وحتى القيادات الميدانية - ونفذوا أعمالهم بنجاح رائع؛ ومقابل ذلك؛ تقاعس آخرون عن الاضطلاع بهذه الأعباء؛ مما أدى إلى ضعف القيادة والسيطرة؛ فانعكس ذلك بداهة على السلاطين ذاتهم؛ باعتبار أنهم هم المسؤولون

---

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٢٥٢.

عن إدارة الدولة وعن القيادة العليا (الاستراتيجية). وعلى سبيل المثال: فقد تمكن تجمع أساطيل الصليبيين من تدمير الأسطول العثماني ـ الإسلامي في معركة (ليبانت) البحرية (سنة ٩٧٩ هـ ـ ١٥٧١ م)، وذكر بهذا الصدد ما يلي: «لم تقعد هذه الحادثة المشؤومة همة الوزير محمد باشا صقلّلي عن تشييد أسطول جديد ـ دونانمة ـ وبذل النفس والنفيس في تجهيزها وتسليحها؛ حتى إذا أقبل صيف سنة ١٥٧٢ م؛ كان قد تم إعداد ٢٥٠ سفينة جديدة». ويظهر ذلك أن الصدر الأعظم قد مارس دور القيادة العليا ـ الاستراتيجية ـ في حالة غياب كامل لدور السلطان العثماني. وجاء بعد ذلك السلطان محمد الثالث (السلطان الثالث عشر بين السلاطين العثمانيين) فمارس القيادة الميدانية بنفسه، وذكر بهذا الصدد ما يلي: «مما يخلد للسلطان الغازي محمد الثالث الذكر؛ ويجعله رصيفاً لأجداده الأوائل أنه لما تحقق أن هذا الانحلال ناشىء من تحجبه عن الأعمال؛ وعدم قيادته الجيوش، برز بنفسه وتقلّد المركز الذي كان تَرْكُ مراد الثالث وسليم الثاني له من دواعي تقهقهر الدولة أمام أعدائها؛ ألا وهو مركز قيادة عموم الجيوش، فسار إلى بلغراد؛ ومنها إلى ميدان الحرب؛ وبعد قليل دبت في الجيوش الحمية الدينية والغيرة العسكرية؛ ففتح قلعة (أرلو) الحصينة التي عجز السلطان سليمان عن فتحها في سنة ١٥٥٦ م، ودمر جيوش المجر والنمسا تدميراً في سهل كرزت سنة ١٠٠٤ هـ ـ ١٥٩٦ م»[1].

ويظهر ذلك من جديد؛ أن هناك عدم تمييز واضح بين (القيادة الاستراتيجية) و(قيادة الميدان). وقد تكون ممارسة السلطان للقيادة الميدانية ضرورة لإثارة الحماسة بين المقاتلين؛ غير أن عدم ممارسة السلطان لهذه القيادة، والاكتفاء بممارسة القيادة العليا، من شأنه أن يحقق النتيجة ذاتها. فالمهم في الأمر هو إسناد القيادة الميدانية للأكفّاء من رجال الحرب، مع متابعة تطورات الموقف، وتأمين متطلبات الجيوش واحتياجاتها، والسيطرة على الجيوش بحزم وقوة، وذلك كله من اختصاص القيادة الاستراتيجية.

وخلاصة القول؛ إن ظاهرة تمرد الإنكشارية؛ وما وصل إليه هذا التنظيم

---

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية ـ ص ٢٥٨ و ٢٦٧.

العسكري من الضعف والتمزق؛ مما أدى في النهاية إلى القضاء عليه وتدميره؛ وكذلك ما رافق ذلك من انتكاسات وهزائم؛ لا يعود إلى غياب السلطان عن ميادين القتال؛ وإلى عدم ممارسته قيادة الجيوش في الحرب؛ وإنما يعود إلى غياب (وحدة القيادة) وإلى (ضعف القيادة والسيطرة) بسبب تخلّي السلاطين العثمانيين عن ممارسة دور القيادة الاستراتيجية؛ وترك الأمر إلى القادة والوزراء؛ الذين لم تتوافر لهم دائماً القدرة على تحقيق مركزية القيادة بالقوة الكافية لإدارة الدولة في أيام السلم والحرب.

جاءت تطورات القيادة في الأزمنة الحديثة لتؤكد صحة التجربة التاريخية للعرب المسلمين عبر التاريخ؛ فقد فصلت الأنظمة المعاصرة بين (القيادة الاستراتيجية) و(قيادات الميدان)، وحددت لكل قيادة دورها وواجباتها ومسؤولياتها؛ ولم يعد من الضروري تحرك القيادة الاستراتيجية من مقرها أو قاعدتها؛ إذ لم يغادر هتلر أو موسوليني أو ستالين مراكز قيادتهم الاستراتيجية؛ وكانوا يمارسون إدارة الحرب العليا؛ وهم معتصمون في مقار قياداتهم، بينما التزم قادة الميدان بالبقاء مع قواتهم وعدم مغادرة مسارح عملياتهم إلا لفترات قصيرة؛ ولضرورات تحددها القيادات العليا ـ الاستراتيجية ـ.

ومن الملاحظ هنا أن بعض القادة الاستراتيجيين في العالم الغربي ـ الموصوف بالعالم الحر ـ كانوا يحرصون على تنظيم زيارات لميادين القتال، مثل تشرشل وروزفلت في الحرب العالمية الثانية؛ غير أن هذه الزيارات كانت مشاركة معنوية للمقاتلين؛ ولم يكن لها أي دور في ممارسة القيادة الميدانية، وهذا بدوره لا يعني بقاء قادة الميدان مع كل القوات وفي كل الأوقات؛ إذ من المحال تحقيق ذلك في ظروف التوسع الكبير في مسارح العمليات، ومع تعاظم حجم القوى والوسائط التي يتم زجها في ميادين القتال؛ ولكن باستطاعة قادة الميدان في الحرب الحديثة المحافظة على الاتصال الدائم بقواتهم عبر ما توافر لهؤلاء القادة من وسائط الثقافة المتقدمة (مثل الإذاعات وأجهزة الاتصال والنشرات الدورية) وبوسائط الحركة الحديثة (الطائرات العمودية والمركبات السريعة). ويبقى وجود قادة الميدان مع قواتهم أساساً في إدارة الحرب، وذلك على نحو ما كان عليه الأمر منذ أيام الفتح الأولى.

خلاصة القول: لم تحمل التطورات الحديثة أي تعديل على دور القيادة الاستراتيجية؛ أو على دور قيادات الميدان؛ على نحو ما طبقه العرب المسلمون قبل أربعة عشر قرناً من عمر الزمن؛ ثم استمر المسلمون في تطبيقه عبر حروبهم المتصلة بالأزمنة الحديثة، وكل ما حدث من تطورات هو دعم هذه القيادات بالوسائط الحديثة للقيادة والسيطرة (أجهزة اتصال ووسائط ألكترونية). ولقد تزايد التعقيد في تكوين القيادات الاستراتيجية وقيادات الميدان (تنظيم أجهزة القيادة وهيئات الأركان) غير أن ذلك لم يغير من دور القائد الاستراتيجي أو قائد الميدان؛ ولم يبدل من موقعهما بالنسبة لإدارة الحرب وقيادة القوات.

٣

الفصل الثالث

آفاق الاستراتيجية

١ ـ الاستراتيجية التشتيتية
٢ ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة
٣ ـ الحسم والمعركة الحاسمة
٤ ـ الاستراتيجية البحرية ـ القارية
٥ ـ حرب الثغور ـ الهجوم الإجهاضي المسبق

الاستراتيجية التشتيتية

جاء نصر الله والفتح؛ وطرق رسول الله ﷺ أبواب مكة؛ فأصدر أوامره لدخولها من اتجاهات مختلفة. بعث الزبير وأعطاه رايته؛ وأمَّره على خيل المهاجرين والأنصار؛ وأمره أن يغرز رايته بالحجون ـ بأعلى مكة. وأمَّر خالد بن الوليد فيمن كان قد أسلم من قضاعة وبني سليم، وأناس؛ وأمره أن يدخل من أسفل مكة. وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من كداء؛ وفرق جيشه من (ذي طوى) ثم دخل رسول الله ﷺ من أذاخر؛ حتى نزل بأعلى مكة، وضربت هنالك قبته[1].

ولما توفي رسول الله ﷺ؛ وارتدت العرب عامة أو خاصة؛ وقرر أبو بكر الصديق رضي الله عنه قتالهم؛ **قطع البعوث وعقد الألوية؛ فعقد أحد عشر لواء:** «عقد لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد؛ فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح إن أقام له؛ ولعكرمة ابن أبي جهل وأمره بمسيلمة؛ وللمهاجر بن أبي أمية وأمره بجنود العنسي ومعونة الأبناء على قيس بن المكشوح ومن أعانه من أهل اليمن عليهم؛ ثم يمضي إلى كندة بحضرموت؛ ولخالد بن سعيد بن العاص وبعثه إلى الحمقتين من مشارف الشام؛ ولعمرو بن العاص إلى جموع قضاعة ووديعة والحارث؛ ولحذيفة بن محصن الغلفاني وأمره بأهل دبا، ولعرفجة بن هرثمة وأمره بمهرة؛ **وأمرهما أن يجتمعا وكل واحد منهما في عمله على صاحبه.** وبعث شرحبيل بن حسنة في إثر

---

(١) الكامل في التاريخ ـ وتاريخ الطبري (فتح مكة) أحداث سنة ٨ هـ.

عكرمة ابن أبي جهل؛ وقال له: إذا فرغت من اليمامة فالحق بقضاعة وأنت على خيلك تقاتل أهل الردة؛ ولطريفة بن حاجز؛ وأمره ببني سليم ومن معهم من هوازن؛ ولسويد بن مقرن وأمره بتهامة اليمن؛ والعلاء بن الحضرمي وأمره بالبحرين»(١).

وعندما انتهت حروب الردة؛ كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد؛ إذ أمره على حرب العراق؛ أن يدخلها من أسفلها؛ وكتب إلى عياض بن غنم إذ أمره على حرب العراق أن يدخلها من أعلاها؛ ثم يستبقا إلى الحيرة؛ فأيهما سبق إلى الحيرة فهو أمير على صاحبه؛ وقال: «إذا اجتمعتما بالحيرة وقد فضضتما مسالح فارس ـ المخافر المتقدمة ـ وأمنتما أن لا يؤتى المسلمون من خلفهم؛ فليكن أحدكما ردءاً للمسلمين ولصاحبه بالحيرة؛ وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارهم ومستقرَّ عزِّهم؛ المدائن»(٢).

ووجه أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى الشام أربعة جيوش؛ فبعث عمرو بن العاص إلى فلسطين؛ وأمره أن يأخذ طريق المعرقة إلى أيلة؛ ودعا يزيد بن أبي سفيان فأمره على جند عظيم ووجهه إلى دمشق؛ واستعمل أبا عبيدة بن الجراح على من اجتمع إليه، وأمره على حمص، وأمر شرحبيل بن حسنة ـ وهو أحد الغوث ـ وأمرهم ـ يزيد وأبا عبيدة وشرحبيل ـ أن يسلكوا التبوكية على البلقاء من علياء الشام. فسار شرحبيل إلى الأردن «وسمى أبو بكر لقادة الجيوش أمصار الشام؛ وعرف أن الروم ستشغلهم؛ **فأحب أن يصعد المصوب ويصوب المصعِد**، لئلا يتواكلوا؛ فكان كما ظن؛ وصاروا إلى ما أحب»(٣).

وتظهر النماذج القتالية الأشكال المتباينة للاستراتيجية التشتيتية التي طبقها العرب المسلمون؛ وذلك تبعاً لطبيعة الهدف الجغرافية بالدرجة الأولى. فقد دخل المسلمون مكة من كل أبوابها؛ وساروا إلى حروب الردة على كل الاتجاهات؛ أما

---

(١) الكامل في التاريخ ـ وتاريخ الطبري (بقية الخبر عن أمر الكذاب العنسي) أحداث سنة ١١ هـ.
(٢) المرجع السابق ـ أحداث سنة ١٢ هـ.
(٣) المرجع السابق ـ أحداث سنة ١٣ هـ.

في العراق، فقد حدد المجرى المائي لنهر دجلة محور العمليات، فسار الجيشان على اتجاهين متلاقيين؛ وكانت الحيرة هي نقطة الالتقاء للجيشين. وفي الشام خصص لكل جيش مسرح عمليات قتالية مستقل، وخصص لكل جيش كذلك محور التحرك الذي يجب أن يسير عليه. وكان الهدف في الحالات كلها هو **حرمان العدو من حرية العمل العسكري؛ ومحاصرته والتضييق عليه؛ وحرمان القوى المعادية، إذا كانت متفرقة، من الالتقاء والتجمع لتشكيل قوة كبيرة**؛ وظهر ذلك واضحاً في حروب الردة؛ كما ظهر في أيام العراق التي سبقت القادسية (أيام خالد بن الوليد في العراق؛ ثم أيام المثنى)، والأمر مماثل بالنسبة للأعمال القتالية في بلاد الشام.
وهناك نقطتان بارزتان أيضاً ظهرتا بوضوح؛ أولاهما: **تحديد واجب القيادة في مسرح كل عمليات عند التقاء أكثر من جيش**؛ بحيث يكون قائد هذا المسرح ـ أو المنطقة ـ هو القائد الأعلى لجميع القوات التي تصل لدعمه ومساعدته، وذلك بصرف النظر عن مكانة قائد قوات الدعم وبصرف النظر عن حجم قواته (وكل واحد منهما في عمله على صاحبه) **أي أن صاحب العمل ـ أو قائد المنطقة الأصلي ـ هو قائد على صاحبه عندما يصل هذا لدعمه**. أما النقطة الثانية البارزة، فهي توزيع القوى، بحيث يمكن استثمار ما يتحقق من نجاح؛ على أيدي أحد الجيوش مما يتيح للجيوش الأخرى التي تجابه صعوبات كبيرة أن تتغلب بدورها على المقاومات التي تصطدم بها؛ مع إتاحة الفرصة أمام الجيوش لدعم بعضها بعضاً؛ بحيث يتوجه الجيش الذي يحقق نجاحاً أكبر لدعم من يتوقف عن تطوير أعماله القتالية بسبب ما يعترضه من مقاومات، وهذا ما تعنيه بدقة عبارة (حتى يصعد المصوب؛ ويصوب المصعد).

وقد يكون من المثير أيضاً؛ ملاحظة توزيع الواجبات في أوامر القتال التي أصدرها أمير المؤمنين أبو بكر رضي الله عنه؛ سواء في حروب الردة؛ أو في حرب العراق؛ فقد كلف بعض الجيوش أحياناً بتنفيذ (ما يسمى بالواجب الأول) حتى إذا ما فرغ منه انصرف لتحقيق (الواجب الثاني)، وبذلك يتم تجنب العطالة؛ من جراء توقف الجيوش بعد إنجاز واجبها الأول؛ وبذلك أيضاً يتم استثمار عامل الوقت على أفضل وجه ممكن للانتقال وبسرعة من هدف إلى هدف ثانٍ. وهكذا، تكون قوى العرب المسلمين في حالة تحرك دائم، مما يجعل القوى المعادية في حالة عجز عن معرفة هدف العرب المسلمين، من خلال تحركهم، مما يجعلهم بالتالي في حالة

عجز عن اتخاذ الإجراءات المناسبة لمجابهة هذه التحركات؛ في المكان والوقت المناسبين.

ويظهر ذلك جميعه بوضوح أكبر في أمر القتال الذي أصدره أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أمراء الأجناد في الشام بعد معركة اليرموك. فقد خرج أبو عبيدة من اليرموك حتى ينزل (بالصفرا) وهو يريد اتباع فلال ـ فلول ـ الروم؛ ولا يدري يجتمعون أو يفترقون. وعلم أن الروم يجتمعون بفحل؛ وأن قوات أخرى للروم قد وصلت إلى دمشق؛ ولم يعرف أبو عبيدة أبدمشق يبدأ أم بفحل من بلاد الأردن. فكتب إلى أمير المؤمنين عمر؛ وجاءه الرد سريعاً: «**أما بعد؛ فابدؤوا بدمشق**؛ فانهدوا لها؛ فإنها حصن الشأم وبيت مملكتهم؛ **واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم في نحورهم وأهل فلسطين وأهل حمص**؛ فإن فتحها الله قبل دمشق فذاك الذي نحب؛ وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق **فلينزل بدمشق من يمسك بها**؛ ودعوها؛ **وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل**؛ فإن فتح الله عليكم؛ فانصرف أنت وخالد إلى حمص؛ **ودع شرحبيل وعمراً وأخلهما بالأردن وفلسطين**؛ **وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من إمارته**»[1] فسرح أبو عبيدة إلى فحل عشرة قواد؛ وبعث ذا الكلاع حتى كان بين دمشق وحمص، وبعث علقمة بن حكيم ومسروقاً فكانا بين دمشق وفلسطين.

هنا ولإيضاح مضمون هذا الأمر؛ لا بدَّ من الإشارة إلى أن الروم قد تمكنوا من حشد قوات ضخمة في (فحل) زادت على ثمانين ألفاً؛ وكان (الأرطبون) يقود قوات ضخمة مما حشده في فلسطين، وكان ملك الروم (هرقل) في حمص؛ وقد حاول دعم حامية دمشق، غير أن قوات الفرسان، بقيادة (ذي الكلاع الحميري) جابهت قوات الروم ومزقتها، وأرغمتها على الرجوع إلى حمص. كذلك لم تتمكن قوات الروم في (فحل) من مغادرة مواقعها وقد بغتتها خيول المسلمين وحصرتها. وبذلك تم عزل دمشق عن كل دعم خارجي؛ مما أحبط من إرادة القتال في وسط حاميتها المدافعة عنها، فتمكن العرب المسلمون من الانتقال إلى فحل، واستطاعوا بذلك

(١) تاريخ الطبري (ذكر غزوة فحل وفتح دمشق) أحداث سنة ١٣ هـ.

تدمير قوات الروم على التتابع ؛ وحشد كل قواهم ضد هدف بعد آخر. ولم ينسَ أمير المؤمنين عمر أن يؤكد على مسألة القيادة ؛ وتطبيق المبدأ سابق الذكر بحيث يكون قائد كل منطقة هو القائد الأعلى لمجموع القوات التي تصل لدعمه ومساعدته ، (وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من إمارته). وبذلك كان أبو عبيدة وخالد وعمرو بن العاص تحت قيادة شرحبيل عندما وصلوا بجيوشهم إلى فحل.

وجابه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه موقفاً مماثلاً في سنة ١٧ هـ ، عندما استثار عرب الجزيرة ملك الروم ؛ وحملوه على غزو بلاد الشام ، وانضموا إليه ، فسار بجموعه وبجموع أنصاره من العرب حتى وصل مدينة حمص ، فخرج منها أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ؛ وأقام بظاهرها ، وكتب إلى أمير المؤمنين عمر. فكتب عمر إلى عامله على العراق سعد بن أبي وقاص: «اندب الناس مع القعقاع بن عمرو؛ وسرِّحْهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى حمص. فإن أبا عبيدة قد أحيط به ؛ وتقدم إليهم في الجد والحث. وسرِّحْ سهَيل بن عدي إلى الجزيرة في الجند ؛ وليأتِ الرقة ؛ فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص ، وإن أهل قرقيساء هم سلف. وسرِّحْ عبد الله بن عبد الله بن عتبان إلى نصيبين ؛ ثم ليقصدا حران والرهاء. وسرِّحْ الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ. وسرِّح عياض بن غنم ؛ فإن كان قتال فقد جعلت أمرهم جميعاً إلى عياض بن غنم» وخرج عمر من المدينة مغيثاً لأبي عبيدة يريد حمص حتى نزل بالجابية ، ولم تكن به حاجة للخروج غير أنه الخوف على الملسمين. فقد كان الأمر الذي أصدره كافياً لإحباط وساوس الشيطان الذي وسوس لعرب الجزيرة وللروم أن باستطاعتهم النيل من المسلمين على حين غرة. **فماذا كانت نتيجة هذه التحركات التشتيتية؟**

ما إن علم العرب الذين كانوا مع الروم بتحرك المسلمين من الكوفة إلى الجزيرة ؛ حتى خافوا على أهلهم وإخوانهم ؛ فتخلوا عن الروم ؛ وأسرعوا العودة إلى ديارهم وبلادهم ؛ وصالحوا المسلمين ـ إلا قليلاً منهم فضلوا البقاء مع الروم ـ ووجد أبو عبيدة أنه أصبح بإمكانه الانقضاض على الروم ؛ وقد ضعف جمعهم فهاجمهم وانتصر عليهم ، وذلك قبل أن يصل إليه الدعم الذي كان يقوده القعقاع من الكوفة

(وكانت قوة هذا الدعم أربعة آلاف فارس). وتم فتح الجزيرة؛ ووصل المسلمون في التقدم على امتداد دجلة والفرات حتى أرمينيا. وأصبحت استراتيجية التحركات التشتيتية ثابتة وذات معالم واضحة؛ بحيث يتم تطبيقها بمرونة في مختلف المواقف؛ تبعاً لموقف العدو وطبيعة الأرض، ومن ذلك على سبيل المثال؛ **ما حدث في قتال (الهرمزان) وفتح سوق الأهواز ومناذر ونهر تيري سنة ١٧ هـ.** فقد كان (الهرمزان) أحد البيوتات السبعة في أهل فارس؛ وكان حكمه يشمل مناطق مهرجان قذق ونواحي الأهواز؛ فلما انهزم الهرمزان في القادسية؛ رجع إلى مملكته؛ وأخذ في تنظيم الهجمات على (ميسان ودست ميسان) من قاعدتي (**مناذر ونهر تيري**). وعلم سعد بن أبي وقاص بخطورة الموقف؛ فوجه جيشاً من الكوفة بقيادة نعيم بن مقرن ونعيم بن مسعود؛ وأمرهما أن يأتيا على ميسان ودست ميسان حتى يكونا بين الهرمزان وبين نهر تيري؛ كما وجه عتبة بن غزوان جيشاً من البصرة بقيادة سلمى بن القين وحرملة بن مريطة، وأمرها بالنزول على حدود أرض ميسان ودست ميسان، بين الهرمزان وبين مناذر. ووضعت خطة للهجوم على (الهرمزان) وقواته التي اتخذ تنظيمها القتالي بين نهر تيري ودلث؛ بحيث يقوم غالب الوائلي وكليب بن وائل الكلبي بالهجوم على الهرمزان، فيما تقوم قوات الكوفة (نعيم بن مقرن) بالانقضاض على نهر تيري، وقوات البصرة (سلمى بن القين) بالانقضاض على مناذر، ثم يتم الالتقاء عند قوات الهرمزان في يوم معين؛ ووقت محدد.

وبدأ القتال في موعده المتفق عليه؛ وخاض الهرمزان معركة ضارية؛ غير أن مقاومته انهارت عندما علم باستيلاء قوات العرب المسلمين على مناذر ونهر تيري. وأنزل الله نصره على المسلمين، فقتلوا من الفرس ما شاؤوا، وأصابوا منهم ما شاؤوا، واتبعوهم حتى وصلوا إلى شاطىء دجيل؛ وأقاموا معسكرهم بجوار سوق الأهواز، وصار دجيل هو الحد الفاصل بين الهرمزان وبين قوات العرب المسلمين؛ وأرسل الهرمزان بطلب الصلح. وعقد عتبة بن غزوان الصلح مع الهرمزان على الأهواز كلها ومهرجان قذق. واحتفظ العرب المسلمون بما فتحه الله عليهم من نهر تيري ومناذر وسوق الأهواز. وتركت قوتان متقدمتان للتمركز في المواقع المتقدمة، إحداهما على نهر تيري والثانية في مناذر. غير أن الهرمزان لم يلبث أن نكث وغدر؛

واتفق مع ملك الفرس (يزدجرد) على معاودة حرب العرب المسلمين؛ وأملهم استعادة ما فقدوه من الأهواز. وعلم سعد بن أبي وقاص باستعدادات الهرمزان ويزدجرد؛ فكتب إلى أمير المؤمنين عمر؛ وجاءه الرد: «ابعث إلى الأهواز ـ من البصرة ـ بعثاً كثيفاً مع النعمان بن مقرن، فلينزلوا بإزاء الهرمزان حتى يتبينوا أمره». كما كتب أمير المؤمنين عمر إلى عامله في الكوفة أبي موسى الأشعري: «ابعث إلى الأهواز جندا كثيفاً؛ وأمِّر عليهم سهل بن عدي . . . وعلى أهل الكوفة وأهل البصرة جميعاً أبو سبرة ابن أبي رهم». ووقعت معارك متتالية قتل فيها عدد كبير من الصحابة، وأنزل الله نصره على العرب المسلمين في كل معركة إلى أن استسلم الهرمزان فحُمِل إلى المدينة المنورة في قصة معروفة وشهيرة.

بقي (يزدجرد) في بلاده (خراسان) وهو يكيد للعرب المسلمين؛ ويحرض أهل بلاده عليهم! فلما كانت سنة ٢١ هـ، وفتح الله للمسلمين أبواب النصر في (نهاوند ـ فتح الفتوح) قرر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فتح بلاد خراسان؛ **وعقد الألوية في المدينة المنورة**؛ وبعث بها إلى قادته في البصرة والكوفة؛ **فقدم لواء منها على نعيم بن مقرن، وأمر بالسير إلى همذان**؛ وأمره بقوله: فإن فتح الله على يديك فإلى ما وراء ذلك؛ في وجهه ذلك؛ إلى خراسان. **وبعث عتبة ابن فرقد وبكير بن عبد الله؛ وعقد لهما على أذربيجان**؛ وفرقها بينهما؛ وأمر أحدهما أن يسير إليها من حلوان وإلى ميمنتها؛ وأمر الآخر أن يأخذ إليها من الموصل وإلى ميسرتها؛ فتيامن هذا عن صاحبه وتياسر هذا عن صاحبه. **وبعث إلى عبد الله بن عبد الله بلواء، وأمره أن يسير إلى أصبهان.**

وانطلقت جيوش العرب المسلمين، وانساحت في أرض فارس. وسار جيش نعيم بن مقرن على محور همذان ـ الري ـ قومس ـ جرجان ـ طبرستان. وسار عتبة ابن فرقد وصاحبه بكير بن عبد الله على محورين ففتحا أذربيجان. أما عبد الله بن عبد الله؛ فقد سار على محور أصبهان ـ الأسفندار ـ جي ـ كرمان ـ وتم فتح بلاد فارس؛ وانتهى حكم يزدجرد. وكانت هذه الجيوش وهي تتحرك على محاور متوازية ـ تقريباً ـ تتعاون فيما بينها، وتتبادل الدعم؛ فتنتقل من محور إلى محور آخر، لتعود بعدها لإكمال واجبها.

لقد كان تحرك العرب المسلمين لفتح أرمينية مشابهاً لتحركها في بلاد فارس؛ فقد توجهت ثلاثة جيوش: جيش بقيادة بكير بن عبد الله وتوجه إلى (موقان) وجيش بقيادة حبيب بن مسلمة وتوجه إلى تفليس (أو تبليس كما تعرف حالياً)، وجيش بقيادة حذيفة ابن أسيد وتوجه إلى جبل اللان. وتمت بذلك الإحاطة ببحر قزوين، وفتح باكو (باب الأبواب كما كانت تعرف قديماً) وسواها من مدن أرمينية. ولم تكن هذه الفتوح مجرد مسيرة سهلة بل لقي العرب المسلمون مقاومة ضارية عند فتح كل مدينة؛ لكن تقدم الجيوش على محاور متوازية حرم المقاومات المعادية من أية فرصة لتنظيم مقاومة شاملة، أو حشد قوات ضخمة يصعب على قوات العرب المسلمين مجابهتها أو التغلب عليها. وتم لقوات العرب المسلمين بذلك تجزئة الحرب إلى مجموعة من المعارك المنفصلة والمستقلة بعضها عن بعض؛ الأمر الذي ساعد جيوش العرب المسلمين على تبادل الدعم؛ وحشد قواهم ضد أية مقاومة متفوقة حتى تتم إزالتها والقضاء عليها. ولم يعد من الصعب بعد ذلك على قوات العرب المسلمين العمل على مهل (خلال سنتي ٢٢ و٢٣ هـ) على إكمال فتح ما بقي من بلاد فارس وأرمينية واصطخر وسواها.

لقد ظهر دور العامل الجغرافي وتأثيره على الاستراتيجية التشتيتية ظهوراً واضحاً في فتح مصر، كما في فتح أفريقية؛ فلقد تحركت قوات العرب المسلمين في مصر على امتداد وادي النيل؛ ولم يكن لها خيار آخر؛ كذلك الأمر بالنسبة للتحرك من مصر إلى برقة وحدود تؤنس، ولم يكن هناك بعد ذلك إلا محور التحرك الساحلي؛ والمحور الثاني الداخلي (والمعروف باسم الأطلس التلي)، وهما المحوران اللذان سار عليهما عقبة بن نافع ثم موسى بن نصير. ولكن عندما وصل موسى بن نصير إلى المغرب الأقصى (المغرب أو مراكش) ووجد الظروف الجغرافية المناسبة، سارع لتطبيق (الاستراتيجية التشتيتية) فنشر قواته في سجلماسة ووادي درعة «وعمل على توجيه مجموعات قتالية إلى أنحاء مختلفة؛ فوجه ابنه مروان على رأس قوة من خمسة آلاف مقاتل إلى السوس الأقصى؛ وهي أقصى بلاد البربر على المحيط الأطلسي؛ كما سير قوة أخرى بقيادة ذرعة بن أبي مدرك إلى بربر مصمودة ـ من قبائل البرانس في الأطلس الأعلى».

ومقابل ذلك؛ فقد كانت أرض الأندلس وطبيعتها؛ صالحة لتطبيق الاستراتيجية التشتيتية على أفضل وجه؛ ولهذا فعندما انطلق (طارق بن زياد) من (وادي لكة) بعد انتصاره على قائد القوط (رودريك ـ أو لذريق) **سار إلى مدينة شذونة ثم إلى مورور، ومنها إلى قرمونة ثم إلى إشبيلية ثم إلى (أستجة)، حيث عمل فيها على توزيع قواته؛ فوجه قوة بقيادة (مغيث الرومي) إلى قرطبة وجيشاً ثانياً إلى ناحية رية لفتح عاصمتها مالقة، وجيشاً ثالثاً إلى ناحية البيرة لفتح عاصمتها غرناطة، أما طارق فسار إلى ناحية جيان لفتح طليطلة**. وتوجهت القوة المكلفة بفتح مالقة، ونجحت في فتحها؛ فأقامت حامية فيها، ثم انضمت إلى القوة المتوجهة لفتح غرناطة؛ وسارت القوتان بعد فتح غرناطة إلى تدمير؛ وتم ترك حاميات صغيرة في كل مدينة تم فتحها؛ والتحقت بقية القوات بطليطلة.

وعندما نزل موسى بن نصير على أرض الجزيرة الخضراء في الأندلس؛ قال لمن جاء لاستقباله: «ما كنت لأسلك طريق طارق؛ ولا أقفو أثره». فقال له الأدلاء: «نحن نسلك بك طريقاً هو أشرف من طريقه؛ وندلك على مدائن هي أعظم خطراً أو أعظم خطباً، لم تفتح بعد؛ يفتحها الله عليك إن شاء الله تعالى». وعلم موسى أن بعض المدن قد نكثت وغدرت؛ فسار إلى مدينة شذونة فافتتحها عنوة؛ ثم سار إلى قرمونة، ثم إشبيلية؛ وانطلق منها إلى لقنت ثم إلى ماردة، ثم إلى باجة ولبلة، وسار إلى طليطلة حيث التقى بجيش طارق، وسار الجيشان نحو الثغر الأعلى، ففتح الله على المسلمين سرقسطة، وتوجهت سرايا المسلمين فهاجمت أربونة (ناربون) وصخرة أبينيون (أفينيون)، وحصن لوذون (ليون) على وادي رودنه (الرون) في فرنسا.

لقد كانت جيوش العرب المسلمين، في أيام الفتح، ضعيفة في عددها؛ خفيفة في عتادها ووسائطها القتالية؛ مما كان يضمن لها المرونة وخفة الحركة؛ وهو الشرط الأساسي لنجاح الاستراتيجية التشتيتية في تفرق القوات، ثم تجمعها؛ وعودتها للتفرق، وهكذا. غير أن زيادة حجم الجيوش بعدئذ لم يمنع من تطبيق هذه الاستراتيجية بنجاح؛ وقد ظهر ذلك واضحاً في (فتح الرشيد هرقلة) وفي (فتح المعتصم عمورية).

لقد حفظ التاريخ مما حفظه قصة ذاك التحدي السافر والوقح الذي أعلنه ملك

الروم ضد أمير المؤمنين (الرشيد) فرد عليه الرشيد بما يستحقه إذ خاطبه بقوله: (نقفور كلب الروم) ولم يكن هذا الرد إلا مجرد استجابة أولية أتبعها الرشيد بقيادة جيش ضم (١٣٥) ألف مقاتل مرتزق؛ سوى الأتباع؛ وسوى المطوعة؛ وسوى من لا ديوان له ـ أي أن عدد أفراد هذا الجيش قد تجاوز الربع مليون بالتأكيد؛ وربما وصل إلى أربعمائة ألف ـ فترك الرشيد قوة على حصن (ذي الكلاع) بقيادة عبد الله بن مالك؛ ووجه جيشاً من سبعين ألف مقاتل بقيادة داود بن عيسى بن موسى وكلفه باجتياح بلاد الروم. ووجه قوة بقيادة شراحيل بن معن ابن زائدة ففتح حصن الصقالبة ودبسة. كما وجه قوة مقاتلة أخرى بقيادة يزيد بن مخلد فافتتح حصن الصفصاف وملقوبية. وتوجه الرشيد بنفسه ـ ومعه الكتلة الرئيسة من الجيش ـ ففتح هرقلة (في شوال سنة ١٩٠ هـ) بعد أن حاصرها شهراً (**وبث الجيوش والسرايا بأرض الروم**) فذل نقفور وطلب الصلح.

وكان مما حفظه التاريخ أيضاً، وتناقلته الأجيال، استجابة المعتصم لنداء المرأة الهاشمية التي نادت (وامعتصماه) من أسرها في بلاد الروم. فخرج المعتصم سنة ٢٢٣ هـ ـ ٨٣٧ م، من عاصمته سامراء (سر من رأى) وأقام معسكره بغربي دجلة «وتجهز للحرب جهازاً لم يتجهزه خليفة قبله قط من السلاح والعدد والآلة... ثم سار إلى بلاد الروم، ونزل على نهر السن (اللمس)، **حيث وجَّه من هناك جيشاً بقيادة الأفشين، وأمره بالسير إلى سروج ثم الدخول من درب الحدث؛ وسمى له يوماً يكون دخوله فيه ويوماً يكون اجتماعهم فيه. ووجه جيشاً آخر بقيادة أشناس وأمره بالدخول من درب طرسوس، والتوقف عند الوصول إلى الصفصاف. ثم وجه جيشاً ثالثاً بقيادة وصيف وأمره أن يلحق بأشناس، وذلك بعد يومين من انطلاق أشناس. ثم تحرك المعتصم مع القوة الرئيسة ـ ومعه الأثقال والمجانيق والساقة؛ المؤخرة ـ.**

وكان ملك الروم ـ توفيل بن ميخائيل ـ قد حشد جيشاً زاد عدد مقاتليه على مائة وعشرين ألف مقاتل. فلما علم بتقدم جيش الأفشين غادر قاعدته في أنقرة (حصن قره) وسار لملاقاته حيث دارت معركة ضارية انتصر فيها الأفشين؛ وأثناء ذلك كان المعتصم قد دفع أشناس نحو الأفشين، وسار هو فنزل على مسافة غير بعيدة من أنقرة، حيث انضمت إليه الجيوش بعد تمزيق قوات الروم، **فأعاد المعتصم تنظيمها**

في ثلاثة جيوش؛ أسند قيادة جيش منها إلى أشناس وأمره بالسير إلى يساره، وجيشاً ثانياً تولى هو ـ المعتصم ـ قيادته، وجعله في الوسط، أما الجيش الثالث فقد أسند قيادته إلى الأفشين، وأمره بالتحرك على ميمنته؛ وجعل بين كل جيش والجيش المجاور له مسافة فرسخين، وأمر كل جيش أن تكون له ميمنة وميسرة؛ كما أمرهم بإحراق القرى على امتداد تحرك الجيوش ما بين أنقرة وعمورية.

وكانت عملية (فتح عمورية) التي بقيت منارة مضيئة في فن الحرب العربي ـ الإسلامي[1]. فقد أبرزت هذه العملية معظم خصائص الاستراتيجية التشتيتية؛ وميزاتها؛ ومن أهمها تنسيق التعاون بين تحركات الجيوش وتأمين الارتباط بعضها ببعض؛ والتأمين الإداري للقوات؛ وكذلك ضمان أمن القوات في كل جيش من الجيوش؛ والتوسع الكبير في استخدام العيون (الجواسيس) وإجراء الاستطلاع القتالي كلما دعت الضرورة لذلك. فقد عمل المعتصم في بداية الأمر على تنظيم تحرك الجيوش؛ وحدد لها أهدافها؛ وموعد تجمعها وفق جدول زمني دقيق. غير أن تّحرك جيش الروم قد شكل عنصراً جديداً كان لا بد من مجابهته برد الفعل المناسب؛ فلجأ المعتصم للمراسلين من أجل تبادل المعلومات؛ ومن أجل إرسال الأوامر. كذلك كان لا بد من جمع المعلومات الضرورية عن تحركات جيش العدو؛ وعن طبيعة الأهداف؛ فتم التوسع في استخدام الاستطلاع القتالي؛ والحصول على الأسرى. وقد أصدر المعتصم أمره إلى قادة الجيشين المجاورين له بتنظيم مقدمات ومجنبات ومؤخرات لكل جيش بحيث يتمكن هذا الجيش من ضمان أمنه الخاص به. ومن الملاحظ هنا أن توزع الجيوش وتحركها على محاور مستقلة ـ ومتوازية ـ قد ساعد على ضمان التأمين الإداري للقوات. إذ كان من الصعب تأمين الإطعام والتموين لجيش ضخم مثل جيش المعتصم. فكان تقسيم الجيش الكبير إلى مجموعات جيوش قد ضمن ظروفاً أفضل لتأمين متطلبات كل جيش من الجيوش. وبكلمة أكثر وضوحاً؛ **فإن توزيع الجيوش في إطار الاستراتيجية التشتيتية قد ساعد على تأمين الإمداد والتموين؛ ولكن هذا التأمين لم يكن هو الهدف في تقسيم الجيوش وتوزيعها.**

---

(١) تاريخ الطبري؛ والكامل في التاريخ، أحداث سنة ١٩٠ هـ وأحداث سنة ٢٢٣ هـ.

عرفت أساليب الحرب التشتيتية تطورات هامة خلال الحملات الصليبية القديمة؛ ذلك أن اتساع المساحة الجغرافية لميادين القتال، واتصالها؛ وتشكيل جبهات تمتد من أقصى بلاد الشام في الشمال حتى مصر ضمناً؛ قد ساعد على تنوع الأهداف مما فرض بالتالي تنوع الأساليب من أجل ضمان المبدأ الأساسي من الاستراتيجية التشتيتية؛ وهو حرمان العدو من حرية العمل العسكري؛ وتقسيم الحرب إلى معارك منفصلة يكون فيها التفوق لمصلحة المسلمين. ولعل أفضل نموذج يمكن ذكره في هذا المجال هو ما قام به (نور الدين زنكي ـ المعروف بالشهيد) سنة ٥٥٩ هـ ـ ١١٦٣ م، حيث أرسل جيشاً إلى مصر لقتال الفرنج الذين طمعوا في الاستيلاء عليها. ولما كان هذا الجيش الذي أسندت قيادته إلى أسد الدين شيركوه ـ عم صلاح الدين الأيوبي ـ مضطراً للتحرك على تخوم البلاد التي احتلها الفرنج في جنوب فلسطين؛ فقد عمل نور الدين على الخروج بجيشه «**ليمنع الفرنج من التعرض لأسد الدين ومن معه، فكان قصارى هم الفرنج هو حفظ بلادهم من نور الدين؛ ووصل أسد الدين والعساكر معه إلى بلبيس**». وعرف الفرنج بخطر توحد مصر مع بلاد الشام تحت قيادة نور الدين فقاد ملك القدس جيشاً إلى مصر وتمكن، بدعم المصريين ومساعدتهم، من حصار أسد الدين وجنده في بلبيس لمدة ثلاثة أشهر؛ فعمل نور الدين مقابل ذلك على حشد كل القوى واستعاد (حارم) في أقصى شمال بلاد الشام وطرد الفرنج منها، ثم سار إلى مدينة (بانياس) **فخاف الفرنج من ضياع بلادهم في بلاد الشام**، «**وأرادوا العودة إلى بلادهم ليحفظوها**»، وفاوضوا أسد الدين وتم الاتفاق على جلاء الفرنج عن مصر مقابل انسحاب أسد الدين وجنده من مصر أيضاً[(١)]، وتحقق بذلك هدف الاستراتيجية التشتيتية. وتكررت مثل هذه الاستراتيجية سنة ٥٦٤ هـ ـ ١١٦٨ م، ونجح أسد الدين شيركوه في هذه المرة من السيطرة على مصر، وتوحدت بذلك مصر والشام تحت قيادة واحدة.

خاف الفرنج بالشام من ملك أسد الدين شيركوه مصر؛ وأيقنوا بالهلاك؛ وكاتبوا الفرنج الذين بصقلية والأندلس وغيرها يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد؛ وأنهم

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة تسع وخمسين وخمسمائة؛ وأحداث سنة أربع وستين وخمسمائة.

خائفون على البيت المقدس منهم؛ فأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضونهم على الحركة؛ فأمدوهم بالأموال والرجال والسلاح؛ واتّعدوا للنزول على دمياط؛ ونزلوها في سنة ٥٦٥ هـ ـ ١١٦٩ م . . . فأرسل صلاح الدين الأيوبي إلى نور الدين يشكوهم ما هم فيه . . . **فسيَّر نور الدين العساكر إليه أرسالاً يتلو بعضها بعضاً؛ ثم سار هو بنفسه إلى بلاد الفرنج الشامية؛ فنهبها وأغار عليها واستباحها؛** فوصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه قبل . . . **فلما رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر؛ ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وتخريبها؛ رجعوا خائبين؛** لم يظفروا بشيء؛ ووجدوا بلادهم خراباً؛ وأهلها بين قتيل وأسير.

يمكن ملاحظة تطبيق هذه الاستراتيجية ذاتها (الاستراتيجية التشتيتية) في حروب العثمانيين على جبهة أوروبا. ففي سنة ٩٢٧ هـ ـ ١٥٢١ م، أعلن ملك المجر تمرده على السلطان سليمان القانوني؛ فوجَّه السلطان سليمان على الفور جيشاً ـ بقيادة أحمد باشا ـ لحصار مدينة شابتس (أو سابوتيكا حالياً) القريبة من بلغراد، كما وجه جيشاً آخر ـ بقيادة وزيره بير محمد باشا ـ لحصار مدينة بلغراد، ثم تولى بنفسه قيادة جيش ضخم توجه إلى بلغراد، وتمكن من فتحها. وبعد خمس سنوات تقريباً أعاد السلطان سليمان تطبيق هذه الاستراتيجية ذاتها في إكمال فتح بلاد المجر؛ حيث وجَّه مجموعات من القوات لفتح عدد من الحصون والقلاع على نهر الدانوب (الطوانة)، ثم قاد بنفسه جيشاً من مائة ألف جندي و ٣٠٠ مدفع و ٨٠٠ سفينة فسار به إلى بلغراد التي أصبحت القاعدة المتقدمة لجيوش المسلمين، وهناك انضمت إليه القوات التي كانت تقوم بفتح الحصون والقلاع؛ وانطلق الجيش بكامله إلى وادي موهاج (موهاكس) حيث دارت معركة طاحنة يوم ٢٠ ذي القعدة سنة ٩٣٢ هـ (٢٨ آب ـ أغسطس ١٥٢٦ م) انتهت بتدمير جيش المجر وفتح عاصمة البلاد (بودا).

وطبقت الجيوش العثمانية أيضاً هذه الاستراتيجية سنة ١١٢٣ هـ ـ ١٧١١ م عندما تولى الوزير (بلطه جي محمد باشا) قيادة جيش ضخم من مائتي ألف مقاتل، لحرب روسيا التي كانت تطمع بالاستيلاء على مدينة آزاق بهدف جعلها قاعدة بحرية للأساطيل السوفيتية في المياه الدافئة (البحر الأسود). فانتصر العثمانيون على بطرس

الأكبر وزوجته ـ كاترينا ـ وحاصروا القوات الروسية، مما أرغم بطرس الأكبر على دفع فدية ضخمة وتوقيع معاهدة (فلكذن) التي تعهد فيها بطرس بعدم التدخل في شؤون القوزاق المسلمين والانسحاب من مدينة آزاق.

تميزت بعدئذ الحروب التي خاضها المسلمون ضد القوى الاستعمارية بأساليب الاستراتيجية التشتيتية. ففي الجزائر (بقيادة الأمير عبد القادر الجزائري ١٨٣٠ م) وفي السودان (بقيادة المهدي وخليفته التعايشي ١٨٨٠ م) وفي برقة وطرابلس (١٩١٥ م) وفي سوريا (١٩٢٥ م) وفي العراق (١٩٣٩ م) وفي فلسطين (١٩٣٦ م)، وفي سواها كانت الأساليب التشتيتية هي المهيمنة على الأعمال القتالية التي صُنِّفت تحت اسم (الحروب الثورية الإسلامية) والتي كانت ثورة الجزائر (١٩٥٤ ـ ١٩٦٢ م) تتويجاً لها.

هنا لا بد من التمييز بين الاستراتيجية التشتيتية وبين تحركات الجيوش ومناوراتها على مسارح العمليات لتنفيذ واجباتها القتالية المختلفة؛ إذ بات من المعروف في الأزمنة الحديثة بأنه من المحال تحرك الجيوش الضخمة بأرتالها الطويلة على محور واحد للعمليات، وأنه لا بد من التحرك على عدد من المحاور المتوازية أو المتلاقية للتوغل في عمق مسرح العمليات وللوصول إلى مؤخرات العدو. ولكن هذه التحركات لا تحمل اسم (الاستراتيجية التشتيتية) إلا إذا كان هدفها الأول هو إرغام العدو على تشتيت قواته؛ وحرمانه من حرية العمل العسكري؛ بحيث لا يستطيع حشد قواه ووسائطه في مواجهة الضربة الرئيسة. وتعتبر الاستراتيجية التشتيتية التي طبقها القائد الروسي (كوتوزوف) ضد نابليون بونابرت سنة ١٨١٢ م عندما اجتاح نابليون بجيشه الكبير بلاد روسيا ووصل إلى موسكو، ولكن كوتوزوف أرغم نابليون على الانسحاب السريع خوفاً من الضربات والتهديدات التي لم يكن يعرف مصدرها ولا الموعد المحتمل لها.

كانت جيوش ألمانيا النازية هي أفضل الجيوش التي طبقت الاستراتيجية التشتيتية في الحروب الحديثة؛ سواء على جبهة الغرب (سنة ١٩٤٠ م) أو في حرب شمال أفريقيا (١٩٤١ ـ ١٩٤٣ م) أو في اجتياح روسيا (١٩٤٢ ـ ١٩٤٣ م). ولقد أعطيت هذه الاستراتيجية أسماء مختلفة (مثل حركة الشوكة أو المذراة) أو (السيل

الجارف) وذلك تبعاً لارتسام تحركات الجيوش على الخرائط والمخططات. والمهم في الأمر أن هذه التحركات بمجموعها قد اعتمدت بـالدرجـة الأولى على الطبيعـة الجغرافية لمسارح العمليات، ثم على تجمع القوات المعادية وتنظيماتها الدفـاعية وذلك على الرغم من استخدام البعد الثالث وهو الفضاء لإنزال القوات المحمولة أو المنقـولة جـواً. ويتشابـه ذلك وإلى حـد بعيد مـع التحركـات التي رسمها العـرب المسلمون على ميادين القتال قبل أربعة عشر قرناً من عمـر الزمن. فتحـرك القوات الألمانية على أرض فرنسا؛ لا يشابهه إلا تحركات قوات العرب المسلمين على أرض الأندلس بقيادة موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد، وذلك باستثناء اتجاه التحركات حيث تحركت القوات الألمانية النازية من الشـرق نحو الغـرب بينما تحـركـت قوات العرب المسلمين من الجنوب إلى الشمال؛ وهو اختلاف ناجم عن التباين في قاعدة انطلاق الهجوم. كذلك فإن تحرك القوات الألمانية النازية لاجتياح روسيا لا يشابهه إلا فتوحات العرب المسلمين في بلاد فارس، وفتوحاتهم أيضاً في أرمينية، لا سيما في مجال تحرك الأرتال على محاور العمليات؛ وانتقالها من محور إلى محور آخر؛ ولهذا فقد كان تشبيه هذه التحركات (بالسيل الجارف) تشبيهاً غير بعيد عن الواقعية. فقـد كانت جيـوش العرب المسلمين تجتـاح الأقاليم كمـا يجتاح السيـل الجـارف الأراضي السهلية والسهوب، حتى إذا ما واجه سداً أو عقبة تجمع الماء حـول السد فصـدمه وأزالـه أو انزاح من على جنبـاته ليتـابع تقـدمه كمـا كان من قبـل. فكانت المقاومات المعادية هي السدود التي تتجمع حولها جيوش العرب المسلمين لتزيلها، ثم لتعـاود تقدمهـا نحو سـدود أخرى حتى يتم لهـا تدميـر كل العـوائق والحـواجـز والسدود.

قد يكون من المثير ملاحظة تأثير العامل الجغرافي على الاستراتيجية التشتيتية في حرب شمال أفريقية؛ فقد كانت عمليات رومل من جهـة وعمليات قـادة خصمه (ويڤل ثم مونتغومري) مقيَّـدة بالشـريط الساحلي الضيق الممتـد بين تؤنس وأبواب مصر؛ حيث كان الطرفان المتصارعان يخوضان الحرب على محاور واحدة، وهو ما يتطابق تماماً مع تحـركات قـوات العرب المسلمين أيـام عقبة بن نـافع ومـوسى بن نصير. وكان رومل من سادة الحرب التشتيتية؛ وظهر ذلك خلال قيادته لقوات مدرعة

في اجتياح الغرب؛ مثله كمثل موسى بن نصير الذي قاد حرباً تشتيتية رائعة على أرض الأندلس.

وإذن فقد كان القائدان رومل وموسى بن نصير يعرفان ميزات الحرب التشتيتية وخصائصها؛ إلا أن طبيعة مسرح العمليات الجغرافية قد ألزمت كل من القائدين على تطبيق استراتيجية متشابهة؛ إن لم تكن متطابقة؛ وذلك على الرغم مما بين القائدين من تباعد زمني؛ وعلى الرغم مما بين الجيشين من تباين في التجهيز وفي الوسائط القتالية.

لقد تلاحم اسم (الاستراتيجية التشتيتية) بالحروب الثورية الحديثة؛ حيث بقيت القوات الثورية وباستمرار هي الأضعف من حيث العدد ومن حيث التسلح؛ مما كان يلزمها على التحرك باستمرار؛ وتوجيه ضرباتها إلى قوات العدو المتفوقة بصورة مباغتة؛ ثم الانسحاب بسرعة أكبر، مع تكرار الضربات إما بصورة متزامنة (في وقت واحد) على مسارح متباعدة؛ وإما بصورة ضربات متتالية؛ والهدف من ذلك هو حرمان العدو من فرصة توجيه ضربات كبيرة لقوات الثورة.

وقد كان المسلمون باستمرار؛ وفي كل حروبهم الثورية؛ هم سادة (الاستراتيجية التشتيتية) إذ أمكن لهم، بقوات قليلة دائماً؛ توجيه ضربات قاتلة للقوى الاستعمارية (الصليبية) وخوض هذه الحروب الثورية على امتداد فترات زمنية متطاولة لم تعرفها إلا الحروب الثورية الحديثة (مثل الحرب الأهلية الأسبانية والحرب الڤييتنامية). وقد كانت هذه الحروب متطاولة بفضل الدعم الخارجي؛ بينما كان اعتماد الحروب الثورية الإسلامية على القدرات الذاتية المتوافرة في البلاد ـ بالدرجة الأولى ـ مع الاعتماد على ما يمكن انتزاعه من يد العدو من الوسائط القتالية.

لقد كان العرب المسلمون هم سادة الدنيا، يقيناً، في تطبيق الاستراتيجية التشتيتية؛ وقد كانت حروبهم منذ بداياتها المبكرة مزيجاً من الحروب النظامية، فعملوا على تطوير هذه الاستراتيجية باستمرار تبعاً لطبيعة ميادين القتال؛ وتبعاً لمقاومات العدو؛ وردود فعله.

وتشكل حروب الثغور في بلاد الشام، وفي الأندلس، وعلى جبهة الشرق

مدرسة رائعة لتطبيق الاستراتيجية التشتيتيـة، ولقد تـركت هذه التجـارب المستمرة والمتصلة إرثـاً ضخماً من الـدروس المستخلصـة؛ أفـاد منـه السلف في حـروبهم الثورية؛ وعملوا على تطويره؛ ويستطيع السلف أن يفخروا بما وصل إليهم من ذاك الإرث؛ وأن يتمسكوا به؛ لا سيما وأن التجارب الحديثة في معظم دول العالم (التي خاضت حروباً نظامية أو حروباً ثورية) قد أكدت أهمية هذه الاستراتيجية وفائدتها؛ عندما يتم تطبيقها بكفاءة عالية، على نحو ما طبقها الأجداد منذ الأيام الأولى للفتوح.

٢

الانطلاق من قاعدة قوية؛ ومأمونة

أقام رسول الله ﷺ في مكة المكرمة؛ ما شاء الله له أن يقيم فيها؛ وهو يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة؛ فأسلم من هداه الله للإسلام؛ وكفر من ارتضى لنفسه الكفر والشرك؛ وعشيت عيون الكفار المشركين فعميت عن نور الحق؛ وانغلقت قلوبهم فلم تبلغها الهداية؛ فانطلقوا لإيذاء رسول الله وصحابته؛ والكيد لهم؛ والمكر بهم؛ ووصلت غلظة الكفار المشركين وإيذاؤهم للمسلمين حداً زاد على قدرة احتمال البشر؛ وضاقت الأرض على المسلمين بما رحبت؛ وأشفق الرسول على أصحابه؛ فأذن لهم بالهجرة؛ وارتحل من ارتحل إلى الحبشة.

ومضت عشر سنوات والمسلمون يجاهدون في الله حق جهاده؛ وهم صابرون محتسبون؛ حتى أذن الله عز وجل لرسوله ﷺ في القتال؛ ونزل قوله: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ**﴾(١). فأمر رسول الله ﷺ أصحابه ممن هو معه بمكة من المسلمين بالهجرة والخروج إلى المدينة المنورة؛ واللحوق بإخوانهم من الأنصار؛ وقال: (**إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون فيها**)(٢)؟ فخرجوا أرسالاً.

وأقام رسول الله ﷺ بمكة، بعد أصحابه من المهاجرين؛ ينتظر أن يؤذن له في الهجرة. ولم يتخلف معه بمكة أحد؛ إلا أُخذ فَحُبِس أو فُتِن؛ إلا علي بن أبي طالب

---

(١) سورة الأنفال ـ الآية ٣٩.
(٢) تاريخ الطبري ـ ذخائر العرب ـ (٢/٣٦٨ ـ ٣٧٠).

وأبو بكر بن أبي قحافة. وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة؛ فيقول له رسول الله ﷺ: (لا تعجل! لعل الله أن يجعل لك صاحباً)، فطمع أبو بكر أن يكون هو صاحبه.

وأذن الله لرسوله بالهجرة؛ فسار إلى صاحبه؛ وكان من عادته أن يأتيه في أول النهار وآخره؛ ولكن ها هو الآن يطرق بابه في الظهيرة. واستقبل أبو بكر رسول الله؛ وقال له: «ما جاء بك يا نبي الله إلا أمر حدث؟» وأجابه الرسول ﷺ: (إن الله قد أذن لي بالخروج إلى المدينة). فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله. فأجابه الرسول: الصحبة. وهاجر الرسول وصاحبه إلى المدينة، وبدأ في الدنيا تاريخ عهد جديد؛ لأمة ولدت ولادة جديدة؛ على أرض المدينة المنورة.

لقد كان المسلمون بحاجة لقاعدة يعيشون عليها؛ فهيأ الله لهم هذه القاعدة؛ وأطعمهم من جوع؛ وآمنهم من خوف، وصرفهم للجهاد؛ فبدأت غزوات الرسول ﷺ وبعوثه وسراياه تجوب أطراف القاعدة؛ وتحميها؛ وتنطلق منها إلى ما حولها؛ وهي توغل في البعد عن القاعدة يوماً بعد يوم. ورجعت قوات المسلمين إلى مكة المكرمة فاتحة لها بعد ثمان سنوات من الهجرة. واتسعت حدود القاعدة حتى شملت جزيرة العرب عند وفاة الرسول ﷺ. ولم تكن قوة هذه القاعدة؛ وصلابتها؛ ناجمة عن منعتها وعن طبيعتها الجغرافية الصعبة؛ إذ ما من أرض في الدنيا تمتلك قدرة ذاتية تضمن لها القوة والصلابة. ولكن قوة القاعدة اعتمدت على قوة حماتها المدافعين عنها؛ وعلى تماسكهم وشدة بأسهم؛ وعلى تصميمهم الثابت لنصرة دينهم الحق. ولم يكن باستطاعة هؤلاء بدورهم القيام بما تفرضه عليهم واجبات الحماية والدفاع لو لم يتوافر القدر الضروري من الأمن، ومن حرية العمل. فكان ذاك الاقتران الثابت، بين قوة القاعدة برجالها، وبين ما يتوافر لهؤلاء الرجال من الأمن ومن القدرة على التنظيم والعمل.

- ولقد اهتزت قوة هذه القاعدة عندما توفي رسول الله ﷺ؛ ونشبت فتن الردَّة؛ فكانت **(حروب الردَّة)** والقضاء على ما يسمى اليوم **(بأعداء الداخل)** ودعم وتقوية ما يسمى اليوم أيضاً **(بالجبهة الداخلية)** وهي التي أعادت لقاعدة العرب المسلمين قوتها وقدرتها، فانطلقت جموع المجاهدين في سبيل الله من هذه القاعدة **(القوية**

والصلبة والمأمونة) إلى دنيا الفتوح.

عرف العرب المسلمون هذه الحقيقة؛ فقد كانت المدينة المنورة هي قاعدة فتح مكة؛ ثم ضم شمل الجزيرة العربية بكل أطرافها. ولهذا فعندما حقق العرب المسلمون انتصارهم في اليرموك ثم أتبعوه بانتصارهم الذي أنزله الله عليهم في القادسية؛ خشي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه من انتشار المسلمين؛ وتجاوزهم حدود العراق؛ سعياً وراء انتصارات جديدة، فأصدر أمره الحاسم إلى سعد بن أبي وقاص: «**قفْ مكانك ولا تتبعهم؛ واتخِذْ للمسلمين دار هجرة ومنزل جهاد؛ ولا تجعلْ بيني وبين المسلمين بحراً**»[1].

وهكذا ظهر، ولأول مرة، دور العامل الجغرافي في تنظيم القاعدة العربية الإسلامية؛ إذ من الضروري الاستناد إلى حدود جغرافية واضحة يمكن تنظيم الدفاع عنها وحمايتها؛ ولم تكن مثل هذه الحاجة واضحة قبل ذلك؛ فشبه الجزيرة العربية محصَّنة ومحمية بالمياه المحيطة بها من أطرافها الثلاثة، وتأتي الصحارى في الشمال لتشكل بدورها عازلاً مانعاً يضمن نوعاً من الحماية. وكان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أكثر وضوحاً بعد أن فتح الله (جلولاء) للمسلمين (سنة ١٦ هـ)، فقد عاد سعد واستأذن أمير المؤمنين في السماح لقوات العرب المسلمين بمطاردة الفرس؛ واتباعهم إلى داخل بلادهم؛ ورفض عمر وأجاب سعداً ـ رضوان الله عليهما ـ بقوله: «**لوددت أن بين السواد وبين الجبل سداً لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم؛ حسبنا من الريف السواد؛ إني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال**»[2] وأكد أمير المؤمنين عمر في حديثه إلى أهل البصرة والكوفة في السنة التالية (١٧ هـ) عندما زاره وفد من القاعدتين الجديدتين؛ فقال لوفد البصرة: «**حسبنا لأهل البصرة سوادهم والأهواز؛ وددت أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا يصلون إلينا منه ولا نصل إليهم**». وقال لأهل الكوفة: «**وددت أن بينهم وبين الجبل جبلاً من نار لا يصلون إلينا منه؛ ولا نصل إليهم**»[3]. وردد أمير المؤمنين عمر أقوالاً مماثلة لأهل الشام عندما وصلت

---

(١) تاريخ الطبري ـ ذخائر العرب ـ ٣/٥٧٩.
(٢) المرجع السابق ٤/٢٨.
(٣) المرجع السابق ٤/٧٨.

قوات العرب المسلمين إلى حدود الجبال الفاصلة بين بلاد الروم وبلاد الشام (جبال طوروس).

ولقد استند أصحاب النظريات القومية لهذه الأقوال، واعتبروها حجة على أن العرب المسلمين ما كانوا يريدون إلا تحرير بلاد الشام والعراق من حكم الروم والفرس؛ متجاهلين، عن عمد وعن سوء نية، ما تتضمنه هذه العبارات من المعاني. فأمير المؤمنين عمر الذي عمل على تطوير ما بدأه أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنهما ـ من أعمال الفتوح؛ لم يكن يخشى على العرب المسلمين من القتل والقتال؛ وهم الذين ما خرجوا من الجزيرة العربية إلا للجهاد في سبيل الله. وكذلك فإنه إذا ما آثر سلامة المسلمين على الأنفال في قوله؛ فلأن الأنفال لم تكن هي هدف الفتح ولا غايته، وإنما كان الهدف إقامة المجتمع العربي ـ الإسلامي القوي والمتماسك والصلب والمأمون. ولقد أصبحت (الكوفة) و(البصرة) و(دمشق) هي القواعد الجديدة والمتقدمة لبناء المجتمع الإسلامي وكان هذا البناء يحتاج لفترة زمنية كافية، فواجب المجاهدين في سبيل الله هو حمل السيوف لإقامة القواعد وحمايتها وتحصينها؛ ورفع راية القرآن الكريم وتعريف الناس بالإسلام؛ ودعوتهم إلى السير على طريق الحق والخير والهدى، وبالتالي تكوين قوة جديدة ترفد قوات العرب المسلمين بمزيد من القوة والقدرة، وتشاركها في شرف حمل راية الجهاد في سبيل الله.

وكان من واجب القواعد الجديدة والمتقدمة إذاً الاضطلاع بالدور الذي اضطلعت به (المدينة المنورة) من قبل في نشر الإسلام؛ حتى إذا ما تم تحقيق ذلك؛ كان باستطاعة القواعد الجديدة إطلاق جموع المجاهدين في سبيل الله نحو آفاق جديدة.

ولقد وقعت معركة القادسية في سنة ١٤ هـ؛ ومكث أمير المسلمين عمر يكفكف المسلمين عن الانسياح في الأرض؛ ويمنعهم من متابعة الفتوح ـ في الشرق ـ حتى سنة ٢١ هـ، عندما أذن لهم بفتح ما وراء الجبال؛ فكانت معركة (فتح الفتوح)، ووصل جند الله إلى أقصى بلاد فارس شرقاً وإلى أقصى ما يستطيعونه شمالاً (تفليس وباب الأبواب ـ أو باكو حالياً في أرمينية). ولقد كانت كل قاعدة من هذه القواعد

محاطة بأعداء الإسلام والمسلمين؛ فكان لزاماً أن يتوافر لكل قاعدة ما يكفي من القدرة الذاتية للدفاع عن نفسها بالدرجة الأولى؛ ولمتابعة مسيرة الفتوحات عندما يتوافر لها فائض من القدرة؛ فكان أمير المؤمنين عمر حريصاً أشد الحرص على تحقيق هذه الغاية من خلال إيقاف الفتوحات عند الحدود المناسبة لقدرة هذه القواعد، وهو ما تبرزه المقولة التالية: «**افتتحت مصر سنة ست عشرة؛ وقام فيها ملك الإسلام على رجل؛ وجعل يفيض على الأمم والملوك؛ فكان أهل مصر يتدفقون على الأجل؛ وأهل مكران على راسل وداهر؛ وأهل سجستان على الشاه وذويه؛ وأهل خراسان والباب على خاقان؛ وخاقان ومن دونهما من الأمم؛ فكفكفهم عمر إبقاء على أهل الإسلام؛ ولو خلَّى سربهم لبلغوا كل منهل**»[1] وراسل وداهر والشاه وخاقان هم ملوك البلاد والطوائف المذكورة من فرس وترك وأنباط وهنود؛ وكانوا قبل أن يخضعوا لسلطان الإسلام؛ أعداء للإسلام وأهله؛ فكان لزاماً على المسلمين في قواعدهم المتقدمة حماية قواعدهم من عدوان تلك الأقوام، فلما ارتضوا الإسلام ديناً؛ وعبدوا الله الواحد القهار وحده؛ وألزموا أنفسهم وأقوامهم بسنَّة رسوله؛ أصبحوا هم أصحاب القواعد المتقدمة. فحملت الري ما كانت تحمله الكوفة والبصرة؛ وحملت الفسطاط والإسكندرية ما اضطلعت به دمشق؛ ولكن ذلك لم يكن النهاية للقواعد القديمة؛ فكما بقيت المدينة المنورة هي الردء ـ أو الاحتياط ـ أو القاعدة الخلفية لقواعد دمشق والكوفة والبصرة؛ فكذلك أصبحت هذه القواعد هي القواعد الخلفية للري وأذربيجان والفسطاط؛ وهي التي تمدها بالقدرة وتدعمها بالقوة، إذا ما تطلب الأمر؛ وهذا ما عبر عنه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب؛ عندما قرر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ السماح للعرب المسلمين باستئناف مسيرة الفتوح في الشرق، فجمع المسلمين في مسجد النبي بنداء (**الصلاة جامعة**)، واستشارهم فيما يجب أن يفعله؛ وأعلمهم بقراره وهو أن يقود بنفسه جموع المجاهدين في سبيل الله، فرد علي بن أبي طالب، بقوله: «**أما بعد، يا أمير المؤمنين! فإنك إن أشخصت أهل الشأم من شأمهم؛ سارت الروم إلى ذراريهم؛**

---

(١) تاريخ الطبري ـ ذخائر العرب ـ ٤/١١١.

وإن أشخصت أهــل اليمن من يمنهم سـارت الحبشــة إلى ذراريهم ؛ وإنــك إن أشخصت من هذه الأرض انتقضت عليك الأرض من أطرافها وأقطارها، حتى يكون ما تدع وراءك أهم عليك مما بين يديك من العـورات والعيالات. أقـررْ هؤلاء في أمصارهم، وأكتبْ إلى أهل البصرة فليتفرقوا فيها ثلاث فرق؛ فلتقم فـرقة لهم في حرمهم وذراريهم؛ ولتقم فرقة في أهل عهدهم؛ لئلا ينتقضوا عليهم؛ ولتسر فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مدداً لهم . . .»(١). وأخذ أمير المؤمنين عمر برأي صاحبه ومن أيده في ذلك من الصحابة.

وتكررت قصة إقامة القواعد الإسلامية المتقدمة على امتداد صفحة الفتوحات ـ في المشـرق كما في المغـرب ـ. ولعل أفضـل نمـوذج لهـذه القـواعـد؛ هـو بنـاء **(القيروان)** وفقاً لماذكرته المصادر التاريخية. فقدعمل معاوية بن أبي سفيان رضوان الله عليه، على تعيين عقبة بن نافع والياً على أفريقية سنة خمسين للهجرة، «وكان عقبة مقيماً **ببرقة وزويلة** مذ فتحها عمرو بن العاص؛ وله في تلك البلاد جهاد وفتوح؛ فلما استعمله معاوية سير إليه عشرة آلاف فارس؛ فدخل أفريقية؛ وانضاف إليه من أسلم من البربر؛ فكثر جمعه؛ ووضع السيف في أهل البلاد لأنهم كانوا إذا دخل إليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الإسلام؛ فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا وارتد من أسلم؛ ثم رأى أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد؛ فقصد موضع القيروان؛ وقطع الأشجار؛ وأمـر ببناء المـدينة؛ فبُنِيَت؛ **وبُني المجسد الجامع؛ وبنى الناس مساجدهم ومسـاكنهم**، وتم أمرهـا سنة خمس وخمسين؛ وسكنها الناس. وكان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا؛ فتغير وتنهب. **ودخل كثير من البربر في الإسلام؛ واتسعت خطة المسلمين؛ وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان، وأمنوا واطمأنوا على المقـام؛ فثبت الإسلام فيها»**(٢).

ويظهر من خلال ذلك أن (برقة وزويلة) كانتا هما القاعدتين المتقدمتين للعرب

---

(١) تاريخ الطبري ـ ذخائر العرب ـ ٤/١٢٥.
(٢) الكامل في التاريخ (ولاية عقبة بن نافع أفريقية وبناء القيروان) أحداث سنة خمسين.

المسلمين من أجل الدفاع عن مصر وحمايتها؛ فلما جاء عقبة بن نافع الفهري؛ دفع القاعدة نحو الأمام فأصبحت (القيروان) هي التي تضمن الحماية لبرقة وزويلة، ولم تفقد هاتان القاعدتان أهيمتهما؛ ولم تخسرا دورهما، وإنما تحولتا إلى قاعدتين خلفيتين لدعم القاعدة المتقدمة وإمدادها. وهذا ما حدث بعدئذ عند تطور الأعمال القتالية. وكان عقبة قد حدد بدقة دور القاعدة المتقدمة؛ عندما قرر بناء القيروان وقال لأصحابه: «**أرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر؛ وأن يكون أهلها مرابطين قرب البحر ليتم لهم الجهاد والرباط**». فقيل له: «قرِّبْها من البحر» وأجابهم: «إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية؛ فيهلكها؛ ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها معه صاحب البحر؛ لأن صاحب البحر لا يظهر من اللجة حتى يستره الليل؛ فهو يسير إلى ساحل البحر إلى نصف الليل؛ فيخرج فيقيم في غارته إلى نصف النهار، فلا تدركها منه غارة أبداً».

وجاء (موسى بن نصير) فانطلق من القيروان. وعندما وصل إلى (**طنجة ـ خطها وجعلها قيرواناً للمسلمين) (واستعمل موسى على طنجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد؛ وترك عنده تسعة عشر ألفاً من البربر بالأسلحة والعدة الكاملة؛ وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم؛ وترك موسى عندهم خلقاً يسيراً من العرب ليعلموا البربر القرآن وفرائض الإسلام؛ ورجع إلى أفريقية. ولم يبق بالبلاد من ينازعه من البربر؛ ولا من الروم. ولما استقرت له القواعد؛ كتب إلى طارق وهو بطنجة يأمره بغزو بلاد الأندلس**»[1]. وهكذا؛ أصبحت طنجة هي القاعدة المتقدمة؛ وهي قيروان المسلمين الجديدة؛ ولكن موسى لم يتخلَّ عن قاعدته الخلفية؛ بل عاد بجيشه إليها.

ويظهر في الأمثولات السابقة دور العامل الجغرافي في اختيار (**القاعدة القوية والمأمونة والصلبة**) فأفريقية باتساعها؛ وبصعوبة أرضها، تحتاج لأكثر من قاعدة. فاحتفظ موسى بن نصير (بالقيروان) لتكون قاعدته الأساسية، وذلك ليكون في موقع متوسط يسمح لهم بالوصول إلى أية منطقة تتعرض للتهديد؛ في أقصر مهلة زمنية

---

(١) نفح الطيب ـ دار صادر ـ بيروت ١/٢٣٨ ـ ٢٣٩ و ٢٥٠.

ممكنة. وإذا كانت (طنجة) قد أصبحت هي قاعدة الانطلاق إلى الأندلس؛ فإن فتح المسلمين للأندلس قد جعل من (طنجة) قاعدة خلفية؛ وتقدمت القاعدة المتقدمة لتستقر في (قرطبة) ذات الموقع المتوسط أيضاً من بلاد الأندلس.

وقد يكون من المثير حقاً ملاحظة ذاك التشابه في اختيار (قرطبة) لتكون منارة الإسلام للأندلس؛ وعاصمة لبني أمية؛ من حيث موقعها في متوسطة الأندلس؛ كموقع دمشق من بلاد الشام، وكموقع المدينة المنورة من جزيرة العرب؛ ولقد أحيطت شبه جزيرة الأندلس بالمياه؛ مثلها كمثل شبه جزيرة العرب، وإذا كانت الصحارى الممتدة هي تخوم الشمال لشبه جزيرة العرب؛ فقد كانت جبال البيرينّيه هي الحدود الشمالية المنيعة لشبه جزيرة الأندلس، مثلها كمثل جبال طوروس في شمال بلاد الشام؛ ولهذا لم يكن غريباً أن يطبق أمراء بني أمية في تنظيماتهم العسكرية والإدارية ما طبقوه من قبل في بلاد الشام، فكانت (قرطبة) هي قاعدة المجتمع العربي - الإسلامي في الأندلس؛ فيها ارتفعت منارات الإسلام العالية؛ وفيها احتشد علماء المسلمين وفقهاؤهم؛ ومنها انطلقت قوافل المجاهدين في سبيل الله، سواء لرد كل عدوان، أو لغزو ما وراء الدروب (دروب جبال البيرينّيه - أو البرتات) لغزو بلاد الغال (فرنسا).

ومن أقصى المغرب إلى أقصى المشرق؛ فعندما كان موسى بن نصير يفتح الأندلس؛ كان قتيبة بن مسلم الباهلي يتابع الفتوح في المشرق؛ وعندما فتح الله سمرقند للمسلمين (سنة ٩٣ هـ) عملوا على إخلاء المدينة «**وبنوا مسجداً؛ ووضعوا منبراً؛ ودخلها قتيبة في أربعة آلاف انتخبهم؛ فلما دخلها أتى المسجد فصلّى وخطب، وتلا في خطبته ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾**[1] **ثم ارتحل قتيبة راجعاً إلى مرو؛ واستخلف على سمرقند عبد الله بن مسلم، وخلّف عنده جنداً كثيفاً؛ وآلة من آلة الحرب كثيرة**»[2].

تعاقبت بعد ذلك أقوام وأقوام على حكم تلك البلاد؛ والقواعد المتقدمة تتحرك

---

(١) سورة النجم - الآيتان ٥٠ و ٥١.

(٢) تاريخ الطبري - أحداث سنة ٩٣ هـ (فتح سمرقند).

باستمرار. ويمكن القفز ثلاثة قرون على فتح سمرقند ـ تقريباً ـ للتوقف عند سنة ٣٨٩ هـ ـ ٩٩٨ م. ففي هذه السنة انقرضت الدولة السامانية؛ وكانت قد حكمت خراسان وبخارى وسائر بلاد العجم ـ الفرس ـ وقد ملك بعدهم محمود بن سبكتكين؛ الذي جعل من (غزنة) عاصمة أو قاعدة له من أجل غزو بلاد الهند، وتلقّب بيمين الدولة. وكان من غزواته تلك التي فتح بها (بهاطية) من أعمال الهند سنة ٣٩٥ هـ ـ ١٠٠٤ م (**وأقام يمين الدولة في بهاطية حتى أصلح أمرها ورتب قواعدها؛ واستخلف بها من يعلم من أسلم من أهلها ما يجب عليهم تعليمه**). وفي سنة ٣٩٧ هـ ـ ١٠٠٦ م سار يمين الدولة من غزنة لقتال أهل الهند بعد أن علم أن بعض أولاد الملوك من أبناء الهند، الذين كانوا قد أسلموا على يديه؛ واستخلفهم على ما افتتحه من بلادهم؛ قد ارتدوا عن الإسلام؛ ورجعوا إلى حظيرة الكفر والطغيان. ففر أولئك المرتدون؛ **واستعاد يمين الدولة تلك البلاد وأعادها إلى حكم الإسلام**، واستخلف عليها بعض أصحابه وعاد إلى غزنة.

وفي سنة ٤٠١ هـ ـ ١٠١٠ م «كانت بلاد الغور تجاور غزنة؛ وكان الغور يقطعون الطريق ويخيفون السبيل؛ وبلادهم جبال وعرة ومضايق غَلِقة؛ وكانوا يحتمون بها ويعتصمون بصعوبة مسلكها. وأنف يمين الدولة محمود بن سبكتكين أن يكون مثل أولئك المفسدين جيرانه؛ وهم على تلك الحال من الفساد والكفر؛ فجمع العساكر وسار إليهم، واقتحم مدينتهم ـ آهنكران ـ بعد اقتتال شديد؛ وفتح المسلمون كل القلاع والحصون. **وأظهر يمين الدولة في تلك الأعمال شعار الإسلام، وجعل عندهم من يعلمهم شرائعه؛ وعاد**».

وفي سنة ٤٠٧ هـ ـ «خرج يمين الدولة من غزنة غازياً كشمير (قشمير) وقنوج وسواها من أواسط الهند وأقاصيها؛ واقتتل المسلمون ومقاتلو الهند أشد قتال في معارك متتالية؛ وأنزل الله نصره على المسلمين في كل معركة؛ وغنم المسلمون غنائم كثيرة، فلما عادوا من غزاتهم **أمر يمين الدولة ببناء جامع غزنة؛ فشيد بناء لم يسمع بمثله؛ وأنفق ما غنمه في غزاته على بناء المسجد الجامع**»[1] وعندما توفي

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنوات ٣٨٩ و ٣٩٥ و ٣٩٧ و ٤٠١ و ٤٠٧ هـ.

يمين الدولة سنة ٤٢١ هـ ـ ١٠٣٠ م كان الإسلام قد انتشر في بلاد الهند انتشاراً واسعاً، وارتفعت منارات الإسلام في كثير من مدنه وأقاليمه.

لم تكن قصة إقامة القواعد الإسلامية (الصلبة والمأمونة) على أيدي العثمانيين، مختلفة أو مغايرة لقصتها لدى أسلافهم من العرب المسلمين أو لدى الأقوام الأخرى من المسلمين الذين اضطلعوا بحمل راية الجهاد في سبيل الله. فقد اتخذ مؤسس الدولة ـ عثمان ـ من مدينة (يني شهر ـ أو يكي شهر) قاعدة للجهاد ومركزاً للدعوة في سنة ٦٩٩ هـ ـ ١٣٠٠ م. وتقاطر المجاهدون في سبيل الله من كل أرجاء آسيا على هذه القاعدة الواقعة في وسط آسيا الصغرى (الأناضول). وكان موقعها يسمح لها بحشد القوى؛ ونشر الدعوة؛ فأقيمت فيها المساجد الجوامع؛ ونظمت فيها الكتاتيب والزوايا والتكايا التي اختص بها أصحاب المذاهب الصوفية. ،حتى إذا ما كانت سنة ٧١٧ هـ ـ ١٣١٧ م تمكن عثمان من فتح (بورصة ـ أو أناضولي طاغ) فجاء ابنه أورخان ونقل القاعدة إلى (بورصة) نظراً لما توافر فيها من ظروف حياتية أفضل من سابقتها؛ وبقي الأمر كذلك حتى سنة ٨٥٧ هـ ـ ١٤٥٣ م عندما فتح السلطان محمد الفاتح عاصمة الروم، فكان أول عمل قام به هو تحويل كنيسة أيا صوفيا إلى مسجد جامع، وأعطى المسيحيين نصف كنائسهم وحوَّل النصف الآخر إلى مساجد، وشيد جوامع جديدة، وأنشأ كثيراً من المدارس والكتاتيب والزوايا، لتعليم القرآن الكريم وعلوم الدين، وأطلق على قاعدته الجديدة اسم مدينة الإسلام (إسلام بول ـ أو استامبول كما هو معروف) بدلاً من اسمها القديم (القسطنطينية).

وكانت إقامة المساجد تقليداً من تقاليد السلاطين العثمانيين؛ فقد كان كل سلطان يحرص على إقامة مسجد ـ أو حتى مجموعة مساجد ـ سواء في العاصمة، أو في مدن الأقاليم؛ مع ما يتبع ذلك من مدارس ملحقة بالمساجد، وتكايا للزهاد العباد؛ ومراكز لخدمات المسلمين. ومن ذلك ما فعله، على سبيل المثال، السلطان سليمان القانوني سنة ٩٢٦ هـ ـ ١٥٢٠ م، عندما توفي والده، فحمل جثمانه إلى أحد مرتفعات المدينة؛ ودفنه هناك؛ وأمر ببناء مسجد جامع على ذاك المرتفع الشاهق (يعرف بجامع السليمية) وبناء مدرسة ملحقة به.

ولقد فتح الله للمسلمين عاصمة الصرب (بلغراد)، سنة ٩٢٧ هـ ـ ١٥٢١، فلما

دخلها السلطان سليمان وصلى الجمعة في إحدى كنائسها، تحولت تلك الكنيسة إلى مسجد جامع، ثم تبع ذلك تشييد مساجد جديدة، مع إقامة حامية إسلامية في المدينة والقلاع المجاورة لها أو القريبة منها؛ وتنظيم المدارس للتعليم؛ وتعريف الناس بالإسلام وتعاليمه وعباداته. وكذلك فعل سنة ٩٣٢ هـ ـ ١٥٢٦ عندما فتح الله على يديه عاصمة المجر (بودا) فحول كنيسة (ماتياس) إلى مسجد[١].

وتكررت عملية تنظيم الحاميات العسكرية؛ وإنشاء المساجد والمدارس والخدمات، وحدث مثل ذلك في اليونان والأفلاق والبغدان (رومانيا) وألبانيا (الأرناؤوط) وسواها، فأصبحت هذه القواعد المتقدمة هي التي تضمن الحماية والدفاع عن القاعدة الخلفية (إسلام بول) في مواجهة الحملات الصليبية المتتالية. ولهذا لم يكن غريباً أن يتركز الاقتتال المستمر حول هذه القواعد المتقدمة ـ وعلى أرضها ـ وكان واجب القاعدة القديمة (إسلام بول) هو دعم تلك القواعد المتقدمة؛ ومساعدتها باستمرار؛ لا سيما وأن قوات الحملات الصليبية كانت في كل مرة أقوى من قدرة احتمال أية قاعدة من تلك القواعد.

يظهر العرض الوجيز السابق أن إقامة القواعد القوية الصلبة والمأمونة قد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالهجرة؛ وبشرعية القتال، ورافقت الإسلام عبر تطوره وانتشاره منذ الأيام الأولى للفتح وحتى الأزمنة الحديثة (أيام العثمانيين)، وفي كل مكان أقيم فيه مجتمع إسلامي على أرض الله، وكان هذا المجتمع قائماً على أداء واجب الجهاد في سبيل الله.

وهنا لا بد من التمييز بين القواعد الإسلامية؛ وبين العواصم؛ وبين الثغور؛ فلقد كانت المدينة المنورة القاعدة الأولى؛ ثم أصبحت عاصمة العرب المسلمين أيام النبوة وفي عهود الخلفاء الراشدين. كذلك كانت دمشق قاعدة في بداية عهدها، وتحولت إلى عاصمة للأمويين؛ بينما لم تصبح لا (الكوفة) ولا (البصرة) ولا (القيروان) ولا (طنجة) ولا سواها من مدن المشرق والمغرب (مثل مرو وأذربيجان

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية ـ دار النفائس ـ ص ١٦٤ و١٧٨ و١٩٨ و٢٠٢.

وسمرقند وغزنة وبورصة وطليطلة) عواصم، وإنما بقيت قواعد ثابتة للمسلمين. **أما الثغور (أو العواصم)** كما سماها الرشيد؛ فهي المواقع العسكرية المتاخمة لبلاد العدو؛ والتي تقيم فيها روابط ثابتة أو مؤقتة لحماية بلاد المسلمين والدفاع عنها ضد أي عدوان مباغت.

وعلى الرغم من إقامة هذه الحاميات في مواقع دفاعية محصَّنة (قلاع وحصون على الأغلب) أو إقامتها في مدن محصنة؛ وعلى الرغم أيضاً من دورها في التعريف بالإسلام؛ إلا أن واجبها الأول والأساسي هو الجهاد في سبيل الله. **كذلك الأمر بالنسبة للثغور البحرية** (مثل الإسكندرية وتؤنس واللاذقية وعكا والجزائر) فهي أيضاً **ثغور - عواصم** - رغم إقامة المجتمع العربي - الإسلامي فيها. وإذن فإن إقامة القواعد القوية والصلبة والمأمونة مرتبطة زمنياً ومكانياً بالمراحل الأولى من الفتح وإقامة المجتمع العربي الإسلامي؛ وقد تتحول هذه القواعد إلى عواصم للدولة الإسلامية (المدينة المنورة، ودمشق والفسطاط ثم القاهرة وبغداد وقرطبة)، كما أنها قد تتحول إلى ثغر كالمدن المتاخمة للحدود البرية والبحرية أو القلاع والحصون الدفاعية على الحدود مع بلاد العدو. **ولقد اجتهد المجتهدون - أئمة الإسلام - في تحديد ديار الحرب، وديار السلام والإسلام، وحددوا العلاقة بينها وبين ما يجاور تلك الديار من الأمم والشعوب (المعادية أو المعاهدة؛ أو المهادنة) وكذلك العلاقة بين أهل الديار - المسلمين - ومن يساكنهم ويعيش في ظلهم وتحت حمايتهم (أهل الذمة) وينطبق ذلك كله على القواعد الإسلامية كافة (ما كان منها قاعدة أو مدينة أو ثغراً)**. وما يهم البحث هنا هو تمييز القواعد الإسلامية من حيث دورها الوظيفي في مرحلة زمنية معينة (الفتح) وخصائص تلك القواعد؛ مع العلم أن هذه الخصائص؛ ووفقاً لما سبق عرضه؛ هي خصائص عامة تنطبق على كل مجتمع إسلامي في كل زمان ومكان، بحكم واجب الجهاد في سبيل الله الذي لا يتبدل تبعاً لأي زمان ومكان، وبحكم واجب العمل لنشر الإسلام ورفع رايته في كل زمان ومكان؛ وإعزازه، والدفاع عن أهله مهما تعاقبت الأزمان ومهما تباعدت البلدان. وإذن، فخصوصية القواعد الإسلامية الصلبة؛ مرتبطة بظروف زمانية ومكانية محددة وفقاً لما أبرزته مسيرة إقامة تلك القواعد. وهنا يمكن التساؤل: **ما هي أهم ميِّزات تلك**

القواعد؟ وما هي العوامل المشتركة فيها؟ وما هي الصفة الخاصة التي تنفرد بها؟

لقد كان أول ما فعله الرسول ﷺ؛ عندما دخل المدينة المنورة مهاجراً؛ هو إقامة (مسجد قباء) فكان أول مسجد في الإسلام. وكان أول ما فعله العرب المسلمون عندما فتح الله لهم دمشق؛ إقامة مسجد فيها (المسجد الأموي). ولما دخل سعد بن أبي وقاص المدائن أتم الصلاة وصام وأمر الناس بإيوان كسرى فجعل مسجداً للأعياد؛ ونصب فيه منبراً، ونزل سعد القصر الأبيض؛ واتخذ الإيوان - إيوان كسرى - مصلًّى؛ وأقبل يقرأ ﴿**كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ**﴾(١).

وحينما نزل موسى بن نصير في الأندلس. . . عقد مجلساً للتشاور في الأمر؛ وأقام أياماً للراحة والتأهب؛ وعندما قرر المسير؛ جمع حوله رايات العرب ووجوه الكتائب، وقد زاد عددها على العشرين راية، وأمر موسى ببناء مسجد جامع في هذا الموضع؛ أطلق عليه اسم (**مسجد الرايات**). ولم يبرح موسى موضعه؛ ولا فارق مشهده؛ حتى أمر بتخطيط الموضع واتخاذه مسجداً، وكان يقابل باب البحر - من أبواب المدينة -.

ولقد تضمن العرض الوجيز السابق إشارات مماثلة لما كان يفعله المسلمون كلما فتح الله لهم مصراً، من حيث إقامة المساجد.

وإذن فإن أول شرط لإقامة القاعدة الإسلامية هو (بناء المسجد الجامع)، ذلك أن بناء المسجد الجامع إنما يعني إقامة المجتمع العربي - الإسلامي. فالمسجد في الإسلام ليس مجرد مكان للعبادات، تقام فيه الصلوات فقط؛ فيفتح في ساعات معينة، ويغلق في أوقات محددة - بدقة -، وليس هو مكاناً أيضاً لقضاء الوقت وتمضية الفراغ؛ وإنما هو مكان بناء المجتمع الإسلامي، وإن نداء (الصلاة جامعة) إنما يعني الدعوة لاجتماع المسلمين من أجل العبادة؛ ومن أجل تدارس أمور المسلمين لما فيه

---

(١) سورة الدخان - الآيتان ٢٥ و ٢٦ - وانظر تاريخ الطبري (حديث المدائن القصوى التي كان فيها منزل كسرى) أحداث سنة ١٦ هـ.

خيرهم وصلاحهم في دنياهم وآخرتهم. فكان المسجد الجامع في الإسلام؛ هو مقر الحكم؛ وهو مجلس الشورى؛ وهو دار العلم، وهو ملاذ ابن السبيل وملجأ من ضاقت به الدنيا؛ ومنه تنطلق جموع المجاهدين في سبيل الله، وفيه تتقرر أمور المسلمين. ولهذا لم يكن غريباً أن تتصل بيوت الله، بدور العلم والتعليم؛ وأن يخصص يها أماكن لطلبة العلم وشيوخهم، وأن تتصل كذلك بدور الأمراء والخلفاء. وتبقى منارات الإسلام التي ترتفع من المساجد هي البرهان الثابت على حقيقتين: **أولاهما**: - بناء المجتمع العربي - الإسلامي القوي والمتماسك، **وثانيتهما**: نشر الدين والتفقه فيه. فقوة القاعدة وصلابتها وقدرتها غير مرتبطة لا بميزات (الموقع الجيواستراتيجي) بحسب التعابير الحديثة؛ ولا بما يتوافر للقاعدة من ميزات وخصائص؛ وإنما بقوة المجتمع المقيم في تلك القاعدة؛ وبتماسكه؛ فكان المسجد هو الذي يضمن تلك القوة ويوفر المتطلبات لتماسكها وتلاحمها وصهرها في بوتقة الإسلام، لتشكل نسيجاً واحداً ذا لون واحد؛ وقدرة متكاملة.

ارتبطت القواعد الصلبة والمأمونة كذلك - في الإسلام - بالقدرة على الإشعاع - إذا جاز التعبير - إذ لا فائدة من القاعدة؛ ولا ميزة خاصة بها؛ إن هي لم تتمكن من اجتذاب الأفئدة والأبصار إليها. وقد كان نور الإسلام - وسيبقى بإذن الله ما دامت السماوات والأرض - هو مهوى الأفئدة والأبصار؛ غير أن قوة هذا الإشعاع، وإيصاله إلى الآفاق البعيدة؛ يحتاج دائماً للدعاة والفقهاء المتبصرين بأمور الدين؛ والعارفين بأمور العبادات؛ وقد سن الرسول ﷺ سنّة إرسال صحابته مع الأقوام التي تبايعه على الإسلام؛ لبناء المجتمعات الإسلامية؛ وإقامة حدود الله على أرض الله؛ وتفقيه الناس بأمور دينهم؛ وتعليمهم قراءة القرآن، والقيام بكل ما يفرضه الإسلام من واجبات والتزامات.

وسار صحابة رسول الله ﷺ على سنة نبيهم في إرسال القراء والفقهاء من الصحابة مع الجيوش لإقامة وتنظيم المجتمعات الإسلامية في البلاد التي يفتحها الله للمسلمين. ففي سنة ١٧ هـ، عين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الصحابي أبا موسى الأشعري لولاية البصرة؛ وقال له: «يا أبا موسى! إني مستعملك؛ إني أبعثك إلى أرض قد باض بها الشيطان وفرخ؛ فالزم ما تعرف؛ ولا تستبدل فيستبدل الله بك»

فقال أبو موسى: «**يا أمير المؤمنين! أعنِّي بعدة من أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار؛ فإني وجدتهم في هذه الأمة وهذه الأعمال كالملح، لا يصلح الطعام إلا به**» فأجابه عمر: «استعن بمن أحببت». فاستعان بتسعة وعشرين رجلاً؛ منهم أنس بن مالك وعمران بن حصين وهشام بن عامر. وكتب أمير المؤمنين عمر إلى أهل البصرة: «**أما بعد! فإني قد بعثت أبا موسى أميراً عليكم؛ ليأخذ لضعيفكم من قويِّكم؛ وليقاتل بكم عدوكم؛ وليدفع عن ذمتكم؛ وليحصي لكم فيئكم ثم ليقسمه بينكم؛ ولينقي لكم طرقكم**»(١).

وهكذا كان صحابة رسول الله ﷺ؛ ينطلقون من قاعدتهم في المدينة المنورة؛ لإقامة القواعد الجديدة؛ ولبناء المجتمعات العربية ـ الإسلامية الجديدة؛ على نحو ما عاشوه وعرفوه. وجاء العلماء والفقهاء والشيوخ من التابعين ليمارسوا الدور ذاته عبر أمراء المؤمنين وقادة الجيوش في الأقاليم؛ ومن هنا كان اهتمام أمراء المسلمين ـ عبر التجربة التاريخية الطويلة ـ برعاية العلم والعلماء؛ والانصياع للقضاة والفقهاء؛ فهم البناة الحقيقيون للقواعد الإسلامية؛ وعليهم تقع ـ بالدرجة الأولى ـ مسؤولية إقامة حدود الله على أرض الله؛ ودعم القاعدة الإسلامية الصلبة، وضمان تماسكها وتلاحمها. ولهذا السبب أيضاً؛ كان أمراء المسلمين؛ وقادة أجنادهم؛ يحرصون كل الحرص على اختيار مجالسهم فيضمون إليها أفضل العلماء والفقهاء ورجال الدين؛ ممن يتميزون بفضائل التقوى والورع والزهد وغير ذلك من الفضائل المعروفة والواجب توافرها في رجال الإسلام ودعامتهم.

هنا لا بد من التوقف قليلاً عند ظاهرة متعلقة بالإشعاع الإسلامي والمرتبط بالدعوة والدعاة من رجال الدين والعلماء؛ إذ كما نجحت الحملة الصليبية الجديدة، التي لم تستخدم فرقاً مسلحة؛ ولم ترفع رايات الصليبية؛ في تطويق المساجد؛ والتضييق على روادها؛ وتجريدها من دورها، فكذلك حققوا نجاحاً مماثلاً في تطويق علماء الدين والتضييق عليهم وحرمانهم من حرية العمل؛ والاعتماد في ذلك

---

(١) تاريخ الطبري (ذكر خبر عزل المغيرة عن البصرة، وولاية أبي موسى) أحداث سنة ١٧ هـ. (طبعةِ ذخائر العرب ٤/ ٧٠ ـ ٧١).

على العملاء بالوكالة؛ من طلائع الصليبيين في أقطار العالم الإسلامي ومن معهم من المرتدين؛ واستبدال علماء الدين بطبقة واسعة من المرتزقة الذين قبلوا أن يبيعوا دينهم بدنياهم؛ وليست تهمة (الأصولية) في الأزمنة الحديثة، إلا الستار لحجب المخلصين من رجال الدين؛ ولإبراز المرتزقة أو الذين يتم تصنيعهم للقيام بدور رجال الدين؛ وبدهي ألا يستطيع فاقد الشيء أن يعطيه؛ ولهذا فإنه من المحال على المحرومين من صدق الإيمان؛ والمجردين من صفاء اليقين؛ والمقهورين من أعداء الدين؛ أن يرفعوا رايات الدين والدعوة له، وقد يكون ذلك هو سبب ما يشكوه جمهور المسلمين من الفصل بين أمور الدين وأمور الدنيا، وأمر هؤلاء وأولئك إلى الله؛ الذي لا بد وأن ينصر دينه الحق على أرض الدنيا ما دامت الدنيا.

يأتي بعد ذلك عامل (عزل القاعدة القوية والصلبة) عن التحريض الخارجي. فإخراج قريظة والنضير من المدينة المنورة؛ وألا يجتمع في الجزيرة - جزيرة العرب - دينان؛ ما هو إلا الوسيلة لحماية القاعدة من كل تحريض خارجي؛ وبالتالي تأمين ما يحتاجه العمل في القاعدة من الأمن والاستقرار.

ولقد حدث أثناء مسيرة الفتوح كمثل ما حدث في (المدينة المنورة) أيام النبوة الأولى؛ فقد حافظ عرب جزيرة الشام (من تنوخ وربيعة وغسان وإياد) على روابطهم مع الروم - البيزنطيين -، بل إنهم استثاروا الروم ضد العرب المسلمين سنة ١٧ هـ، فما كان من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه إلا أن وجَّه قوات من الكوفة ومن الشام لقتال الروم الذين تقدموا بجيوشهم حتى وصلوا مدينة حمص، وأتبع ذلك بإصدار أمره لفتح الجزيرة؛ وإخضاع أهلها؛ وإرغامهم على قطع روابطهم مع الروم. وعندما لجأ (إياد بن نزار) بقومه إلى بلاد الروم، كتب أمير المؤمنين عمر إلى ملك الروم رسالته الشهيرة: «إنه بلغني أن حيّاً من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك. فوالله لتخرجنّه أو لننبذنَّ إلى النصارى؛ ثم لنخرجنهم إليك». فأخرجهم ملك الروم، وكانوا أربعة آلاف، فانقطع بذلك رجاء الروم من الاعتماد على أنصار لهم في بلاد الإسلام؛ وانقطع رجاء العرب غير المسلمين من الاستنصار بالروم على العرب المسلمين، وأمكن ضمان الأمن والاستقرار في قاعدة بلاد الشام.

وحدث مثل ذلك في العراق، على نحو ما سبقت الإشارة إليه في مجرى عرض

الأحداث؛ كما حدث ذلك أيضاً عند فتح أفريقية؛ التي نكث أهلها عهودهم؛ وارتدوا مرات متتالية بسبب تحريض الروم ـ عبر الاتصال البحري ـ بحيث لم يستقر الفتح إلا بعد تنظيم أساطيل العرب المسلمين في روض الفرج والإسكندرية وطرطوس واللاذقية وتؤنس وقيام هذه الأساطيل بعزل أفريقية عن التحريض الخارجي؛ ومنع أساطيل الروم من الوصول إلى ثغور العرب المسلمين.

تتطلب القاعدة القوية والصلبة كذلك توافر قوات كافية لحماية القاعدة والدفاع عنها، وبالتالي نقل الحرب إلى ما وراء الأفق ـ أفق القاعدة ـ ومن المعروف أن قوات العرب المسلمين في عهد الرسول ﷺ، لم تسمح للمشركين أبداً بالوصول إلى المدينة المنورة؛ وعندما حاول المرتدون، بعد وفاة الرسول ﷺ، مهاجمة المدينة المنورة؛ خرج إليهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه بنفسه، وكانت الغزوة الوحيدة التي قادها بنفسه؛ فقاتل المرتدين وقتلهم شر قتلة.

وسار العرب المسلمون بعد ذلك على هذا النهج عندما أقاموا قواعدهم المتقدمة، وكانت هذه القواعد بدورها هي ما يمكن تسميته (بالحزام الأمني) للدفاع عن القواعد السابقة، أي كان للقواعد الجديدة دور مزدوج هو حماية ذاتها، وتأمين الحماية للقواعد الخلفية؛ فتكامل بذلك تنظيم الأمن عن مجموعة القواعد الإسلامية؛ فكانت (قوة كل قاعدة وصلابتها) مرتبطة بقوة مجموع القواعد الإسلامية وصلابتها. وقد حدث بعد ذلك أن تمكن أعداء الإسلام والمسلمين من الوصول إلى بعض القواعد واحتلالها (كما حدث في أيام الحروب الصليبية القديمة) سواء في الأندلس؛ أو في بلاد الشام أو في أقطار المغرب العربي ـ الإسلامي؛ وكان تلاحم هذه القواعد؛ وتعاونها هو الدرع الواقي الذي تحطمت عليه في النهاية مكائد أعداء الدين.

فماذا يعني ذلك؟

إن ذلك يعني، ببساطة، أنه في الأزمنة الحديثة ـ كما في القديم ـ ضمان أمن أية قاعدة عربية إسلامية؛ أو قاعدة إسلامية؛ بمعزل عن أمن مجموع القواعد الإسلامية؛ لا سيما عندما يكون العدو هو عدو مشترك لجميع القواعد الإسلامية

(على نحو ما هو العدوان الصهيوني في فلسطين مثلاً). ومن هنا تظهر خطورة ما قد يحدث في أية قاعدة إسلامية من انحراف عن التيار الإسلامي؛ إذ ليست هناك خصوصية مميزة يمكن لها الحصول على الاستثناء عن ذاك التيار؛ إلا إذا فصلت نفسها عن ذاك التيار وربطت ذاتها بالتيار المعادي للعرب ـ المسلمين ـ كمثل ما فعلته قبيلة إياد بن نزار في عهد عمر رضوان الله عليه. وتقود هذه الحقيقة إلى حقيقة أخرى ـ في الأزمنة الحديثة ـ وهي أن كل مجتمع عربي إسلامي ـ أو تجمع ـ إنما يشكل قاعدة من القواعد، وهذا مما يفرض على كل مجتمع أو تجمع البحث عن متطلباته الأمنية من خلالل التلاحم بالعرب المسلمين في القواعد الأخرى، لإعادة تشكيل (نطاق الأمن) الكامل والمتكامل؛ على نحو ما كان عليه في عهد السلف؛ وعلى نحو ما هو عليه في تنظيم معظم الدول الكبرى ـ وحتى الصغرى ـ حيث تتلاحم كل القوى لدعم متطلباتها السياسية أو قيمها الفكرية ـ الأيديولوجية ـ أو مصالحها الاقتصادية. وهل هناك مذهب سياسي أو فكري أو اقتصادي استطاع عبر التاريخ تحقيق ما أنجزه الإسلام من تكامل في بناء المجتمع الإسلامي؟ وهل يجوز بعد كل ما عاشه العرب المسلمون من التجارب الحديثة؛ الاعتماد على قيم وأفكار، أظهرت التجارب عقمها، وفشلها في إقامة قواعد قوية وصلبة، في وجه أعداء الإسلام وأهله؟

٣

الحسم والمعركة الحاسمة

وضعت العقيدة العسكرية السوڤييتية مبدأ (الحسم) في طليعة (مبادىء الحرب)، وأعطته مكانة مميزة. ولقد أوضح التوجيه رقم ٢ الذي صدر عن القيادة السوڤييتية في بداية الحرب العالمية الثانية (يوم ٢٢ حزيران - يونيو ١٩٤١) - بالنسبة للاتحاد السوڤييتي - مضمون مبدأ الحسم بالتعبير التالي: «**تدمير قطعات العدو المخترقة**».

ومقابل ذلك؛ وضعت القيادة الألمانية - النازية - خطتها لاجتياح الاتحاد السوڤييتي على أساس مبدأ الحسم (خطة بربروسا) والتي جاء فيها: «**إن الهدف الرئيسي هو تدمير قوى الجيش الروسي الرئيسة... عن طريق العمليات المباغتة، مع الاندفاع العميق بالأسافين المدرعة؛ ومنع انسحاب القطعات ذات القدرة القتالية إلى عمق الأراضي الروسية الواسعة؛ ويجب على القوات الألمانية بعد ذلك القيام بمطاردة سريعة حتى تصل إلى الخط الذي لا يستطيع منه الطيران الروسي أن يقوم بالإغارة على الأراضي الألمانية**».

ولقد أوضح ماريشال الاتحاد السوڤييتي - جوكوف - الطريق إلى الحسم بقوله: «كانت العمليات الهجومية الاستراتيجية متنوعة كل التنوع من حيث أشكالها، وكانت أكثرها تميزاً عمليات **تطويق تجميعات العدو المقاتلة وإبادتها**؛ بتسديد ضربات على اتجاهات متلاقية أو بالتضييق على هذه التجميعات نحو البحر؛ وبتسديد ضربات قاصمة هدفها **تجزئة تجميع العدو وإبادته على أجزاء**. وكانت عملية التطويق من

أكثر الأساليب فعالية في العمليات الاستراتيجية الهجومية»[١]. وفي مصدر سوڤييتي؛ ورد ما يلي: «لجأت قواتنا؛ وعلى نطاق واسع؛ في الدور الثالث للحرب، إلى استخدام أقصى شكل من أشكال الحسم في أعمالها القتالية؛ ألا وهو تطويق التجمعات المعادية الكبيرة وتدميرها. . . وقد دمر الجيش الأحمر خلال الدور الثالث للحرب ٢٣٥ فرقة؛ كما ألحق الخسائر بحوالى ٤٤١ فرقة؛ كان قسم منها قد تعرض لخسائر مماثلة خلال عام ونصف أكثر من مرة، وفقد العدو حوالى ٣,٦ مليون رجل في الفترة من أول كانون الثاني ـ يناير عام ١٩٤٤ حتى ١٥ أيار ـ مايو ١٩٤٥ هذا عدا عن الأسرى»[٢].

فالحسم في القتال إذن هو تدمير قوات العدو وإبادتها؛ والمعركة الحاسمة هي التي يتم فيها تدمير تجميع العدو المقاتل ـ بالتطويق والمطاردة السريعة ـ فهل عرف العرب المسلمون الحسم في حروبهم؟ وإذا عرفوه فكيف طبقوه؟

لا بد من القول قبل كل شيء إن مبدأ الحسم قد برز واضحاً في آي الذكر الحكيم بقوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ؛ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ؛ **فَٱضْرِبُوا فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ**﴾[٣] وبقوله تعالى: ﴿**فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا ٱلْوَثَاقَ، فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا؛ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ ٱللَّهُ لَٱنْتَصَرَ مِنْهُمْ**؛ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ؛ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[٤]. فالحرب هي الحرب؛ ولا مجال فيها للتهاون أو العبث أو التساهل؛ والمقاتل لم يحمل السلاح إلا للقتال؛ وهو إن لم يقتل خصمه فخصمه قاتله لا محالة؛ والعنف في الحرب هو من طبيعة الحرب؛ وليس هناك أي تناقض؛ ولا تعارض؛ بين هذا العنف وبين ما يعقب الاقتتال من تسامح ومن مؤاساة

---

(١) مذكرات وآراء ـ المارشال جوكوف ـ وزارة الدفاع ـ دمشق ـ ١٩٧٢ (ص ٢٤٨ و ٣١٥ و ٦٧٢).

(٢) تاريخ فن الحرب ـ الجنرال ستروكوف ـ وزارة الدفاع ـ دمشق ـ ١٩٦٨ ص ٢٢٩ و ٢٣١.

(٣) سورة الأنفال ـ الآية ١٢.

(٤) سورة محمد ـ الآية ٤.

تساعد على تضميد الجراح، وتسهم في بناء علاقات ما بعد الحرب.

بدأت قصة الحسم في الحروب الإسلامية بوقعة بدر الكبرى؛ ولم يكن الحسم بسبب حجم القوى؛ فقد كان مجموع القوى هزيلاً بالمقارنة لما تبع ذلك من تعاظم في ميزان قوى الطرفين؛ المسلمين والمشركين؛ ولكن الحسم كان نتيجة عدم التكافؤ بين قوى الطرفين؛ فقد كان عدد المقاتلين المشركين ٩٥٠ مقاتلاً مقابل ٣١٣ من العرب المسلمين؛ وكذلك كان الحسم نتيجة عدم التناسب في الخسائر؛ إذ فقد المشركون ٧٠ قتيلاً، مقابل ١٤ من المسلمين؛ وأسر المسلمون كذلك ٧٠ مقاتلاً من المشركين. أما العامل الثالث في الحسم فهو في (نوعية القتلى) إذا ما جاز التعبير؛ فقد قتل في بدر سادات قريش؛ وكبار قادة المشركين. وكان المسلمون في بدر يفضلون قتل المشركين على أسرهم؛ من أجل حسم الاقتتال، وهذا ما عبر عنه سعد بن أبي وقاص عندما رأى المسلمين وهم يسرعون لأسر من يقع في أيديهم من المشركين، فكره ذلك وقال مخاطباً الرسول ﷺ الذي سأله وقد قرأ في وجهه استنكار ما يفعله المسلمون، فقال له: (لكأنك يا سعد تكره ما يصنع الناس!) فأجاب سعد: «أجل والله يا رسول الله! كانت أول وقعة أوقعها الله بالمشركين؛ **فكان الإثخان في القتل أحب إليَّ من استبقاء الرجال**»(١).

إن الحسم في المعركة؛ والمعركة الحاسمة؛ تستند قبل كل شيء، إلى أمر القتال الصادر عن القيادة العليا (أو القيادة الاستراتيجية)، وقد ظهر ذلك واضحاً في حروب الردة؛ حيث وجه خليفة رسول الله ـ أبو بكر الصديق ـ كتاباً إلى القبائل كافة؛ كان مما جاء فيه: «. . . وإني بعثت إليكم فلاناً في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان؛ وأمرته ألا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله؛ فمن استجاب له؛ وأقرَّ وكفَّ وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه؛ ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك؛ ثم لا يبقي على أحد منهم قدر عليه؛ وأن يحرقهم بالنار؛ ويقتلهم كل قتلة؛ وأن يسبي النساء والذراري؛ ولا يقبل من أحد إلا الإسلام». وورد في الكتاب الذي زود به قائد كل جيش: «لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام؛ فمن أجابه

---

(١) تاريخ الطبري ـ أحداث سنة ٢ هـ.

وأقر قبل منه؛ ومن أبى قاتله؛ **فإن أظهره الله عليه قتل فيهم كل قتلة بالسلاح والنيران»**. وفي وصية أبي بكر لقادة الأجناد: «**إذا نزلتم منزلاً فأذِّنوا وأقيموا؛ فإن أذَّن القوم وأقاموا فكفوا عنهم، وإن لم يفعلوا فلا شيء إلا الغارة؛ ثم اقتلوهم كل قتلة، الحرق فما سواه**»[1].

وقد تميزت معارك المسلمين في حروب الردة بالحسم، على ما هو معروف؛ لا سيما في قتال (مُسَيْلمة العنسي ـ الكذاب) الذي قاتل وقومه قوات المسلمين بضراوة؛ حتى اقتحم عليه المسلمون حديقة الموت؛ واقتتلوا قتالاً شديداً لم يروا مثله؛ وأبيد من في الحديقة من المرتدين، وقتل الله مُسَيْلمة؛ وقُتِل من المرتدين في المعركة وحديقة الموت عشرة آلاف مقاتل. وكان التصميم العنيد على انتزاع النصر؛ واقتحام الحديقة؛ وحصار المرتدين وتطويقهم؛ هي الطرائق لحسم الصراع والاقتتال على مستوى العمليات.

لقد كان (خالد بن الوليد) رضي الله عنه قائداً ميدانياً فرداً في أسلوبه في الحسم؛ وبرز ذلك بخاصة أثناء قيادته للقوات في (أيام العراق) سنة ١٢ هـ، وكانت معركة (كاظمة) هي أول معاركه مع الفرس ـ بقيادة هرمز ـ. **وتمكن خالد من قتل هرمز منذ بداية المعركة**؛ وانهزم أهل فارس؛ **وركب المسلمون أكتافهم ـ طاردوهم ـ إلى الليل**. . . . ونادى منادي خالد بالرحيل، وسار بهم حتى نزل موضع الجسر الأعظم اليوم ـ بالبصرة ـ وبعث المثنى في آثار القوم؛ وأرسل معقل بن مقرن المزني إلى (الأبلة) ليجمع له مالها والسبي، وقد سميت هذه المعركة أيضاً بمعركة (ذات السلاسل) لأن جند الفرس كانوا فيها مقيدين بالسلاسل ـ حتى لا يهربوا ـ. وأعاد الفرس تنظيم قواتهم، وانضمت إليهم قوات جديدة؛ فساروا إلى **(المذار)** بقيادة (قارن والأنوشجان وقباذ). **وسارع خالد وأصحابه لقتل قادة جيش الفرس**، وأنزل الله نصره على المسلمين؛ **وقُتِلت فارس مقتلة عظيمة، فقتل ليلة المذار ثلاثون ألفاً سوى من غرق، ولولا المياه، التي منعت المسلمين من مطاردتهم! لأبيدوا عن آخرهم**؛ ولم يفلت منهم من أفلت إلا عراة وأشباه العراة.

---

(١) تاريخ الطبري ـ أحداث سنة ١١ هـ.

وجاءت بعدئذ (وقعة الولجة) التي تولى فيها (الأندرزغر) قيادة جيش الفرس؛ فسار إليه خالد؛ **واقتتلوا بها قتالاً شديداً؛ حتى ظن الفريقان أن الصبر قد فرغ؛ واستبطأ خالد كمينه؛ وكان قد وضع لهم كميناً في ناحيتين؛ ثم خرج الكمين في وجهين؛ فانهزمت صفوف الأعاجم، وولوا؛ فأخذهم خالد من بين أيديهم والكمين من خلفهم؛ فلم يرَ منهم رجل مقتل صاحبه**؛ ومضى (الأندرزغر) في هزيمته؛ فمات عطشاً. ثم إن الفرس استنصروا بعرب العراق؛ وجاء جيش للفرس بقيادة (جابان)، وانضم إليه نصارى العرب (بني عجل بقيادة عبد الأسود؛ وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة بقيادة جابر بن بجير، ومالك بن قيس) فوصل إلى (أليس ـ على صلب الفرات) وكل همه الانتقام لهزائم الفرس؛ أما خالد؛ فكان همه ضرب عرب الضاحية ونصاراهم حتى يحرم الفرس من دعمهم لهم وتعاونهم معهم؛ فسار إليهم بمن معه من المسلمين؛ وعندما تم اللقاء! خرج خالد من الصف ونادى: أين أبجر؟ أين عبد الأسود؟ أين مالك بن قيس؟ فلم يخرج إليه أحد؛ إلا مالك؛ فقال له خالد: **«ما جرَّأك عليَّ من بينهم يا ابن الخبيثة؛ وليس فيك وفاء» وضربه فقتله**. ودارت معركة ضارية، صبر فيها الطرفان حتى فرغ الصبر؛ وقال خالد: **«اللهم إن لك علي إن منحتنا أكتافهم ألا استبقي منهم أحداً قدرنا عليه حتى أجري نهرهم بدمائهم»**. وأنزل الله نصره على المسلمين! ومنحهم أكتاف أعدائهم؛ فأمر خالد مناديي؛ فنادى في الناس: «الأسر الأسر! . لا تقتلوا إلا من امتنع». وأقبلت خيول المسلمين بهم أفواجاً مستأسرين يساقون سوقاً، **فوكل بهم رجالاً يضربون أعناقهم في النهر؛ ففعل ذلك بهم يوماً وليلة وطلبوهم الغد وبعد الغد، فقتل ثمانية عشر ألفاً أو يزيدون خلال الأيام الثلاثة**.

لم يكن عدد العرب المسلمين في اليرموك يزيد على ستة وأربعين ألفاً مقابل أربعين ومائتي ألف من الروم (منهم ثمانون ألف فارس). ورغم ذلك فقد حقق العرب المسلمون نصراً حاسماً؛ تمثل في سقوط عشرين ومائة ألف في الواقوصة؛ سوى من قتل في المعركة من الفرسان والمشاة ـ الرجَّالة ـ فكيف تحقق الحسم على مثل هذه الصورة المذهلة؟

لقد أظهر العرب المسلمون صبراً كبيراً؛ واحتملوا كره القتال بعناد وثبات لا

يصدر إلا عن نفوس مؤمنة. وفي اليوم الأخير من أيام اليرموك **استمر القتال «من لدن طلوع الشمس حتى الغروب**، وتضعضع الروم؛ **ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم - فرسانهم - ورجلهم - مشاتهم - وكان ميدان القتال واسع المطرد ضيق المهرب**؛ فلما وجدت خيلهم مذهباً، هربت وتركت مشاتهم؛ ولما رأى المسلمون خيل الروم وقد توجهت للهرب؛ أفرجوا لها ولم يحرجوها؛ فذهبت وتفرقت في البلاد. **وأقبل خالد والمسلمون على مشاة الروم، فمزقوهم حتى كأنهم هدم عليهم حائط** وتساقطوا تباعاً في الواقوصة، ورماح المسلمين تقذف بهم في الوادي؛ **وقاتل الناس حتى أصبحوا... وأتبع المسلمون الروم حين هزموهم خيولاً لمطاردتهم»**.

وتلك هي الصورة الوجيزة لقصة الحسم في اليرموك، وأهمها الإيمان المطلق بالوعد الحق الذي وعد الله به عباده المجاهدين في سبيله؛ وهو النصر لمن صبر؛ ثم تطويق ميدان المعركة؛ وفصل المشاة عن الفرسان، والسماح للفرسان بالفرار؛ وتدمير المشاة، ثم المطاردة بقوات الفرسان السريعة وخفيفة الحركة.

كان العرب المسلمون يعرفون نقاط ضعفهم المتمثلة بقلة عددهم؛ كما كانوا يعرفون موطن قوتهم المتمثل بالإيمان بوعد الله، الذي صدقهم وعده وأيدهم بنصره في معظم معاركهم، ولهذا فقد نظموا أعمالهم للإفادة من نقاط ضعف العدو؛ بهدف حسم القتال لمصلحتهم، وبذلوا كل جهد مستطاع لعزل قوات العدو بعضها عن بعض وتجزئتها، ثم تدميرها على التتابع، ولهذا فعندما تم لهم فتح دمشق، ساروا إلى فحل (في الأردن) التي احتشد فيها ثمانون ألفاً من الروم، والتقوا بجيش الروم؛ ولم يمهلوه **«واقتتلوا بفحل كأشد قتال اقتتلوه قط ليلتهم ويومهم إلى الليل؛ فأظلم الليل، وانهزم الروم؛ وظفر المسلمون أحسن ظفر وأهنأه؛ وأصيب الثمانون ألفاً؛ لم يفلت منهم إلا الشريد»**.

بينما كان جيش الفتح يحقق انتصاراته على أرض بلاد الشام، كان جيش العراق يحقق انتصارات مماثلة على أرض العراق؛ وكان من أبرز الانتصارات خلال تلك السنة ذاتها (سنة ١٣ هـ) انتصارهم في معركة (البويب) بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني؛ فقد دفع الفرس جيشاً كبيراً بقيادة (مهران الهمذاني)، وتصدى له جيش العرب المسلمين؛ ودارت رحى معركة طاحنة إلى أن أنزل الله نصره على

المسلمين، وهزموا الفرس، **فسابقهم المثنى إلى الجسر فسبقهم ومنعهم من العبور؛ فتفرق الفرس بشاطىء الفرات مصعدين ومصوبين؛ وطاردتهم خيول المسلمين حتى قتلوهم، وجعلوهم أكواماً؛ فكان الذي يمر بالبويب بعدئذ يرى تلالاً من العظام البيضاء، وقدر عدد قتلى الفرس بمائة ألف مقاتل**. وقال المثنى عندما انتهت المعركة: «**لقد قاتلت العرب والعجم ـ الفرس ـ في الجاهلية والإسلام، ووالله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشد علي من ألف من العرب؛ ولمائة اليوم من العرب أشد علي من ألف من العجم**؛ إن الله أذهب مصدوقتهم؛ ووهن كيدهم؛ فلا يروعنَّكم عدد ترونه؛ ولا سواد؛ ولا قسي فج؛ ولا نبال طوال؛ فإنهم إذا أعجلوا عنها أو فقدوها؛ كانوا كالبهائم أينما وجهتموها اتجهت».

كانت معركة القادسية من المعارك الحاسمة في التاريخ؛ وكانت ثقيلة على الفرس والمسلمين سواء بسواء، وقد صبر العرب المسلمون في أيام القادسية الثلاثة وليلتها الرابعة صبراً جميلاً، إلى أن أنزل الله نصره عليهم. وكانت الصورة الأخيرة من المعركة؛ وفقاً لما رسمتها المصادر التاريخية؛ كالتالي: «**وتهافت المقترنون في العتيق؛ فوخزهم المسلمون برماحهم؛ فما أفلت منهم مخبر؛ وهم ثلاثون ألفاً. . . وقتل في المعركة منهم عشرة آلاف سوى من قتلوا في الأيام قبله**. . . وطبقت القتلى ما بين القديس والعتيق؛ **وأمر سعد بن أبي وقاص باتباعهم ومطاردتهم**؛ فنادى زهرة بن الحوية في المقدمات؛ وأمر القعقاع بن عمرو بمطاردة من اتجه نحو الأعلى ـ الشمال ـ وأمر شرحبيل بمطاردة من اتجه نحو الأسفل ـ الجنوب ـ وخرج زهرة حتى وصل الروم، وعبر الفرات حتى لحق بالجالنوس الذي كان يحمي المؤخرات أثناء انسحابه، فهاجمه زهرة وقتله. . . **وانهارت كل مقاومة للفرس؛ حتى كان الرجل من المسلمين ليدعو الرجل منهم؛ فيأتيه حتى يقوم بين يديه، فيضرب عنقه؛ وحتى إنه ليأمر الرجلين أحدهما بقتل صاحبه**. . . ثم إنَّ سعداً أعاد تنظيم جيشه، ودفع المقدمات أمامه، وسار إلى (بهرسير) على نهر دجلة، فحط الأثقال، وعبر النهر إلى المدائن، ثم سار إلى مظلم ساباط، ومنها إلى جلولاء. . ».

ولم تكن وقعة (جلولاء)، التي وقعت سنة ١٦ هـ، إلا صورة عن القادسية واليرموك؛ فقد حشد الفرس ما توافر لهم من القوى طوال سنتين تقريباً؛ وأسندوا

قيادتها إلى (مهران الرازي) الذي أقام معسكره، وحصّنه بخندق، وبحسك الحديد؛ وجاء جيش العرب المسلمين بقيادة هاشم ابن عتبة، وشن ثمانين هجوماً ولما يصل إلى الحسم، وأخيراً «**اقتتلوا قتالاً شديداً، لم يقاتلوا المسلمين مثله في موطن من المواطن؛ حتى أنفدوا النبل؛ وحتى أنفدوا النشاب؛ وقصفوا الرماح حتى صاروا إلى السيوف والطيرزينات ـ الفؤوس ـ. وأنزل الله نصره على المسلمين، فعقرت خيول الفرس بحسك الحديد الذي كانوا قد وضعوه لعقر خيول المسلمين؛ فاضطروا للقتال على أقدامهم؛ وأتبعهم المسلمون: وقتل الله منهم يومئذ مائة ألف، فجللت القتلى ميدان القتال، فسميت جلولاء بما جللها من قتلاهم، وأمر هاشمٌ (القعقاع بن عمرو) بمطاردتهم؛ فطاردهم حتى وصل خانقين**»[1].

كانت كل معركة بعد ذلك من المعارك الحاسمة؛ فجاءت نهاوند (فتح الفتوح) واقتحم العرب المسلمون بلاد فارس من جميع أبوابها؛ وكان لهم في قتال كل مدينة وفتحها يوم حاسم، وكان النصر دائماً حليفاً للعرب المسلمين الذين أتقنوا فن تجزئة مقاومات العدو، وحرمانها من التعاون بعضها مع بعض، وتدميرها في معارك متتالية، بواسطة تطويق ميدان المعركة؛ وعزله؛ وإحباط المقاومات وتدميرها ومطاردتها. فكان نجاح الفتح في النهاية (أو الانتصار الاستراتيجي) هو محصلة لمجموعة الانتصارات الصغرى التي تم إنجازها على مستوى العمليات وعلى المستوى التعبوي ـ التكتيكي.

لقد كان البحث عن (الحسم) هو رائد المجاهدين في سبيل الله في معاركهم على كل جبهات القتال؛ وفي البر كما في البحر.

وتعتبر معركة ذات الصواري (سنة ٣١ هـ ـ ٦٥١ م) نموذجاً للمعارك البحرية الحاسمة؛ فقد خرج معاوية بن أبي سفيان ـ أمير الشام ـ بجيشه وأسطوله؛ وخرج أمير مصر (عبد الله بن سعد بن أبي سرح) بأسطوله من مصر، لقتال ملك الروم (قسطنطين بن هرقل) ومعه أسطول لم يجتمع للروم مثله قط منذ كان الإسلام، حيث بلغ عدد سفنه خمسمائة مركب. والتقى الأسطولان، فعرض العرب المسلمون على

---

(١) تاريخ الطبري ـ والكامل في التاريخ؛ (أحداث سنتي ١٤ و١٦ هـ).

الروم النزول على البر والاقتتال على اليابسة؛ لكن الروم رفضوا القتال إلا على الماء - في البحر - واتفقوا على القتال في الغد؛ وبات الروم وهم يضربون بالنواقيس؛ وبات المسلمون وهم يصلون ويدعون الله؛ فلما طلع النهار؛ اقتربت السفن بعضها من بعض، وربط المسلمون سفنهم بسفن الروم؛ ووصف أحد من شهد الاقتتال المعركة بقوله: «كنا يضرب بعضنا بعضاً على سفننا وسفنهم؛ **فقاتلنا أشد القتال**؛ ووثبت الرجال على الرجال؛ يضطربون بالسيوف على السفن؛ ويتواجؤون بالخناجر؛ حتى رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج؛ وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاماً. . . **وقد رأيت الساحل وإن عليه مثل الظرب - التل - العظيم من جثث الرجال**؛ وإن الدم لغالب على الماء؛ ولقد قتل يومئذٍ من المسلمين بشر كثير؛ وقتل من الكفار ما لا يحصى؛ وصبروا يومئذ صبراً لم يصبروا في موطن قط مثله؛ ثم أنزل الله نصره على أهل الإسلام؛ وانهزم قسطنطين مدبراً؛ وقد أصابه يومئذ جراحات مكث منها حيناً جريحاً».

استقرت فتوحات العرب المسلمين استقراراً نسبياً؛ بعد فتح بلاد فارس شرقاً وبعد فتح الأندلس غرباً؛ غير أن الاقتتال لم يتوقف لا في البحر ولا في البر؛ لا في المشرق ولا في المغرب؛ وقد لازم مبدأ الحسم الأعمال القتالية في معظم الأحيان. ثم اضطر المسلمون لمجابهة مواقف جديدة عندما أخذت الحروب شكل (حروب صليبية) منظمة بدأت بانتزاع طليطلة من قبضة المسلمين سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م)، وكان ذلك يعني ببساطة تحول المسلمين من الهجوم إلى الدفاع. وهنا؛ وعلى الرغم من هذا التحول، فقد بقي البحث عن الحسم هو هدف قادة العرب المسلمين في كل أعمالهم القتالية وحروبهم؛ وقد ظهر ذلك في أول معركة كبيرة أعقبت استيلاء الفرنج على طليطلة؛ وهي المعركة المعروفة باسم **(وقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م)**. فقد تولى المعتمد بن عباد أمير قرطبة قيادة مسلمي الأندلسي، وجاء أمير المرابطين في المغرب (يوسف بن تاشفين) لنجدته، وجاء ملك الفرنج (ألفونسو - أو الأذفونش) بجيش ضم أكثر من خمسين ألف مقاتل، فأقام معسكره في الزلاقة بناحية بطليوس، وبينه وبين معسكري المسلمين نحواً من ثمانية عشر ميلاً. وقد حاول ألفونسو ضرب كل من الجيشين المسلمين بمعزل عن الآخر؛ فهاجم بصورة مباغتة معسكر المعتمد

«فهاجت الحرب؛ وحمي الوطيس، واستحر القتل في أصحاب المعتمد؛ وصبر المعتمد صبراً لم يعهد مثله لأحد؛ واشتد عليه وعلى من معه البلاء. . . فركب أمير المسلمين ابن تاشفين؛ وأحدق به أنجاد خيله ورجله ـ مشاته ـ وقصدوا معسكر الفرنج فاقتحموه وفتكوا فيه وقتلوا. وضربت الطبول؛ وزعقت البوقات؛ فاهتزت الأرض؛ وتجاوبت الجبال والآفاق. وتراجع الفرنج إلى معسكرهم، فصدمهم ابن تاشفين، واستمر الاقتتال وقد حصر الفرنج بين الجيشين المسلمين؛ وأنزل الله سكينته على المسلمين؛ وهبت ريح النصر؛ وأدار الفرنج ظهورهم وأعطوا أعناقهم؛ وسيوف المسلمين تصفعهم والرماح تطعنهم؛ **ولجأ ألفونسو إلى تل؛ ولم يبق معه إلا خمسمائة فارس**؛ وأمر ابن عباد بضم رؤوس قتلى المشركين؛ فاجتمع من ذلك تل عظيم؛ **فاتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها إلى أن جيفت فأحرقوها**. وغنم المسلمون كل ما كان في معسكر الفرنج من الآلات والسلاح والمضارب والأواني؛ وعاد ألفونسو إلى طليطلة؛ ولم يلبث أن هلك هماً وغماً»[1].

مضت السنوات في اقتتال عنيف؛ والأندلسيون يعانون من ثقل الحملات الصليبية التي كان كثير منها ما يتوقف في الأندلس لخوض معركة أو أكثر قبل التوجه إلى بلاد الشام. وكان من أبرز المعارك التي وقعت في تلك الفترة الوقعة المعروفة باسم **(وقعة الأرك) سنة ٥٩١ هـ ـ ١١٩٤ م** في مكان شمالي قرطبة؛ على قرب من (قلعة رباح). وجمع ملك الفرنج (ألفونسو ـ أو ألفنش) جموعاً ضخمة من كل البلاد ـ قارب عدد مقاتليها مائتي ألف مقاتل ـ فقصده جيش المسلمين بقيادة أمير المسلمين (يعقوب المنصور ـ الموحدين) ودارت رحى معركة كبيرة؛ وأنزل الله نصره على المسلمين، **فقتلوا من المشركين ـ فيما قيل ـ مائة ألف وستة وأربعين ألفاً، وعدة الأسارى ثلاثين ألفاً**، وغنم المسلمون من الخيام مائة ألف وخمسين ألف خيمة؛ ومن دروع الإفرنج ستين ألفاً؛ ومن الخيل ثمانين ألفاً؛ ومن الحمير؛ ومن البغال مائة ألف؛ ومن الجواهر والأموال ما لا يحصى، **وبيع الأسير بدرهم والحمار بدرهم والسيف بنصف درهم؛ والفرس بخمسة دراهم**، ونجا ملك النصارى إلى

---

(١) نفح الطيب ـ دار صادر ـ بيروت (٤/ ٣٥٤ ـ ٣٧٢) والكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٤٧٩ هـ.

طليطلة في أسوأ حال. . ونكس صليبه؛ وآلى على نفسه أن لا ينام على فراش؛ ولا يقرب النساء؛ ولا يركب حماراً ولا دابة حتى يأخذ بالثأر»(١).

يمكن بعد ذلك التوقف عند معركة حاسمة لم تكتسب شهرة كبيرة؛ بسبب ما كان قد نزل بأندلس المسلمين من الكوارث الكبيرة والنكبات المريرة. وقد وقعت هذه المعركة على أبواب، غرناطة (سنة ٧١٩ هـ - ١٣١٩ م).

«ففي هذه السنة عمل ملك الأندلس (دون بطره - أو دون بدرو) على حشد جيش لا يحصى؛ وسار ومعه خمسة وعشرون ملكاً للاستيلاء على غرناطة؛ واستئصال ما بقي من المسلمين بالأندلس. فقلق المسلمون بغرناطة وغيرها؛ وعزموا على الاستنجاد بالمريني أبي سعيد - صاحب فاس - فلم ينجع ذلك الدواء؛ فرجعوا إلى أعظم الأدوية؛ ولجؤوا إلى الله تعالى؛ وأخلصوا النيات. . . وأقبل المشركون؛ حتى حطُّوا بأثقالهم على أبواب غرناطة؛ وقد امتلأت بهم الأرض؛ فخرج إليهم شيخ الغزاة - الشيخ العالم أبو سعيد عثمان بن أبي العلاء المريني - وليس معه أكثر من خمسة آلاف من أبطال المسلمين المشهورين؛ فلما شاهدهم الفرنج عجبوا من إقدامهم مع قلتهم في تلك الجيوش العظيمة؛ وحمل المسلمون حملة واحدة؛ فانهزم الفرنج أقبح هزيمة؛ وأخذتهم السيوف؛ **وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام؛ وزادت عدة القتلى على خمسين ألفاً؛ ومن السبي سبعة آلاف نفس؛ وكان من جملة الأسرى امرأة الطاغية - دون بدرو - وأولاده؛ وقتل الملوك الخمسة والعشرون جميعهم**؛ وهلك بالوادي وبالجبال والشعاب عدد أكبر ممن قتلوا في المعركة. وكانت الغنيمة تفوق الوصف؛ وسلخ الطاغية دون بدرو وحُشِيَ جلده قطناً؛ وعلق على باب غرناطة؛ وبقي معلقاً سنوات ومن العجب أنه لم يقتل من المسلمين والأجناد سوى ثلاثة عشر فارساً»(٢).

لقد كانت المباغتة هنا هي أداة الحسم؛ وكان الإيمان هو عدة النصر، فلا غرابة إن استطاع المسلمون في الأندلس الصمود في وجه الحملات الصليبية طوال خمسة

---

(١) نفح الطيب ١/٤٤٣ - ٤٤٤ و٤/٣٨١ - ٣٨٢.
(٢) نفح الطيب ١/٤٤٩ - ٤٥١.

قرون من عمر الزمن (إذ سقطت غرناطة في قبضتهم سنة ٨٩٨ هـ ـ ١٤٩٢ م، بينما لم يتم إخراج بقية المسلمين من الأندلس إلا بعد فشل ثورتهم المعروفة باسم ثورة البشرات سنة ٩٧٧ هـ ـ ١٥٦٩ م). ومعروف أن لهيب الحملات الصليبية قد امتد إلى أقطار المغرب العربي ـ الإسلامي، خلال فترات متتالية، كان أشدها عنفاً ما وقع بعد سنة ٨٥٨ هـ ـ ١٤٥٤ م عندما أصدر البابا براءة بالسماح للبرتغال باحتلال الشواطىء المغربية، وكانوا من قبل قد احتلوا (سبتة سنة ٨١٨ هـ ـ ١٤١٥ م) ثم ما لبثوا أن اقتسموا مع الأسبانيين أقاليم المغرب العربي الإسلامي؛ ودارت خلال ذلك وقائع شهيرة؛ ووقعت معارك حاسمة في البر والبحر، من بينها المعركة المعروفة باسم **(معركة وادي المخازن ـ أو معركة الملوك الثلاثة سنة ٩٨٦ هـ ـ ١٥٧٨ م)**، والتي قاد فيها ملك البرتغال سيباستيان جيشاً قدر عدد مقاتليه ما بين ٢٤ و ٣٠ ألفاً فخرج إليه جيش المغرب بقيادة الملك (أو السلطان عبد الملك ـ من الأسرة السعدية) وقد ضم حوالى ٤٠ ألف مقاتل[1]. وقد بدأت هذه المعركة بقصف مدفعي وجَّهه البرتغاليون فانقضَّ فرسان المغاربة المسلمين واستولوا على ٢٢ مدفعاً؛ ثم قام الجيش البرتغالي بهجوم عنيف؛ وتمكن من إضعاف ميمنة المسلمين لكن السلطان عبد الملك أصدر أمره بزج القوات الاحتياطية، فقام المسلمون بهجوم مضاد، ودبت الفوضى في صفوف البرتغاليين **وتمكن المسلمون من تطويقهم، وقتل الملك سيباستيان**، كما قتل الدوم كريستوفا ده تاقورا، وأثناء ذلك مات السلطان عبد الملك ـ ميتة طبيعية ـ **وقتل في المعركة حوالى ٢٠ ألف قتيل، بينما لم تتجاوز خسائر المسلمين ثلاثة آلاف شهيد.**

سار خط الحرب ضد الفرنج الصليبيين ـ على أرض الشام ـ على الاتجاه المعاكس أو المضاد لخط تحرك القوات الصليبية؛ فقد جاء الفرنج من الغرب إلى الشرق؛ ومن الساحل نحو الداخل؛ فتحرك المسلمون من الشرق إلى الغرب؛ ومن الداخل نحو الساحل؛ وفعلوا كما كانوا يفعلون أيام الفتوح الأولى؛ فقد عملوا على تجزئة الحرب إلى مجموعة كبيرة من المعارك؛ وحرصوا على (حسم القتال) في كل

---

(١) هناك تباين كبير في تقدير حجم القوات، وهذه الأرقام أقرب ما تكون للواقع؛ وانظر (معركة وادي المخازن ـ الدكتور إحسان هندي ـ مركز الدراسات العسكرية ـ دمشق ١٩٨٤).

معركة؛ للوصول إلى الحسم النهائي. وكان للزنكيين أمراء الموصل دورهم الكبير في تحديد مسارات الحرب وتوجيهها وإيضاح أهدافها. فبدؤوا بطرد الفرنج من إمارة الرها التي كانت أول إمارة أقامها الفرنج الصليبيون على أرض بلاد الشام؛ وذلك سنة ٥٣٩ هـ ـ ١١٤٤ م، ثم انطلقوا منها إلى حلب؛ وحمص؛ ودمشق. وقد كان لاستعادة الرهاء، من قبل المسلمين، دوي هائل في الغرب الصليبي؛ فجاءت الحملة الصليبية الثانية (بقيادة ملك ألمانيا كنراد) و(ملك فرنسا لويس). وقد يكون من المناسب التوقف عند بعض ما جابهته قوات الحملة الألمانية التي كانت قد سبقت في تقدمها قوات الحملة الفرنسية: «غادر جيش كنراد مدينة نيقية في ١٥ تشرين الأول ـ أكتوبر ١١٤٧ م؛ الموافق سنة ٥٤٢ هـ؛ ولما وصل بجيشه، بعد عشرة أيام، نهر باتيس ـ قرب دوريليوم ـ **انقضَّ عليه الجيش السلجوقي بأكمله، وأخذه فرسان الترك خفيفي الحركة على حين غرة؛ وقاموا بهجمات سريعة مباغتة ومتتالية؛ والواقع أنها لم تكن إلا مذبحة؛ لا معركة؛ وحاول كنراد عبثاً أن يجمع شتات رجاله؛ غير أنه لم يحل المساء حتى أمعن في الفرار مع من تبقى من رجاله؛ عائدين إلى نيقية؛ وفقد كنراد تسعة أعشار جيشه الذي كان يقدر عدده قبل المعركة بمليون مقاتل تقريباً، فضلاً عن كل محتويات معسكره**، وما وقع في أيدي الترك المظفرين من غنيمة، باعوها في كافة أسواق المشرق الإسلامي، حتى بلاد فارس»[1]. وكان لا بد من انتظار وصول الجيش الفرنسي حتى ينضم إليه كنراد بمن بقي معه من المقاتلين، حيث تحركت قوات الحملة إلى فلسطين، والتي اعتبرت بحق أنها ضمَّت أضخم جيش مسيحي قذف به الفرنج إلى ساحة المعركة؛ وتقرر، عندما تكامل حشد القوات، أن تتجه الحملة إلى دمشق على أمل احتلالها والاستيلاء عليها؛ فوصلت إلى الموضع المعروف باسم (منازل العساكر) والذي يقع على نحو أربعة أميال إلى الجنوب من دمشق، ثم انتقلت منه إلى (المزة) و(الربوة) الواقعة على نهر بردى. **وشرع المقاتلون في شن حرب العصابات، منطلقين من الغوطة؛ كما شرعوا في إقامة الحواجز والمتاريس بالشوارع استعداداً للاستماتة في القتال الأخير. وقام الفرنج بهجوم رد عليه أمير دمشق (معين الدين أنز) بهجوم مضاد طرد**

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ٢/٤٣١ ـ ٤٣٢.

فيه الفرنج بعيداً عن الأسوار، وأعاد الكرة بمهاجمة الفرنـج في اليومين التـاليين؛ مستفيداً من دعم المجاهدين في سبيل الله، الـذين كانـوا يتدفقـون على دمشق من أبوابها الشمالية؛ بينمـا كان رجـال العصابـات قد تـوغلوا في الحدائق والبسـاتين؛ وأضحت هجمـاتهم من الخطورة على معسكـر الفرنـج، مما دعـا كنراد ولـويس ـ وبلدوين ملك القـدس ـ إلى الاجتماع معـاً؛ فتقرر التحـرك يوم ٢٧ تمـوز ـ يـوليـو ١١٤٨ م (٥٤٣ هـ) إلى السهل الواقع خارج السور الشرقي. وكان جيش (نور الدين زنكي) قـد أخـذ في التحـرك من الشمـال نحـو دمشق؛ فخـاف الفرنـج؛ وقـرروا الانسحاب والعودة إلى فلسطين. وزال الخطر عن دمشق؛ وأصبح جيش الفرنج هو الذي يقوم بالدفاع؛ ولما يمض على حصار دمشق أكثر من خمسة أيام[1]. **غيـر أن فرسان الترك ـ التركمان ـ الذين اشتهروا بخفة الحـركة، انـطلقوا لمـطاردة جيش الفرنج أثناء انسحابه، وظلوا طوال الأيام التالية وهم يضغطون على جناحي الجيش الصليبي؛ ويمطرونه بوابل من السهام، وتناثرت جثث الرجال والخيول على امتداد الطريق؛ وأفسدت** رائحتها السهل لشهور عديدة. وكان كل ما حققته هذه الحملة هو أنها فقدت عدداً كبيراً من رجالها؛ وقدراً كبيراً من عتادها؛ وتعرضت لهوان شديد. إذ أن إرغام جيش في هذه الضخامة والروعة، على التخلي عن تحقيق هدفه، بعد أربعة أيام فقط من القتال؛ قد اعتبر بمثابة ضربة قاصمة لهيبة الفرنج الصليبيين، فتبددت نهائياً أسطورة فرسان الغرب الذين لا يقهرون.

هنا لا بد من الإشارة إلى أن قادة المسلمين قد أفادوا من مجموعة من العوامل للوصـول إلى الحسم؛ وأول هذه العـوامل وأهمهـا الإفادة من العـامـل الجغـرافي (الجيواستراتيجي) الذي مكنهم في البداية من تطويق الجيش الألماني وإبادته، ثم مكنهم من استنزاف قوة جيش الفرنج على أبواب دمشق. أما العامل الثاني فهو اختيار الوقت المناسب للهجوم؛ إذ كان الجيش الألماني، عندما وصل إلى دوريليوم، في حـالة انهيـار مادي ومعنـوي بسبب نقص المياه والمـواد التموينيـة وإرهاق المسيـر الطويل؛ كذلك كان وضعه عندما وصل إلى أبواب دمشق، إذ حرص المجاهدون في

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٤٣ هـ ـ وتاريخ الحروب الصليبية ٢/٤٥١ ـ ٤٥٨.

سبيل الله على حرمان الفرنج من المياه والمواد التموينية. كذلك أفاد قادة المسلمين من (الموقف السياسي) الناجم عن خوف الفرنج من تجمع القوى الإسلامية (جيش دمشق وجيش الشمال) يضاف إلى ذلك كله الإفادة من الفضائل الحربية للمجاهدين في سبيل الله (التصميم على القتال حتى الرمق الأخير؛ وخفه حركة القوات؛ وكفاءتها القتالية العالية).

وهكذا؛ كانت طرائق الحسم وأساليبه تكاد تكون متشابهة في معظم الأعمال القتالية، وتعتمد بالدرجة الأولى على عزل ميدان المعركة وتطويقه، ثم فصل الفرسان عن المشاة، ومن ثم تدمير تجمع القوات بالقتل والأسر؛ ومطاردة فلول العدو المنهزمة، وعدم تمكينها من إعادة التجمع. وليس هناك ثمة فارق في الطرائق والأساليب بين المعارك الحاسمة الكبرى أو الحاسمة الصغرى؛ ولقد كان لكل يوم من أيام الحروب الصليبية صفاته الحاسمة؛ وذلك رغم الشهرة التي لحقت ببعض الأيام فميزتها عن البعض الآخر.

ففي حطين (يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة) ٤ تموز - يوليو ١١٨٧م «جرى تطويق ميدان المعركة وحصر الفرنج فلم تتمكن من مغادرته إلا قوة صغيرة من فرسان الفرنج، فتح لهم المسلمون طريقاً للخروج. فسقط في يد بقية الفرنج وكادوا يستسلمون... **وكثر القتل والأسر في الفرنج؛ فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحداً؛ ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحداً**؛ وما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل؛ وهو سنة إحدى وتسعين وأربعمائة؛ إلى الآن بمثل ما أصيبوا به بهذه الوقعة»(١).

ووقعت معركة عين جالوت يوم ٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ (٣ أيلول - سبتمبر ١٢٦٠ م)، وكان المظفر قطز قد أعد للمعركة؛ «**فأخفى قواته الرئيسة في التلال القريبة؛ ولم يعرض للعدو - المغول التتار بقيادة كتبغا - إلا المقدمة التي قادها الظاهر بيبرس؛ ووقع كتبغا في الفخ، إذ حمل بكل رجاله على القوات التي شاهدها أمامه؛ فأسرع بيبرس في تقهقره إلى التلال بعد أن اشتدت مطاردة كتبغا له؛ فلم**

---

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ١١٨٧ هـ.

يلبث الجيش المغولي بأسره أن جرى تطويقه فجأة، ولم تنجح إلا جماعة صغيرة من رجال كتبغا في أن تشق لها طريقاً للهرب من ميدان المعركة»[1]؛ وكانت نهاية المعركة معروفة: القتل والأسر.

هاجم الفرنج الصليبيون مصر، واحتلوا دمياط (٦١٥ ـ ٦١٨ هـ/ ١٢١٨ ـ ١٢٢١ م)، وقد انتهت هذه الحملة بالحسم. فقد خرج الفرنج وقد أُبيدت معظم قواتهم، ووقع عدد كبير من أفرادها في الأسر. كذلك كان شأن الحملة الصليبية التاسعة (بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع)، التي وصلت دمياط (٦٤٧ ـ ٦٤٨ هـ/ ١٢٤٩ ـ ١٢٥٠ م) ثم كانت نهايتها أمام المنصورة، ولم يخرج لويس من مصر إلا بعد أن دفع فدية كبيرة ـ عنه وعن كبار قادته ـ ووقع عدد كبير من جنده في الأسر، وهو عدد لم ينافسه إلا عدد قتلى الفرنج على أرض مصر. كذلك كانت للمسلمين العثمانيين أيامهم الحاسمة في مواجهتهم للحملات الصليبية على أرض أوروبا ومنها (معركة نهر ماريتزا) سنة ٧٦٦ هـ ـ ١٣٦٣ م والتي فتحت أبواب بلغاريا والصرب أمام المسلمين، ومعركة نيقوبوليس سنة ٧٩٨ هـ ـ ١٣٩٦ م التي دمرت أضخم حملة صليبية كان هدفها اجتياح البلاد الإسلامية والوصول إلى بلاد الشام، كذلك موقعة (وادي قوص اوه) سنة ٨٥٢ هـ ـ ١٤٤٨ م، والتي دُمِّر فيها جيش المجر تدميراً شبه كامل.

ولعل من أهم نتائج الحسم في هذه المعارك ـ كما في سواها من معارك المسلمين العثمانيين ـ هو الإفادة من هذا الحسم العسكري لتحقيق هدف المسلمين في حروبهم ـ وهو الفتح ـ. وبذلك لم تكن فتوح المسلمين العثمانيين في أوروبا إلا ثمرة للحسم العسكري؛ فكانت هذه الفتوح تطويراً للفتوح العربية الإسلامية الأولى؛ وقد حملت كل طرائقها وأشكالها وظواهرها.

يظهر من خلال ذلك؛ أن الأيام الحاسمة؛ والمعارك الحاسمة؛ في الحروب الإسلامية، مثل اليرموك، والقادسية؛ ونهاوند؛ وبابليون؛ ووادي لكة؛ وحطين؛ وعين جالوت؛ ودمياط؛ والمنصورة؛ والقدس؛ والزلاقة؛ والأرك؛ وغرناطة؛ ونهر

(١) تاريخ الحروب الصليبية (٣/٥٣٦ ـ ٥٣٨).

ماريتزا؛ ونيقوبوليس؛ وسواها كثير من الصعب إحصاؤه؛ لم تكن إلا ثمرة لمجموعة كبيرة من المعارك الحاسمة الصغرى والمتألقة؛ والتي لم يخفت بريقها إلا بسبب ما نال سواها من الشهرة والوهج المتألق. ولقد عرفت بلاد الشام أياماً حاسمة لا تحصى قبل الوصول إلى حطين، كذلك تعرض المغول التتار لعدد كبير من المقاومات؛ وخاضوا معارك حاسمة كبيرة؛ قبل أن يصلوا إلى عين جالوت، والأمر مشابه لمعارك العرب المسلمين وأيامهم على كل الجبهات.

لقد عرف العرب المسلمون، منذ انطلاقتهم الأولى إلى دنيا الفتوح، أنهم يخوضون حروب الجهاد في سبيل الله؛ وأنها حروب غير محدودة لا بزمان محدد؛ ولا بمكان معين؛ وأنهم يحاربون بدينهم ضد أعداء الإسلام والمسلمين؛ وهم أعداء بدورهم أكثر من أن يحصيهم عدد. فكان البحث عن الحسم في حروبهم؛ هو وسيلتهم - في جملة الوسائل وليس الوسيلة الوحيدة - من أجل حرمان أعداء الإسلام والمسلمين من فرص معاودة حمل السلاح لقتال المسلمين كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

ولقد جابه المسلمون على امتداد تاريخهم الطويل تحولات كثيرة؛ ما بين الهجوم المحدود والهجوم الشامل؛ وما بين الدفاع المحدود والدفاع الشامل (كمثل مجابهتهم للحملات الصليبية القديمة)؛ ولكن ورغم هذه التحولات بقي (الحسم) هو وسيلتهم الرئيسة، وأحد المبادىء الثابتة، في كل معركة من معاركهم؛ وفي كل يوم من أيامهم.

٤

الاستراتيجية البحرية ـ القارية

فتح الله على العرب المسلمين أبواب الدنيا؛ برها وبحرها؛ جبالها ووهادها، سهولها وقفارها؛ فانطلقوا يجوبون الآفاق طلباً لإحدى الحسنيين؛ يحاربون ويجاهدون في سبيل الله أعداء الله حيثما وجدوا لذلك سبيلاً. وأعانهم الله بعونه فذلل لهم البحار؛ فركبوا أمواجه؛ واقتحموا ظلماته، فكانت أيام العرب المسلمين في جهاد البحر كمثل أيامهم في البر.

وتعود قصة ركوب المسلمين البحر ـ على ما هو معروف ـ إلى ذاك الفكر المدبر ـ والذي يوصف اليوم بالفكر الاستراتيجي ـ الذي وهبه الله لأمير الشام معاوية بن أبي سفيان رضوان الله عليه ـ من قبل أن يصبح أميراً للمؤمنين ـ. فقد أدرك معاوية أنه لا سبيل لضبط الروم ـ البيزنطيين ـ واتقاء شرهم؛ وحماية العرب المسلمين في بلادهم التي فتحها الله عليهم، إلا بركوب البحر. فقد كان الروم يسيطرون على البحر الأبيض المتوسط منذ قرون؛ وكانت لهم فيه ثغورهم وأساطيلهم، فتربط أقاليم البحر وجزره بعضها ببعض، وتؤمن الاتصال والسيطرة عليها وعلى سكانها. وجاءت الأحداث المتتالية لتبرهن على هذه الحقيقة. فقد فتح عمرو بن العاص وجند الله (مصر) سنة ٢٠ هـ ـ ٦٤٠ م، ولم يسلم الروم بهذه الهزيمة: «**وعظم عليهم فتح المسلمين الإسكندرية؛ وظنوا أنهم لا يمكنهم المقام ببلادهم بعد خروج الإسكندرية عن ملكهم، فكاتبوا من كان فيها من الروم، ودعوهم إلى نقض الصلح؛ فأجابوهم إلى ذلك، فسار إليهم من القسطنطينية جيش**

كثير؛ وعليهم منويل الخصي؛ فأرسوا بها...

ولما بلغ عمرو ابن العاص خبر نقض الإسكندرية الصلح، سار إليهم؛ فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً؛ فانهزم الروم وتبعهم المسلمون إلى أن أدخلوهم الإسكندرية، وقتلوا منهم في البلد مقتلة عظيمة منهم منويل الخصي، وهدم عمرو سور الإسكندرية وتركها بغير سور»[1].

وأوغل العرب المسلمون في تقدمهم غرباً؛ ففتحوا برقة وطرابلس الغرب وانتصروا على ملك أفريقية (جرجير) ودخلوا عاصمته (سبيطلة). واغتاظ هرقل ملك الروم؛ إذ كان كل ملك من ملوك النصارى من أفريقية يؤدي الخراج في كل سنة، فأرسل هرقل إلى أهل أفريقية بطريقاً وأمره أن يأخذ منهم مثل ما أخذ المسلمون، فنزل البطريق في قرطاجنة (سنة ٢٦ هـ - ٦٤٨ م) وجمع أهلها واستشارهم، وطرد العامل الذي عينه العرب المسلمون والياً على أفريقية بعد مقتل ملكها جرجير. فلما علم معاوية بن أبي سفيان بذلك أرسل جيشاً كبيراً بقيادة معاوية بن حديج السكوني؛ فلما وصل ابن حديج، وجد أفريقية ناراً تضطرم، فنزل عند قمونية، وأرسل البطريق إليه ثلاثين ألف مقاتل، فقاتل المسلمون وانتصروا عليهم. وفتح الله للمسلمين حصن جلولاء، فسكن أهل أفريقية وأطاعوا.

وإذن؛ فقد كان لزاماً على العرب المسلمين قطع صلات أهل البلاد التي فتحها الله على المسلمين وعزلهم عن الروم؛ حتى يتحقق الأمن والاستقرار، فكان السبيل الوحيد هو خوض الجهاد في البحر. واضطلع معاوية بن أبي سفيان بهذا العبء الثقيل، وانصرف لبناء أسطول عربي - إسلامي في موانىء بلاد الشام، وعين عليه **(عبد الله بن قيس الجاسي - حليف بني فزارة) فكان هذا أول أمير للبحر**[2].

---

(١) تاريخ الطبري، والكامل في التاريخ - أحداث سنة ٢٥ هـ - ذكر خلاف أهل الإسكندرية. وذكر ابن الحكم (فتوح مصر) أن عمرو بن العاص كان قد أقسم عندما بلغه نقض الإسكندرية الصلح: لئن أظهره الله عليهم ليهدمنَّ سورها حتى تكون مثل بيت الزانية تؤتى من كل مكان. فلما نصره الله عليهم، وانهزموا - أمر بهدم سورها.

(٢) استشهد عبد الله بن قيس الجاسي؛ في غزوه له، حينما خرج في قارب طليعة، فانتهى إلى مرفأ من أرض الروم؛ ووجد فيه مساكين يسألون؛ فتصدق عليهم؛ ورجعت امرأة منهم إلى =

وقام معاوية بن أبي سفيان بافتتاح مجال الغزو في البحر، فغزا قبرس (قبرص) سنة ٢٨ هـ وافتتحها، واشترط على أهلها: «**أن يؤدوا كل سنة سبعة آلاف دينار؛ وعليهم أن يؤذنوا - يعلموا - المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم؛ ويكون طريق المسلمين إلى العدو عليهم**». وبقي عبد الله بن قيس الجاسي أميراً على البحر؛ فغزا خمسين غزوة ما بين شاتية وصائفة، لم يغرق فيه أحد ولم ينكب؛ وكانت دعوته: «**إن لا يبتليه الله بمصاب أحد من جنده**» فاستجاب الله لدعائه، وكان شعاره في القتال: «**الغمرات ثم ينجلينا**».

لما علم الروم بانتصار المسلمين في أفريقية؛ **خرج قسطنطين بن هرقل (سنة ٣١ هـ - ٦٥١ م) في جمع لم تجمع الروم مثله مذ كان الإسلام. فخرجوا في خمسمائة مركب أو ستمائة**؛ وخرج العرب المسلمون، وعلى أهل الشام معاوية بن أبي سفيان وعلى البحر عبد الله بن سعد بن أبي سرح. والتقى الأسطولان، أسطول مصر وأسطول الشام، واصطدموا بأسطول الروم، فكانت معركة **(ذات الصواري)** التي أنزل الله فيها نصره على المسلمين. وتمزق أسطول الروم، وهرب قسطنطين في مركبه إلى (صقلية)، فسأله أهلها عن حاله فأخبرهم فقالوا: «أهلكت النصرانية وأفنيت رجالها، فلو أتانا العرب لم يكن عندنا من يمنعهم» ثم أدخلوه الحمام وقتلوه. ويظهر ذلك حقيقتان:

أولاهما: تمكن العرب المسلمين من ركوب البحر؛ وقدرتهم على الجهاد فيه؛ مما يمكنهم من حد الخطر البحري للروم.

والثانية: هي استثمار الروم لكل قدرات أهل البحر والأقاليم المتاخمة له: أفريقية والجزر، مادياً وبشرياً، لمحاربة العرب المسلمين. فكان لزاماً بالتالي على العرب المسلمين تطوير قدراتهم البحرية لحرمان الروم من مجالهم الحيوي (بحسب التعابير الحديثة).

= قريتها فقالت للرجال: هذا عبد الله بن قيس في المرفأ، فثاروا إليه وهجموا عليه، وقتلوه بعد أن قاتلهم، فأصيب وحده. ولما رجعوا سألوا المرأة بأي شيء عرفتيه؟ قالت: كان كالتاجر، فلما سألته أعطاني كالملك فعرفته بعطائه. (ابن الأثير، والطبري: فتح قبرس - أحداث سنة ٢٨ هـ).

ولهذا فلما جاءت السنة التالية (٣٢ هـ ـ ٦٥٢ م) غزا معاوية بن أبي سفيان مضيق القسطنطينية (ومعه زوجته عاتكة بنت قرظة) فكان ذلك تهديداً للروم في عقر دارهم ومستقر ملكهم. وعلم معاوية أن أهل قبرس قد نكثوا بمعاهدتهم مع المسلمين؛ إذ أنهم أعانوا الروم على الغزو في البحر بمراكب أعطوهم إياها، فسار إليهم (سنة ٣٣ هـ ـ ٦٥٣ م) وأعاد فتح قبرس عنوة؛ وبعث إليهم اثني عشر ألفاً، وبنوا المساجد وبنى مدينة منها وحصنها، وأصبح بعد ذلك مجال الغزو في البحر مفتوحاً على مصاريعه الرحبة؛ فكانت غزوات البحر مثلها كمثل غزوات البر في الثغور وما وراء الدروب (الصوائف والشواتي)، فكانت من الأعمال القتالية الرتيبة (الروتينية) التي يمارسها أمراء البحر بحسب الظروف، ولكن بصورة منتظمة؛ ومثال ذلك ما حدث سنة ٤٩ هـ ـ ٦٦٩ م: «وفيها كانت غزوة يزيد بن شجرة الرهاوي في البحر فشتى بأهل الشام؛ وفيها كانت غزوة عقبة بن نافع البحر، فشتى بأهل مصر».

وفي سنة ٥٣ هـ ـ ٦٧٣ م **«فتح جنادة بن أبي أمية الأزدي جزيرة رودس في البحر، ونزلها المسلمون وهم على حذر من الروم. فكان المسلمون أشد شيء على الروم؛ يعترضونهم في البحر، فيأخذون سفنهم. وكان معاوية يدر لهم العطاء؛ فخافهم العدو»**. وفي السنة التالية (٥٤ هـ ـ ٦٧٤ م) فتح المسلمون بقيادة جنادة بن أبي أمية جزيرة أرواد قرب القسطنطينية؛ فأقاموا بها سبع سنين، فلما مات معاوية؛ وولي ابنه يزيد، أمرهم بالعودة فعادوا.

توفي معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ سنة ٦٠ هـ ـ ٦٧٩ م. وكان العرب المسلمون قد أمكن لهم فرض سيادتهم على القسم الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، مع ما يوازي هذا القسم من الأرض الأفريقية (حتى حدود تونس حالياً). ولكن بقيت للروم.سيطرتهم على القسم الغربي من البر والبحر. فلما كانت سنة ٦٢ هـ ـ ٦٨١ م، جاء عقبة بن نافع في ولايته الثانية وبدأت صفحة جديدة في صراع البر والبحر.

سار عقبة بجيشه من قاعدته (القيروان) إلى (باغاية) ما بين مجانة وقسنطينة ـ في الجزائر حالياً ـ فلقيه جمع كبير من الروم والنصارى، فقاتلهم عقبة وانتصر عليهم وقتل فيهم قتلاً ذريعاً، ودخل المنهزمون (مدينة باغاية) فحاصرهم عقبة، ثم كره

المقام عليهم، فسار إلى بلاد الزاب.

وحدثت معارك مشابهة عند (إربة) و(تاهرت) حيث استعان الروم بالبربر فأجابوهم ونصروهم، وقاتلهم العرب المسلمون قتالاً شديداً حتى نصرهم الله على الروم ومن والاهم. وسار عقبه حتى وصل طنجة والمحيط. ولما عاد عنها ووصل إلى (تهوذا)، صرف عقبة جيشه، وبقي مع الساقة (المؤخرة)، فلما رآه الروم في قلة طمعوا فيه؛ واستعانوا بالبربر (بقيادة كسيلة) فحاربوا عقبة الذي قاتل حتى استشهد وكل من كان معه من العرب المسلمين. وأظهرت هذه المعركة ضرورة القضاء على التحالف القائم بين الروم وبين أبناء البلاد (البربر). وعلم أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان بمأساة تهوذا واستشهاد عقبة، فأصدر أمره إلى (زهير بن قيس البلوي) الذي كان مقيماً في أفريقية (برقة) بمتابعة الفتوح، وعهد إليه بولاية أفريقية.

جهز عبد الملك بن مروان جيشاً كثيراً لاستنقاذ المسلمين في أفريقية، فسار زهير بن قيس البلوي بهذا الجيش؛ ودخل أفريقية سنة ٦٩ هـ - ٦٨٨ م، ووصل القيروان وأقام ظاهرها ثلاثة أيام، ثم سار إلى (ممش) فقاتل جيش الروم والبربر. واشتد القتال والقتل في الفريقين حتى أيس الناس من الحياة؛ ثم نصر الله المسلمين، وقتل ملك البربر (كسيلة)، وتبع المسلمون البربر والروم، وتوجه نحو أفريقية. **فلما بلغ الروم بالقسطنطينية مسير زهير من برقة إلى أفريقية؛ اغتنموا خلوَّها فخرجوا إليها في مراكب كثيرة وقوة قوية من جزيرة صقلية؛ وأغاروا على برقة، فأصابوا منها سبياً كثيراً، وقتلوا ونهبوا. وبلغ ذلك زهيراً وهو عائد من أفريقية إلى برقة، فأمر العسكر بالسرعة والجد؛ وتقدم هو ومن معه؛ فلما رآه المسلمون استغاثوا به؛ ولم يكن باستطاعته الرجوع؛ ولا انتظار وصول جيشه، فباشر القتال؛ واشتد الأمر؛ وعظم الخطب، وتكاثر الروم عليهم؛ فقتلوا زهيراً وأصحابه؛ ولم ينج منهم أحد،** وعاد الروم بما غنموا إلى القسطنطينية.. ولما علم عبد الملك بن مروان بقتل زهير؛ عظم عليه واشتد؛ فسيَّر إلى أفريقية (حسان بن النعمان الغساني) وجهز له جيشاً كثيراً؛ (لم يدخل أفريقية قط جيش مثله). ووصل حسان بجيشه إلى القيروان، وسار منها إلى قرطاجنة، فرأى بها من الروم والبربر ما لا يحصى كثرة، فقاتلهم وقتل منهم كثيراً؛ **واتخذ الروم قرارهم بالهرب، وركبوا مراكبهم؛ وسار**

بعضهم إلى صقلية؛ وبعضهم إلى الأندلس، ودخلها حسان بالسيف، وأمر بهدم قرطاجنة. ثم بلغه أن الروم والبربر قد اجتمعوا له في صطفورة وبنزرت، فسار إليهم وقاتلهم؛ ولقي منهم شدة وقوة، فصبر لهم المسلمون، وانهزمت الروم؛ وكثر القتل فيهم؛ واستولوا على بلادهم، ولم يترك حسان موضعاً من بلادهم إلّا وطئه. وخاف أهل أفريقية خوفاً شديداً، **ولجأ المنهزمون من الروم إلى مدينة (باجة) فتحصنوا بها، وتحصن البربر بمدينة (بونة)**. . . وتابع حسان حربه حتى قضى على ثورة الكاهنة (سنة ٧٤ هـ - ٦٩٣ م).

وهكذا ضعف التحالف الذي كان قائماً بين الروم وأهل البلاد (البربر). غير أن الوضع بقي قلقاً وبعيداً عن الاستقرار حتى جاء موسى بن نصير (سنة ٨٩ هـ - ٧٠٧ م) فكان أول عمل له هو توجيه (غزوة الأشراف) لغزو صقلية. **وتتابعت الغزوات فتم فتح جزر الباليئار في غرب المتوسط** (مينورقة وماجورقة **ويابسة**)، وكان ذلك ضماناً لاستقرار فتوح المغرب العربي الإسلامي، والمرحلة الأولى لفتح الأندلس (سنة ٩٢ هـ - ٧١٠ م).

أصبح باستطاعة الروم البيزنطيين الانطلاق من الموانىء الشمالية للبحر الأبيض المتوسط؛ من أجل مهاجمة العرب المسلمين في المغرب العربي - الإسلامي (شمال أفريقية) والإغارة على الجزر التي احتلها العرب المسلمون. وبات لزاماً على العرب المسلمين بالتالي نقل الصراع نحو آفاق جديدة (مثل صقليا وإيطاليا **واليونان**)، وهذا ما حدث في الواقع، وعلى سبيل المثال: «ففي سنة خمس وثلاثين ومائة هجرية - ٧٥٢ م اشتغل ولاة أفريقية بالفتنة مع البربر، فأمنت صقلية، وجاء الروم فعمروها من جميع الجهات وأقاموا الحصون والمعاقل؛ وصاروا يخرجون كل عام مراكب تطوف بالجزيرة، وتذب عنها؛ وربما صادفوا تجاراً من المسلمين فيأخذونهم. فلما كانت هذه السنة؛ غزا عبد الله بن حبيب جزيرة صقلية وغنم بها وسبى وظفر بها ما لم يظفره أحد قبله».

بقيت صقلية هي القاعدة المتقدمة للروم البيزنطيين؛ من أجل الهجوم على بلاد العرب المسلمين؛ حتى إذا ما كانت سنة ٢١٠ هـ - ٨٢٥ م؛ أرسل ملك الروم بالقسطنطينية بطريقاً لحكم صقلية، اسمه قسطنطين، فلما وصل هذا إلى صقلية وجه

أسطولاً وجيشاً بقيادة قائد عرف بالشجاعة والحزم اسمه فيمي؛ إلى أفريقية. فغزا أسطول الروم السواحل وأخذ تجاراً ونهب وبقي هناك فترة مديدة. فلما كانت سنة ٢١٢ هـ ـ ٨٢٧ م، أرسل والي أفريقية (زيادة الله إبراهيم بن الأغلب) الأسطول الإسلامي بقيادة (أسد بن الفرات). فنزل المسلمون في مدينة (مازر) من صقلية، وحاربوا الروم واشتد القتال، وأنزل الله نصره على المسلمين، فانهزم الروم وغنم المسلمون أموالهم ودوابهم، واستولى المسلمون على عدة حصون من الجزيرة، وحاصروا سرقوسة براً وبحراً. ووصل أسطول للروم من القسطنطينية؛ وتزايد الاقتتال عنفاً وشدة، وقتل عدد كبير من المسلمين في مقدمتهم (أسد بن الفرات)، وانتشر الوباء في صفوف المسلمين، وضعفت قوتهم، ورغم ذلك فقد استطاعوا فتح مدينة (ميناو) وحصن (جرجنت)، كما تمكنوا من إحراق بعض سفن الروم. وأوشك المسلمون على الفناء بعد أن أرسل الروم جيشاً جديداً إلى صقلية، غير أن مدداً وصلت إلى المسلمين سنة ٢١٤ هـ ـ ٨٢٩ م حيث أقبل أسطول كثير من الأندلس، بالإضافة إلى مراكب كثيرة من أفريقية، فبلغت عدة الجميع ثلثمائة مركب، فسار المسلمون إلى مدينة (بالرم) وفتحوها، ثم ساروا إلى عاصمة الجزيرة (قصريانة) وحاصروها وفتحوها، واستمر الاقتتال في البر والبحر. وأرسل ملك الروم أسطولاً كبيراً سنة ٢٢٣ هـ ـ ٨٣٧ م، فوقعت بين الروم والمسلمين حروب كثيرة. وانسحب المسلمون من قصريانة، وعادوا إلى قاعدتهم (بالرم)، ثم عادوا للهجوم ثانية (سنة ٢٢٨ هـ ـ ٨٤٢ م)، فسار الفضل بن جعفر الهمذاني في البحر؛ فنزل مرسى (مسينا) وبث السرايا فطلب إليه أهل (نابولي) الأمان فأمنهم، وفتح مدينة (مسكان) و(طارنت)، ولم يتمكن المسلمون من فتح قصريانة حتى سنة ٢٤٤ هـ ـ ٨٥٨ م، فتم بذلك إكمال فتح جزيرة صقلية. وقد حاول الروم إيقاف فتح ما بقي من الجزيرة، فأرسلوا قوة ضخمة وأسطولاً من ثلثمائة سفينة (شلندي) غير أن المسلمين هزموا هذه القوة؛ في البر والبحر، وأرغموا بقاياها على الانسحاب والفرار، غير أن ذلك لم يضع نهاية للاقتتال، فقد عمل الروم في كل مناسبة لاستثارة الأهالي ودعمهم لقتال المسلمين على أرض صقلية.

أخذت دولة الروم ـ البيزنطيين ـ في توجيه حملاتها نحو صقلية؛ ونحو الجزر

التي احتلها العرب المسلمون[1]، فيما أخذت الدول الصليبية الغربية في توجيه حملاتها نحو الأندلس. وكانت هذه الحملات البحرية متباعدة وغير منتظمة في بداية أمرها، ثم أخذت في التقارب والانتظام عبر القرنين التاسع والعاشر الميلاديين إلى أن وصلت ذروتها عندما أُعلنت الحروب الصليبية.

ويمكن استقراء بعض ملامح هذا الصراع فيما حدث سنة ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤ م، حيث أغار النورمان ـ أو الأردمانيون ـ عبر المنافذ النهرية، ودخلوا إشبيلية؛ فأرسل إليهم أمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم (١٧٦ ـ ٢٣٨ هـ ـ ٧٩٢ ـ ٨٥٢ م) العساكر والقواد من قرطبة «فنزل النورمان من مراكبهم، وقاتلهم المسلمون فهزموهم بعد مقام صعب. ثم جاءت العساكر مدداً من قرطبة، فقاتلهم النورمان، فهزمهم المسلمون، وغنموا بعض مراكبهم وأحرقوها، ورحل النورمان إلى شذونة فأقاموا عليها يومين؛ وغنموا بعض الشيء. ووصلت مراكب عبد الرحمن إلى أشبيلية، فأقلع النورمان إلى لبلة وأغاروا وسبوا، ثم إلى باجة ثم أشبونة، ثم انقطع خبرهم وسكنت البلاد. وأمر عبد الرحمن بتكثيف الحاميات المدافعة عن الثغور البحرية وزيادة قوتها»[2].

عاد النورمان ـ المجوس ـ لغزو الأندلس (سنة ٢٥٤ هـ ـ ٨٦٨ م) وجاءت مراكبهم من البحر الكبير ـ المحيط الأطلسي ـ **«فأفسدوا بسائط أشبونة، وناشبهم الناس القتال؛ فرجعوا إلى مراكبهم. وأخرج أمير الأندلس الحكم المستنصر العساكر والقواد لاحتراس السواحل، وأمر قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس بتعجيل حركة الأسطول، ثم وردت الأخبار بأن العساكر نالت منهم في كل جهة من السواحل».**

وكما استخدم الفرنج والنورمان الأسطول لغزو أندلس المسلمين، فقد استخدم المسلمون بدورهم الأسطول؛ وأبرز عملية يمكن التعرض لها في هذا المجال غزوة الحاجب المنصور لمدينة سانت ياقب (القديس يعقوب في شمال غرب الأندلس)

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذه المعارك (في صقلية بخاصة) يمكن الرجوع إلى أحداث السنوات الهجرية، التي سبق ذكرها في العرض، في تاريخ الطبري والكامل في التاريخ.

(٢) ابن عذارى ٢/ ١٣٠ ـ ١٣٢ ونفح الطيب ٣٤٥ ـ ٣٤٦ و٣٨٣ ـ ٣٨٤ و ٤١٤.

سنة ٣٨٧ هـ ـ ٩٩٧ م «**وكان المنصور قد تقدم في إنشاء أسطول كبير في الموضع المعروف بقصر أبي دانس**[1] **من ساحل غرب الأندلس**، وجهزه برجاله البحريين وصنوف المرتجلين؛ وحمل الأقوات والأطعمة والعدد والأسلحة استظهاراً على نفوذ العزيمة، إلى أن خرج بموضع برتقال ـ البرتغال ـ على نهر دويرة، الذي يصب عند بورتو في المحيط الأطلسي، فدخل في النهر، وعقد هناك، من هذا الأسطول، جسراً بقرب الحصن، ووجه المنصور ما كان فيه من الميرة إلى الجند؛ فتوسعوا في التزود منه إلى أرض العدو».

كان إعلان الحروب الصليبية (سنة ٤٨٨ هـ ـ ١٠٩٥ م) هو نقطة التحول الحاسمة في الصراع البحري. فقد أدى حشد الأساطيل البحرية للفرنج لتراجع دور الأسطول الإسلامي، فاضطر أسطول كل إقليم لتأمين الدفاع عن إقليمه. وانتقلت المبادأة لقبضة الفرنج، وأصبحت أساطيلهم تجوب البحر الأبيض المتوسط بحرية، كما أصبح بإمكان أساطيل الفرنج الإفادة من الجزر في شرق المتوسط لاستخدامها قواعد متقدمة لحشد قواتهم، فعادت صقلية لحكم (النورمان) وأصبحت رودس وقبرص هي القواعد الأمامية للفرنج.

وعلى الرغم من ذلك؛ فقد استطاعت الأساطيل الإسلامية القيام بدور ناجح في كثير من الأحيان ـ ولو ضمن حدودها الإقليمية الضيقة ـ. ولعل بالمستطاع هنا التوقف عند بعض أعمال الأسطول الإسلامي في مصر خلال مرحلة تصعيد الاقتتال التي سبقت حطين وتبعتها.

ففي سنة ٥٧٨ هـ ـ ١١٨٢ م «أمر صلاح الدين أسطول مصر بالمجيء إلى بيروت. فساروا في البحر إليها ونازلوها وأغاروا عليها وعلى بلدها، وسار صلاح الدين من دمشق إلى بيروت، وحصرها عدة أيام؛ وكان عازماً على ملازمتها إلى أن يفتحها، فأتاه الخبر، وهو عليها، أن البحر قد ألقى بسفن للفرنج فيها جمع عظيم منهم إلى دمياط. فعاد الأسطول إلى مصر، وأسروا من كان في السفن من الفرنج، وغرق منهم كثير، وكانت عدة أسرى الفرنج ألفاً وستمائة وستاً وسبعين أسيراً».

---

(١) قصر أبي دانس Alcacer Do Sal ـ مرسى الأسطول على ساحل البرتغال إلى الجنوب من لشبونة.

وفي هذه السنة ذاتها؛ عمل البرنس صاحب الكـرك رينالد دو شاتيون ـ وتذكره المصادر الإسلامية باسم أرناط ـ عمل أسطولاً وفرغ منه بالكرك؛ ولم يبق إلا جمع قطعه بعضها إلى بعض؛ وحملها إلى بحر إيلة ـ إيلات ـ وجمعهـا في أسرع وقت؛ وفرغ منها، وشحنها بالمقاتلة، وسيرها، فساروا في البحـر وافترقـوا فرقتين: فـرقة أقـامت على حصن إيلة يحصرونـه ويمنعون أهله من ورود المـاء، فنال أهله شـدة شديدة وضيق عليهم. وأما الفرقـة الثانيـة فإنهم سـاروا نحو (عيـذاب) وأفسدوا في السواحل؛ ونهبوا وأخذوا ما وجدوا من المـراكب الإسلاميـة ومن فيها من التجـار. **وبغتوا الناس في بلادهم على حين غفلة منهم؛ فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجياً؛ لا تاجراً ولا محارباً.** وكان بمصر الملك العـادل أبو بكـر بن أيوب ينـوب عن أخيه صلاح الدين؛ فعمر أسطولاً وسيره وفيه جمع كثير من المسلمين، **وتقـدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب، وهو متولي الأسطول بديار مصر؛ وكـان مظفـراً فيه شجـاعاً كريماً.** فسار لؤلؤ مجدًّاً في طلبهم؛ فابتدأ بالذين على إيلة فانقض عليهم انقضاض العقاب على صيده، فقتل بعضهم وأسر الباقي. وسار من وقته بعد الظفر يقص أثـر الذين قصدوا عيذاب؛ فلم يرهم، وكانوا قد أغاروا على ما وجدوه بها وقتلوا من لقوه عندها. وساروا إلى غير ذلك المرسى ليفعلوا كما فعلوا فيه؛ **وكـانوا عـازمين على الدخول إلى الحجاز، مكة والمدينة حرسهما الله تعالى؛ وأخذ الحجاج ومنعهم عن البيت الحرام والدخول بعد ذلك إلى اليمن.** فلما وصل لؤلؤ إلى عيذاب ولم يرهم؛ سار يقفو أثرهم فبلغ رابغ وساحل الجوزاء وغيرهمـا؛ فأدركهم بسـاحل الجـوزاء؛ فأوقع بهم هناك. فلما رأوا العـطب وشاهـدوا الهلاك؛ خـرجوا إلى البـر واعتصموا ببعض تلك الشعاب. فنزل لؤلؤ من مراكبه إليهم وقاتلهم أشد قتال، وأخذ خيلاً من الأعراب الذين هنـاك؛ فركبهـا وقاتلهم فـرسانـاً ورجالـة ـ مشاة ـ فـظفر بهم وقتـل أكثرهم، **وأخذ الباقين أسرى وأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها في عيد النحـر ـ الأضحى ـ عقوبة لمن رام إخافة حرم الله تعالى؛ وحرم رسوله ﷺ وعاد بالباقين إلى مصر؛ فقتلوا جميعهم.**

وفي هذه السنة أيضاً (٥٧٨ هـ ـ ١١٨٢ م) سار أسـطول المسلمين من مصر، فلقوا سفينة كبيرة (بطسة) فيها نحو ثلثمائة من الفرنج بالسلاح التام، ومعهم الأموال

والسلاح إلى فرنج الساحل؛ فقاتلوهم؛ وصبر الفريقان؛ وكان الظفر للمسلمين؛ وأخذوا الفرنج أسرى فقتلوا بعضهم وأبقوا بعضهم أسرى؛ وغنموا ما معهم؛ وعادوا إلى مصر سالمين.

وجاءت بعد ذلك معركة حطين (سنة ٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م) وفتح الله للمسلمين مدناً وحصوناً وقلاعاً كثيرة، منها مدن يافا وصيدا وجبيل وبيروت وعكا وعسقلان والقدس وجبلة واللاذقية، وجاء أسطول الفرنج من صقلية فلم يتمكن من تقديم أي دعم للفرنج، في اللاذقية وسواها. ثم جاءت الحملة الصليبية الثالثة، فركزت جهدها على استعادة عكا من قبضة المسلمين. ودارت معارك قاسية (سنة ٥٨٦ هـ - ١١٩٠ م) ذكر المؤرخون بعض ملامحها ومنها: «**وصل الأسطول من مصر؛ فلما سمع الفرنج بقربه جهزوا إلى طريقه أسطولاً ليلقاه ويقاتله؛ فركب صلاح الدين في العساكر جميعها وقاتلهم من جهاتهم ليشتغلوا بقتاله عن قتال الأسطول ليتمكن من دخول عكا، فلم يشتغلوا عن قصده بشيء؛ فكان القتال بين الفريقين براً وبحراً، وكان يوماً مشهوراً لم يؤرخ المسلمون مثله. وأخذ المسلمون من الفرنج مركباً فيه من الرجال والسلاح؛ وأخذ الفرنج من المسلمين مثل ذلك؛ إلا أن القتل في الفرنج كان أكثر منه في المسلمين؛ ووصل الأسطول الإسلامي سالماً**». واشتد الحصار على عكا بوصول نجدات للفرنج، وضاق المسلمون وهم في حصار شديد داخل أسوار عكا، «فأرسل صلاح الدين إلى الإسكندرية يأمرهم بإنفاذ الأقوات واللحوم وغير ذلك في المراكب إلى عكا؛ فتأخر إنفاذها؛ فسيَّر إلى نائبه بمدينة بيروت في ذلك؛ فسير سفينة كبيرة مملوءة من كل ما يريدونه؛ وأمر من بها فلبسوا ملبس الفرنج وتشبهوا بهم ورفعوا عليها الصلبان. فلما وصلوا إلى عكا لم يشك الفرنج أنها لهم، فلم يتعرضوا لها. فلما جازت ميناء عكا أدخلها من بها، ففرح بها المسلمون وانتعشوا وقويت نفوسهم، وتبلغوا بما فيها إلى أن أتتهم الميرة من الإسكندرية. وخرجت ملكة من الفرنج من داخل البحر في نحو ألف مقاتل، فأخذت بنواحي الإسكندرية، وأخذ من معها»[1].

قد تكون القراءات السابقة كافية لإبراز الملامح العامة، لاستخدام الأسطول

---

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنوات ٥٧٨ و٥٨٣ و٥٨٦ هـ.

الإسلامي في فترة الحروب الصليبية. ولعل من أهم تلك الملامح هو قيام الأسطول الإسلامي بدور ناجح وفعال على مستوى الأعمال القتالية (العمليات)، غير أنه كان عاجزاً عن ممارسة دور استراتيجي. إذ كان الاضطلاع بهذا الدور يتطلب، قبل كل شيء، قدرات كافية لعزل السواحل في الشام ومصر، وحرمان أساطيل الفرنج بالتالي من الوصول إلى الأراضي التي سيطر عليها الفرنج في بلاد الشام، وكان ذلك يتطلب أيضاً السيطرة على القواعد المتقدمة التي كانت تستخدمها أساطيل الفرنج لحشد قواتها (مثل رودس وقبرص)، وقد أدرك ذلك (الأشرف خليل) إذ وجد أنه بعد أن تمكن من طرد الفرنج من عكا سنة ٦٩١ هـ - ١٢٩١ م؛ لم يتمكن من إزالة تهديد الفرنج، لا سيما وقد انتقلت الفئات الدينية المحرضة على الحروب الصليبية من بلاد الشام إلى الجزر القريبة، فأقامت فئة أو طائفة الفرسان الداوية في قبرص، فيما أقامت طائفة الأسبتارية في رودس. وسرعان ما عمل ملك قبرص على إرسال خمس عشرة سفينة تساعدها عشر سفن من لدى البابا، فأغارت على الإسكندرية. فأمر الأشرف خليل ببناء مائة سفينة لطرد الفرنج من الجزيرة. وكان يهتف وهو يتابع بناءها: (قبرص؛ قبرص؛ قبرص)[1]، غير أن المنية عاجلته، فلم يتمكن من متابعة مشروعه؛ غير أن قوة إسلامية جديدة كانت تشق طريقها عبر الجهاد في سبيل الله، قد أخذت على عاتقها هذا الواجب، وهي الدولة العثمانية.

أصبحت الدول الأكثر قرباً من ديار الإسلام هي الدول الأشد عداء للإسلام وأهله؛ بسبب التحريض الصليبي ورواسب الحملات الصليبية ونتائجها. ولما شرعت الدولة العثمانية في نقل الحروب إلى أرض أوروبا، وجدت نفسها مرغمة على مجابهة هذه الدول. ولهذا كان من طبيعة الأمور أن يتوجه السلطان محمد الفاتح (٨٣٣ - ٨٨٦ هـ/ ١٤٢٩ - ١٤٨١ م) فور انتهائه من فتح القسطنطينية لفتح بلاد مورة (اليونان)، وتم له ذلك سنة ٨٦٥ هـ - ١٤٦٠ م، ففتح كورينث وجزائر تاسوس والبروس وسواها، ثم فتح سنة ٨٧٥ هـ - ١٤٧٠ م جزيرة (نجربونت) أو جزيرة أغريبوس)، وحاصر جزيرة رودس التي أصبحت قاعدة لطائفة الفرسان الأسبتارية (رهبنة القديس حنا الأورشليمي) سنة ٨٨٥ هـ - ١٤٨٠ م، غير أنه لم يتمكن من

(١) تاريخ الحروب الصليبية ٣/ ٧٣٥.

فتحها، وكان ذلك بهدف خنق دولتي البندقية وجنوة وإخضاعهما.

وتابع العثمانيون تنفيذ سياستهم البحرية فتم لهم في عهد السلطان سليمان القانوني (٩٠٠ - ٩٧٤ هـ/ ١٤٩٥ - ١٥٦٦ م) **فتح جزيرة رودس (سنة ٩٢٩ هـ - ١٥٢٣ م)** فانتقل من بقي من طائفة فرسان الأسبتارية إلى جزيرة مالطا. غير أن أهم عمل تم إنجازه هو تقديم الدولة العثمانية الدعم لأسطول الجزائر (الذي كان يقوده أمير البحر خير الدين بربروس وأخوه عروج) من أجل طرد الأسبان من تونس والجزائر، **حيث كان هذا الأسطول يخوض صراعاً مريراً لنصرة المسلمين في الأندلس وفي البحر المتوسط وفي الجزائر وتونس** (سنة ٩٤٢ هـ - ١٥٣٥ م).

وفي سنة ٩٤٤ هـ - ١٥٣٧ م أظهرت جمهورية البنادقة نواياها العدوانية ضد الدولة العثمانية الإسلامية، فأرسل السلطان سليمان القانوني جميع الدونمات - الأساطيل - الإسلامية بقيادة خير الدين باشا بربروس الذي تمت ترقيته لرتبة قبودان - أمير الأسطول -. وضمت هذه الأساطيل نحو ألف سفينة وذلك لمحاصرة جزيرة (كورفو) الواقعة جنوب ألبانيا وشمال اليونان، فتمت محاصرتها، ثم رفع الحصار عنها بسبب مقاومة أهلها الضارية. وتوجه خير الدين باشا بعد ذلك لفتح ما بقي من جزائر الروم، ففتح أغلبها؛ وغزا جزيرة كريت. وقابل في طريق عودته أسطولاً ضم مائة وسبعين سفينة تقريباً بقيادة أميرال شارلكان (أندريه دوريا) فحاربه وانتصر عليه (سنة ٩٤٥ هـ - ١٥٣٨ م).

وكان السلطان سليمان القانوني قد تحالف مع ملك فرنسا (فرانسوا الأول) ضد أمبراطور الغرب وملك أسبانيا (شارلكان - أو شارل الخامس)، فتوجه الأسطول العثماني - الإسلامي نحو مرسيليا، حيث انضم إليه الأسطول الفرنسي، وتوجه الأسطولان إلى مدينة نيس ففتحاها عنوة سنة ٩٥٠ هـ - ١٥٤٣ م، وأمضى الأسطول العثماني فصل الشتاء في مدينة طولون الفرنسية، وعاد بعدها إلى عاصمة الإسلام (إسلام بول).

وعمل السلطان سليمان القانوني، على أثر ذلك، على دعم الأسطول وذلك لحماية الجزائر وطرابلس الغرب التي فتحها الأسطول سنة ٩٥٨ هـ/ ١٥٥١ م، وطرد بقايا الأسبانيين بصورة نهائية من أقطار المغرب العربي - الإسلامي.

وظهر خلال ذلك أن فرسـان الأسبتاريـة (رهبنة القـديس حنا الأورشليمي) قـد تابعوا دورهم في التحـريض والعدوان ضـد المسلمين، فخرج الأسـطول العثماني وألقى الحصار على مالطة لمدة تسعة أشهر تقريباً (سنة ٩٧٢ هـ ـ ١٥٦٥ م).

وعندما تولى السلطان سليم الحكم (٩٣٠ ـ ٩٨٢ هـ ـ ١٥٣٣ ـ ١٥٧٤ م) كان أول عمل له هو فتح جزيرة قبرص، فأرسل إليها أسطولاً ضخماً حمل مائة ألف مقاتل (سنة ٩٧٨ هـ ـ ١٥٧٠ م) فتم فتح مدينة ليماسول ثم فاماغـوستا، وتمت السيـطرة الكاملة على الجزيرة، والقضاء على كل المقاومات في السنة التالية.

واهتاجت جمهورية البنادقة لضياع قبرص فتحالفت مع أسبانيا ورهبنة مـالطا؛ ودعم البابا هذا التحالف، فتم تشكيل أسطول مشترك ضم ٧٠ سفينة أسبانية و ١٤٠ سفينة من جمهورية البندقية و ١٢ سفينة للبابا و ٩ سفن من رهبنة مالطا، وأسندت قيادة هذا الأسطول إلى (دون جوان ـ ابن شارلكان سفـاحاً من إحـدى خليلاتـه). ووقعت على الأثر (معركـة ليبانت الشهيـرة) في سنة ٩٧٩ هـ ـ ١٥٧١ م. وانتصـر الأسطول الصليبي الذي استولى على ١٣٠ سفينة عثمانية وأغرق ٩٤ سفينة أخـرى مع أخذ ٣٠ ألف أسير. غير أنه لم يمضِ على ذلك أكثر من سنة حتى أعيد تنظيم أسطول جديد زاد في قوته على الأسطول السابق. واستمرت الاشتباكات والمعارك البحرية بعد ذلك، غير أنها بقيت محدودة وثانوية، وكان النصر فيها نوباً.

وكان الاستيلاء على جزيرة كريت سنة ١٠٥٦ هـ ـ ١٦٤٦ م هو العمل الأكثـر أهمية (نظراً للموقع الجغرافي الحربي للجزيرة عند مدخـل بحر أرخبيـل اليونـان، ولتوسطها في الطريق بين الآستانة وولايات المغرب العربي ـ الإسلامي).

واستمر هذا الوضع من التوازن غير المستقر؛ **حتى جاءت حملة نـابليون على مصر (سنة ١٢١٣ هـ ـ ١٧٩٨ م)،** فكان ذلك بـداية التحـول الحاسم في الصـراع البحري الإسلامي ـ الصليبي. فقد دخلت الأساطيل الفرنسية والإنكليزية والروسية مجال عمل الأسطول الإسلامي العثماني، وفرضت وجودها من خلال المنافسة ومن خلال الصراع على توسيع دوائر (المجال الحيوي).

لقد تحالفت الدولة العثمانية مع بريطانيا لإخراج الفرنسيين من مصر، ووجدتها

بريطانيا فرصة سانحة لدعم وجودها البحري في المتوسط، وإقامة قواعد جديدة لها، وخاضت ضد فرنسا (حروب التحالفات) على أرض القارة الأوروبية؛ فيما انفردت في العمل وحدها، ودونما منافسة، في المجال البحري، وحققت بذلك انتصارها النهائي على فرنسا التي خرجت من حروب الثورة الفرنسية ومن الحروب النابوليونية وهي مستنزفة، غير أنها بقيت محتفظة بأطماعها التوسعية.

ولما كانت أقطار المغرب العربي ـ الإسلامي هي الأقطار الأكثر قرباً من سواحلها ـ وخاصة الجزائر ـ فقد أخذت في إعداد الأسباب وافتعال الحجج للغزو الاستعماري، وكانت الأساطيل الإسلامية تشكل عقبة أمام نجاح الغزو. وصحيح أن الأساطيل الإسلامية لم تكن خاضعة لقيادة واحدة، إلا أنها كانت قادرة على دعم بعضها بعضاً. ولما تفجرت الثورة في اليونان، بتحريض من روسيا بالدرجة الأولى، وعملت الدولة العثمانية على زج قواتها في اليونان؛ ثم دعمتها بجيش مصر وأسطولها، وجدتها فرنسا فرصة مثلى لتدمير الأساطيل الإسلامية، وإخراجها من ميزان القوى البحري في المتوسط.

وهكذا تحالفت فرنسا وبريطانيا وروسيا على تدمير الأسطول العثماني المصري في مياه اليونان. وحشدت هذه الدول الثلاث أساطيلها، **وأسندت قيادتها العامة للأميرال الإنكليزي (اللورد كودرنجتون) الذي قاد الأساطيل المتحالفة، وهاجم الأسطول العثماني المصري في مياه (ناڤاران)، وتمكن من إغراقه بعد معركة ضارية يوم ٢٨ ربيع الأول سنة ١٢٤٣ هـ/ ١٩ تشرين الأول ـ أكتوبر سنة ١٨٢٧ م.** أما أسطول الجزائر، فقد بقي محاصراً لمدة سنة، ثم جاء الغزو الفرنسي للجزائر سنة ١٢٤٥ هـ ـ ١٨٣٠ م ليجهز، وبصورة نهائية، على القدرة البحرية الإسلامية في مياه البحر الأبيض المتوسط.

وأفادت روسيا بدورها من هذه التطورات فهاجمت الدولة العثمانية (سنة ١٢٤٣ هـ ـ ١٨٢٨ م). وبذلك تم أشغال كل قطر إسلامي بهمومه ومشكلاته. وكان غياب الأساطيل الإسلامية هو النقطة الحاسمة في مجموع تلك التحولات التي أرسلت استطالاتها حتى الأزمنة الحديثة.

يظهر العرض السابق أن (القدرة البحرية الإسلامية) و(استخدام هذه القدرة

هجومياً) كان هو العامل الحاسم في نجاح الفتوحات العربية ـ الإسلامية واستقرارها، وأن ضعف هذه القدرة قد أدى باستمرار لتوجيه الضربات إلى الأقاليم العربية الإسلامية، سواء أخذت هذه الضربات شكل حملات صليبية معلنة؛ أو أخذت شكل حملات صليبية مقنّعة بأقنعة مختلفة (استعمار؛ انتداب؛ وصاية).

كما يظهر العرض السابق أيضاً أن العامل الأساسي في نجاح القدرة البحرية الإسلامية؛ هو في تعاونها بعضها مع بعض. فقد انتصر المسلمون في معركة (ذات الصواري) بفضل تعاون الأسطولين الشامي والمصري. وانتصر العرب المسلمون في الأندلس، بفضل استخدام أساطيلهم التي نظموها في قواعد مصر وتونس والمغرب. كذلك نجح العثمانيون في استعادة السيطرة على البحر الأبيض المتوسط بفضل تعاون الأسطولين العثماني والجزائري. ونجح العثمانيون في إخضاع ثورة اليونان بفضل تعاون الأسطولين العثماني والمصري. كما برهنت التجربة المتطاولة للبحرية الإسلامية، أنه من المحال على أية بحرية قطرية إسلامية تحقيق متطلبات الدفاع وحدها، حتى عن حدودها البحرية القطرية. ولقد كانت القدرة البحرية المصرية قوية نسبياً أيام الحروب الصليبية القديمة، ولكنها لم تتمكن من مجابهة أسطول الحملة الصليبية السابعة التي هاجمت مصر سنة ٦٤٦ هـ ـ ١٢٤٨ م، كما كان الأسطول الجزائري قوياً سنة ١٢٤٦ هـ ـ ١٨٣٠ م، ولكنه لم يتمكن من إحباط هجوم فرنسا على الجزائر.

حقيقة أخرى برهنت عليها تجربة البحرية الإسلامية عبر القرون؛ وعبر الصراع المرير؛ وهي أن نجاح العمليات البحرية مرتبط بنجاح العمليات البرية قدر ارتباط هذه العمليات بالعمليات البحرية. أي أن هناك علاقة ثابتة ومتبادلة بين القوتين البرية والبحرية. فإذا كان نجاح الفتوحات في المغرب العربي ـ الإسلامي، وفي صقلية والأندلس، قد ارتبط بنجاح الأساطيل الإسلامية في تأمين الحماية للأقاليم التي فتحها الله على المسلمين، فكذلك أفادت الأساطيل الإسلامية من نجاح العمليات البرية. ولقد جاءت التجربة الإسلامية العثمانية لتؤكد هذه الحقيقة، فقد كانت الانتصارات البحرية العثمانية مرتبطة بانتصارات برية مماثلة أوصلت قوات المسلمين إلى معظم أرجاء أوروبا (الشرقية)، ومقابل ذلك فقد عملت الانتصارات البحرية

على دعم الانتصارات البرية.

يظهر من ذلك أن استخدام القدرة البحرية، بالتنسيق مع الأعمال القتالية البرية، كان إحدى المميزات الأساسية للمذهب العسكري الإسلامي. ولقد أمكن من خلال التجارب القتالية المستمرة طوال ثلاثة عشر قرناً من عمر الزمن، تشكيل مجموعة من المفاهيم والمبادىء في مجال تعاون القوات البرية - البحرية. ولقد جاءت هذه المبادىء في الواقع متطابقة مع أحدث المفاهيم القتالية للدول العظمى في الأزمنة الحديثة. فتشكيل قطعات بحرية تضم جميع صنوف الأسلحة (مثل حاملات الطائرات السوفييتية - كييف وعائلتها)، وكذلك تنظيم الأساطيل الأمريكية والغربية، بحيث تضم هذه الأساطيل مختلف صنوف الأسلحة، ما هو إلا نتيجة لتجارب قتالية حديثة جاءت متطابقة مع خلاصة التجربة التاريخية للأساطيل الإسلامية. كذلك فإن تحقيق التوازن بين عمل القوات البرية والقوات البحرية، في الأساطيل الحديثة، ما هو إلا تطوير لمفهوم التوازن الذي التزم به العرب المسلمون منذ البدايات المبكرة لاقتحامهم مجال العمل البحري.

٥

حرب الثغور ـ الهجوم الإجهاضي المسبق

دخل اصطلاح (الهجوم الإجهاضي المسبق) في جملة مصطلحات (العصر النووي). ولكن، وكما جرت العادة في الأزمنة الحديثة؛ إذ ما يكاد يظهر تعبير أو وصف أو اصطلاح جديد، حتى تتناقله الألسن؛ وحتى تلتقطه أجهزة الإعلام؛ فيتطور ذاك الوصف أو الاصطلاح تطوراً مثيراً بحيث يصل التطور أحياناً إلى درجة من الغرابة تجعل من الصعب الربط بين أصل الاصطلاح وبين ما تبعه من تطور ومن توسع في استخدامه.

وهكذا؛ فقد جرى سحب اصطلاح (الهجوم الإجهاضي المسبق) من مجال المصطلحات المتعلقة باستخدام الأسلحة النووية؛ إلى مجال الصراعات والحروب بالأسلحة التقليدية. وقد تم تعريف هذا الاصطلاح بما يلي: «توجيه الضربة الهجومية إلى عدو أكمل استعداداته للهجوم وبدأ به، أو أنه على وشك البدء بتنفيذه». وذهبت إسرائيل ـ على سبيل المثال ـ إلى ما هو أبعد من ذلك، فحددت شروطاً اعتبرت أن ظهور أحدها هو بمثابة إعلان حرب يستوجب توجيه (الهجوم الإجهاضي المسبق)، كمثل ما فعلته في عدوان حزيران ـ يونيو ١٩٦٧ م، عندما اعتبرت أن إقفال خليج العقبة هو عمل يستوجب شن الحرب على البلاد العربية.

والمهم في الأمر كله؛ هو أن ممارسة (الهجوم الإجهاضي المسبق) ليس بالأمر الجديد في تاريخ فن الحرب. فتعبير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه «اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا» ما هو إلاّ

وصف للهجوم الإجهاضي المسبق.

ويظهر تاريخ فن الحرب الإسلامي، منذ البداية في غزوات الرسول ﷺ، ومروراً بحروب الردة والفتوحات الكبرى التي أعقبتها، ونهاية بالحروب التي استمرت حتى الأزمنة الحديثة، أن قادة العرب المسلمين وقوات المسلمين بعامة، كانوا يحرصون دائماً على الإمساك بالمبادأة، وتحقيق المباغتة، وكانت (الهجمات الإجهاضية المسبقة) سبيلهم ونهجهم لتحقيق ذلك. فكانوا يعملون باستمرار على نقل الحروب إلى بلاد العدو، لإجهاض استعداداته القتالية، ولحرمانه من حرية العمل العسكري؛ ولتغريمه بنفقات الحرب وتكاليفها نظراً لما تسببه الحروب من تدمير مادي ومعنوي؛ اقتصادي وبشري. ولكن وعندما استقرت الدولة العربية الإسلامية وارتسمت حدودها ما بين حدود الصين والهند شرقاً، وحدود بحر قزوين ودولة الروم شمالاً، وبلاد الغال (فرنسا) في شمال الأندلس، أخذت الحروب مع الأقاليم المجاورة لديار الإسلام والسلام شكل غزوات منتظمة حملت (اسم حرب الثغور)، وكانت وسيلة تنفيذها ما عرف باسم (الصوائف والشواتي)، حيث كانت قوات العرب المسلمين تنطلق من الثغور البرية أو البحرية المتاخمة لبلاد أعداء الإسلام وأهله، لتتوغل في البلاد المعادية؛ ولتشغل العدو بنفسه، فتضمن بذلك حرمان الأعداء من فرص مهاجمة بلاد الإسلام؛ وتؤمن في الوقت ذاته الشروط الضرورية لضمن السلام والأمن في (ديار الإسلام). وقد ظهرت البدايات المبكرة لهذه الأعمال القتالية منذ الأيام الأولى لفتوح الشام؛ ثم تطورت واتسعت وتزايدت كثافة على أيدي خلفاء بني أمية، وأصبحت بعدئذ من السياسات الاستراتيجية لكل الدول الإسلامية في مشرق العالم العربي الإسلامي ومغربه، بل إنها وصلت أحياناً إلى أخذ شكل حملات عسكرية ضخمة (مثل حصار معاوية بن أبي سفيان لعاصمة الروم ـ القسطنطينية ـ سنة ٥٠ هـ ـ ٦٧٠ م) و(حصار مسلمة بن عبد الملك القسطنطينية سنة ٩٨ هـ ـ ٧١٦ م) و(غزو الرشيد لبلاد الروم وفتح هرقلة سنة ١٩٠هـ ـ ٨٠٥ م) و(فتح المعتصم عمورية وتخريب أنقرة سنة ٢٢٣ هـ ـ ٨٣٧ م).

وتعطي هذه الأمثولات البرهان على أن مفهوم (الضربات الإجهاضية المسبقة) لدى العرب المسلمين كان أكثر اتساعاً وشمولاً من حروب الثغور المحدودة. ولكن تلك الأمثولات تبرهن، في الوقت ذاته، أن حروب الثغور كانت هي الأساس؛ وأن

الحملات الكبيرة كانت بمثابة تطوير لمفهوم حروب الثغور ذات الأهداف المحدودة.

وعلى كل حال؛ فإنه بالمستطاع، وبهدف البحث، استقراء بعض ملامح (حرب الثغور؛ أو الهجوم الإجهاضي المسبق)، على جبهات متباعدة:

١ - على جبهة الهند.

٢ - على جبهة الروم - في الشام.

٣ - على جبهة ثغور الأندلس.

وذلك نظراً لما كان لهذه الحروب من دور حاسم في تطوير فن الحرب الإسلامي؛ ونظراً لأنها تشكل ظاهرة مميزة من ظواهر المذهب العسكري الإسلامي.

أ - على جبهة الهند: فتح الله للعرب المسلمين بلاد السند (على يد محمد بن القاسم الثقفي سنة ٩٤ هـ - ٧١٢ م) وهي البلاد المعروفة اليوم باسم (باكستان) وكان ذلك بداية الاتصال ببلاد الهند. غير أن تلك الفتوحات العظمى لم تكن سوى البداية لحرب مستمرة وطويلة الأمد عبر الثغور والحدود؛ وهدفها الأول، من وجهة نظر المسلمين، هو ضمان الأمن والاستقرار لديار الإسلام، فيما كان هدفها بالنسبة للهنود هو الدفاع عن معتقداتهم ومذاهبهم. ولقد تعاقبت أقوام على بلاد السند، اضطلعت بأعباء حماية ديار الإسلام والدفاع عنها، لعل من أشهر تلك الأقوام من عرفوا باسم الغزنويين (نسبة لعاصمتهم غزنة؛ أو آل سبكتكين).

ويمكن تجاوز ما حدث منذ الفتح الإسلامي الأول لبلاد السند، وحتى ظهور هذه الأسرة الحاكمة سنة ٣٦٦ هـ - ٩٧٦ م، حيث ورد في ذكر أحداثها ما يلي: «ملك سبكتكين في هذه السنة مدينة غزنة وأعمالها، فلما فرغ من ذلك؛ قصد بلاد الهند؛ فافتتح قلاعاً حصينة على شواهق الجبال، وعاد سالماً ظافراً. فلما رأى ملك الهند - جيبال - ما دهاه من ضياع أطراف بلاده، حشد وجمع، واستكثر من الفيول، وسار حتى اتصل بولاية سبكتكين؛ وقد باض الشيطان في رأسه وفرخ. فسار سبكتكين عن غزنة للقائه، ومعه عساكره وخلق كثير من المتطوعة، فالتقوا واقتتلوا أياماً كثيرة، وصبر الفريقان؛ حتى استسلم الهنود، فأرسل ملك الهند إلى سبكتكين

يطلب الصلح . وترددت الرسل ، فأجابهم إليه على مال يؤديه وبلاد يسلمها وخمسين فيلاً يحملها إليه . فاستقر ذلك ؛ ورهن عنده جماعة من أهله على تسليم البلاد . وسير معه سبكتكين من يتسلمها فإن المال والفيلة كانت معجلة . فلما ابتعد ملك الهند ـ جيبال ـ قبض على من معه من المسلمين ، وجعلهم عنده عوضاً عن رهائنه . فلما علم سبكتكين بذلك ؛ جمع العساكر وسار نحو الهند ؛ فأخرب كل ما مر عليه من بلادهم . وقصد لمغان ـ أو لامغان ـ وهي من أحسن قلاعهم ؛ فافتتحها عنوة ، وهدم بيوت الأصنام ؛ وأقام فيها شعار الإسلام ، وسار عنها يفتح البلاد حتى بلغ ما أراده وعاد إلى غزنة . وعلم ـ جيبال ـ بذلك فحشد مائة ألف مقاتل . ولقيه سبكتكين ؛ فأمر أصحابه أن يتناوبوا القتال مع الهنود ؛ ففعلوا ذلك حتى ضجر الهنود من استمرار القتال معهم ، وحملوا حملة واحدة . فعند ذلك اشتد الأمر وعظم الخطب ، وحمل أيضاً المسلمون جميعهم ؛ واختلط بعضهم ببعض ، فانهزم الهنود ؛ وأخذهم السيف من كل جانب ، وأسر منهم ما لا يعدُّ . وغنم المسلمون أموالهم وأثقالهم ودوابهم الكثيرة ؛ وذل الهنود بعد هذه الوقعة ، ولم يعد لهم بعدها راية ؛ ورضوا بأن لا يطلبوا في أقاصي بلادهم»[1] .

وتوفي السلطان ناصر الدولة سبكتكين سنة ٣٨٧ هـ ـ ٩٩٧ م ، وخلفه ابنه سيف الدولة ـ أو يمين الدولة ـ محمود ، فأمضى الفترة الأولى من حكمه لتوطيد سلطته على السامانيين والبويهيين ؛ ومضى لإكمال ما بدأه أبوه في حرب الثغور ، فقاد جيوشه سنة ٣٩٢ هـ ـ ١٠٠١ م ، وسار بها إلى مدينة برشور «فأتاه عدو الله ـ جيبال ـ ومعه اثنا عشر ألف فارس وثلاثون ألف راجل وثلاثمائة فيل . فاختار يمين الدولة من عساكره والمطوعة خمسة عشر ألف فارس ؛ وسار نحوه ، فالتقوا واقتتلوا وصبر الفريقان . فلما انتصف النهار ؛ انهزم الهنود ، وقتل فيهم مقتلة عظيمة ، وأسر جيبال ، ومعه جماعة كثيرة من أهله وعشيرته ؛ وغنم المسلمون منهم أموالاً جليلة وجواهر نفيسة ؛ وأخذ من عنق جيبال قلادة من الجوهر العديم النظير قومت قيمتها بثمانين ألف دينار ـ وقيل مائتي ألف دينار ـ وأصيب أمثالها في أعناق مقدمي الأسرى ؛ وغنموا خمسمائة ألف رأس من العبيد ؛ وفتح من الهند بلاداً كثيرة . فلما فرغ من غزواته ، أحب أن يطلق سراح ـ جيبال ـ حتى يراه الهنود في شعار الذل ؛ فأطلقه بمال قرره عليه . وكان من

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٣٦٦ هـ (ذكر مسير الهند إلى بلاد الإسلام. . .) .

عـادة الهنود أنهم إذا وقـع منهم أسير في أيـدي المسلمين، لم تنعقد لـه بعـدهـا رئـاسـة؛ فلما رأى ـ جيبال ـ حاله بعد خلاصه من الأسر، حلق رأسه؛ ثم ألقى نفسه في النار؛ فاحترق بنار الدنيا قبل نار الآخرة. أما يمين الدولة؛ فقد سار بعد فراغه من جيبال نحو مدينة ويهند، فأقام عليها محاصراً حتى فتحها عنوة واقتـداراً. وبلغه أن جمـاعة من الهنود قد اجتمعوا بشعاب تلك الجبال؛ عازمين على الفسـاد والعناد؛ فسيَّـر إليهم طائفة من عسكـره، فأوقعـوا بهم؛ وأكثروا القتـل فيهم، ولم ينج منهم إلا الشـريد الفريد، وعاد يمين الدولة بجيشه إلى غزنة سالماً ظافراً».

عاد يمين الدولة محمود لغزو بلاد الهند (سنة ٣٩٥ هـ ـ ١٠٠٤ م) فسار بجيشه نحو مدينة (بهاطية) الواقعة وراء المولتان، فامتنع صاحبها ـ حاكمها ـ واسمه بحيرا ـ أو بيجهرا ـ بمدينته الحصينة ذات الأسوار العالية؛ والتي كان يحيط بها خندق عميق. ثم إنه خرج إلى ظاهرها فقاتل المسلمين ثلاثة أيام، ثم انهزم في الرابع وتوجه نحو مدينته ليدخلها هو وجنده؛ فسبقه المسلمون إلى باب المدينة، ومنعوهم من دخولها، وأخـذتهم السيوف من بين أيـديهم ومن خلفهم؛ فقُتِل المقـاتلة؛ وسبيت الذريـة؛ وأخذت الأموال. ولما أوشك بحيرا على الهلاك، أخذ جماعة من ثقاتة؛ وسار إلى رؤوس تلك الجبال. فسيَّر إليه يمين الدولة محمود سرية، فلم يشعر بهم بحيرا إلاّ وقد أحاطوا به؛ وحكَّموا السيوف في أصحابه. واستل بحيرا خنجراً معه فقتل به نفسه حتى لا يقـع في الأسر. وأقـام يمين الـدولـة ببهـاطيـة حتى أصلح أمـرهـا؛ ورتب قواعدها، وعاد عنها إلى غزنة؛ بعد أن استخلف بها من يعلم من أسلم من أهلها ما يجب تعليمه.

كان والي المولتان (الملتان أو الملطان) قد تظاهر بالإسلام وأضمر الكفر؛ وعلم يمين الدولة أن هذا الخبيث قد أظهر اعتقاده بالإلحاد، ودعا أهل ولايتـه إلى ما هـو عليه فأجابوه. فقرر يمين الدولة أن يجاهده ويستنزله عما هو عليه. فسار إليه (سنـة ٣٩٦ هـ ـ ١٠٠٥ م)، ورأى أن الأنهار التي في طريقه كثيرة الزيادة عـظيمة المـد؛ وخاصة نهر سيحون (سيراداريا حالياً)، فأرسل إلى عظيم الهند ـ أندبال ـ يستأذنه في العبور ببلاده إلى المولتان، فلم يجبه إلى ذلك؛ فابتدأ به قبل المولتان وقال: «نجمع بين غزوتين لأنه لا غزو إلا التعقيب». فدخل بلاده وجاسها، وأكثر فيها القتل والنهب لأموال أهلها والإحراق لأبنيتها، فهرب أندبال من بين يديه؛ وهو في أثره؛ كالشهاب

في أثر الشيطان، من مضيق إلى مضيق؛ إلى أن وصل إلى (قشمير ـ أو كشمير).

وعلم والي المولتان ـ أبو الفتوح ـ بمسير يمين الدولة، وعرف عجزه عن الوقوف بين يديه؛ والعصيان عليه؛ فنقل أمواله إلى (سرنديب) وأخلى المولتان. فلما وصل يمين الدولة إليها نازلها فوجد أن أهلها في ضلالهم يعمهون، فحصرهم وضيّق عليهم؛ وتابع قتالهم حتى افتتحها عنوة؛ وألزم أهلها عشرين ألف درهم عقوبة لعصيانهم. ثم سار عنه إلى قلعة (كواكير) التي كان يحكمها (بيدا) وكان بها ستمائة صنم، فافتتحها وأحرق الأصنام، فهرب حاكمها إلى قلعته (كالنجاد) فسار خلفه إليها. وكانت القلعة عبارة عن حصن كبير يتسع لخمسمائة ألف إنسان، وفيها خمسمائة فيل وعشرون ألف دابة، وفي القلعة ما يكفي الجميع مدة من الزمن. فلما قاربها يمين الدولة رأى من الغياض المانعة من سلوك الطريق ما لا حدَّ عليه، فأمر بقطعها. ورأى في الطريق وادياً عظيم العمق؛ بعيد القعر؛ فأمر أن يطم منه مقدار ما يسع عشرين فارساً، فطموه بالجلود المملوءة تراباً. ووصل إلى القلعة فحصرها ثلاثة وأربعين يوماً، وراسله حاكمها في الصلح، فصالحه على خمسمائة فيل وثلاثة آلاف من الفضة. وأعلن الحاكم خضوعه ليمين الدولة، فعاد يمين الدولة بجيشه إلى غزنة.

وفي السنة التالية (٣٩٧ هـ ـ ١٠٠٦ م) علم يمين الدولة أن بعض أولاد ملوك الهند ـ واسمه نواسه شاه ـ وكان قد أسلم على يده واستخلفه على بعض ما افتتحه من بلادهم؛ قد ارتد عن الإسلام؛ ومالأ أهل الكفر والطغيان، فسار إليه يمين الدولة مجدّاً، فحين قاربه فر الهندي من بين يديه، واستعاد يمين الدولة تلك الولاية، وأعادها إلى حكم الإسلام، واستخلف عليها بعض أصحابه، وعاد إلى غزنة.

عاد يمين الدولة محمود بجيشه ـ بعد أن أعطاه فترة للراحة ـ لغزو بلاد الهند. فسار به في ربيع سنة ٣٩٨ هـ ـ ١٠٠٧ م حتى وصل شاطىء نهر هندمند (أو ـ ويهند) فاصطدم هناك بجيوش الهند التي كان يقودها (أبرهمن بال بن أندبال). ودارت معركة عنيفة كادت الهند تظفر فيها بالمسلمين، ثم أنزل الله نصره على المسلمين، فانهزمت الهنود على أعقابهم، وأخذهم المسلمون بالسيف. وتبع يمين الدولة أثر أبرهمن، حتى بلغ قلعة (بهيم نغر) وهي على جبل عال. وكان الهنود قد جعلوها خزانة لصنمهم الأعظم، فينقلون إليها أنواع الذخائر قرناً بعد قرن؛ ونفائس

الجواهر، وهم يعتقدون ذلك ديناً وعبادة؛ فاجتمع فيها على طول الأزمان ما لم يسمع بمثله. فنازلهم يمين الدولة وحصرهم وقاتلهم، ولما اشتد القتال على مقاتلة الهند خافوا وطلبوا الأمان وفتحوا باب الحصن، وملك المسلمون القلعة؛ وصعد يمين الدولة إليها في خواص أصحابه.

وسار يمين الدولة إلى بلاد الهند (سنة ٤٠٠ هـ ـ ١٠٠٩ م) فاخترقها، ونكس أصنامها؛ فلما رأى ملك الهند أنه لا قوة له به؛ راسله على الصلح والهدنة على مال يؤديه وخمسين فيلاً ويكون له في خدمته ألفا فارس. وتم الصلح وعاد يمين الدولة إلى غزنة.

كانت بلاد الغور تجاور غزنة؛ وكان أهل الغور يقطعون الطريق ويخيفون السبيل؛ وبلادهم جبال وعرة ومضائق مغلقة؛ فكانوا يحتمون بها ويعتصمون بصعوبة مسلكها. فلما كثر ذلك منهم، أنف يمين الدولة محمود بن سبكتكين أن يكون مثل أولئك المفسدين جيرانه وهم على هذه الحال من الفساد والكفر؛ فجمع العساكر وسار إليهم؛ وعلى مقدمته ألتونتاش الحاجب صاحب هراة؛ وأرسلان الجاذب صاحب طوس ـ وهما أكبر أمرائه ـ. فسارا فيمن معهما حتى انتهوا إلى مضيق قد شحن بالمقاتلة، فتناوشوا الحرب؛ وصبر الفريقان؛ وعرف يمين الدولة الموقف؛ فجدَّ في السير إليهم؛ وملك عليهم مسالكهم، فتفرقوا وساروا إلى عظيم الغورية ـ المعروف بابن سورى ـ ودخلوا مدينته التي تدعى (آهنكران). فبرز من المدينة في عشرة آلاف مقاتل؛ فقاتلهم المسلمون إلى أن انتصف النهار، واستدرجهم يمين الدولة إلى كمين أعده لهم بعيداً عن المدينة، فهزمهم المسلمون ووضعوا السيف فيهم، فأبادوهم قتلاً وأسراً ـ وكان في الأسرى كبيرهم وزعيمهم ابن سورى ـ ودخل المسلمون المدينة، وفتحوا القلاع والحصون التي كانت لهم جميعها. وأظهر يمين الدولة في تلك النواحي شعار الإسلام، وجعل عندهم من يعلمهم شعائره. ثم سار إلى طائفة أخرى من الكفار، فقطع عليهم مفازة من رمل، واصطدم بجمع عظيم منهم ـ ومعهم ستمائة فيل ـ فقاتلهم أشد قتال، صبر فيه بعضهم لبعض؛ ثم إن الله نصر المسلمين وهزم الكفار، وعاد سالماً إلى قاعدته في غزنة سنة ٤٠١ هـ ـ ١٠١٠ م.

وفي السنة التالية؛ **علم يمين الدولة أن ملك قصدار قد جاهر بتمرده وعصيانه،**

معتمداً على حصانة بلاده وكثرة مضائقها، وعلى دعم ملك الترك ـ إيلك خان ـ وحمايته، فصمم يمين الدولة على غزوه، وتظاهر أنه يريد السير إلى هراة ثم انحرف بصورة مباغتة نحو قصدار، وسار بسرعة فسبق خبر مسيره، وقطع تلك المضائق والجبال؛ فلم يشعر حاكم قصدار إلا وعسكر المسلمين قد أحاطت به ليلاً، فطلب الأمان، فأجابه يمين الدولة، وأقره على ولايته.

حشد يمين الدولة جيشاً ضخماً (سنة ٤٠٤ هـ ـ ١٠١٣ م) وسار به مدة شهرين حتى وصل أواسط بلاد الهند، وأعاد تنظيم جيشه، فلما علم بذلك عظيم الهند سار بجيشه لقتاله، وبرز إلى جبل صعب المرتقى ضيق المسالك، فاحتمى به وطاول المسلمين، وكتب إلى الهنود يستدعيهم من كل ناحية؛ فاجتمع عليه منهم كل من يحمل سلاحاً. فلما تكاملت عدته؛ نزل من الجبل، فقاتل المسلمين، واشتد الاقتتال وعظم الأمر، ثم إن الله تعالى منح المسلمين أكتافهم فهزموهم؛ وأكثروا القتل فيهم، وغنموا ما معهم من مال وفيل وسلاح وغير ذلك. ووجد يمين الدولة في بيت صنم عظيم (بد) حجراً منقوراً دلت كتابته على أنه مبني منذ أربعين ألف سنة، فعجب الناس لقلة عقولهم. فلما فرغ يمين الدولة من غزوته، عاد إلى غزنة، وأرسل إلى الخليفة في بغداد (القادر بالله) يطلب منه منشوراً وعهداً بخراسان وما بيده من الممالك، فكتب له الخليفة بذلك، ولقبه (نظام الملك).

وعلم يمين الدولة أن حاكم تانيشر قد عاند في الكفر والطغيان والعداء للمسلمين، فعزم على غزوه في عقر داره وأن يذيقه شربة من كأس قتاله. فسار إليه يمين الدولة سنة ٤٠٥ هـ ـ ١٠١٤ م في الجنود والعساكر والمتطوعة، فلقي في طريقه أودية بعيدة القعر؛ وعرة المسالك، وقفاراً فسيحة الأقطار والأطراف؛ بعيدة الأكناف؛ والماء بها قليل؛ فلقوا شدة وقاسوا مشقة إلى أن قطعوها. فلما قاربوا مقصدهم؛ لقوا نهراً شديد التيار، صعب المخاضة؛ وقد وقف صاحب ـ حاكم ـ تلك البلاد على طرفه، يمنع من عبوره ومعه عساكره وفيلته التي كان يعتمد عليها ـ وهي من جنس فيلة الصيلمان الموصوفة في الحرب ـ. فأمر يمين الدولة شجعان عسكره بعبور النهر؛ وإشغال الكافر بالقتال، ليتمكن باقي العسكر من العبور. ففعلوا ذلك، وقاتلوا الهنود وشغلوهم عن حماية النهر وحفظه حتى عبر سائر العساكر في المخاضات؛ وقتلوهم من جميع جهاتهم إلى آخر النهار؛ فانهزم الهنود، وظفر

المسلمون وغنموا ما معهم من أموال وفيلة، وعادوا إلى غزنة.

قرر (يمين الدولة محمود) غزو قشمير وقنوج بعد أن استولى على بلاد الهند ما بينه وبين قشمير، فاستنفر أهل بلاده؛ فجاءه من المتطوعة نحو عشرين ألف مقاتل من بلاد ما وراء النهر وحدها، وسار بجيشه من غزنة؛ حوالي ثلاثة أشهر سيراً دائماً؛ وعبر نهري سيحون وجيلوم - وهما نهران عميقان شديدا التيار - فوطىء أرض الهند؛ وأتاه رسل ملوكها بالطاعة وبذل الأتاوة. فلما بلغ درب قشمير؛ أتاه صاحبها وأسلم على يده، وسار بين يديه إلى مقصده، فبلغ نهر جون، وفتح ما حول مدينته من الولايات الفسيحة والحصون المنيعة حتى بلغ حصن هودب - وهو آخر ملوك الهند - فنظر هودب من أعلى حصنه فرأى من العساكر ما هاله وأرعبه، وعلم أنه لا ينجيه إلا الإسلام، فخرج في نحو عشرة آلاف ينادون بكلمة الإخلاص (الشهادتين). فقبله يمين الدولة، وسار عنه إلى ملك الهند - كلجند - الذي كان من أعيان الهند وشياطينهم، وكان على طريقه غياض ملتفة لا يقدر السالك على قطعها إلا بمشقة. فسيَّر كلجند عساكره وفيوله إلى أطراف تلك الغياض يمنعون المسلمين من سلوكها. فترك يمين الدولة عليهم من يقاتلهم، وسلك طريقاً مختصرة إلى قلعة كلجند، فلم يشعروا به إلا وهو معهم، فقاتلهم قتالاً شديداً؛ فلم يطيقوا الصبر على حد السيوف؛ فانهزموا؛ وأخذهم السيف من خلفهم؛ ولقوا نهراً عميقاً بين أيديهم فاقتحموه فغرق أكثرهم، وكان القتلى والغرقى قريباً من خمسين ألفاً، وعمد كلجند إلى زوجته فقتلها ثم قتل نفسه بعدها، وغنم المسلمون أمواله وملكوا حصونه. ثم سار يمين الدولة بجيشه نحو بيت متعبد لهم - وهو من مهرة الهند ومن أحصن الأبنية - على نهر، ولهم به من الأصنام كثير - منها خمسة أصنام من الذهب الأحمر مرصَّعة بالجواهر - وكان فيها من الذهب ستمائة ألف وتسعون ألفاً وثلثمائة مثقال؛ وكان بها من الأصنام المصوغة من النقرة نحو مائتي صنم، فأخذ يمين الدولة ذلك جميعه وأحرق الباقي، وسار نحو (قنوج) فلما وصل إليها وجد أن صاحبها - حاكمها - (راجيال) قد فارقها وعبر النهر المسمى (كنك) وهو نهر شريف عندهم يرون أنه من الجنة؛ وأن من غَرق نفسه فيه طهر من الآثام. فأخذها يمين الدولة واستولى على قلاعها وأعمالها وهي سبعة على النهر المذكور، وفيها قريب من عشرة آلاف بيت صنم يذكرون أنها عملت من مائتي ألف سنة إلى ثلثمائة ألف كذباً منهم وزوراً. ولما فتحها يمين الدولة أباحها

عسكره، ثم سار إلى قلعة البراهمة فقاتلوه وثبتوا، فلما عضهم السلاح علموا أنهم لا طاقة لهم، فاستسلموا للسيف، فقُتلوا ولم ينج منهم إلا الشريد. ثم سار نحو قلعة آسي فلما قاربها هرب حاكمها (جندبال) وأخذ يمين الدولة حصنه وما فيه. واستولى يمين الدولة بعد ذلك على قلعة شروه. **ولما عاد يمين الدولة من غزاته هذه (سنة ٤٠٧ هـ - ١٠١٦ م) أمر ببناء جامع غزنة الشهير، فبني بناء لم يسمع بمثله؛ ووسع فيه، وأنفق ما غنمه في هذه الغزاة في بنائه.**

علم يمين الدولة أن ملك (كجورمة) واسمه (بيدا)، وكان أعظم ملوك الهند، قد أرسل إلى (راجيبال) ملك (قنوج) يوبخه على تسليم بلاده للمسلمين، ثم سار إليه فاستولى على بلاده وقتله، فزاد ذلك من شهرته، ولحق به ملوك الهند الذين سبق ليمين الدولة أن أخضعهم وفتح بلادهم. فاستعد يمين الدولة لحربه، وحشد وجمع وأعد أكثر مما تقدم، ثم سار إلى بلاد الأفغانية (سنة ٤٠٩ هـ - ١٠١٨ م)، وهم كفار يسكنون الجبال ويفسدون في الأرض ويقطعون الطريق الواصل بينهم وبين غزنة. وسلك يمين الدولة طريق المضائق الجبلية؛ وفتح مغالقها؛ وخرب عامرها وغنم أموالهم؛ وأكثر القتل فيهم والأسر؛ وغنم المسلمون من أموالهم الكثير. ثم استقل على المسير وبلغ إلى مكان لم يبلغه فيما تقدم من غزواته؛ وعبر نهر كنك ولم يعبره قبلها؛ فلما جازه رأى قافلة - قفلاً - قد بلغت عدة أحمالهم ألف حمل فغنمها. وجدَّ بالسير، فعلم وهو في الطريق أن بروجيبال - أحد ملوك الهند - قد هرب من أمامه والتجأ إلى (بيدا) ليحتمي به ضد يمين الدولة، فطوى المراحل؛ ولحق به، ووقعت معركة، انتصر فيها المسلمون، وهرب بروجيبال وجيشه وطارده المسلمون. وطلب (بروجيبال) الأمان، فلم يقبل منه يمين الدولة إلا بالإسلام، فسار (بروجيبال) نحو (بيدا) غير أن أحد جنوده من الهنود قتله.

وسار يمين الدولة بعد ذلك إلى مدينة (باري) وهي من أحصن القلاع والبلاد وأقواها؛ فرآها من سكانها خالية وعلى عروشها خاوية؛ فأمر بهدمها وتخريبها وعشر قلاع معها متناهية الحصانة. وسار يطلب الملك (بيدا) فلحق به ومعه ١٨٤ ألف مقاتل راجل، و ٥٦ ألف فارس و ٧٤٦ فيلاً. ودارت معركة انتهت بانسحاب (بيدا) وجيشه بعد معركة غير حاسمة. فطارده المسلمون وقتلوا كثيراً من جيشه، وعاد يمين الدولة إلى غزنة.

ولم تكن هـذه الغزوة هي آخـر غزوات (يمين الـدولة) فقـد تكررت مثـل هذه الغزوات حتى وفاته(١) وخلفه ابنه فحاول السير على نهجه. ليس ذلك فحسب؛ بل إن جهاد الكفار في الثغور، والقيام بمثل هذه الهجمات الإجهاضية المسبقة؛ كـان نهجاً ثابتاً لملوك النواحي والأقاليم المتاخمة لحدود المشرق. من ذلك ـ على سبيل المثال ـ ما قام به ملك تركستان (طغـان خان) عنـدما علم بـانطلاق جيش زاد على ثلثمـائة ألف مقـاتـل من التـرك، الـذين انـطلقـوا من الصين فـأغـاروا على البـلاد الإسلامية؛ وطمعوا في الاستيلاء عليها (سنة ٤٠٨ هـ ـ ١٠١٧ م). وكان طغان خان مريضاً؛ **فسأل الله تعالى أن يعافيه لينتقم من الكفرة ويحمي البلاد منهم**. واستجاب الله له وألبسه ثوب العافية، فجمع العساكر؛ وكتب إلى سـائر بـلاد الإسلام يستنفـر النـاس؛ فاجتمـع إليه من المتـطوعـة ١٢٠ ألفـاً. وعلم التـرك بـاستعـدادات ملك تركستان، فانسحبوا بسرعة إلى بلادهم، فسار طغان خان خلفهم نحو ثلاثة أشهر، حتى أدركهم وهم آمنون لبعد المسافة، فانقض عليهم بصورة مباغتة؛ وقتـل منهم زيادة على مائتي ألف مقاتل، وأسر نحو مائة ألف، وعاد إلى بلاده.

* * *

ب ـ على جبهة الروم: أخذت الحرب مع الروم شكلها المنظم منذ أيام الفتح الأولى. وعني أمير الشام معاوية بن أبي سفيان أشد العناية (بضبط الروم) وإشغالهم بأنفسهم، فنظم الصوائف والشواتي، وحصَّن الثغور.

وسار خلفاء بني أمية على نهج أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ وكانـوا يعيِّنون لقيـادة الصوائف والشـواتي إخوانهم أو أبنـاءهم، وأشهر من اختص بينهم في حرب الثغور على ما هو معروف مسلمة بن عبد الملك. وكان كبار الصحابة وخيار المجاهدين في سبيل الله؛ يقبلون على غزو الثغور احتساباً وابتغـاء إحـدى الحسنيين ـ من أمثـال أبي أيـوب الأنصـاري الـذي استشهـد على أبـواب

---

(١) يمين الدولة محمـود بن سبكتكين (٣٦٠ ـ ٤٢١ هـ/ ٩٧٠ ـ ١٠٣٠ م) كان عـاقلاً؛ ديِّنـاً؛ خيِّراً؛ عنده علم ومعرفة؛ وصنف له كتب كثيرة في فنون العلوم؛ وقصده العلماء من أقطار البلاد، فكان يكرمهم ويقبل عليهم ويعظمهم ويحسن إليهم؛ وكان عادلاً كثير الإحسان إلى رعيته والرفق بهم؛ كثير الغزوات؛ ملازماً للجهاد، وفتوحـه مشهورة. (يمكن الـرجوع إلى تفاصيل أعماله في أحداث السنوات الهجرية المشار إليها في البحث ـ الكامل في التاريخ).

القسطنطينية سنة ٥٠ هـ ـ ٦٧٠ م، وأصبح قبره مزاراً يتبرك بـه المسلمون حتى اليوم ـ.

وأخذ بنو العباس عن أبناء عمومتهم الأمويين هذا النهج؛ وساروا به. ويُذكر أن الرشيد قد أعاد تنظيم الثغور وأطلق عليها اسم (العواصم). فكانت هناك العـواصم الجزيرية (نسبة إلى الجزيرة الشامية) حيث كان المجاهدون في سبيل الله ينـطلقون عبر وادي الفرات الأعلى وبلاد أرمينية لغزو بلاد الروم. والعواصم الشـامية؛ حيث ينطلق المجاهدون في سبيل الله عبر الدروب (من أنطاكية عبر جبال طوروس) للغزو والجهاد. ولم تكن الغزوات الكبرى وأعمال حصار عاصمة الروم عبر تلك الفترة إلا تطويراً لمفهوم الضربات الإجهاضية المسبقة وإلا تكثيفاً لها.

ولعل بالمستطاع تجاوز تلك الأعمال القتالية المتشابهة والرتيبة للتوقف عند فترة متأخرة؛ وهي الفترة التي كانت فيها الأقاليم الإسلامية الداخلية ممـزقة ـ إمـا بسبب الحروب مع الحركات المنحرفة مثل ثورة الزنج وثورة القرامطة؛ وإما بسبب الصراع بين مراكز القوى الإسلامية، كمثل الصـراع بين الفاطميين في مصـر ودار الخلافـة العباسية في بغداد ـ.

ولقد أخذ الروم عن المسلمين نهجهم في حرب الثغور؛ وفي توجيه الحملات ضـد بـلاد المسلمين؛ ضمن إطـار مفـاهيم مشـابهـة لمفـاهيم المسلمين (إشغـال المسلمين بأنفسهم، أو ضربات إجهاضية مسبقة). فأصبحت مدرسة حرب الثغور ـ بـالنسبة للمسلمين والـروم ـ مدرسـة حرب حقيقيـة تأخـذ في بعض الأحيان طـابع الاشتباكات المحدودة، فيما يتم تصعيـدها في أحيـان أخرى إلى مـرتبة المـواجهة الشاملة. ومن الأمثلة على أعمال تلك الحقبـة؛ ما حـدث سنة ٣١٤ هـ ـ ٩٢٦ م، حيث تذكر الحوليَّات أن الروم قد هاجموا (ملطيـة) وما يليهـا بقيادة الـدمستق ومعه صاحب الدروب مليح الأرمني، «فنزلوا على ملطية وحصروها؛ فصبر أهلها؛ ففتح الروم أبواباً من الربض فـدخلوا؛ فقاتلهم أهلهـا وأخرجـوهم منه؛ ولم يـظفروا من المدينة بشيء. وخرَّبوا قرى كثيرة من قراها، ونبشـوا الموتى ومثَّلوا بهم، ثم رحلوا عنهم. وقصد أهل ملطية بغداد مستغيثين؛ فلم يغاثوا، فعادوا بغير فائدة. وغزا أهل طرسوس صائفة فغنموا وعادوا».

وفي السنة التالية: (٣١٥ هـ ـ ٩٢٧ م) خرجت سرية من طرسوس إلى بلاد الروم، فوقع عليها العدو؛ فاقتتلوا؛ وانتصر الروم وأسروا من المسلمين أربعمائة رجل فقتلوا صبراً. ثم سار الدمستق في جيش عظيم من الروم إلى مدينة دبيل؛ وفيها نصر السبكي في عسكر يحميها. وكان مع الدمستق دبابات ومنجانيقات؛ ومعه مزراق تزرق بالنار عدة اثني عشر رجلاً؛ فلا يقف أمامه أحد من شدة ناره واتصاله؛ فكان من أشد شيء على المسلمين. وكان الرامي به مباشر القتال من أشجعهم؛ فرماه رجل من المسلمين بسهم فقتله وأراح الله المسلمين من شره. وكان الدمستق يجلس على كرسيٍّ عالٍ يشرف على البلد وعلى عسكره؛ فأمرهم بالقتال على ما يراه؛ فصبر له أهل البلد ـ وهو ملازم القتال ـ حتى وصلوا إلى سور المدينة؛ فنقبوا فيها نقوباً كثيرة؛ ودخلوا المدينة؛ فقاتلهم أهلها ومن فيها من العسكر قتالاً شديداً؛ فانتصر المسلمون، وأخرجوا الروم منها؛ وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف رجل.

وأثناء ذلك كانت صائفة للمسلمين بقيادة (ثمال) قد غزت بلادِ الروم ـ بعد أن انطلقت من طرسوس ـ فاصطدمت بجمع كبير من الروم؛ فاقتتلوا، فانتصر المسلمون عليهم؛ وقتلوا من الروم كثيراً، وغنموا ما لا يحصى. وكان من جملة ما غنموا أنهم ذبحوا من الغنم في بلاد الروم ثلثمائة ألف رأس سوى ما سلم معهم. ولقيهم رجل يعرف بابن الضحاك ـ وهو من رؤساء الأكراد ـ وكان له حصن يعرف بالجعفري ـ فارتد عن الإسلام والتحق بملك الروم؛ فأجزل له العطاء وأمره بالعودة إلى حصنه؛ فلقيه المسلمون فقاتلوه فأسروه؛ وقتلوا كل من معه.

عاد الدمستق لغزو بلاد المسلمين ومعه جيش كبير من الروم (سنة ٣١٦ هـ ـ ٩٢٨ م)، فتوجه إلى أرمينية؛ وحصر مدينة خلاط؛ فصالحه أهلها ورحل عنهم بعد أن أخرج المنبر من الجامع وجعل مكانه صليباً، وفعل بمدينة بدليس مثل ذلك؛ وخافه أهل أرزن وغيرهم ففارقوا بلادهم؛ وانحدر أعيانهم إلى بغداد واستغاثوا إلى الخليفة فلم يغاثوا[1]. ووصل أثناء ذلك إلى ملطية سبعمائة رجل من

(١) تجدر الإشارة إلى أن دار الخلافة في بغداد كانت تعاني في تلك الفترة من تعاظم شر القرامطة الذين استفحل أمرهم حتى أنهم عملوا في السنة التالية (٣١٧ هـ ـ ٩٢٩ م) على مهاجمة بيت الله الحرام، وقتلوا الحجاج في مذبحة رهيبة داخل الحرم، وأخذوا الحجر الأسود. وانظر: الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٣١٧. وتاريخ أبو الفداء.

الروم والأرمن ومعهم الفؤوس والمعاول؛ وتظاهروا أنهم يتكسبون بالعمل؛ وعرف أهل ملطية أن مليحاً الأرمني ـ صاحب الدروب ـ هو الذي أرسلهم للدخول إلى ملطية، حتى إذا ما حاصرها سلموه المدينة، فعمل أهل ملطية على قتلهم جميعاً؛ وأخذوا ما معهم.

وفي السنة التالية (٣١٧ هـ ـ ٩٢٩ م) ضعفت الثغور الجزيرية عن دفع الروم عنهم، منها ملطية وميافارقين وآمد وأرزن وغيرها، وعزموا على طاعة ملك الروم والتسليم إليه لعجز الخليفة المقتدر بالله عن نصرهم؛ وأرسلوا إلى بغداد يستأذنون في التسليم ويذكرون عجزهم ويستمدون العساكر لتمنع عنهم؛ فلم يحصلوا على فائدة؛ فعادوا إلى ثغورهم. وجاء الدمستق، يجر جيش الروم، فتصدى له (مفلح الساجي) بجيش من المسلمين، فاقتتلوا، فانهزم الدمستق. وطارده مفلح إلى داخل بلاد الروم.

جاءت سنة ٣١٩ هـ ـ ٩٣١ م وهي تحمل معها أحداثاً مثيرة في حرب الثغور. وقد بدأت هذه الأحداث عندما قاد والي طرسوس قوات من المسلمين لغزوة الشاتية. فسار بهم إلى بلاد الروم؛ وعبر نهراً، ونزل عليهم الثلج إلى صدور الخيل، وأتاهم جمع كثير من الروم؛ فقاتلوهم؛ ونصر الله المسلمين؛ فقتلوا من الروم ستمائة؛ وأسروا نحواً من ثلاثة آلاف؛ وغنموا من الذهب والفضة والديباج وغيره شيئاً كثيراً، وعادت القوات إلى قاعدة انطلاقها (طرسوس). وانصرف والي طرسوس (ثمال) لإعادة تنظيم قواته وانطلق بها من جديد لغزوة الصائفة ومعه جمع كثير من الفارس والراجل؛ فبلغوا عمورية، وكان قد تجمع إليها كثير من الروم، فانسحبوا وتراجعوا لما علموا بتقدم جيش (ثمال). ودخلها المسلمون فوجدوا فيها من الأمتعة والطعام شيئاً كثيراً؛ فأخذوه، وأحرقوا ما كان الروم قد عمروه منها، وأوغلوا في بلاد الروم ينهبون ويقتلون ويخربون حتى بلغوا مدينة أنقرة، وعادوا سالمين لم يلقوا كيداً.

وأثناء ذلك كانت الأحداث في الثغور الجزيرية تسير على منحى آخر. فقد كاتب والي أرمينية (ابن الديراني) وغيره من الأرمن؛ وهم من أطراف أرمينية، الروم؛ وحثوهم على قصد بلاد الإسلام؛ ووعدوهم النصرة، فسارت الروم في خلق كثير؛ فخربوا (بزكري) وبلاد (خلاط) وما جاورها، وقتل من المسلمين خلق كثير، وأسروا

كثيراً منهم. فبلغ ذلك والي أذربيجان (مفلح) فسار في عسكر كبير؛ وتبعه كثير من المتطوعة إلى أرمينية، فقصد (مفلح) بلد ابن الديراني ومن وافقه على حرب المسلمين؛ فقتل أهله ونهب أموالهم. وتحصن (ابن الديراني) بقلعة له؛ وبالغ الناس في كثرة القتلى من الأرمن حتى قيل: أنهم كانوا مائة ألف قتيل ـ والله أعلم ـ. وسارت عساكر الروم إلى سميساط فحصروها؛ فاستصرخ أهلها بأمير الموصل (سعيد بن حمدان) وكان الخليفة المقتدر قد ولاه الموصل وديار ربيعة وشرط عليه غزو الروم واستنقاذ ملطية من قبضتهم، وكان أهلها قد ضعفوا فصالحوا الروم وسلموا مفاتيح البلد إليهم فحكموا على المسلمين. فلما جاء رسول أهل سميساط إلى سعيد بن حمدان؛ تجهز وسار إليهم مسرعاً؛ فوصل وقد كاد الروم يفتحونها، فلما قاربهم هربوا منه، وسار منها إلى ملطية؛ وبها جمع من الروم ومن عسكر مليح الأرمني؛ (ومعهم بني بن نفيس صاحب المقتدر وكان قد تنصر) فلما أحسوا بإقبال سعيد خرجوا منها، وخافوا أن يأتيهم سعيد في عسكره من خارج المدينة ويثور أهلها بهم فيهلكوا ففارقوها؛ ودخلها سعيد، ثم استخلف عليها أميراً وعاد عنها، ثم دخل بلاد الروم غازياً، وقدَّم بين يديه سريتين فقتلا من الروم خلقاً كثيراً قبل دخوله إليها.

يمكن تجاوز الأحداث المشابهة؛ للوصول إلى سنة ٣٣٣ هـ ـ ٩٤٤ م، وهي السنة التي ضم فيها الحمدانيون ـ أمراء الموصل ـ مدينتي حلب وحمص، وأخضعوهما لحكمهم، مما جعلهم في مواجهة الروم بصورة مباشرة، ويمكن قراءة ما حدث في هذه السنة: «قام سيف الدولة الحمداني بغزو الروم في هذه السنة، وسبب هذه الغزوة أنه بلغ الدمستق ما فيه سيف الدولة من الشغل بحرب أضداده؛ فسار في جيش عظيم، وأوقع بأهل بغراس ومرعش؛ وقتل وسبى. فأسرع سيف الدولة إلى مضيق وشعاب، وأوقع بجيش الدمستق في هجوم ليلي مباغت؛ واستنقذ الأسارى والغنيمة من أيدي الروم؛ وانهزم الروم أقبح هزيمة. وعلم سيف الدولة أن مدينة للروم قد تهدم بعض سورها؛ وكان ذلك في الشتاء؛ فاغتنم سيف الدولة الفرصة؛ فأناخ عليهم؛ وقتل وسبى، ولكن أصيب بعض جيشه.

ثم جاءت سنة ٣٣٦ هـ ـ ٩٤٧ م، وفيها أغارت الروم على أطراف الشام فسبوا وأسروا، فسار وراءهم سيف الدولة ابن حمدان؛ ولحقهم؛ فقتل منهم مقتلة عظيمة، واسترد ما أخذوا من المسلمين. فلما كانت السنة التالية (٣٣٧ هـ ـ ٩٤٨ م) سار

سيف الدولة إلى بلاد الروم؛ فلقيه الروم؛ واقتتلوا، وانهزم سيف الدولة، وأخذ الروم مرعش، وأوقعوا بأهل طرسوس.

وانتقم سيف الدولة لهذه الهزيمة في سنة ٣٣٩ هـ - ٩٥٠ م فحشد قواته، وانضم إليه عسكر طرسوس في أربعة آلاف - عليهم القاضي أبو حصين - فسار بهذا العسكر إلى قيسارية؛ ثم إلى الفندق؛ ووغل في بلاد الروم؛ وفتح عدة حصون وسبى وقتل؛ ثم سار إلى (سمندو) ثم إلى (خرشنة) يقتل ويسبي، ثم إلى بلد (صارخة) وبينها وبين قسطنطينية سبعة أيام. فلما نزل عليها قام الدمستق بمهاجمة مقدمة المسلمين **(والدمستق تعني قائد وحاكم بلاد الروم الواقعة شرقي القسطنطينية)** فانتصرت مقدمة جيش المسلمين عليه، فلجأ إلى الحصن، وخاف على نفسه، ثم جمع جيشه وهاجم سيف الدولة؛ فهزمه الله أقبح هزيمة؛ وأُسرت بطارقته. وكانت غزوة مشهورة؛ وغنم المسلمون ما لا يوصف، وبقوا في الغزو أشهراً.

ثم إن جيش طرسوس عاد من غزوته؛ ورجع العربان؛ وسلك سيف الدولة طريقه في مضيق صعب؛ فأخذت الروم عليه الدروب؛ وحالوا بينه وبين المقدمة؛ فقطعوا الشجر وسدوا به الطرق، ودهدهوا الصخور في المضائق على الناس، والروم وراء المسلمين مع الدمستق يقتلون ويأسرون ولا منفذ لسيف الدولة، وكان معه أربعمائة أسير من وجوه الروم فضرب أعناقهم، وعقر - ذبح - جماله وكثيراً من دوابه؛ وحرق الثقل؛ وقاتل قتال الموت، ونجا في نفر يسير، واستباح الدمستق أكثر الجيش؛ وأسر أمراء وقضاة. ووصل سيف الدولة إلى حلب، وسارت الروم في بلاد المسلمين فعاثوا وسبوا وتزلزل الناس، ثم لطف الله تعالى فأرسل الدمستق إلى سيف الدولة يطلب الهدنة، فلم يجب سيف الدولة وبعث يتهدده، ولم يلبث أن جهز جيشاً دخل بلاد الروم من ناحية حران؛ فغنموا وأسروا كثيراً من الروم. وعاد أهل طرسوس فغزوا براً وبحراً. وسار سيف الدولة بجيش آخر من حلب إلى (آمد) فحارب الروم وخرب الضياع وانصرف سالماً. وحاول الروم الاستيلاء على (آمد) بالحيلة؛ وتعهد لهم نصراني بحفر نفق من مسافة أربعة أميال حتى يصل إلى سورها؛ وفعل ذلك وكان نفقاً واسعاً. غير أن المسلمين اكتشفوا النفق وقتلوا النصراني، وأحكموا ما نقبه وسدوه. وعمل سيف الدولة على جمع جيوش الموصل والجزيرة والشام والأعراب (سنة ٣٤٠ هـ - ٩٥١ م) وسار بها إلى بلاد الروم؛ فأوغل في تقدمه، وقتل وسبى

شيئاً كثيراً، وعاد إلى حلب سالماً.

وكثرت الزلازل بحلب والعواصم في هذه السنة؛ ودامت أربعين يوماً، وهلك خلق كثير تحت الردم، وتهدمت حصون رعبان ودلوك وتل حامد، فأنفذ سيف الدولة من يصلحها تحت حماية قطعة من الجيش، فأعاد عمارتها في سبعة وثلاثين يوماً. وجاءت جموع الروم في السنة التالية (٣٤١ هـ - ٩٥٢ م) فاستولت على مدينة سروج وسبوا أهلها وغنموا أموالهم، وأخربوا المساجد.

فلما جاءت سنة ٣٤٣ هـ - ٩٥٤ م، قاد سيف الدولة ابن حمدان جموع المسلمين وغزا بلاد الروم، فقتل وأسر وسبى وغنم، وكان فيمن قتل قسطنطين بن الدمستق، فعظم الأمر على الروم؛ وعظم الأمر على الدمستق، فجمع عساكره من الروم والروس والبلغار وغيرهم؛ وقصد الثغور، فسار إليه سيف الدولة، فالتقوا عند الحدث، واشتد القتال بينهم، وصبر الفريقان؛ ثم إن الله تعالى نصر المسلمين؛ فانهزم الروم؛ وقتل منهم وممن معهم خلق عظيم؛ وأسر صهر الدمستق؛ وابن ابنته؛ وكثير من بطارقته، وعاد الدمستق مهزوماً مسلولاً.

وعاد سيف الدولة (سنة ٣٤٥ هـ - ٩٥٦ م) فسار في جيوش المسلمين إلى بلاد الروم، وغزاها حتى بلغ خرشنة وصارخة؛ وفتح عدة حصون؛ وسبى وأسر وأحرق وأكثر القتل فيهم؛ ثم رجع إلى أذنة، فأقام بها حتى جاءه حاكم طرطوس بجيشه (أو طرسوس) فخلع عليه وأعطاه شيئاً كثيراً، وعاد إلى حلب.

وعمل الروم على الانتقام فحشدوا وساروا إلى (ميافارقين) وأحرقوا سوادها - ريفها - ونهبوه وخرَّبوا وسبوا أهله ونهبوا أموالهم وعادوا. ثم قام الروم بغزوة ثانية (سنة ٣٤٨ هـ - ٩٥٩ م) فأغاروا على طرسوس والرها فقتلوا وسبوا وغنموا وعادوا سالمين؛ وكان في مقدمة أسراهم محمد بن ناصر الدولة - من نواحي حلب - وأبو الهيثم ابن القاضي أبي حصين بن عبد الملك بن بكر وغلمانه - من سواد حران -.

وقام سيف الدولة في السنة التالية (٣٤٩ هـ - ٩٦٠ م) فغزا بلاد الروم في جمع كثير، وأثر فيها آثاراً كثيرة؛ وأحرق وفتح عدة حصون، وأخذ من السبي والغنائم والأسرى شيئاً كثيراً، وبلغ إلى خرشنة. ثم إن الروم أخذوا عليه المضائق، فلما أراد

الرجوع، قال له من معه من أهل طرسوس؛ إن الروم قد ملكوا الدرب خلف ظهرك، فلا تقدر على العود منه، والرأي أن ترجع معنا. فلم يقبل منهم، وكان معجباً ومعتداً برأيه، يحب إن يستبدَّ ولا يشاور أحداً حتى لا يقال إنه أصاب برأي غيره. وعاد في الدرب الذي دخل منه، فانتصر الروم عليه، واستردوا ما كان معه من الغنائم، واستولوا على أثقاله، ووضعوا السيف في أصحابه، فأتوا عليه قتلاً وأسراً، وتخلص هو في ثلثمائة رجل بعد جهد ومشقة، وكان عدد جيشه ثلاثين ألفاً. أما أهل طرسوس فسلكوا طريقاً آخر؛ فعادوا إلى بلدهم سالمين غانمين.

استنزفت الحروب على الثغور قدرة الحمدانيين؛ وضعفوا؛ وعرف الروم ذلك، فحشدوا جيشاً ضخماً (سنة ٣٥١ هـ - ٩٦٢ م) ضم مائتي ألف رجل؛ منهم ثلاثون ألف رجل بالجواشن؛ وثلاثون ألف رجل للهدم وإصلاح الطرق من الثلج؛ وأربعة آلاف بغل يحمل الحسك الحديد. وسار الدمستق بهذا الجيش إلى (عين زربي) فاستولى عليها، وأقام بها أحد وعشرين يوماً وهو يقتل في أهلها ويأسر، وقتل النساء والصبيان، ولم يترك إلا من يصلح أن يسترقَّ؛ وجمع ما كان في البلد من السلاح فكان لديه منه الشيء الكثير. وفتح الدمستق أربعة وخمسين حصناً للمسلمين - حول عين زربي - ثم سار إلى حلب، وظفر بدار سيف الدولة، فاستولى على ما كان فيها من الأموال والسلاح، ثم فتح حلب، وقتل في أهلها مقتلة عظيمة، وسبى وغنم ما لا يوصف، وأحرق المساجد، وسبى من البلد بضعة عشر ألف صبي وصبية. وكان ذلك بداية النهاية للحمدانيين الذين سجَّلوا في فترة حكمهم أياماً رائعة في حرب الثغور[1]. وقد كانت هذه النهاية تأكيداً لأهمية حرب الثغور، التي كانت تشغل الروم بأنفسهم؛ وتحرمهم من العدوان على بلاد المسلمين. وعلى كل حال، فإن هذه الحرب لم تتوقف بزوال الحمدانيين، فجاء بنو مرداس وسواهم، ثم جاء السلاجقة، فطوروا حرب الثغور؛ التي استمرت حتى أيام الحروب الصليبية.

***

(١) يمكن العودة لديوان المتنبي، الذي سجل تلك الانتصارات الرائعة في قصائده الشعرية التي امتدح فيها سيف الدولة الحمداني، وكذلك ما سجله الشاعر أبو فراس الحمداني من قصائد في حروب الروم - وخلال فترة أسره -.

ج ـ على جبهة الأندلس: فتح الله للمسلمين بلاد الأنـدلس (٩٢ هـ ـ ٧١٠ م) فكانت جبال البيرتات (أو البيرينه) هي الحدود الفاصلة بين الأنـدلس وبين الأرض الكبيرة (بلاد الغال ـ أو فرنسا حالياً). وبقيت في الشمال إمارات معادية للمسلمين: جيليقية (أو غاليسيا) والبشكنس (أو الباسك)، فتكررت قصة حرب الثغور، على نحو مشابه تماماً لوضع حدود الشام مع الروم.

ولئن كـان الهدف الأول لمؤسس الـدولة الأمـوية في الأنـدلس (عبد الـرحمن الداخل) هو بناء الدولة العربية ـ الإسلامية بناء جديداً، وتوطيد دعائم الحكم، فقد جاء خلفاء بني أمية ليطبقوا الأسس والمبادىء التي ضمنت للعرب المسلمين الأمن والاستقرار في بلاد الشام، وكان في طليعتها حرب الثغور (أو الهجمات الإجهاضية المسبقة).

وكان أمير الأندلس، هشام بن عبد الرحمن (١٣٩ ـ ١٨٠ هـ/ ٧٥٦ ـ ٧٩٦ م) أول من صرف جهده لسد الثغور. وقد عمل سنة ١٧٧ هـ ـ ٧٩٣ م على فتح أربونة (ناربون)، واشترط على المعاهدين من أهل جليقية ـ من صعاب شروطه ـ نقل عدد من أحمال التراب من سور أربونة المفتتحة؛ يحملونها إلى باب قصره بقرطبة، وبنى منه المسجد الذي قدَّام باب الجنان.

وكان الأمير هشام قد خرج غازياً إلى بلاد الحرب سنة ١٧٥ هـ ـ ٧٩١ م فتوجه إلى ألبة والقلاع (قشتالة حالياً) فلقي العدو وظفر بهم. وبعث العساكر إلى جيليقيـة مع يوسف بن بخت (أو ابن نجية)، فلقي ملكها برمند وهزمه وأثخن في العدو. ثم بعث في السنة التالية جيشاً بقيادة وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث، فسار حتى بلغ ألبة والقلاع؛ فأثخن في نواحيها. ثم عاد فبعثه في العساكـر سنة ١٧٧ هـ إلى أربونة وجرندة، فأثخن فيها، ووطىء أرض بـرطانيـة، وتوغـل في بلاد الكفـار وهزمهم. وفي السنة التالية بعث العساكر مع عبد الكـريم بن عبد الـواحد إلى ألبـة والقلاع، كما بعث جيشاً آخر بقيادة أخيه عبد الملك بن عبد الواحد إلى جيليقيـة، فوصل إلى استرقة؛ فجمع له ملك الجلالقة؛ واستمد بملك البشكنس، ثم تجنب اللقاء؛ ورجع أدراجه، واتبعه عبد الملك. وكان هشام قد بعث الجيوش من ناحيـة أخرى، فالتقوا بعبد الملك؛ وأثخنوا في البلاد؛ واعترضتهم عساكر الفرنج؛ فنالوا منهم بعض الشيء، ثم خرجوا سالمين ظافرين.

جاء بعده ابنه (الحكم بن هشام ١٥٤ ـ ٢٠٦ هـ/ ٧٧٠ ـ ٨٢١ م) فسار على نهج أبيه. وكان العدو الكافر قد أفاد من الفتنة التي وقعت بين الحكم وبين عميه. فسارت جيوشه إلى برشلونة، واستولت عليها (سنة ١٨٥ هـ ـ ٨٠١ م) وتأخرت عساكر المسلمين إلى ما دونها. فبعث الحكم العساكر مع الحاجب عبد الكريم بن مغيث؛ فسار إلى بلاد الجلالقة، فأثخنوا فيها، وخالفهم العدو إلى المضائق؛ فرجع على التعبية؛ وظفر بهم؛ وخرج إلى بلاد الإسلام ظافراً.

وعلم الحكم أن ملك الفرنج لذريق بن قارلة (رودريك بن شارل) قد حشد جموعه وسار إلى حصار طرسونة (طرطوشة) فبعث الحكم جيشاً بقيادة ابنه عبد الرحمن (سنة ١٩٢ هـ ـ ٨٠٧ م) فهزمه؛ وفتح الله على المسلمين؛ وعاد ظافراً.

أفاد الفرنج من اشتغال الحكم بالخارجين عليه فعاثوا في الثغور فساداً، فما كان من الحكم إلا أن قاد جيشه بنفسه (سنة ١٩٦ هـ ـ ٨١١ م) فافتتح الثغور والحصون، وخرَّب النواحي، وأثخن في القتل والسبي والنهب، وعاد إلى قرطبة ظافراً. وبعث الحكم جيشاً إلى بلاد الفرنج بقيادة ابن مغيث (سنة ٢٠٠ هـ ـ ٨١٥ م) فخرب وهدم عدة حصون، وأقبل عليه ملك الجلالقة في جموع عظيمة؛ وتنازلوا على نهر؛ واقتتلوا عليه أياماً، ونال المسلمون منهم أعظم النيل؛ وأقاموا كذلك ثلاث عشرة ليلة؛ ثم كثرت الأمطار؛ ومد النهر؛ وقفل المسلمون ظافرين ظاهرين.

وكان عبد الرحمن بن الحكم هو رابع خلفاء بني أمية في الأندلس (عبد الرحمن الأوسط ١٧٦ ـ ٢٣٨ هـ/ ٧٩٢ ـ ٨٥٢ م). وقد بدأ عهد حكمه (سنة ٢٠٦ هـ ـ ٨٢١ م) بقيادة جيشه؛ وغزو جيليقية، وأوغل فيها؛ وأطال المغيب، وأثخن في أمم النصرانية ورجع ظافراً. ثم أغزى حاجبه عبد الكريم سنة ٢٠٨ هـ ـ ٨٢٣ م. فسار عبد الكريم إلى ألبة والقلاع؛ فخرب كثيراً من البلاد وانتسفها؛ وفتح كثيراً من حصونهم؛ وصالح بعضها على الجزية، وإطلاق سراح أسرى المسلمين؛ وانصرف ظافراً.

وبعث عبد الرحمن بجيشه سنة ٢٢٤ هـ ـ ٨٣٨ م بقيادة قريبه عبيد الله البلنسي. فسار جيش المسلمين إلى ألبة والقلاع، فلقيه العدو، فهزمه وأكثر القتل والسبي. ثم خرج ملك الجلالقة ـ لذريق ـ فأغار على مدينة سالم بالثغر؛ فسار إليه

(فرنون بن موسى) وقاتله، وأكثر القتل والسبي والأسر في العدو. وتوجه بعد ذلك إلى الحصن الذي بناه أهل ألبة بالثغر نكاية للمسلمين، فافتتحه وهدمه. وسار بعدئذ عبد الرحمن في جيوش المسلمين إلى بلاد جيليقية؛ فدوخها وافتتح عدة حصون منها، وجال في أرضهم، ورجع بعد طول المقام بالسبي والغنائم إلى عاصمته قرطبة.

بعث عبد الرحمن جيشه لغزو بلاد الفرنجة بقيادة موسى بن موسى ـ عامل تطيلة ـ وذلك سنة ٢٢٦ هـ ـ ٨٤٠ م، فأوغل الجيش حتى وصل أرض بريطانية؛ ولقيهم العدو؛ فصبر حتى هزم الله عدوهم.

ثم بعث عبد الرحمن جيشاً بقيادة ابنه محمد سنة ٢٢٩ هـ ـ ٨٤٣ م، فسار الجيش إلى بنبلونة، فأوقع بالمشركين عندها، وقتل ملكها غرسيه ـ وكان من أكبر ملوك النصارى ـ.

ثم بعث عبد الرحمن جيش المسلمين سنة ٢٣١ هـ ـ ٨٤٥ م، فساروا في جيليقية ودوخوها، وحاصروا عاصمتها (مدينة ليون) ورموها بالمجانيق، وهرب أهلها عنها وتركوها، فغنم المسلمون ما فيها وأحرقوها، وأرادوا هدم سورها فلم يقدروا عليه ـ لأن عرضه كان سبعة عشر ذراعاً ـ فثلموا فيه ثلمة ورجعوا.

ثم أغزى عبد الرحمن حاجبه عبد الكريم في العساكر إلى بلاد برشلونة؛ فعاث في نواحيها وأجاز الدروب التي تسمى البرت (البيرينه) إلى بلاد الفرنجة فدوخها قتلاً وأسراً وسبياً، وحاصر مدينتها العظمى (جَرَنْدَةَ). وعاث في نواحيها؛ وقفل.

وجاء محمد بن عبد الرحمن (٢٠٧ ـ ٢٧٣ هـ/ ٨٢٢ ـ ٨٨٦ م) فسار على نهج أسلافه وبعث لأول ولايته جيش المسلمين بقيادة صاحب تطيلة ـ موسى بن موسى ـ سنة ٢٣٨ هـ ـ ٨٥٢ م. فسار الجيش إلى تطيلة، وعاث في نواحي ألبة والقلاع، وفتح بعض حصونها ورجع، كما بعث أمير الأندلس محمد جيشاً آخر إلى نواحي برشلونة وما وراءها، فعاثوا فيها وفتحوا حصوناً من برشلونة ورجعوا. وأعلن أهل طليطلة تمردهم، واستمدوا ملكي جيليقية والبشكنس، فسار إليهم الأمير محمد، ونصب لهم كميناً في وادي سليط، وأوقع بهم، وبلغت عدة القتلى من أهل طليطلة والمشركين عشرين ألفاً.

ووجه الأمير محمد جيش المسلمين لغزو ملك بنبلونة (غرسيه بن وفقه ـ إينيغو)

سنة ٢٤٧ هـ - ٨٦١ م. فسار الجيش وعاث في نواحي بنبلونة؛ ورجع وقد دوخها وفتح كثيراً من حصونها، وأسر فرتون ابن غرسيه، فبقي أسيراً بقرطبة عشرين سنة.

ثم أرسل محمد جيشاً من المسلمين بقيادة أخيه المنذر سنة ٢٥١ هـ - ٨٦٥ م لغزو بلاد الجلالقة، فأثخن المسلمون في بلاد الجلالقة وخربوا.

ثم أرسل الأمير محمد جيشاً إلى دار الحرب بقيادة ابنه المنذر سنة ٢٦٣ هـ - ٨٧٦ م، وفي السنة التي بعدها إلى بلاد بنبلونة فدوخها، وكانت فتوحات لأكفاء لها.

كان عهد عبد الرحمن الناصر (٢٧٨ - ٣٥٠ هـ/ ٨٩١ - ٩٦١ م) من أعظم عهود المسلمين في الأندلس. وكان عبد الرحمن الناصر كثير الجهاد بنفسه؛ والغزو إلى دار الحرب. وكان يردد الصوائف في كل سنة. فأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الفرنج ما لم يطؤوه قبل؛ في أيام أسلافه، ومدت إليه أمم النصرانية من وراء الدروب يد الإذعان.

وأخبار الناصر في الجهاد طويلة جداً؛ ومنها أنه غزا ملك جيليقية (أردون بن أذفونش) سنة ٣٠٨ هـ - ٩٢٠ م، فاستنجد أردون بأمير البشكنس شانجه (أو سانشو) بن غرسيه حاكم بنبلونة، كما استنجد بالإفرنج، فانتصر الأمير الناصر عليهم، وهزمهم ووطىء بلادهم ودوخ أرضهم؛ وفتح معاقلهم؛ وخرب حصونهم. ثم غزا بنبلونة (سنة ٣١٢ هـ - ٩٢٤ م) ودخل دار الحرب؛ ودوخ البسائط، وفتح المعاقل، وخرَّب الحصون؛ وأفسد العمائر؛ وجال فيها؛ وتوغل في قاصيتها، والعدو يحاذيه في الجبال والأوعار، ولم يظفر منه بشيء.

وكان بعض الثوار قد استمد بالنصارى من أهل ألبة، فسار إليهم الناصر؛ وظفر بالثوار فقتلهم، واجتاح ألبة وفتح ثلاثين من حصونها. وبلغه أن ملكة البشكنس (طوطة - تودا) قد نكثت ونقضت العهد؛ فسار إليها وغزاها في بنبلونة ودوخ أرضها واستباحها ورجع إلى قرطبة.

وعلم الناصر أن أمية بن إسحاق قد أعلن تمرده؛ ودخل أرض النصارى؛ وتعهد لهم الكشف عن نقاط ضعف المسلمين (عوراتهم)، فقاد الناصر جيشاً من مائة ألف أو يزيدون، وسار به إلى سمورة، عاصمة جيليقية، سنة ٣٢٧ هـ - ٩٣٨ م. وكانت

مدينة سمـورة حصينة؛ عليهـا سبعة أسـوار من أعجب البنيان؛ قـد أحكمته الملوك السالفة، وبين الأسوار فصلان وخنادق ومياه واسعة، وافتتح المسلمون منها سورين. ثم ثاب المقاتلون المدافعون عن سمـورة بعد أن حـوصروا وألجئـوا إلى المدينـة؛ فقتلوا من المسلمين بعـد عبورهم الخنـدق خمسين ألفاً. وحـاول روذميـر مـطاردة المسلمين، غيـر أن أميـة بن إسحـاق منعـه من ذلـك، وخـوَّفـه من كمين ينصبـه المسلمون، ورغَّبه فيما كان في عسكر المسلمين من الأموال والعدة والخزائن؛ ولولا ذلك لأهلك جميع المسلمين. ثم إن أمية استأمن بعد ذلك إلى عبد الرحمن الناصر وتخلص من روذمير، فقبله عبد الرحمن أحسن قبول.

وعاد عبد الرحمن فجهز الجيوش ووجهها مع عدد من قادته إلى بلاد الجلالقة، فكانت لهم بهم عدة حروب هلك فيها من الجلالقة ضعف ما قتل من المسلمين في الوقعة السابقة (المعروفة باسم وقعة الخندق). واستمر النـاصر في إرسـال البعوث والصوائف إلى الجهاد، فهابته أمم النصرانية، وألقت إليه السلم، وخضعت لحكمه.

ظن الجلالقة أن باستطاعتهم الإفادة من وفاة عبـد الرحمن النـاصر؛ وانتقـال الإمـارة إلى ابنـه الحكم المستنصـر، وطمعـوا في الاستيـلاء على الثغـور، فقـاد المستنصر جيشه بنفسه، واقتحم بلد (فرذلند بن غند شلب؛ أو فـرديناند غونـزالو) فنازل شنت اشتيبن (سانت استيبان) وفتحها عنوة واستباحها، واكتفى بما حققـه من نصر، وعاد إلى قرطبة، فبادر الجلالقة إلى عقد السلم معه، وتراجعوا عن مواقعهم.

ثم وجه المستنصر جيشاً بقيادة مولاه (غالب) لغزو بلاد جيليقية، فسار غالب إلى (مدينة سالم) لدخـول دار الحرب؛ فجمـع له الجـلالقة حشـودهم، ولقيهم غالب فهزمهم؛ وأوطأ العساكر بلد (فرذلند) ودوخها. وكان شـانجه (سـانشو) بن رذميـر؛ ملك البشكنس؛ قد انتقض، فوجَّه المستنصر لقتاله جيشاً بقيادة أمير ثغر سـرقسطة (الحكم التجيبي). وجاء ملك الجلالقة لنصره، فهزمهم، وحصرهم (بقورية) وعاث المسلمون في نواحيها، وقفل سالماً غانماً.

ثم وجه المستنصر جيشين إلى بلاد برشلونـة (بقيادة أحمد بن يعلى ويحيى بن محمـد التجيبي)، فعاثت عسـاكر المسلمين في نـواحيها... وعـظمت فتوحـات المستنصر وقواد الثغور في كل ناحية؛ وكان من أعظمها فتح قلهـرة (كالاهـورا ـ أو كالاغوري) فعمرها المستنصـر واعتنى بها. ثم فتـح قطوبيـة (بيربـا) على يد قـائد

وشقة؛ وغنم فيها من الأموال والسلاح والأقوات والأثاث ما لا يحصى. ثم بعث ملكا برشلونة وطركونة وغيرهما يسألان تجديد الصلح؛ وإقرارهما على الحكم، فعقد لهم المستنصر؛ على أن يهدموا الحصون التي تضر بالثغور؛ وأن لا يظاهروا عليه أهل ملتهم، وأن ينذروا بما يكون من النصارى في إيذاء المسلمين والعدوان عليهم.

وجاء الحاجب المنصور بن أبي عامر فحكم الأندلس ٢٧ سنة (٣٦٧ ـ ٣٩٤ هـ/ ٩٧٧ ـ ١٠٠٣ م)، فكانت أيامه حروباً متصلة على الثغور حتى عادت الأندلس كمثل ما كانت عليه أيام الفتح الأولى، ورد الغزو بنفسه إلى دار الحرب، فغزا ستاً وخمسين غزوة، لم تنكس له فيها راية، ولا فلَّ له جيش؛ وما أصيب له بعث، وما هلكت له سرية، وتوفي في غزاته للإفرنج فحُمل إلى مدينة سالم؛ ودفن بها.

* * *

يظهر العرض السابق أن استراتيجية الهجمات الوقائية؛ قد اقترنت بصورة رئيسة باستراتيجية الردع، إذ كان الهدف في كل الغزوات، وعلى كل الجبهات، واحداً، وهو إقناع أعداء المسلمين ـ من هنود وروم وفرنج وأسبان ـ بعدم جدوى مقاومتهم للتيار الإسلامي؛ وحملهم على إلقاء السلاح؛ والامتناع عن محاربة المسلمين والكيد لهم.

غير أن هذه التجربة التاريخية (في حرب الثغور) قد برهنت، في الوقت ذاته، على أن الردع النفسي هو ردع محدود الأثر في زمانه ومكانه، إذ اكتسب أعداء المسلمين، وعلى كل الجبهات، قدراً كافياً من المناعة الذاتية؛ فتراجع الردع النفسي حتى تلاشى.

كذلك كانت حرب الثغور (الهجمات الإجهاضية المسبقة) مدرسة حقيقية للحرب، تعلم منها أعداء الإسلام والمسلمين، وعملوا على محاكاتها وتقليدها، فعملوا بدورهم على تنظيم شبكة من الثغور مقابل ثغور المسلمين؛ وشحنوها بالمقاتلة، كما نظموا ما يماثل الصوائف والشواتي لغزو بلاد المسلمين وإجهاض استعداداتهم القتالية. وهكذا تساوى الطرفان في خبراتهم القتالية، وتشابه الطرفان في مفاهيمهم العسكرية وحتى في أساليب قتالهم ـ على نحو ما أظهره العرض

السابق ـ. وكان هدف كل طرف هو استنزاف قدرة الطرف الآخر في حروب مستمرة وطويلة الأمد، فكان النصر مرتبطاً بتوافر القدرات القتالية. وكانت هذه القدرات متأرجحة وغير مستقرة، وهذا ما يفسر تناوب الانتصارات. غير أن كفة المسلمين بقيت هي الأرجح على كل الجبهات، نظراً لقدرة المسلمين على الاستنصار بإخوانهم في الدين من عمق أرجاء العالم الإسلامي (العمق الاستراتيجي بحسب التعابير الحديثة).

وبذلك استطاع المسلمون ـ عبر حرب الثغور ـ المحافظة على أقاليم العالم الإسلامي ودعم وحدتها وتماسكها، هذا فيما كانت الأقطار الإسلامية في الداخل (العمق الاستراتيجي) تعاني من انقسامات مدمرة وخطيرة، سواء كانت هذه الانقسامات مذهبية (كالانقسام بين السنة، أهل الطاعة والجماعة، وبين الشيعة) أو بسبب ظهور حركات هدَّامة (مثل ثورة الزنج وحركة القرامطة) أو حتى كانت لأسباب فردية (مثل تقسيم الأندلس بين ملوك الطوائف).

وكان تفتت الجبهة الداخلية أشد خطراً على المسلمين من هجمات أعدائهم على الثغور، إذ إن تلك الانقسامات، وما رافقها من صراعات مسلحة؛ هي التي استنزفت في الواقع قدرة المسلمين بأكثر مما استنزفتها حروب الثغور. وكانت تلك هي الفرصة التي طالما انتظرها أعداء الإسلام والمسلمين، فلم يلبثوا أن شكَّلوا جبهة صليبية موحدة، بتحريض من الكنيسة؛ فكانت الحروب الصليبية؛ وكانت حملاتها على كل الجبهات، إنطلاقاً من أندلس المسلمين، ومروراً بالبحر الأبيض المتوسط وجزائره وأقطار المغرب العربي الإسلامي، ونهاية ببلاد الشام، بالإضافة إلى تحرك المغول ـ التتار ـ في أقصى المشرق.

وهكذا، لم يكن ضعف حماة الثغور هو الذي ساعد أعداء الإسلام والمسلمين على توحيد جهودهم لإخماد جذوة الإسلام المتقدة ـ دائماً وما دامت السموات والأرض بعون الله ـ وإنما كان تفتت الجبهة الداخلية وتمزقها هو السبب في انهيار الثغور، وإيقاف أعمال الغزو (بالهجمات الإجهاضية المسبقة أو حرب الثغور)، ولعل ذلك هو أهم ما تضمنته حرب الثغور من دروس وعبر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

٤

الفصل الرابع

مبادىء الحرب

١ ـ المباغتة
٢ ـ المبادأة
٣ ـ الأمن
٤ ـ الاستطلاع والغزوات الاستطلاعية

١

المباغتة

قرر رسول الله ﷺ (فتح مكة)، وتوجه إلى الله عز وجل بـالدعـاء والاستغاثـة، **(اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها)**. وأصدر الرسول أمره للناس بالتجهز؛ ولم يعرف أحد حتى أهل بيت الرسول؛ وحتى صاحبه أبو بكر؛ إلى أين يريد الرسول أن يسير.

وخرج رسول الله ﷺ؛ وقائل يقول: يريد قريشاً، وقائل يقول: يريد هـوازن، وقائل يقول: يريد ثقيفاً. ولم يعقد الرسول الألوية؛ ولم ينشر الـرايات حتـى قـدم قديداً، فلقيته بنو سليم على الخيل والسلاح التام؛ وقد كان عيينة قد لحق برسول الله بالعرج في نفر من أصحابه؛ كما كان قد لحقه الأقرع بن حابس بالسقيا، فقال عيينة: يا رسول الله؛ والله ما أرى آلة الحرب، ولا تهيئة الإحرام. فأين تتوجه يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: (حيث شاء الله) ومضى حتى نزل الظهران. وعميت الأخبار عن قريش؛ فلا يأتيهم خبر عن رسول الله؛ ولا يدرون ما هو فاعل؛ فخرج في تلك الليلة أبو سفيان بن حرب؛ وحكيم بن حزام؛ وبديل بن ورقاء؛ يتحسسون الأخبـار، هل يجدون خبراً أو يسمعون به؟.

كانت تلك المباغتـة الأولى التي أعد رسـول الله ﷺ عدتهـا لفتح مكـة؛ وهي مباغتة ارتبطت (بالمحافظة على السر).

أما المباغتة الثانية فكانت فيما أعده الرسول ﷺ من العدد والعدة. فقـد حشد عشرة آلاف فارس من كل القبائل؛ مما أذهل أبا سفيان بن حرب عندما حبسه العباس

عند خطم الجبل بمضيق الوادي يشهد عرض قوات العرب المسلمين وهي تمر أمامه، حتى إنه لم يتمالك نفسه عندما مر رسول الله ﷺ في الكتيبة الخضراء التي ضمت المهاجرين والأنصار وهم في الحديد، لا يرى منهم إلا الحدق؛ فقال مخاطباً العباس: «يا أبا الفضل! لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً» فرد عليه العباس: «ويحك! إنها النبوَّة». وخرج أبو سفيان مسرعاً حتى أتى مكة؛ فصرخ في المسجد: **«يا معشر قريش! هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به»**[1] وكان الفتح.

ارتدت العرب عند وفاة الرسول؛ إما قاطبة أو خاصة؛ وطمع المرتدون في القضاء على العرب المسلمين؛ وسبقتهم (عبس وذبيان) فطرقت أبواب المدينة؛ وجاءت عيون أبي بكر ـ عناصر استطلاعه ـ فأخبرته أن طلائع المرتدين قد وصلت (ذي حسى) وأن قواتهم الرئيسة في (ذي القصة). **فبات أبو بكر ليلته يتهيأ**؛ فعبى الناس؛ ثم خرج على تعبية من أعجاز ليلته يمشي، وعلى ميمنته النعمان بن مقرن؛ وعلى ميسرته عبد الله بن مقرن؛ وعلى الساقة ـ المؤخرة ـ سويد بن مقرن ومعه الركاب؛ **فما طلع الفجر إلا وهم والعدو في صعيد واحد؛ فما سمعوا للمسلمين همساً ولا حساً حتى وضعوا فيهم السيوف، فاقتتلوا أعجاز ليلتهم؛ فما ذرَّ قرن الشمس حتى ولّوهم الأدبار؛ وغلبوهم على عامة ظهرهم. واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القصة، وعز المسلمون بوقعة أبي بكر»**[2].

كان خالد بن الوليد رضي الله عنه؛ من القادة الذين يعتمدون اعتماداً كبيراً على المباغتة في أعماله القتالية؛ وكان له أسلوبه المميز في تحقيق المباغتة؛ إذ كان يعتمد على ظلمة الليل للتحرك؛ ويتحرك بصمت وسكون مع قواته؛ من ذلك مسيره لقتال (مسَيْلمة الكذاب وقومه من أهل اليمامة). فقد سار والمجاهدون معه في عتمة الليل؛ وصادف في مسيره (مجاعة بن مرارة) ومعه سرية (ما بين ٤٠ ـ ٦٠ مقاتلاً) من المرتدين، وكان هؤلاء قد تعبوا فناموا وأرسان خيولهم بأيديهم تحت خدودهم؛ فلم يشعروا باقتراب خالد والمجاهدين معه؛ وسألهم خالد: **«متى سمعتم بنا؟»** قالوا: **«ما شعرنا بك»**. فقتلهم خالد؛ واستبقى مجاعة[3].

---

(١) تاريخ الطبري (فتح مكة) أحداث سنة ٨ هـ.

(٢) تاريخ الطبري (بقية الخبر عن أمر الكذاب العنسي) أحداث سنة ١١ هـ.

(٣) تاريخ الطبري ـ أحداث سنة ١١ هـ.

كان أشد الناس قتالاً للعرب المسلمين أيام قيادة (عياض بن غنم) هم العرب أنصار الفرس من (النمر وتغلب وإياد). فلما سار خالد إلى العراق بعد إخماد نار فتنة الردة، حاربهم وانتصر عليهم في (عين النمر)، فاستجار هؤلاء بأحزابهم من عرب الجزيرة وأهل الشام (من بهراء وكلب وغسان وتنوخ والضخاغم). وكان هؤلاء بدورهم قد أسجوا عياضاً وشجوا به، فقرر خالد القضاء عليهم تباعاً، وبدأ بعرب (دومة الجندل) فقتلهم شرقتلة؛ وقرر السير بعد ذلك إلى **(مصيخ بني البرشاء)** بين حوران والقلت؛ **فقسم قواته إلى ثلاث مجموعات؛ وواعدهم ليلة وساعة يجتمعون فيها إلى المصيخ؛ فلما كانت تلك الساعة من ليلة الموعد التقوا جميعاً بالمصيخ - وكان خالد قد ركب الإبل وتجنب ركوب الخيل - فأغاروا على الهذيل ومن معه ومن أوى إليه؛ وهم نائمون؛ من ثلاثة أوجه، فقتلوهم؛ وامتلأ الفضاء قتلى؛ فما شبهوا إلا غنماً مصرعة.**

وعلم خالد أن ربيعة بن بجير التغلبي قد نزل (الثني) وواعد الهذيل وسواه ممن يريدون قتال العرب المسلمين. فأقسم خالد: **«ليبغتنَّ تغلب في دارها»**. وتقدم إلى القعقاع بن عمرو التميمي؛ وإلى أبي ليلى بن فدكي، وواعدهما الليلة ليفترقوا فيها للغارة على (الثني) من ثلاثة أوجه؛ كما فعل بالمصيخ؛ واجتمع هو وأصحابه؛ **فبيوتهم من ثلاثة أوجه بياتاً؛ وجردوا فيهم السيوف، فلم يفلت من ذلك الجيش مخبر**. وقسم خالد الفيء وبعث بخمس الله إلى أبي بكر، **ثم سار إلى (الزميل) فبيتهم بمثلها غارة شعواء من ثلاثة أوجه؛ فقتل منهم مقتلة عظيمة**[1].

وكان لخالد أسلوب آخر في المباغتة؛ ظهر في تحركه من العراق إلى الشام، إذ جمع قادته؛ وقال لهم: «كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم». وقد اختار الطريق الصعب (من قراقر إلى سوى) حتى يباغت الروم.

ثم كانت المباغتة الثانية في التنظيم القتالي الذي وضعه خالد للقتال في اليرموك (تنظيم الكراديس - أو الكتائب) وهو تنظيم لم يعرفه العرب من قبل.

وكذلك كانت لخالد طريقته المميزة لتحقيق المباغتة عند حصار دمشق؛ فقد أسند لخالد حصار قطاع معين (قطاع الباب الشرقي). فنظم خالد الحصار؛ وأخذ

---

(١) تاريخ الطبري - أحداث سنة ١٢ هـ.

يتحين الفرصة المناسبة لاقتحام أسوار دمشق. وجاءته هذه الفرصة كما أوردتها المصادر التاريخية: «ولد لبطريق دمشق مولود؛ فأقام وليمة؛ وأكل القوم وشربوا؛ وغفلوا عن مواقفهم؛ ولم يشعر بذلك أحد من المسلمين **إلا ما كان من خالد؛ فإنه كان لا ينيم ولا ينام؛ ولا يخفى عليه من أمورهم شيء؛ عيونه ذاكية ـ ساهرة ـ وهو معني بما يليه؛ قد اتخذ حبالاً كهيئة السلاليم؛ وأوهاقاً؛ فلما أمسى من ذلك اليوم نهد ومن معه من جنده؛ وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي؛ وأمثاله من أصحابه المتقدمين، ورموا بالحبال الشرف... وصعدوا حتى استووا على السور**» وانقضوا على الحرس فقتلوهم وفتحوا الباب الشرقي وتدفقت جموع المجاهدين في سبيل الله إلى داخل دمشق، وجاء نصر الله والفتح.

ولي حرب العراق بعد انصراف خالد إلى الشام؛ (المثنى بن حارثة) الشيباني؛ فأغار على (سوق الخنافس). **وأفاد من ظلمة الليل للتحرك؛ كما أفاد من السرعة في التحرك (ليسبقوا الأخبار)**. وكانت إغارة ناجحة؛ حقق العرب المسلمون ما يريدون؛ ورجعوا، حتى إذا ما ابتعدوا مسيرة كافية؛ أوقفهم المثنى للاستراحة، فسمع همساً فيما بينهم: «ماذا لو أسرع القوم في طلبنا». فأجابهم المثنى: «تناجوا بالبر والتقوى، ولا تتناجوا بالإثم والعدوان. انظروا في الأمور وقدِّروها ثم تكلموا؛ **إن النذير ـ الإنذار ـ لم يبلغ مدينتهم بعد؛ ولو بلغهم؛ لحال الرعب بينهم وبين طلبكم ـ ومطاردتكم ـ. إن للغارات روعات تنتشر عليها يوماً إلى الليل؛ ولو طلبكم المحامون من رأى العين ما أدركوكم؛ وأنتم على العراب ـ الخيول الأصيلة الخالية من الهجنة ـ حتى تنتهوا إلى عسكركم وجماعتكم... وقد أوصانا خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر؛ أن نقلل العرجة؛ أو التوقف؛ ونسرع الكرة في الغارات، ونسرع في غير ذلك الأوبة**»[1].

تتابعت الأيام على جبهتي الشام والعراق؛ وكان كل يوم منها يحمل نوعاً من المباغتة، حتى إذا ما كانت سنة ١٦ هـ؛ حدثت مباغتة تميزت بإطارها (المكاني). فقد بقي دجلة حاجزاً بين العرب المسلمين وبين الفرس؛ وكان ملك الفرس (يزدجرد) ومعه مهران الرازي والنخيرجان قد اتخذوا من المدائن القصوى قاعدة

---

(١) تاريخ الطبري (فتح دمشق) و(خبر الخنافس) أحداث سنة ١٣ هـ.

متقدمة لحربهم. وقرر سعد بن أبي وقاص عبور النهر ومباغتة الفرس؛ فانتدب عاصم بن عمرو - ذا البأس - وتطوع معه ستمائة فارس لتنفيذ مهمة العبور؛ وحمايته؛ وأطلق عليهم اسم (كتيبة الأهوال). فانتخب عاصم ٦٠ فارساً، وعبر بهم النهر، ولحقت به بقية الكتيبة، فأتبعها سعد (بالكتيبة الخرساء) التي ضمت أفضل الفرسان. وما إن وصلت قوات العرب المسلمين إلى الضفة المقابلة حتى اصطدمت بمقاومة الفرس. ولما رأى سعد أن قوة الكتيبتين قد عبرت إلى الطرف المقابل، بنجاح، أمر بقية الجيش بالعبور؛ فعبروا ولم يغرق منهم أحد. وقال بعض الفرس لبعض: «والله ما تقاتلون الإنس؛ وما تقاتلون إلا الجن». وبوغت يزدجرد وقادته بعبور العرب المسلمين، فغادروا المدائن وحملوا معهم ما قدروا على حمله من حرِّ متاعهم وخفيفه، وما قدروا عليه من بيت المال؛ ومن النساء والذراري؛ وتركوا في الخزائن من الثياب والمتاع والآنية والفضول والألطاف والأدهان؛ ما لا يدرى ما قيمته؛ وخلَّفوا ما كانوا أعدُّوا للحصار من البقر والغنم والأطعمة والأشربة؛ فكان أول من دخل المدائن كتيبة الأهوال؛ ثم الكتيبة الخرساء؛ فأخذوا في سككها لا يلقون أحداً، إلا من كان في القصر الأبيض، فأحاطوا بهم ودعوهم؛ فاستجابوا لسعد على الجزاء والذمة؛ ونزل سعد القصر الأبيض[1].

ويبرز هنا بوضوح ما كان للمباغتة (المكانية والزمانية) من التأثير بحيث لم يتمكن ملك الفرس؛ ومن معه من القادة؛ أن يفعلوا شيئاً أكثر من النجاة بأنفسهم؛ حتى إنهم لم ينذروا جندهم وحرسهم الخاص في (المدائن) بانسحابهم - وفرارهم - مما جعل المقاومة معدومة تماماً.

فتح الله مدينة (الري) سنة ٢٢ هـ؛ وكانت قصة فتحها مزيجاً من الخدعة والمباغتة! فقد كان ملكها (سياوخش بن مهران بن بهرام شوبين) قد نظم الدفاع عن الإقليم وعن مدينته، واستعان بالمقاتلين من (دنباوند وطبرستان وقومس وجرجان) فتكوَّن عنده جيش ضخم؛ فسار (نعيم بن مقرن) بجيشه، فالتقى بهذا الحشد عند سفوح جبل الري؛ واقتتل المسلمون وأعداؤهم قتالاً ضارياً؛ وكان لملك الري خصم اسمه (الزينبي) جاء إلى النعمان مسالماً، وقال له: «**إن القوم كثير؛ وأنت في**

(١) تاريخ الطبري - والكامل في التاريخ - أحداث سنة ١٦ هـ (حديث المدائن القصوى).

قلَّة؛ فابعث معي خيلاً أدخل بهم مدينتهم من مدخل لا يشعرون به؛ وناهدهم أنت؛ فإنهم إن خرجوا عليهم لم يثبتوا لك». فبعث معه نعيم قوة من الفرسان في الليل، بقيادة ابن أخيه (المنذر بن عمرو) فأدخلهم الزينبي المدينة من غير أن يشعر بهم القوم. وقضى الفرسان ليلتهم فيما كان القوم منصرفون لقتال نعيم؛ **ولم يشعروا إلا بالتكبير من ورائهم؛ فانهزموا**؛ وقتلوا مقتلة عظيمة. ودمرت الرِّي؛ وصالح الزينبي بالنيابة عن أهل الري؛ وأعاد بناء المدينة التي سميت (مدينة الري الحدثى)[1].

وقعت معركة مشابهة سنة ٩٨ هـ؛ وكانت المباغتة فيها أيضاً هي العامل الحاسم في النصر. ففي هذه السنة كان يزيد بن المهلب يقود جيشاً من مائة ألف مقاتل سوى المماليك والموالي والمتطوعين، ومعه أهل الكوفة وأهل البصرة وأهل الشام، وكان هدفه هو فتح (جرجان) التي تمردت على العرب المسلمين؛ وعمل ملكها (المرزبان) على قتل (أربعة آلاف من المسلمين وهم آمنون في منازلهم) فأقسم يزيد «لئن ظفر بأهل جرجان ألا يقلع عنهم؛ ولا يرفع عنهم السيف حتى يطحن بدمائهم؛ ويختبز من ذلك الطحين ويأكل منه». وأقبل يزيد بجيشه على (جرجان)، وأهلها متحصنون فيها؛ وحولها غياض فليس يُعرف لها إلا طريق واحد؛ فأقام بذلك سبعة أشهر لا يقدر منهم على شيء؛ ولا يعرف لهم طريق إلا من وجه واحد؛ فكانوا يخرجون في الأيام؛ فيقاتلونه؛ ويرجعون إلى حصنهم. وتصادف أن خرج أحد المسلمين (واسمه الهياج بن عبد الرحمن الأزدي) للصيد، وكان مغرماً به؛ فأبصر وعلاً، فطارده؛ عبر الممرات الجبلية؛ وإذا به بعد طول مسير أمام معسكر أهل جرجان، فعاد وقد وضع شارات مميزة يستهدي بها عبر الغياض وأخبر يزيد؛ الذي ندب الناس على الفور؛ فتطوع ألف وأربعمائة. فقال الصياد (الهياج): إن الطريق لا يحمل هذه الجماعة لالتفاف الغياض؛ فاختار منهم ثلثمائة، وأسند قيادتهم إلى ابنه خالد بن يزيد؛ ومعه جهم بن زحر؛ وأوصاه بقوله: «إن غلبت على الحياة فلا تغلبن على الموت؛ وإياك أن أراك عندي منهزماً». وقال الهياج لأمير الجيش (يزيد): سنصل إلى هناك غداً عند العصر؛ فيما بين الصلاتين. فلما كان الموعد؛ نهض يزيد بالجيش؛ وأمر الناس فصلوا، وجمعوا بين الصلاتين الظهر

---

(١) تاريخ الطبري ـ أحداث سنة ٢٢ هـ (فتح الري).

والعصر؛ وكان خالد ومعه جهم ومجموعة القتال قد وصلوا ودخلوا المدينة، حتى إذا كانت الساعة التي أمر يزيد أن يبدأ فيها الهجوم، **ارتفعت الأصوات بالتكبير، ففزع أهل المدينة فزعاً لم يدخلهم مثله قط فيما مضى؛ ولم يرعهم إلا والمسلمون معهم في مدينتهم يكبِّرون، فدهشوا؛ فألقى الله في قلوبهم الرعب؛ وأقبلوا لا يدرون أين يتوجهون!** وسمع يزيد بن المهلب التكبير، فوثب في الناس إلى الباب، واقتحموه، وقتل يزيد من أهل جرجان اثني عشر ألفاً ـ وقيل أربعين ألفاً ـ.

تكررت مثل هذه الأعمال القتالية التي كان يتم فيها تنظيم المباغتة على مستوى العمليات؛ وفي كل ميادين القتال. ولعل من أفضل النماذج المشابهة ما وقع سنة ٢٢٨ هـ ـ ٨٤٢ م عندما قاد (الفضل بن جعفر الهمذاني) قوة من صقلية لفتح (مسيني، أو مسينا) فتم إنزال القوات، وضرب الحصار المحكم على المدينة؛ وانضم إلى المسلمين أهالي نابولي (نابل) واستمر الحصار والقتال لمدة سنتين؛ واشتد القتال ولم يتمكن المسلمون من فتحها «إلى أن تم، في النهاية، قيام مجموعة من المجاهدين في سبيل الله بحركة استدارة واسعة حول الجبل المطل على المدينة، ثم صعدوا إليه ونزلوا إلى المدينة، وأهلها مشغولون بقتال جعفر ومن معه؛ **فلما رأوا أن المسلمين دخلوا عليهم من خلفهم؛ انهزموا وفتح البلد**». غير أن أهل مسينا غدروا بالمسلمين؛ وكتبوا إلى بطريقهم بصقلية لينصرهم؛ فأجابهم إلى ذلك؛ واتفق معهم على شارة بدء الهجوم بأن يعمل على إيقاد النار لهم في موضع معين من الجبل المطل على المدينة في ثلاث ليال متتالية؛ فإذا كان اليوم الرابع قام بالهجوم؛ فيخرج أهل البلد بقواتهم، لقتال المسلمين. وعلم الفضل بن جعفر بذلك؛ فوضع خطة مضادة؛ وعمل على إيقاد النيران في المكان المحدد على ثلاث ليال متتالية؛ ووضع قوة لقتال أهل البلد عند خروجهم منها، ونظم الكمائن؛ وأمر الذين يحاصرون المدينة أن ينهزموا وينسحبوا إلى جهة الكمين، فإذا خرج أهلها عليهم قاتلوهم حتى يتجاوزوا الكمين وعندها يقومون بالهجوم المضاد. «فلما كان اليوم الرابع خرج أهل مسينا وقاتلوا المسلمين وهم ينتظرون وصول البطريق؛ فانهزم المسلمون واستجرُّوا أهل مسينا حتى جاوزوا الكمين؛ ولم يبق بالبلد أحد إلا خرج. **فلما جاوزوا الكمين عاد المسلمون عليهم؛ وخرج الكمين من خلفهم؛ ووضعوا فيهم السيف فلم ينج منهم إلا القليل**؛ وطلبوا الأمان على أنفسهم وأموالهم ليسلموا

المدينة، فأجابهم المسلمون إلى ذلك وأمنوهم، فسلموا المدينة وذلك سنة ٢٣٢ هـ - ٨٤٦ م)[١].

كانت (سرقوسة) هي عاصمة صقلية؛ فلما فتحها الله للمسلمين؛ انتقل ملك صقلية إلى مدينة (قصريانة) التي تم اختيارها لحصانتها ومنعتها؛ فقرر المسلمون فتحها؛ وشرع أمير صقلية الجديد (العباس بن الفضل بن يعقوب) الذي تولى الإمارة منذ سنة ٢٣٦ هـ؛ في إرسال السرايا والقوات لمهاجمة قصريانة. وقاد العباس بنفسه جيش المسلمين في كل سنة لفتح المدينة، فلم يتمكن من فتحها لمنعتها من جهة؛ ولتدخل أسطول الروم في بعض الأحيان؛ وتمكن المسلمون خلال ذلك من فتح معظم القلاع والحصون والمدن المحيطة بالعاصمة (قصريانة)، ولكنهم عجزوا عن فتح العاصمة ذاتها، حتى إذا ما كانت سنة ٢٤٤ هـ - ٨٥٨ م، حيث قاد العباس جيشه نحو قصريانة، ووجه في الوقت ذاته قوة بحرية! فاصطدمت بقوة بحرية تابعة لملك الروم؛ أرسلها لدعم أهالي جزيرة صقلية؛ فاقتتلوا أشد قتال؛ وانهزم الروم؛ وغنم المسلمون عشر سفن (من أصل أربعين سفينة)، وعاد العباس إلى قاعدته.
فلما كان الشتاء؛ سيَّر سرية فبلغت قصريانة فنهبوا وخربوا وعادوا ومعهم رجل أسير كان له عند الروم قدر ومنزلة؛ فأمر العباس بقتله؛ فطلب الرجل الأمان مقابل مساعدة المسلمين على فتح قصريانة وذلك بدلالتهم على موضع يمكن منه الوصول إلى داخل المدينة. ووافق العباس؛ وسار بجيشه «**حيث كان القوم، في هذا الشتاء وهذه الثلوج، آمنون من صعوبة وصول المسلمين إليهم؛ فكانوا غير محترسين**».
وانتخب العباس ألفي فارس - أنجاد أبطال - وسار إلى أن اقترب من قصريانة؛ وكمن هناك مستتراً؛ وسيَّر عمه رباحاً في شجعانهم؛ **فساروا مستخفين في الليل، وأراهم الرجل الأسير الموضع الذي ينبغي الدخول منه؛ فنصبوا السلاليم وصعدوا الجبل، ثم وصلوا إلى سور المدينة قريباً من الصبح؛ والحرس نيام؛ فدخلوا من نحو باب صغير فيه؛ يدخل منه الماء؛ وتُلقى فيه الأقذار؛ فدخل المسلمون كلهم؛ فوضعوا السيف في الروم وفتحوا الأبواب؛ وجاء العباس في الجيش فدخلوا المدينة؛** وصلوا الصبح؛ يوم الخميس منتصف شوال؛ وبنى فيها في الحال مسجداً؛ ونصب فيه

(١) الكامل في التاريخ (أحداث سنة ثمان وعشرين ومائتين - ذكر غزوات المسلمين في جزيرة صقلية).

منبراً؛ وخطب فيه يوم الجمعة؛ وقتل من وجد في المدينة من المقاتلين[1].

يظهر من خلال ذلك أن (المباغتة) قد تطوَّرت أحياناً تطوراً مثيراً؛ وأخذت شكلاً معقداً؛ وتشكلت من مجموعة عناصر، مثل: الخداع؛ والمناورة؛ والإفادة من الظروف الجوية السيئة ومن ظلمة الليل؛ وتنسيق ذلك جميعه في إطار خطة العمليات؛ وهذا مما تضمنته العملية السابقة.

وهناك عملية مماثلة جرت على أرض الأندلس سنة ٢٤٠ هـ ـ ٨٥٤ م، وذلك عندما أعلنت طليطلة تمرُّدها؛ وطلبت الدعم من ملك البشكنس؛ (الباسك) ومن ملك جيليقية (غاليسيا) فسار إليهم محمد بن عبد الرحمن ـ أمير الأندلس ـ **فنظم جيشه للقتال عندما اقترب من طليطلة؛ ونظم الكمائن في (وادي سليط) وتقدم إلى طليطلة بقوات قليلة؛ فلما رأى أهل طليطلة ذلك أعلموا الفرنج بقلة عدد المسلمين؛ وسارعوا إلى قتالهم وطمعوا فيهم**[2]. فلما اصطدمت القوات بعضها ببعض؛ ووقع القتال؛ خرجت قوات الكمائن من كل جهة؛ وأحاطت بأهل طليطلة، وبالجيوش التي جاءت لمساعدتهم؛ فقتل منهم ما لا يحصى، وذكر أن عدد القتلى قد زاد على عشرين ألف قتيل.

كذلك كان (للمباغتة) دورها الحاسم في المعركة التي وقعت بين المسلمين والروم (سنة ٢٧٠ هـ ـ ٨٨٣ م) عندما خرجت الروم في مائة ألف مقاتل؛ فنزلوا على قلمية ـ وهي على ستة أميال من طرسوس ـ **فخرج إليهم المسلمون بقيادة ـ بازمار ـ ليلاً؛ وباغتوهم؛ فقتلوا منهم فيما قيل سبعين ألفاً**؛ وقتل مقدمهم وهو بطريق البطارقة؛ بالإضافة إلى عدد من البطارقة؛ وأخذ من الروم سبع صلبان من ذهب وفضة؛ وصليبهم الأعظم من ذهب مكلَّل بالجوهر، وأخذ خمسة عشر ألف دابة وبغل؛ ومن السروج وغير ذلك؛ وسيوفاً محلاة؛ وأربع كراسي من ذهب؛ ومائتي كرسي من فضة؛ وآنية كثيرة؛ ونحواً من عشرة آلاف علم ديباج[3].

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة سبع وثلاثين ومائتين (ذكر فتح قصريانه).

(٢) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة أربعين ومائتين (ذكر الحرب بين المسلمين والفرنج بالأندلس).

(٣) الكامل في التاريخ (أحداث سنة سبعين ومائتين) (ذكر الظفر بالروم).

بقيت (المباغتة) ملازمة لحروب المسلمين؛ على كافة جبهات القتال؛ بأساليب متنوعة؛ وطرائق مختلفة؛ تبعاً لما كان يفرضه الموقف، وهذا ما ظهر في معركة حران (أو كارثة حران كما وصفها المؤرخون الصليبيون)، والتي وقعت سنة ٤٩٧ هـ - ١١٠٣ م، ولما يمضِ على وصول الفرنج الصليبيين إلى بلاد الشام أكثر من خمس سنوات. ففي هذه السنة اتفق معين الدولة (سقمان بن أرتق) الذي كان يحكم إقليم ماردين من قاعدته (حصن كيفا) مع (شمس الدولة جكرمش) أمير الموصل على قتال الفرنج الذين استولوا على (الرهاء) وطمعوا في الاستيلاء على (حران). وتعاهد (سقمان) وصاحبه (جكرمش) على «أن يبذل كُلٌّ نفسه لله تعالى وثوابه»، وسارا فاجتمعا على نهر الخابور. وكان مع سقمان سبعة آلاف فارس من التركمان، أما جكرمش فلم يكن معه أكثر من ثلاثة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد. ولما علم أمير الرهاء (بلدوين - أو بردويل كما تذكره المصادر الإسلامية) باجتماع القوتين الإسلاميتين المجاورتين لإمارته، استنجد بأمير أنطاكية (بوهمند - أو بيمند) وبأمير الساحل (تانكرد - أو طنكري). وسار الفرنج من كل الإمارات فزاد عدد جيشهم على ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف من المشاة - الرجالة - فكان هذا الجيش يضم كل القوى الضاربة عند الفرنج بشمال بلاد الشام. **واصطدمت القوتان على ضفاف نهر البليخ؛ فتظاهر المسلمون بالانهزام؛ وتراجعوا وهم يستجرون الفرنج الذين تبعوهم نحو فرسخين؛ فانفصل فرسان الفرنج عن مشاتهم وابتعدوا عنهم؛ وعندها عاد المسلمون فانقضوا عليهم وقتلوهم كيف شاؤوا؛ ووصلوا إلى معسكرهم واستولوا على ما فيه من أموال ومتاع**. وكان بوهمند صاحب أنطاكية وتانكرد صاحب الساحل قد اختفيا بجيشهما وراء جبل ليأتيا المسلمين من خلفهم؛ إذا اشتدت الحرب؛ فلما خرجا رأيا الفرنج منهزمين ومعسكرهم منهوباً؛ فأقاما إلى الليل وهربا؛ فتبعهم المسلمون وقتلوا من أصحابهما كثيراً؛ وأسروا كذلك، وكان أمير الرها - بلدوين أو بردويل - في جملة الأسرى؛ بالإضافة إلى عدد من أمراء الفرنج وقساوستهم»[(١)].

ويظهر، إذن، أن كلاً من الطرفين المتصارعين قد خطط لمباغتة عدوه؛ وضربه من مؤخرته؛ غير أن المسلمين كانوا أكثر كفاءة في تنفيذ مناورتهم الخداعية ثم

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ٢/٧١ - ٧٥، والكامل في التاريخ - أحداث سنة ٤٩٧ هـ.

باغتوهم بهجومهم المضاد؛ بعد أن فصلوا فرسان الفرنج عن مشاتهم؛ وضربوا كل قوة بمعزل عن الأخرى. **وكان (سقمان) قد أعدَّ لتحقيق مباغتة أخرى؛ فما إن انتهت المعركة، حتى أخذ سلاح الفرنج وراياتهم؛ وألبس أصحابه لبسهم وأركبهم خيلهم، وتوجه بهم إلى حصون شيحان وبها الفرنج؛ فخرج هؤلاء ظناً منهم أن أصحابهم قد انتصروا؛ فقتلهم المسلمون وأخذوا حصونهم.** أما الأسيران (بلدوين وجوسلين) فقد احتفظ بهما جكرمش الذي بات بإمكانه إطلاق سراحهما عندما يفتديان أنفسهما بفدية كبيرة، وبلغ ما خسره الفرنج (اثني عشر ألف قتيل) تقريباً.

كان من المعارك التي وقعت بعد ذلك؛ والتي كان للمباغتة فيها دور حاسم أيضاً، معركة (تل عفرين) القريب من (الأثارب) في سنة ٥١٣ هـ - ١١١٩ م. وتلخصت قصة هذه المعركة بأن حاكم حلب وماردين (نجم الدين إيلغازي بن أرتق) ضاق ذرعاً بمضايقات الفرنج للمسلمين في حلب؛ فمضى إلى ماردين وجمع العساكر والمتطوعة؛ فاجتمع عليه نحو عشرين ألفاً، فمضى لقتال أمير أنطاكية (روجر) الذي قاد جيشاً من ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف راجل، وخرج فنزل بجيشه قريباً من الأثارب يقال له (تل عفرين)، بين جبال ليس لها طريق إلا من ثلاث جهات؛ وظن الفرنج أن أحداً لا يستطيع الوصول إليهم لضيق الطريق؛ فأخلدوا إلى المطاولة وكانت عادة لهم كلما رأوا قوة من المسلمين؛ وكانوا يريدون من المطاولة كسب الوقت ريثما يصل إليهم ملك القدس بلدوين، وأمير طرابلس (كونت بونز) وجيشا مملكة القدس وإمارة طرابلس. وكتب روجر للأمير إيلغازي: «**لا تتعب نفسك بالمسير إلينا فنحن واصلون إليك**». وأراد إيلغازي التمهل أيضاً والمطاولة ريثما ينضم إليه جيش دمشق (بقيادة أميره طغتكين) وجيش شيزر، غير أن قادة إيلغازي نصحوه بالتوجه فوراً لقتال جيش أنطاكية. فتحرك جيش المسلمين يوم الجمعة؛ وبات (روجر) يترقب طوال الليل في شغف أنباء تحركات المسلمين، وإذا **بصوت أحد الجنود، وهو ينبِّه النيام في معسكر الفرنج في فجر يوم السبت ٢٨ حزيران - يونيو ١١١٩ ليعلمهم أن معسكر الفرنج قد بات مطوَّقاً؛ وسرعان ما اقتحمت طلائع المسلمين معسكر الفرنج، ودخل الناس من الطرق الثلاث المؤدية للمعسكر والتي كان الفرنج يعتقدون أنه ما من أحد يستطيع السير فيها لوعورتها وشدة صعوبتها.** وأُحيط بالفرنج من كل جانب؛ ولم يتمكنوا، رغم ما أظهروه من

الشجاعة من الصمود طويلاً؛ وقتل الجميع؛ باستثناء نيف وسبعين أسيراً من مقدمي الفرنج الذين حملوا إلى حلب، وكان أمير أنطاكية (روجر) في جملة القتلى[1].

لعل من أكثر أشكال (المباغتة) غرابة، وأشدها إثارة؛ تلك التي وقعت سنة ٥١٧ هـ - ١١٢٣ م، عندما قام أسطول صقلية - المكون من ثلثمائة قطعة بحرية فيها ألف فارس - بالإنزال على ساحل أفريقية؛ ومهاجمة (حصن الديماس) المكوَّن من نطاقين من التحصينات والأسوار. وكان أمير أفريقية (الحسن بن علي) قد نظم الدفاع عن الثغور؛ فلما علم بإنزال قوات الفرنج، بقيادة ملكهم (روجر)، أرسل من قاعدته في (المهدية) جيشاً للدفاع عن (الديماس) ودعم حاميتها. وتمكن الفرنج من الاستيلاء على النطاق الخارجي من تحصينات الديماس؛ وجنود المسلمين محيطة بهم. **فلما كان بعد ليال اشتد القتال على الحصن الداخلي؛ فلما كان الليل؛ صاح المسلمون صيحة عظيمة ارتجت لها الأرض؛ وكبرَّوا؛ فوقع الرعب في قلوب الفرنج، فلم يشكوا أن المسلمين يهجمون عليهم؛ فبادروا إلى سفنهم (شوانيهم)، وغنم المسلمون أربعمائة فرس؛ وكل ما خلَّفه الفرنج؛ وقتلوا كل من عجز عن الوصول إلى المراكب.** وأقام الفرنج في مراكبهم ثمانية أيام لا يقدرون على النزول إلى الأرض، لما أصابهم من الرعب، فلما يئسوا من وصول أصحابهم إليهم، ساروا والمسلمون يكبِّرون عليهم ويصيحون بهم! وحصر المسلمون الفرنج الذين دخلوا الحصن الخارجي؛ وقاتلوهم ليلاً ونهاراً، حتى فتحوا باب الحصن، وقتلوهم عن آخرهم. وأرسل الأمير الحسن البُشْرى إلى كل البلاد؛ وتغنى الشعراء بهذا النصر[2].

لقد كان حشد قوى المسلمين؛ وظهورهم بصورة غير متوقعة؛ أمراً (مباغتاً) لأعدائهم في كثير من الأحيان؛ ومن ذلك ما واجهه الفرنج الصليبيون في مدينة

---

(١) الكامل في التاريخ (أحداث سنة ٥١٣ هـ) وفيه ما قيل في مديح إيلغازي):

قل ما تشاء فقولك المقبولُ ... وعليك بعد الخالق التعويلُ

واستبشر القرآن حين نصرته ... وبكى لفقد رجاله الإنجيلُ

وسميت هذه المعركة عند الفرنج باسم: ساحة الدم (AGER SANGUINIS) وانظر - تاريخ الحروب الصليبية ٢/٢٣٤ - ٢٤٢.

(٢) الكامل في التاريخ (ذكر الحرب بين الفرنج والمسلمين بأفريقية) أحداث سنة ٥١٧ هـ.

(المهدية) التي كانوا قد استولوا عليها سنة ٥٤٢ هـ - ١١٤٧ م، فما كان من أمير أفريقية (عبد المؤمن بن علي - الموحدين) إلا أن أرسل جيشاً وبعض السفن لحصار المهدية وانتزاعها من الفرنج. وفي سنة ٥٥٤ هـ - ١١٥٩ م قاد ملك صقلية (روجر) أسطولاً من مائة وخمسين سفينة كبيرة (شواني) وعدداً كبيراً من سفن القتال (طرائد) فأغار على (جزيرة يابسة)، التي كانت تابعة للأندلس المسلمين، (وهي واحدة من مجموعة جزر الباليار الرئيسة)، فسبى أهلها وأسرهم وحملهم معه، وسار بهم إلى المهدية، فلما اقتربوا منها حطُّوا شرعهم ليدخلوا المدينة؛ **فخرج إليهم أسطول المسلمين، وركب جميع الجند سفنهم؛ ووقفوا على جانب البحر؛ فاستعظم الفرنج ما رأوه من كثرة عساكر المسلمين؛ ودخل الرعب قلوبهم؛** وبقي أمير أفريقية عبد المؤمن يمرغ وجهه على الأرض ويبكي ويدعو للمسلمين بالنصر. **واقتتلوا في البحر؛ فانهزمت سفن الفرنج؛ وأعادوا القلوع؛ وتبعهم المسلمون فأخذوا منهم سبع سفن،** وعاد أسطول المسلمين مظفراً. ويئس الفرنج في المهدية من الدعم الذي كانوا ينتظرونه؛ ففاوضوا عبد المؤمن على الجلاء بشرط أن يجهِّزهم بسفن تنقلهم إلى صقلية. وأجابهم إلى ما طلبوا، وركبوا البحر؛ غير أن عاصفة من عواصف الشتاء ضربت سفنهم؛ وأغرقتهم، فلم يصل منهم إلى صقلية إلا عدد قليل جداً[1] وكانت مدة ملك الفرنج للمهدية اثنتي عشرة سنة.

لقد ارتبطت (المباغتة) أحياناً بسرعة التحرك، وبخطة خداعية، مثل ما فعله نور الدين زنكي في (فتح بانياس)، التي كان الفرنج الصليبيون قد استولوا عليها منذ سنة ٥٤٣ هـ - ١١٤٨ م. فلما جاءت سنة ٥٥٩ هـ - ١١٦٣ م، حشد نور الدين جيشه وانضم إليه جيش الموصل وجيش ديار بكر؛ فخرج إليه جيش أنطاكية وجيش طرابلس وجيش المملكة (القدس) فانتصر عليهم المسلمون في معركة حاسمة؛ وخسر الفرنج أكثر من عشرة آلاف مقاتل، ثم أتبعها نور الدين بفتح حارم؛ **وعمل بعد ذلك على صرف جيشي الموصل وديار بكر؛ وأعادهما إلى بلادهما؛ وأعلن أنه يريد التوجه إلى طبرية؛ فخاف الفرنج؛ وعملوا على حشد قواهم في طبرية؛ وعملوا على تحصينها. لكن نور الدين لم يتوجه إليها، وإنما سار إلى (بانياس) وهو**

---

(١) الكامل في التاريخ (ذكر ملك عبد المؤمن مدينة المهدية) أحداث سنة ٥٥٤ هـ.

يعرف أن حاميتها المدافعة عنها قليلة العدد؛ ونازلها وضيِّق عليها وقاتلها؛ ولما علم الفرنج بذلك حشدوا قواتهم، وجمعوا أعتدتهم؛ ولكن استعداداتهم لم تتكامل عندما علموا بنجاح نور الدين والمسلمين في فتح بانياس؛ القريبة من دمشق؛ وعمل نور الدين على الفور بتنظيم الدفاع عنها؛ وملأها ذخائر وعدة ورجالاً(1).

وقعت معركة (نيقوبوليس الشهيرة) في ٢٣ ذي القعدة سنة ٧٩٨ هـ (٢٧ أيلول ـ سبتمبر سنة ١٣٩٦ م) وقد كان للمباغتة دورها فيما أحرزه المسلمون العثمانيون من نصر بقيادة السلطان بايزيد الأول. فقد حشد الفرنج قوات ضخمة زادت على مائة ألف مقاتل (٦٠ ألفاً من المجر بقيادة ملكها سيجسموند؛ و ١٠ آلاف من والاشيا و ١٣ ألفاً من بولندا وبوهيميا وإيطاليا وأسبانيا) بالإضافة إلى قوات بحرية من فرسان الأسبتارية والبابوية والبنادقة والجنويين. وجاء السلطان بايزيد بجيش زاد على مائتي ألف مقاتل، ونشره على المرتفعات المحيطة بأهم قلعة كانت للمسلمين على نهر الدانوب، وهي قلعة نيقوبوليس. فسار جيش الفرنج الصليبيين إلى نيقوبوليس؛ واقترب من مواقع جيش المسلمين الذي لم يظهر منه إلا الخيالة الخفيفة الذين لم يكونوا نظاميين؛ والذين كانوا ينتشرون على منحدر التل؛ وأسرع الفرنج لمهاجمة فرسان المسلمين الذين انسحبوا إلى ما وراء المشاة ـ الرجالة ـ. وتابع الفرنج تقدمهم، وقد ترجلوا عن خيولهم لإزالة أعمدة الحواجز، ثم تابعوا هجومهم على أقدامهم، وتمكنوا من إبادة بعض القوات المتقدمة وهم يتابعون طريقهم الصاعد نحو أعلى التل، **وعندما وصلوا إلى نهاية المرتفعات وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام جيش المسلمين الذي كانت تتقدمه قوات فرسان الصبايحية (السباهية) وفرسان الصرب؛ فأخذهم المسلمون على غرة وهم متعبون وقد نال منهم العطش والإرهاق، بينما كان فرسان المسلمين في وضع مريح وهم على صهوات جيادهم؛** ولم يكن من الصعب قذف الفرنج إلى السهل، وتدميرهم، وهم في أقصى درجات الذهول والاضطراب(2).

وقد استندت مباغتة المسلمين في هذه المعركة إلى تنظيم ميدان المعركة،

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٥٥٩ هـ وتاريخ الحروب الصليبية ٢/٥٩٦ ـ ٥٩٩.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية ٣/٧٦٧ ـ ٧٧٢.

وتحصين الأرض وإتقان تدابير الإخفاء والتمويه؛ ووضع خطة خداعية بنشر قوات قليلة أمام كتلة القوات الرئيسة؛ فكانت (المباغتة) هي حصيلة مجموعة من التدابير المنظمة والمنسَّقة.

كذلك كانت المباغتة مستندة إلى التنظيم القتالي المبتكر، وإلى استخدام أسلحة جديدة (المدفعية) بكثافة عالية في معركة (وادي موهاج ـ أو وادي موهاكس) في ٢٠ ذي القعدة سنة ٩٣٢ هـ (٢٨ آب ـ أغسطس ١٥٢٦ م). ففي هذه المعركة؛ قاد السلطان سليمان القانوني جيشاً من مائة ألف مقاتل ومعه ٣٠٠ مدفع، **وقد نظم هذا الجيش للمعركة على ثلاثة صفوف؛ وكان السلطان ومعه كافة المدافع وفرقة الإنكشارية في الصف الثالث؛ فهجم فرسان المجر المشهورون بالبسالة والإقدام، فتراجع الصف الأول من قوات المسلمين إلى ما وراء الصف الثالث؛ ثم تبعه الصف الثاني؛ حتى إذا ما اقترب فرسان المجر من مواقع المدافع؛ أمر السلطان بإطلاقها عليهم؛ فأُطْلِقت تباعاً؛ وتوالى إطلاقها بسرعة كبيرة؛ مما أوقع الرعب في قلوب المجربين، فأخذوا في التراجع، وتحول التراجع إلى هزيمة عندما انطلق فرسان المسلمين للهجوم**، وقتل ملك المجر؛ وأبيدت قواته، وضمت المجر إلى بلاد المسلمين، ودخل السلطان العثماني (سليمان القانوني) إلى عاصمة البلاد (بودا)[1].

يظهر العرض الوجيز السابق مدى ما حققه (مبدأ المباغتة) من تطور على أيدي العرب المسلمين؛ وعلى أيدي القادة التابعين ممن أنجبتهم مدرسة الإسلام. وفي الواقع؛ فإنه ما من معركة من المعارك الحاسمة في التاريخ الإسلامي إلا وكان للمباغتة فيها دور بارز. ففي اليرموك، تمثلت المباغتة بحصار الروم في واد (ضيق المطرد وضيق المهرب)، كما تمثلت في التنظيم المبتكر لجيش العرب المسلمين (نظام الكتائب أو الكراديس). وفي القادسية، جاءت المباغتة منذ اليوم الثاني للمعركة بوصول القعقاع بن عمرو التميمي ومعه جيش العراق الذي كان قد انتهى قبل شهر من معركة اليرموك؛ فقسَّمه القعقاع إلى مجموعات متتالية حتى تصل تباعاً للمعركة؛ بحيث يظهر إمداد الجيش العربي ـ الإسلامي مستمراً. وفي فتح مصر،

---

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٢١٠ ـ ٢١٤.

كان الإنقضاض المباغت على حصن بابليون عاملاً حاسماً، وكان مجرد نزول العرب المسلمين في الأندلس أمراً مباغتاً، عبَّر عنه الأندلسيون بقولهم: «لا نعرف من أين جاؤوا؛ أَمِنَ الأرض أمْ هبطوا من السماء؟».

وكان تطويق ميدان المعركة؛ عاملاً حاسماً في مباغتة الفرنج؛ بحيث تقرر مصير المعركة من قبل أن تبدأ في يوم حطين الخالدة؛ ومثله في (عين جالوت)، إذ وجد المغول التتار بقيادة ـ كتبغا ـ أنهم وقعوا في فخ محكم، لا مخرج منه. وفي فتح القسطنطينية، كان للمباغتة دورها الحاسم أيضاً؛ إذ عمل السلطان محمد الفاتح على إنزال قواته في البحر؛ بواسطة سفن تم إعدادها ونقلها وإنزالها في البحر وإحكام الحصار؛ وكان الروم قد نظموا دفاعهم بحيث ظنوا أنه من المحال على المسلمين العثمانيين الوصول إلى ذاك المانع المائي المحيط بعاصمة الروم ـ البيزنطيين ـ.

ما من حاجة للتعرض لدور المباغتة في (الحروب الثورية الإسلامية) إذ قد يكون من السهل جداً على من توافرت لهم خبرات قتالية موروثة؛ ولمن توافرت لهم فضائل حربية رائعة؛ أن يختاروا من المبادىء ما يضمن لهم أفضل الظروف للنجاح. وقد كان تكوين مجموعات المجاهدين في سبيل الله، خلال الحروب الثورية؛ بمفارز صغيرة؛ سهلة التحرك، سريعة التنقل؛ أمراً مساعداً لهم لتحقيق المباغتة؛ ولاستثمار هذه المباغتة حتى أقصى الحدود. وتلك هي صفحات تاريخ (الحروب الثورية الإسلامية) وهي تضم شواهد لا نهاية لها عن دور المباغتة في تلك الحروب. وها هي صفحة جهاد العرب الفلسطينيين على أرض فلسطين؛ وهي تضم في كل سطر منها، وفي كل يوم من أيامها؛ مباغتة جديدة لقوى الاستعمار الصهيوني.

لقد تزايدت الأبحاث العسكرية التي عالجت موضوع (مبدأ المباغتة) تزايداً كبيراً منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى اليوم؛ وقد أدى تعاظم استخدام الفضاء، ونقل القوات جواً، لزيادة خطورة المباغتة. وقد عملت الأبحاث والدراسات على تصنيف المباغتات في إطار مباغتات زمنية ومباغتات مكانية؛ كما صنِّفت من حيث مستواها إلى مباغتات تكتيكية وإلى مباغتات في العمليات، وإلى مباغتات استراتيجية. كذلك فقد صنفت من حيث نوعها؛ بإدخال أسلحة جديدة في

القتال بكميات كبيرة؛ أو باستخدام تشكيلات مقاتلة جديدة (مثل استخدام المظليين أو استخدام الدبابات في الحرب العالمية الثانيـة). . . وقد جـاءت وسائط الحـرب الألكتـرونية؛ واستخـدام الفضـاء (مشـروع حـرب الكـواكب) واستخـدام الأقمـار الصناعية للاستطلاع من أجل الحد من خطر (المباغتـة) لا سيما في عصـر التسلح النووي؛ وفي عصر التحرك السريع للقوى في البر والبحر والجو. ورغم ذلك فسيبقى مجال (المباغتة) مفتوحاً على مصراعيـه، وسيبقى للمباغتـة دورها الحـاسم في كل حرب.

لقد أظهر العرض الوجيز السابق؛ أن العرب المسلمين قد استخدموا المبـاغتة في حروبهم؛ وعملوا على تطويـرها والارتقـاء بها، من البسيط إلى المعقَّـد، ومن المفرد إلى المركب، إذ لم تعد المباغتـة زمنية فقط؛ ولا مكـانية فقط؛ ولا خـاصة بحشد قوى ووسائط؛ وإنما مزيجاً من ذلك كله؛ كما كانت ذات مستويات متباينة، ولو أن معظمها كان على مستوى العمليات؛ وكـانت كفاءة العـرب المسلمين وقادة المسلمين في تطوير مباغتة العمليات إلى المستوى الاستراتيجي.

٢

المبادأة

كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص؛ رضوان الله عليهما؛ وقد سار سعد لحرب العراق: **«إذا لقيتم العدو أو أحداً منهم فابدروهم الشدَّ والضرب؛ وإياكم والمناظرة - المماطلة - لجموعهم؛ ولا يخدعنكم، فإنهم خدعة مكرة؛ أمرهم غير أمركم»**(١).

وكان أمير المؤمنين عمر قد وجه قوة، من قبل؛ إلى العراق بقيادة (أبو عبيد بن مسعود) وأوصاه بقوله: **«إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية؛ تقدم على قوم قد جرؤوا على الشر فعلموه؛ وتناسوا الخير فجهلوه؛ فانظر كيف تكون!. واخزن لسانك؛ ولا تفشينَّ سرك؛ فإن صاحب السر ما ضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكرهه؛ وإذا ضيعه كان بمضيعة»**(٢).

ويظهر أن ما تضمنته المقولات السابقة كافياً لإيضاح ما تعنيه المبادأة التي تبدأ (بالشد والضرب) وعدم المماطلة؛ وكذلك عدم الانخداع بما قد يظهره العدو من النوايا أو ما يتخذه من إجراءات ومناورات؛ مع المحافظة على السر واتخاذ التدابير لضمان أمن القوات.

وإذن، فالمبادأة مرتبطة بالأعمال الهجومية، وهي تعتمد على مجموعة من مبادىء الحرب مثل المباغتة وأمن العمل والمناورة واستخدام القوات هجومياً،

---

(١) تاريخ الطبري - ذخائر العرب - ٣/ ٤٩٠.

(٢) المرجع السابق ٣/ ٤٥٤.

بهدف حرمان العدو من حرية العمل العسكري؛ وبالتالي **فإن تعريف المبادأة يتلخص باتخاذ مجموعة من التدابير والإجراءات لوضع العدو باستمرار أمام مواقف متجددة تحرمه من استخدام قواته بشكل صحيح.**

وهكذا؛ فإذا كان باستطاعة (المباغتة) حرمان العدو من حرية العمل العسكري لفترة محدودة؛ فإن المبادأة هي التي تحرم العدو من حرية العمل العسكري طوال الحرب.

كانت المبادأة في أيدي المشركين عندما أشرق الإسلام بنوره؛ فكان المشركون هم الذين يكيدون ولا يُكادون؛ وهم الذين يؤذون المسلمين ولا ينالهم من المسلمين ضرر ولا أذى؛ إذ لم يكن قد أذن للمسلمين بالقتال. فلما كانت الهجرة وفُرض الجهاد في سبيل الله على المسلمين؛ انتقلت المبادأة إلى أيدي المسلمين بصورة نهائية؛ فأصبح المسلمون هم الذين يفرضون مواقفهم بجرأة وصلابة على المشركين المعاندين لدين الله. ولم تكن غزوات المشركين في (بدر) و(أحد) وحتى (الخندق) إلا محاولات لاستعادة المبادأة التي فقدوها. ولما جاء عام الفتح (السنة الثامنة للهجرة) تأكَّد للمشركين ضياع كل أمل في استعادة المبادأة. وكانت بعوث الرسول ﷺ وسراياه؛ تجوب أرجاء الجزيرة؛ وترتاد كل موقع من مواقع الشبهات؛ لتحرم كل معاند من تنظيم أي عدوان على العرب المسلمين. فلما كانت الردة؛ وطرق المرتدون أبواب المدينة المنورة؛ خرج إليهم أبو بكر الصديق؛ وباغتهم بهجومه؛ فانتزع المبادأة التي حاولوا الإمساك بها؛ وبقيت المبادأة بعدئذ في قبضة العرب المسلمين؛ إذ لم يلبث أبو بكر رضي الله عنه أن فرق جيوشه في أطراف المرتدين؛ وهاجم قواعد المرتدين؛ وحرمهم من حرية العمل العسكري؛ فكانت مقاومتهم لجند الله مقاومة يائسة؛ ومحرومة من المبادأة؛ فقد كان العرب المسلمون في حروب الردة هم الذين يفرضون القتال؛ وهم الذين يحددون زمن كل معركة ومكانها؛ وهم الذين ينتقلون بحرية تامة لاختيار الأهداف التي سيتعاملون معها؛ في حين كان المشركون المرتدون ينتظرون ما سيحمله اليهم العرب المسلمون.

انطلق العرب المسلمون إلى دنيا الفتوح وقد أمسكوا بالمبادأة؛ وظن الروم والفرس أن باستطاعتهم استعادة المبادأة؛ وهو ما تعبر عنه المقولة التالية: «**واجتمعت**

الروم إلى اليرموك؛ فنزلوا به، وقالوا: والله لنشغلنَّ أبا بكر في نفسه عن تورد بلادنا بخيوله». ورد أبو بكر، عندما علم بنوايا الروم: «**والله لأنسينَّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد**»[1]. وأصدر أمره إلى خالد بن الوليد بالتحرك من العراق إلى الشام، فوضع الروم أمام موقف حرمهم من حرية العمل العسكري؛ وفرض عليهم المعركة في الزمان والمكان الذي اختاره العرب المسلمون.

وتحرك العرب المسلمون، بعد اليرموك؛ فوضعوا الروم أمام مجموعة من المواقف؛ وليس موقفاً واحداً؛ مما أعجز الروم عن اتخاذ ردود الفعل الصحيحة؛ إذ كان باستطاعتهم ـ على سبيل المثال ـ إعادة تجميع قواتهم المتفرقة في الأردن وفلسطين ودمشق وحمص ودعم هذه القوات لإحراز تفوُّق ساحق ينتزع من العرب المسلمين المبادأة. ويمكن على هذا فهم محاولة هجوم الروم الكبير سنة ١٧ هـ على أنه محاولة لاستعادة المبادأة التي فقدها الروم نهائياً؛ ولم يمكنهم العرب المسلمون من استعادتها.

ويظهر ذلك في الوقت ذاته أن مجرد خروج قوات العرب المسلمين للفتوح كان (**مبادأة استراتيجية**)، ولكن هذه المبادأة قد ارتبطت بمجموعة من (**المبادءات على مستوى العمليات**)، إذ كان كل قائد من قادة جيوش الفتح يحرص في منطقة أعماله القتالية على الإمساك بالمبادأة، وعدم السماح للعدو بانتزاعها أو الإفادة مما تضمنه المبادأة من حرية العمل على مسرح العمليات. وهكذا انفرد شرحبيل بن حسنة بقوات الروم في الأردن وفرض عليها معركة (فحل)، وانفرد عمرو بن العاص بالأرطبون (في أجنادين)، وانفرد معاوية بن أبي سفيان بفتح ساحل بلاد الشام؛ فيما كان أبو عبيدة ومعه خالد بن الوليد يتابع فتح بلاد الشام (حمص وحلب حتى قنسرين).

وتظهر مسيرة الأعمال القتالية أن قادة جيوش الفتح لم يتركوا لأعدائهم أية فرصة لاستعادة المبادأة؛ أو لإعادة تنظيم مقاومة عامة أو شاملة.

وكان الموقف على جبهة العراق (الفرس) مماثلاً للموقف على أرض بلاد

---

(١) تاريخ الطبري ـ ذخائر العرب ـ ٣/٤٠٨.

الشام. فقد تمكنت قوات العرب المسلمين، بقيادة خالد بن الوليد ثم المثنى بن حارثة الشيباني، من الإمساك بالمبادأة في كل المعارك التي جرت على أرض العراق (سنتي ١٢ و١٣ هـ). وقرر الفرس استعادة المبادأة؛ فحشدوا حشودهم في القادسية. وقد أدرك ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ وعبر عن ذلك في رسالته إلى سعد بن أبي وقاص والتي جاء فيها: «فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة؛ رجوتُ أن تنصروا عليهم؛ **ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً؛ إلا أن يجتمعوا؛ وليست معهم قلوبهم**»(١).

فالمسألة من وجهة نظر أمير المؤمنين عمر ليست هي مسألة حشد للقوى والوسائط القتالية بقدر ما هي مسألة إرادة لاستخدام هذه القوى والوسائط؛ وبدقة هي مسألة الإمساك بالمبادأة والتصميم على قهر العدو؛ إذ ما فائدة أن يحشدوا، أو أن «يجتمعوا؛ وليست معهم قلوبهم». وقد صح ما توقعه أمير المؤمنين عمر، فحشدوا واجتمعوا في أيام كثيرة ـ كان من أهمها يوم نهاوند؛ أو فتح الفتوح ـ ولم تكن قلوبهم معهم، وبقيت المبادأة في قبضة قادة العرب المسلمين.

ولعل من المثير حقاً هو أن قادة الفرس لم يستخلصوا من الاقتتال الذي جرى بينهم وبين العرب المسلمين، طوال السنتين اللتين سبقتا أيام القادسية؛ الدروس الهامة والتي كان في طليعتها خروج المبادأة من أيديهم وانتقالها إلى العرب المسلمين؛ فعندما زجوا قواتهم في القادسية قالوا للعرب المسلمين: «... **لا حول لكم ولا قوة ولا سلاح؛ ما جاء بكم؟ ارجعوا!**» فقال لهم المسلمون: «لا نرجع؛ وما نحن براجعين»، فكان جند الفرس يضحكون من نبل جند المسلمين؛ ويشبهونها بالمغازل وهم يقولون لهم: «دوك؛ دوك»(٢) ويضاف إلى ذلك ما قاله (يزدجرد) لوفد العرب المسلمين الذي أرسله سعد لمفاوضته؛ قبل المعركة، فكان مما قاله يزدجرد: «إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى؛ ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم؛ وقد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفونا أمركم؛ لا تغزون فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم؛ فإن كان عددكم كَثُرَ فلا يغرنكم منا؛ **وإن كان الجهد دعاكم**

---

(١) تاريخ الطبري ـ ذخائر العرب ـ ٣/ ٤٩٠.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٦ و ٤٩٩ و ٥٢٩.

فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم؛ وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم؛ وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم». ورفض الوفد هذا العرض؛ كما رفض يزدجرد بدوره عرض المسلمين: الإسلام أو الجزية؛ فكان لا بدَّ من الحرب.

ومن المحتمل هنا القول إن الشواهد المذكورة ما هي إلا تأكيد على تصميم العرب المسلمين لنشر الإسلام؛ وإنه لا علاقة لهذه الشواهد بالمبادأة، وهذه حقيقة لا تقبل الجدل ولا المناقشة. ولكن أليس التفاوض مع الفرس هو برهان على امتلاك العرب المسلمين للمبادأة (**الموصوفة في الأزمنة الحديثة بالمبادأة السياسية**)؟ ثم ألم يكن حشد قوى العرب المسلمين في مواجهة جيش الفرس؛ وتصميمهم على رفض كل العروض هو تأكيد بدوره على امتلاكهم للمبادأة العسكرية؟.

وعلى مستوى الأعمال القتالية؛ نزل العرب المسلمون (القادسية) واختاروه ميداناً للقتال لما توافر فيه من الاتساع الذي يسمح للفرسان بحرية التحرك؛ والذي لا يحجزه، فيما وراءه، حاجز مائي يعزله عن الاتصال بالعرب المسلمين في الشام والجزيرة العربية؛ وفرضوا هذا الميدان على الفرس فرضاً. ففي القادسية، كما في كثير من معارك العرب المسلمين؛ كان أعداء المسلمين يسألونهم: «**أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم؟**» فكان جواب المسلمين دائماً: «**بل اعبروا إلينا**». ولم يكن فرض ميدان المعركة؛ وفرض زمن خوضها على الأعداء؛ إلا التعبير العملي عن امتلاك العرب المسلمين للمبادأة وتمسكهم بها ـ على مستوى الأعمال القتالية ـ.

لقد كان حرص قادة العرب المسلمين على الإمساك بالمبادأة؛ هو الذي مكَّنهم من نقل الحرب ـ وويلاتها ـ إلى أراضي العدو؛ وهو الذي حرم هذا العدو من تنظيم مقاومات جديدة؛ وظهر ذلك واضحاً على امتداد مسيرة الفتوحات؛ ومثال ذلك ما حدث في أعقاب القادسية. فقد عمل سعد على إعادة تنظيم قواته بسرعة؛ ودفع المقدمات بقيادة زهرة بن الحوية؛ وسار على أثره ومعه الكتلة الرئيسة لجيش المسلمين. فلما وصل زهرة إلى (**برس**) لقيه جمع من الفرس بقيادة (بصهبري) فناوشوه، فهزمهم، وهرب بصهبري ومن معه إلى بابل، فلحق زهرة قائدَ القوات (بصهبري) وطعنه، فمات عندما وصل (بابل). وأسرع جيش المسلمين إلى (بابل) وقد علم بأمر تجمع قوات الفرس فيها، ومعهم فلول القادسية وبقايا رؤسائهم

(النخيرجان ومهران الرازي والهرمزان وأشباههم) وقد أسندوا قيادتهم إلى الفيرزان. وقال قادة المسلمين: «**نقاتلهم جميعاً قبل أن نفترق**». فاقتتلوا ببابل (**فهزموهم في أسرع من لفت الرداء**). فانطلقوا على وجوههم؛ ولم يكن لهم همة إلا الافتراق؛ فخرج الهرمزان ليحكم (الأهواز ومهرجان قذق) وخرج الفيرزان نحو (نهاوند) وبها كنوز كسرى؛ فحكمها وضم إليها الدينور، وصعد النخيرجان ومهران الرازي إلى (المدائن). وعلم سعد وهو ببابل أن الفرس قد جمعوا جيشاً بين (الدير وكوثى) بقيادة (شهريار) فسار إليهم. وتم اللقاء بأكتاف **كوثى**؛ وأسرع جند المقدمة (بقيادة زهرة بن الحوية أيضاً) وما هي إلا جولة حتى **قتل شهريار، وهرب أصحابه، فذهبوا في البلاد**. وعلم سعد أن (كتائب كسرى ـ وكانت تدعى باسم بوران) قد تجمعت في (مظلم ساباط) بقيادة (المقرط)، وكان رجال هذه الكتائب «**يحلفون، بالله كل يوم: أنه لا يزول مُلك كسرى وملك فارس ما عشنا**». فسار سعد إليهم بعد أن دفع أمامه المقدمات بقيادة (زهرة). وتمكن زهرة من فض كتيبة كسرى بوران حول (**المظلم**). وأسرع هاشم بن عتبة لقتل (المقرط). وسار سعد بالجيش إلى (بهرسير). وجعل المسلمون كلما قدمت خيل على (بهرسير) وقفوا ثم كبروا، حتى تم وصول آخر مجاهد في جيش سعد. ونزل المسلمون على (بهرسير) وعليها خنادقها وحرسها وعدة الحرب، فرموهم بالمجانيق والعرادات؛ فاستصنع سعد المجانيق ونصب على أهل بهرسير عشرين منجنيقاً فشغلوهم بها. ولما طال الحصار واشتد الاقتتال، هرب الفرس، ودخل العرب المسلمون (**بهرسير**) ولاح لهم في جوف الليل القصر الأبيض في (**المدائن القصوى**) وصاحوا: «الله أكبر؛ أبيض كسرى؛ هذا ما وعد الله ورسوله» وتابعوا التكبير حتى أصبحوا. وسار سعد إلى المدائن ففتحها، وهرب منها حماتها من الفرس[1].

فما هو مضمون المصطلحات التاريخية التي اشتملت عليها نصوص الفتح مثل «ناوشوه وهزمهم؛ وهزموهم في أسرع من لفت الرداء؛ وما هي إلا جولة حتى قتل شهريار وهرب أصحابه فذهبوا في البلاد. ثم هروب الفرس من بهرسير والمدائن».

إنها لا تعني أكثر من حرمان الفرس وقادتهم من (المبادأة) ومن (حرية العمل

---

(١) تاريخ الطبري ـ أحداث سنتي ١٥ و١٦ هـ.

العسكري) ومن القدرة على (إعادة تنظيم قواتهم ودفاعاتهم).

ومن المحتمل القول هنا إن ذلك كله لم يكن إلاَّ ثمرة من ثمار (الحسم) في القادسية؛ وإلا (استثماراً للنصر)، وتلك حقيقة لا تقبل الجدل أيضاً؛ غير أن التحرك بسرعة لمجابهة كل تجمع من تجمعات الفرس؛ والعمل على تدميره؛ إنما هو عمل يتجاوز حدود الحسم على أرض المعركة، ويتجاوز أيضاً عملية استثمار النصر، ليبرز أهمية (المبادأة) التي أضفت على هذه الأعمال القتالية ميزاتها وصفاتها وخصائصها ونتائجها.

وهنا لا بدَّ من التعرض لدور القيادة الاستراتيجية (أمير المؤمنين) في دفع قيادات جيوش المسلمين للإمساك بالمبادأة؛ والمحافظة عليها. فما إن علم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتجمع قوات ضخمة في **جلولاء**؛ وذلك بعد أن فتح الله (المدائن القصوى) للمسلمين، كتب إلى سعد بن أبي وقاص: «سرِّح هاشم بن عتبة إلى جلولاء في اثني عشر ألفاً؛ واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو؛ وعلى ميمنته سعر بن مالك؛ وعلى ميسرته عمرو بن مالك بن عتبة؛ واجعل على ساقته عمرو بن مرة الجهني». وكانت معركة جلولاء التي قتل فيها مائة ألف من الفرس (سنة ١٦ هـ).

وكان أمير المؤمنين عمر قد كتب إلى عامله سعد بن أبي وقاص - رضوان الله عليهما - ما يلي: «إن فتح الله عليكم جلولاء فسرِّح القعقاع بن عمرو في آثار القوم حتى ينزل **بحلوان**؛ فيكون ردءاً للمسلمين ويحرز الله لكم سوادكم». فلما انتهت وقعة جلولاء؛ خرج القعقاع في آثار القوم إلى **(خانقين)** فقتل المقاتلة وفيهم القائد مهران. فلما بلغ (يزدجرد) هزيمة أهل جلولاء وقتل مهران، ترك قوة من الفرسان بقيادة (خسروشنوم) للدفاع عن حلوان؛ وذهب إلى الري. وأقبل القعقاع حتى إذا هو **(بقصر شيرين)** على بعد فرسخ من حلوان، خرج إليه خسروشنوم الذي انضمت إليه قوات حلوان بقيادة مليكها الزينبي، فلقيه القعقاع، فاقتتلوا؛ وقتل الزينبي وهرب خسروشنوم؛ وفتح الله (حلوان) فدخلها العرب المسلمون.

تلك هي نظرة عجلى على ما تم تطبيقه من أعمال اتسمت (بالمبادأة) في أعقاب القادسية، ثم تكرر حدوث نظائرها وأمثالها في أعقاب (نهاوند).

ففي سنة ٢٢ هـ؛ كان نعيم بن مقرن ومعه اثنا عشر ألفاً من المجاهدين في سبيل الله قد وصلوا همذان، فعلم نعيم أن الديلم وأهل الري وأهل أذربيجان قد اتفقوا على حرب المسلمين، فخرج إليهم نعيم بن مقرن بمن معه من المسلمين. وكان اللقاء في (واج روذ)، فاقتتلوا بها قتالاً شديداً؛ **وكانت وقعة عظيمة تعدل نهاوند؛ ولم تكن دونها**[1]. وقتل من الأعاجم مقتلة عظيمة لا يحصون، ولا تقصر ملحمتهم من الملاحم الكبار، وبعث نعيم إلى أمير المؤمنين عمر بالبشرى بالفتح والنصر. فكتب عمر إلى نعيم: «**أما بعد! فاستخلف على همذان... وسر حتى تقدم الري: فتلقى جمعهم؛ ثم أقم بها؛ فإنها أوسط تلك البلاد؛ وأجمعها لما تريد**». وسار نعيم إلى الري ففتحها، وتبعها فتح جرجان وطبرستان وأذربيجان وسواها من المدائن والعواصم. وكانت المبادأة دائماً في قبضة قادة العرب المسلمين؛ وكان أمير المؤمنين عمر يدفع قادته ـ أمراء الأجناد ـ للإمساك بالمبادأة.

استطاع العرب المسلمون الإمساك بالمبادأة منذ طرقت جحافلهم أبواب أفريقية؛ غير أن الروم ومن تحالف معهم من البربر؛ تمكنوا في مرات متتالية من انتزاع المبادأة على مستوى الأعمال القتالية؛ ولكن ذلك بقي محدوداً ولفترات زمنية قصيرة. ففي سنة اثنتين وستين للهجرة، أصبح عقبة بن نافع والياً على أفريقية ـ في ولايته الثانية ـ «فانطلق بجيش المجاهدين في سبيل الله من قاعدته (القيروان) وسار إلى (**باغاية**) وقد علم باجتماع قوات ضخمة من الروم؛ فقاتلهم قتالاً شديداً؛ وانهزم

---

(١) وفي هذه المعركة؛ قال نعيم بن مقرن شعراً، منه:

لما أتاني أن (موتا) ورهطه	بني باسل جروا جنود الأعاجمِ
نهضت إليهم بالجنود مسامياً	لأمنع منهم ذمتي بالقواصمِ
صدمناهم (في واج روذ) بجمعنا	غداة رميناهم بإحدى العظائمِ
فما صبروا في حومة الموت ساعة	لحدِّ الرماح والسيوف الصوارمِ
كأنهم عند انبثاث جموعهم	جدار تشظى لَبْنُهُ للهوادمِ
أصبنا بها (موتا) ومن لف جمعه	وفيها نهابٌ قسمه غير عاتمِ
تبعناهم حتى أووا في شعابهم	نقتلهم قتل الكلاب الجواحمِ

و(موتا) هو قائد الديلم والذي قاد جموع أهل الري وأهل أذربيجان، وانظر تاريخ الطبري (ذكر فتح همذان) أحداث سنة ٢٢ هـ.

الروم؛ بعد أن قتل منهم أعداداً كبيرة؛ فرجعت الروم إلى (باغـاية) وتحصنـوا بها؛ فحاصرها عقبة؛ ثم كره المقام عليها؛ فسار عنها إلى **بلاد الزاب**؛ وهي بلاد واسعة، وقصد مدينتها العظمى واسمهـا **(إربة)** فـامتنع بهـا من هناك من الـروم والنصارى؛ وهـرب بعضهم إلى الجبال؛ فـاقتتل المسلمـون ومن بالمـدينة من النصـارى عـدة دفعات، ثم انهزم النصارى وقد قتل كثير من فرسانهم، ورحـل عقبة إلىٰ **(تـاهرت)** فلما بلغ الروم خبره استعانوا بالبربر فأجابوهم ونصروهم؛ فاجتمعوا في جمـع كثير والتقوا؛ واقتتلوا قتالاً شديداً؛ واشتد الأمر على المسلمين لكثـرة العدو، ثم إن الله تعالى نصرهم فـانهزمت الـروم والبربـر؛ وأخذهم السيف وكثـر فيهم القتل؛ وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم.

وسـار عقبة إلى **(طنجـة)** وسأل عن البـربر، فقيـل له: «هم كثيـرون؛ لا يعلم عددهم إلا الله؛ وهم بالسوس الأدنـى، وهم كفار لم يدخلوا في النصرانيـة؛ ولهم بأس شديد». فسار عقبة إلى **(السوس الأدنى)** وهو مغرب طنجة؛ فانتهى إلى أوائل البربر؛ فلقوه في جمع كثير؛ فقتل فيهم قتلاً ذريعاً؛ وبعث خيله في كل مكان هربوا إليه؛ وسار هو حتى وصل إلى السوس الأقصى؛ وقد اجتمع له البـربر في عـالم لا يحصى؛ فلقيهم وقاتلهم وهزمهم»[1].

وتظهر (المبادأة) في كل عمل من أعمال (عقبـة) عبر مضمـون النص السابق. فقد أراد عقبة تدمير قوات الروم؛ وتدمير قـوات البربـر؛ كل بمعـزل عن الأخرى. ويظهر أنه كانت للروم ـ البيزنطيين ـ قوات ضخمة في بعض مدن أفريقية؛ كما كان باستطاعة البربر حشد قوات ضخمة ـ لا يعلمها إلا الله ـ. فكان تعـاون هذه القـوى يشكل تهديداً خطيراً للعرب المسلمين، فبادر عقبة لغزو كل قوة من القوى ـ في عقر دارها ـ ولم يسمح لها بالتعاون وحرية العمل العسكري. غير أن قوى الروم والبـربر تمكنت في مرحلة معينة من انتزاع المبادأة؛ وأفادت من تفرق قوات العرب المسلمين أثناء عودتها؛ فهاجمت عقبة وتمكنت من قتله وهو في قلة من أصحابه.

وجـاء زهيـر بن قيس البلوي (سنـة ٦٩ هـ) فسـار على نهـج عقبـة؛ وأمسـك بالمبادأة؛ لتدمير تجمع البربر الذين تولى قيادتهم (كسيلة) فجمـع حشداً كبيـراً من

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة اثنتين وستين.

البربر والروم؛ وقال لهم: «**رأيت أن أسير إلى ـ ممش ـ لقتال زهير؛ ومن معه من المسلمين؛ فإن ظفرنا بهم تبعناهم إلى طرابلس؛ وقطعنا أثرهم من أفريقية؛ وإن ظفروا بنا تعلقنا بالجبال ونجونا**». وهكذا أراد كسيلة الإمساك بالمبادأة؛ ولكن زهيراً كان حريصاً بدوره على الإمساك بالمبادأة؛ فسار لقتال كسيلة؛ فلما قاربه نزل وعبَّى ـ نظم ـ أصحابه والتقى العسكران واشتد القتال؛ وكثر القتل في الفريقين حتى أيس الناس من الحياة؛ ثم نصر الله المسلمين؛ وانهزم كسيلة وأصحابه؛ وقتل هو وجماعة من أعيان أصحابه بممش؛ وتبع المسلمون البربر والروم؛ فقتلوا من أدركوا منهم فأكثروا؛ وذهب في هذه الوقعة رجال البربر والروم وملوكهم وأشرافهم. لكن الروم استطاعوا أن ينتزعوا المبادأة من جديد؛ ولفترة محدودة أيضاً؛ إذ أرسلوا قوات بحرية أنزلت قواتها على برقة؛ وهاجموا زهيراً الذي كان في قلَّة من أصحابه فقتلوه ومن كان معه.

ولم تختلف سيرة (**حسان بن النعمان الغساني**) في نهج الفتوح عمن سبقه في إدارة حرب أفريقية؛ فقد دعمه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان بجيش (لم يدخل أفريقية قط جيش مثله). فأمسك (حسان) بالمبادأة؛ ومضى بهذا الجيش إلى (**قرطاجنة**) وكان صاحبها أعظم ملوك أفريقية ولم يكن المسلمون قط حاربوها؛ فلما وصل إليها رأى بها من الروم والبربر ما لا يحصى كثرة، فقاتلهم وحصرهم وقتل منهم كثيراً؛ فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب؛ فركبوا في مراكبهم وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس. ودخلها حسان بالسيف فسبى ونهب وقتلهم قتلاً ذريعاً. **وعلم حسان أن الروم والبربر قد اجتمعوا له في (صطفورة) و(بنزرت) وهما مدينتان**؛ فسار إليهم وقاتلهم ولقي منهم شدة، وقوة؛ فصبر لهم المسلمون؛ فانهزمت الروم؛ وكثر القتل فيهم واستولوا على بلادهم؛ ولم يترك حسان موضعاً من بلادهم إلا وطئه؛ وخافه أهل أفريقية خوفاً شديداً[1].

يظهر من خلال ذلك أنه ما من أحد من قادة الفتح في أفريقية قد تخلَّى عن المبادأة؛ وأنه ما من أحد منهم ترك للعدو فرصة شن الحرب أو البدء بها؛ فكانوا جميعاً ينطلقون بجموع المجاهدين في سبيل الله ـ والمبادأة في قبضتهم ـ لتدمير

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٧٤.

تجمعات العدو وهي في قواعدها ـ وفي عقر دارها ـ. فكانت قوات أعداء المسلمين ـ على الأغلب ـ مرغمة على خوض معارك دفاعية وهي محرومة من المبادأة ومن حرية العمل العسكري.

خرجت المبادأة الاستراتيجية من قبضة المسلمين؛ ولأولة مرة؛ عندما جاءت الحملات الصليبية إلى بلاد الشام؛ وأقامت إماراتها على امتداد الشريط الساحلي ما بين أنطاكية وعسقلان؛ واستولوا على القدس وأقاموا مملكتهم فيها (سنة ٤٩٢ هـ ـ ١٠٩٨ م). ولكن، وعلى الرغم من ذلك، فإن أمراء المسلمين (أمراء المدن) لم يتخلُّوا عن المبادأة في العمليات. ففي السنة التالية لاحتلال القدس (سنة ٤٩٣ هـ) تمكن أمير ملطية وسيواس (كمشتكين بن الدانشمند طايلو) من الإيقاع بجيش للفرنج كان يقوده أمير أنطاكية بوهمند ـ النورماندي ـ قربَ ملطية. وجاء جيش آخر للفرنج فحاول إنقاذ بوهمند، لكن الدانشمند «جمع جمعاً كثيراً؛ ولقي الفرنج؛ وجعل له كميناً وقاتلهم؛ وخرج الكمين عليهم فلم يفلت أحد من الفرنج... ثم خرج إليه عسكر الفرنج من أنطاكية فلقيهم وكسرهم.. وكانت هذه الوقائع في شهور قريبة»[1].

وحدث في سنة ٤٩٥ هـ ـ ١١٠١ م، «أن خرج جيش أكيتانيا وجيش بافاريا من قونية قاصدين (هرقلة)، غير أن فرسان الترك المسلمين كانوا ينقضون على مجنبات الجيش؛ ويمطرون قلب جيش الفرنج بالسهام؛ ويقطعون طريق من خرج من صفوفه من الجماعات لجمع الأحطاب؛ ومن ضلَّ الطريق. ووصل جيش الفرنج أخيراً إلى هرقلة التي هجرها أهلها، فسارع جند الفرنج نحو النهر الذي يجري وراء المدينة؛ وقد استبد بهم الظمأ، **ولم يلحظوا وجود الجيش التركي الذي كان مختفياً في الغابات الواقعة على شاطىء النهر؛ والذي انقضَّ على جيش الفرنج وطوقه، ولم يترك له الفرصة لإعادة تنظيم قواته المضطربة. وانتشر الذعر في صفوف الجيش الصليبي**، واختلط فرسانه بمشاته، وقد اشتد اندفاع الفرسان في محاولتهم الفرار، وتساقط الفرسان على الأرض، وشرع الترك المسلمون في قتل أعدائهم. واستطاع دوق أكيتانيا أن يجد له طريقاً للهرب نحو الجبال، حيث أمضى أياماً في الجبال قبل

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة.

أن يهتدي إلى طريق طرسوس. وأصاب هيو كونت فرماندوا جرح بليغ في المعركة؛ وتمكن أيضاً من حمل جرحه والوصول إلى طرسوس؛ ولكنه وصل وهو مشرف على الموت؛ ولم يلبث أن فارق الحياة؛ وحرمه الموت من الوفاء بنذره في المسير إلى القدس. كذلك لم ينج ولف - كونت بافاريا - بحياته إلا بعد أن تخلَّص من ثقل أسلحته، فوصل بعد أسابيع عديدة إلى أنطاكية يصحبه اثنان أو ثلاثة من أتباعه. ووقع في الأسر رئيس الأساقفة ثييمو؛ ثم مات. وليس معروفاً ما كان من مصير دوقة النمسا؛ فقد روت القصص المتأخرة أنها ختمت أيامها أسيرة في حريم أحد الأمراء الأتراك في جهة قاصية؛ حيث ولدت له بطلاً من أبطال المسلمين - وهو نور الدين زنكي - والراجح أنه وقعت من محفتها أثناء الذعر الذي انتشر؛ فداستها الأقدام حتى ماتت»[1].

وفي هذه السنة ذاتها: «نزل ملك القدس - بلدوين - على مدينة عكا؛ وضيَّق عليها؛ وكاد يأخذها؛ ونصب عليها المنجنيقات والأبراج؛ وكان له في البحر ست عشرة قطعة؛ فاجتمع المسلمون من سائر السواحل؛ وأتوا إلى منجنيقاتهم وأبراجهم؛ فأحرقوها وأحرقوا سفن الفرنج أيضاً؛ وكان ذلك نصراً عجيباً أذلَّ الله به الكفار.

وفي شهر رجب سنة ٤٩٥؛ خرجت عساكر مصر إلى عسقلان ليمنعوا الفرنج عما بقي في أيديهم من البلاد الشامية؛ فسمع بهم بردويل - بلدوين - فسار إليهم في سبعمائة فارس؛ وقاتلهم، فنصر الله المسلمين وانهزم الفرنج؛ وكثر القتل فيهم؛ وانهزم بردويل؛ فاختفى في أجمة قصب فأحرقت تلك الأجمة؛ ولحقت النار بعض جسده؛ ونجا منها إلى الرملة؛ فتبعه المسلمون وأحاطوا به؛ فتنكر وخرج منها إلى يافا، وكثر القتل والأسر في أصحابه»[2].

استمر بعد ذلك الاقتتال بين الفرنج الصليبيين وبين المسلمين؛ واحتفظ الفرنج بالمبادأة الاستراتيجية؛ كما احتفظ المسلمون بالمبادأة على مستوى الأعمال القتالية. وكان باستطاعة الفرنج تطوير مبادأتهم الاستراتيجية بفضل ما كان يصلهم

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ١/٥١ - ٥٢ (معركة هرقلة).

(٢) الكامل في التاريخ، أحداث سنة خمس وتسعين وأربعمائة.

من الدعم المستمر من الغرب الصليبي؛ وذلك من أجل التوسع نحو الداخل - داخل بلاد الشام - ، فيما كان باستطاعة المسلمين أيضاً تطوير مباداءاتهم على مستوى العمليات؛ بفضل ما كان يصلهم من الدعم من مسلمي المشرق، وهذا مما يفسر عجز الفرنج الصليبيين عن احتلال المدن الداخلية مثل دمشق وحمص وحلب؛ وذلك رغم مهماجمتها في مرات متتالية؛ بل فرض الحصار عليها في فترات متباعدة؛ وهذا بدوره ما يفسر أيضاً عدم تمكن أمراء المسلمين من إيقاف الفرنج عن التوسع والعدوان؛ أو طردهم من بلاد الشام خلال فترة قصيرة؛ ولكن إصرار المسلمين على الإمساك بالمبادأة في الأعمال القتالية؛ قد أسهم إسهاماً كبيراً في استنزاف قدرة الفرنج عبر الاقتتال المستمر؛ **حتى إذا كانت معركة حطين؛ (سنة ٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م) انتقلت المبادأة الاستراتيجية انتقالاً نهائياً لقبضة المسلمين.**

لقد حاول الفرنج الصليبيون استعادة المبادأة، فأرسلوا من الغرب أضخم حملة صليبية بقيادة ملك إنكلترا (ريتشارد قلب الأسد) وأمبراطور ألمانيا (فريدريك بربروسة) وملك فرنسا (فيليب أوغست) بالإضافة إلى عدد كبير من أمراء الغرب. غير أن هذه الحملة الضخمة (الحملة الصليبية الثالثة ٥٨٧ هـ - ١١٩١ م) لم تحقق نتائج هامة؛ ولم تنتزع المبادأة من قبضة المسلمين، وهذا ما أكدته مسيرة الأحداث التالية لهذه الحملة الصليبية الضخمة. ولم يكن الجمود الذي سيطر على جبهات الحرب إلا نتيجة لما وقع بين الأيوبيين من صراعات داخلية؛ قابلها على جبهة الفرنج صراعات مماثلة؛ حتى إذا ما حاول الصليبيون استعادة المبادأة من جديد، فوجهوا حملة صليبية إلى مصر (سنة ٦١٥ هـ - ١٢١٨ م) عاد المسلمون فأكدوا محافظتهم على التفوق، وبرهنوا على إمساكهم بالمبادأة، فدمروا قوات الفرنج في دمياط (وقد عرفت هذه الحملة بالحملة الصليبية الخامسة).

وتتابعت بعدئذٍ الحملات الصليبية؛ غير أنها لم تفلح أبداً في استعادة المبادأة الاستراتيجية من قبضة المسلمين؛ أما المبادأة على مستوى الأعمال القتالية؛ فقد استقرت بدورها في قبضة المسلمين على نحو ما كان عليه الأمر منذ وصول الفرنج الصليبيين إلى بلاد الشام. ولكن الحملات الصليبية استطاعت في كل مرة الإمساك بالمبادأة في بداية أعمالها القتالية ولفترة محدودة؛ أي أن الأمر كان مناقضاً للمرحلة الأولى من الحروب الصليبية (ما قبل حطين) حيث كانت المبادأة الاستراتيجية في

قبضة الفرنج بينما احتفظ العرب المسلمون بالمبادأة على مستوى العمليات؛ بينما احتفظ المسلمون بالمبادأة الاستراتيجية (ما بعد حطين) وبالمبادأة على مستوى الأعمال القتالية أيضاً ـ بصورة عامة وباستثناء المراحل الأولى من وصول كل حملة صليبية ـ.

وعلى سبيل المثال: فعندما جاء ملك فرنسا (لويس التاسع) بحملته إلى مصر (سنة ٦٤٧ هـ ـ ١٢٤٩ م) كان يعتمد على إمساكه بالمبادأة على مستوى العمليات فقط؛ وهذا مما ساعد المسلمين على تحقيق انتصارهم الرائع في المنصورة؛ إذ كان المسلمون يمسكون بالمبادأة الاستراتيجية، فأمكن لهم، بعد المرحلة الأولية من الصراع، انتزاع مبادأة العمليات من لويس التاسع. وانتهى الأمر بتطويق قوات حملة الفرنج، وأسر من بقي منها على قيد الحياة. وقد كان تطويق الفرنج وأسرهم هو التعبير العملي والواقعي عن حرمانهم من حرية العمل العسكري ومن تجريدهم من كل فرصة لاستخدام أية مبادأة إلا مبادأة الاستسلام.

إن ذلك يفسر ويوضح سبب تأخر المسلمين في طرد الفرنج الصليبيين من بلاد الشام؛ بعد انتصارهم الرائع في حطين. فقد أفاد المسلمون من انتقال المبادأة الاستراتيجية إلى قبضتهم؛ فطردوا الفرنج من عدد كبير من القلاع والحصون التي كانوا يحتلونها ويسيطرون عليها (بما في ذلك طرد الفرنج من القدس والجليل) بحيث لم يبق، في قبضة الفرنج إلا شريط ضيق من أرض الساحل؛ فلما جاءت الحملات الصليبية المتتالية، نجحت في إعاقة المسلمين عن طرد الفرنج مما بقي تحت احتلالهم من المناطق؛ ولم تتمكن من إعادة العجلة إلى الوراء؛ أي أنها لم تنجح في استعادة المبادأة الاستراتيجية التي خرجت من قبضتهم خروجاً نهائياً.

أخذ العثمانيون المسلمون عن سلفهم ـ العرب المسلمين ـ خلاصة تجاربهم وإرثهم، وساروا على نهجهم؛ وكان مبدأ (المبادأة) في طليعة المبادىء التي ألزموا أنفسهم في تطبيقها، ومثال ذلك ما فعله السلطان محمد الفاتح بعدما فتح عاصمة الروم البيزنطيين ـ القسطنطينية ـ (سنة ٨٥٧ هـ ـ ١٤٥٣ م). فقد سار بجيوشه لفتح بلاد جديدة؛ فقصد بلاد مورة حيث صالحه أميراها ـ دمتريوس وتوماس ـ على الجزية؛ فسار السلطان محمد إلى بلاد الصرب، فجاء هونياد المجري لمساعدة الصرب؛ ولكن الصرب رفضوا مساعدة المجر لهم؛ بسبب اختلاف مذهبهم! إذ كان

المجريون كاثوليكيين وتابعين لبابا روما؛ فيما كان الصرب من الأرثوذكسيين الذين لا يذعنون لسلطة البابا، وكانوا يفضلون حماية المسلمين لهم لما رأوه من عدم تعرضهم للدين مطلقاً. ولذلك أبرم أمير الصرب الصلح مع السلطان محمد الفاتح . . . وفي هذه الأثناء تم فتح بلاد مورة، ففتح السلطان محمد مدينة كورنثة وما جاورها مِن بلاد اليونان . .

واستطاع العثمانيون المسلمون الإمساك بالمبادأة في معظم حروبهم التي بقيت شبه مستمرة على كافة الجبهات مع أوروبا طوال قرون متتالية؛ وذلك رغم كل الظروف الصعبة التي واجهها المسلمون العثمانيون؛ بسبب تحالف معظم القوى الصليبية ضدهم؛ ومثال ذلك ما حدث سنة ١٨٢٧ م (١٢٤٢ هـ) عندما اضطرت القوى الإسلامية (العثمانية والمصرية) للانسحاب من اليونان؛ وفي سنة ١٢٧٧ هـ - ١٨٦٠ م، نشبت ثورة في بلاد الهرسك وفي الجبل الأسود (مونتينيغرو) من يوغوسلافيا - حالياً -[1] بتحريض من روسيا القيصرية (التي دعمت الثورات في أوروبا الشرقية بحجة مساعدة الأخوة السلاف وبحجة حماية الأرثوذكسية) فسار (عمر باشا) وسحق الثورة؛ واقتحم الجبل الأسود من ثلاث جهات في آن واحد. وبهذه المناورة العسكرية المهمة التقت الجيوش الثلاثة في قلب الجبل بعد أن هزمت وفرقت كل القوات التي اعترضت طريقها؛ مما أرغم ملك الصرب - نيقولا - على توقيع معاهدة صلح مع الدولة العثمانية.

ولم تخرج المبادأة الاستراتيجية والمبادأة على مستوى العمليات من قبضة الدولة العثمانية، حتى الأيام الأخيرة من القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين.

قد يكون من المناسب بعد ذلك؛ التعرض لتطبيقات هذا المبدأ في الحروب الحديثة. إذ من المعروف أن معظم الدول المتحاربة في الحرب العالمية الثانية قد حرصت كل الحرص على الإفادة مما يحققه الإمساك بالمبادأة من ميِّزات؛ فحاولت تطبيقه سواء على مستوى السياسة الاستراتيجية (الاستراتيجية العليا) أو على مستوى الأعمال القتالية (العمليات). وكانت ألمانيا النازية هي أول دولة طبقت هذا المبدأ بكفاءة عالية على كافة الجبهات سواء أثناء اجتياح الغرب؛ أو في حرب شمال أفريقيا

---

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٦٥ - ١٦٩ و ٥٣٤.

أو في حربها ضد روسيا السوڤييتية. غير أن الاستنزاف الكبير الذي تعرضت له الجيوش الألمانية على كافة الجبهات، قد حرمها، بصورة تدريجيّة، من المبادأة الاستراتيجية، وحرمها بعدئذ حتى من المبادأة على مستوى العمليات، وهذا ما أشار إليه المارشال السوڤييتي ـ جوكوف ـ بقوله: «إن فن الحرب السوڤييتي الذي اجتاز صعوبات الفترة الأولى من الحرب؛ قد تمكن في المرحلة الثانية من انتزاع المبادأة من العدو انتزاعاً نهائياً؛ وتمكن من تنظيم عدد من العمليات الهجومية ـ الاستراتيجية الضخمة»[١].

ويذكر في هذا المجال أنه على الرغم من خروج المبادأة من قبضة القيادة الألمانية ـ على المستوى الاستراتيجي ـ فإنها حاولت، وبكل جهد مستطاع، الإمساك بالمبادأة على مستوى الأعمال القتالية ـ مستوى العمليات ـ وذلك على أمل أن يتيح لها ذلك استعادة المبادأة الاستراتيجية، فقامت على سبيل المثال بشن هجوم الأردين الشهير في شهر كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٩٤٤[٢]. ولكن رغم ما حققه هذا الهجوم من نجاح (بتأثير المباغتة) فإن نتائجه قد أكدت خروج المبادأة من قبضة الألمان ـ حتى على مستوى العمليات ـ.

يظهر العرض السابق مجموعة من الحقائق المتعلقة بالمبادأة؛ لعل من أبرزها وأهمها ارتباط المبادأة بالأعمال الهجومية؛ إذ لا مبادأة واضحة دون هجوم شامل؛ وحتى لو أمكن الأخذ بالمبادأة في القتال الدفاعي ـ مثل القيام بهجوم مضاد ـ فإن تأثير هذه المبادأة يبقى محدوداً. وكذلك فإن المبادأة مرتبطة بالقدرة على الإفادة من نتائجها وتطويرها؛ وذلك على نحو ما فعله العرب المسلمون عبر تاريخهم الطويل؛ وعلى نحو ما طبقته الجيوش في الحروب الحديثة. وكذلك أيضاً، فمن أهم الحقائق المرتبطة بالمبادأة ذاك التكامل على المستوى الاستراتيجي وعلى مستوى العمليات وحتى على المستوى التكتيكي ـ التعبوي ـ بحيث يمكن القول إن المبادأة الاستراتيجية هي أساس كل جهد قتالي، وإنه من المحال الفصل بين المبادأة الاستراتيجية والمبادأة على مستوى العمليات، وهذا ما برهنت عليه التجربة

(١) مذكرات وآراء ـ المارشال جوكوف ـ دمشق ـ ١٩٧٢ ص ٦٧٠.
(٢) أنسيكلوبيديا الحرب الحديثة ـ روجر باركنسون ـ ص ٣٥.

الإسلامية، وخاصة في الحروب الصليبية؛ إذ لم يكن لتلك المبادءات ـ ما قبل حطين ـ قيمتها وأهميتها وفائدتها لولا تصعيدها المستمر حتى مستوى المبادأة الاستراتيجية. ويستطيع العرب المسلمون القول ـ دون زهو ولا خيلاء وهو من حقهم لو فعلوا ذلك ـ بأنهم أول من طبق مبدأ (المبادأة) وطوَّروه عبر تجربة متطاولة من فن الحرب دامت أربعة عشر قرناً.

٣

الأمن

تضمن أمر من أوامر عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح ـ رضي الله عنهما ـ ما يلي: «لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة؛ **ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده لهم؛ وتعلم كيف مأتاه**؛ ولا تبعث سرية إلا في كشف ـ جماعة ـ من الناس»(١). وتتضمن هذه المقولة تأكيداً لمبدأ الأمن (وهو ارتياد أمكنة نزول الجند، واستطلاعها قبل نزول الجند بها).

وهناك ثمة توصيات وأوامر كثيرة أصدرها قادة العرب المسلمين، وهي تبرز بشكل واضح المضمون الكامل لمبدأ الأمن، الذي بات، في المذاهب العسكرية الحديثة جميعها، واحداً من أهم مبادىء الحرب؛ بحيث لا يكاد بحث عسكري في أمور الحرب وإدارتها وقيادة أعمالها القتالية، إلا ويتضمن الجوانب المختلفة لتطبيق هذا المبدأ. ولعل ما ذكره الماريشال الفرنسي (فوش)(٢) في كتابه (مبادىء الحرب)

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٤٣٤ في طبعة ذخائر العرب ـ أحداث سنة ١٣ هـ.

(٢) فردينانـد فوش (Foch - Ferdinand) ماريشال فرنسي (١٨٥١ ـ ١٩٢٩ م) شغل في سنة ١٨٩٤ م عمل مدرس مادة الاستراتيجية في مدرسة الحرب العليا، وتولى في سنة ١٩١٥ قيادة مجموعة جيوش الشمال، وعين في سنة ١٩١٦ مستشاراً فنياً للحكومة الفرنسية ورئيس المجلس العسكري للحلفاء. عرف بأنه من كبار منظري العالم في الفكر العسكري. وصدر له مؤلفه الشهير (مبادىء الحرب).
أنسيكلوبيديا الحرب الحديثة ـ روجر باركنسون ـ بالادان ـ لندن ـ ١٩٧٧ ص ١٢٧ (طبعة إنكليزية).

هو أفضل ما عالج مسألة الأمن. ومما قاله بهذا الصدد: «يتألف ذلك المفهوم للأمن؛ والذي نعبر عنه بكلمة واحدة، ما يلي؛

١ ـ الأمن المادي الذي يسمح بتجنب ضربات العدو؛ عندما لا يرغب المرء برد الضربة أو أنه لا يستطيع القيام بذلك؛ وهذه هي وسيلة الشعور بالأمن؛ وسط المخاطر، وأثناء المسير والتوقف.

٢ ـ الأمن التعبوي ـ التكتيكي ـ: وهو الذي يسمح بمتابعة تنفيذ الخطة، والاستمرار في أداء الواجب، رغم الظروف غير المؤاتية التي أبرزتها الحرب؛ ومنها ما كان مجهولاً، ومنها ما اتخذه العدو لفرض إرادته. وكذلك العمل بأمان وثقة، مهما كان العمل الذي سيقوم به العدو، من خلال ضمان حرية المرء في العمل...

إن المجهول هو الظرف المهيمن على الحرب، ولذلك كان اختراق المجهول وتأمين أكبر قدر من المعلومات؛ هو العنصر الأساسي للأمن. وبما أن الجزء الرئيسي من القوات يكون منتشراً بشكل حتمي قبل أي معركة، فقد أسندت مهمة تأمين المعلومات إلى الطليعة، وباتت حرية الجيش في العمل معتمدة على نجاحها، **والمهمة الثلاثية للطليعة هي:**

أ ـ الاستطلاع المستمر حتى لحظة دخول القوات الرئيسة في المعركة، وتأمين وصول المعلومات إلى القيادة.

ب ـ تغطية تحرك الكتلة الرئيسة من القوات، وتأمين حمايتها حتى دخولها المعركة.

ج ـ تحديد الخصم الذي يعتزم المرء أن يهاجمه».

ولقد صدرت بعد ذلك، ومع تطور التقانة وتطور مجال البحث العسكري، دراسات كثيرة عالجت مسألة الأمن؛ سواء على مستوى إدارة الحرب، أو على مستوى الأعمال القتالية ـ العمليات ـ أو على المستوى التعبوي ـ التكتيكي ـ. فسبل الحصول على المعلومات لم تحدد ـ حصراً ـ بعمل المقدمات أو الطلائع حتى على مستوى العمليات؛ **إذ تبين أنه لا بد من تنويع مصادر المعلومات عن طريق استطلاع** وسائط التقانة ـ الاستطلاع الألكتروني ـ واستخدام الوسائط الخاصة ـ مثل

الطائرات، وخاصة طائرات الاستطلاع بدون طيار واستطلاع الطائرات بدون طيار ـ وتأتي بعد ذلك وسائط استطلاع، عناصر الاستطلاع القتالي، وشبكات الجاسوسية. الخ . . . ويمثل ذلك كله جانباً من جوانب الأمن ـ وهو الحصول على المعلومات ـ والذي لا بدَّ له من تجاوز حدود معرفة العدو على الجبهة ليشمل مؤخرات العدو، والأرض والأحوال الجوية والتسلح والطبيعة السكانية ـ الديموغرافية ـ بل كل ما يتعلق بمسرح العمليات، وبما وراء مسرح العمليات ـ أي في العمق الاستراتيجي ـ. أما الجانب الآخر من جوانب الأمن فهو ما يعرف باسم (**تدابير الحيطة**) والتي تحرم العدو من إمكانات تحقيق المباغتة، وتضمن للقوات الشروط الضرورية لحرية العمل العسكري.

وتختلف تدابير الحيطة باختلاف موقف القوات المقاتلة وموقعها، وتعتمد هذه التدابير بصورة عامة على تحقيق مبدأ (**المحافظة على السر**)، سواء أثناء إقامة القوات أو أثناء تحركها ومسيرها إلى المعركة أو أثناء توقفها، أو حتى أثناء زجِّها في القتال.

وتدخل (**إجراءات الخداع ـ أو الخطة الخداعية**) والمناورات الخداعية في إطار تدابير الحيطة؛ الهادفة لحرمان العدو من الحصول على المعلومات التي يحتاجها لتنفيذ أعماله القتالية. وتشكل (**تدابير الأمن والحيطة**) عملاً متكاملاً، أولهما لمصلحة القوات الصديقة، وثانيهما ضد مصلحة العدو. ولهذا تشكل مسألة الأمن أحد جوانب الصراع الحاسم بين القوى المتصارعة؛ والذي تستخدم فيه أبدع أشكال الخيال، وأروع أنواع الإبداعات الفكرية. **فهل عرف العرب المسلمون (مفهوم الأمن)؟ وإذا عرفوه فكيف طبقوه؟**.

قد يكون من الضروري، قبل كل شيء، الإشارة إلى أن تنظيم الجيش منذ الأيام الأولى للفتح قد حمل على ما هو معروف اسم (الخميس) بسبب تقسيمه إلى خمس مجموعات قتالية رئيسة (المقدمة والمجنبتين اليمنى واليسرى وقلب الجيش ثم المؤخرة أو الساقة). وكان هذا التقسيم، في حد ذاته، هو النموذج الأفضل الذي يضمن تحقيق الأمن، ويحقق الشروط الضرورية للحيطة. وقد طبق العرب المسلمون ما هو ضروري من تدابير الأمن والحيطة في كل المراحل، بداية من التحرك من القواعد الخلفية إلى مسرح العمليات؛ ومروراً بتدابير الإقامة ـ ارتياد

النزل ـ ونهاية بتدابير الأمن والحيطة أثناء المعركة. وقد يكون بالمستطاع بعد ذلك استقراء ملامح تطبيق هذا المبدأ (مبدأ الأمن) من خلال أقوال القادة؛ ومن خلال ممارساتهم العملية.

أ ـ الرائدة وتدابير الحيطة

انطلق العرب المسلمون نحو آفاق الفتوح ورصيدهم من المعلوت قليل؛ فلا هم على معرفة دقيقة بطبيعة الأرض وجبالها وأنهارها ووهادها وسهوبها، وليست لديهم إلا معلومات عامة عن الطبيعة السكانية للأقاليم التي سيعملون بها، فكانت وسيلتهم الأولى لاكتساب المعرفة هي الاستعانة بمن يمكن الاعتماد عليهم من أبناء البلاد، وتآلفهم؛ والإفادة من خبراتهم، ومعارفهم؛ مع اتخاذ التدابير الضرورية للحيطة؛ ومن ثم القيام بأعمال الاستطلاع القتالي على أوسع نطاق ممكن. وكانت المشكلة الأولى بالنسبة لرواد الفتح الأوائل هي مشكلة (التأمين الحياتي للمقاتلين وذويهم) أو ما يعرف (بالتعايش مع المحيط)، إذ من المعروف أن المجاهدين في سبيل الله كانوا يسيرون إلى القتال مع أهليهم وأبنائهم وليس معهم من الزاد إلا أقلّه، فكانت مشكلة التأمين الغذائي هي إحدى المشاكل المرتبطة بمسألة الأمن. وقد استطاع رواد الفتح الأوائل حل هذه المشكلات جميعها بشكل مثير للإعجاب، والأمثلة كثيرة ومتوافرة؛ ويمكن أخذ إغارة المثنى بن حارثة الشيباني على (سوق الخنافس) نموذجاً لها. فقد ولي (المثنى) حرب العراق في وقت مبكر سبق انطلاقة جيوش الفتح. وقد حفظت صفحات التاريخ العربي ـ الإسلامي أعماله الرائعة في تلك الفترة، ومنها يمكن قراءة ما يلي: «مخر المثنى السواد؛ وخلّف بالحيرة بشير بن الخصاصية، وأرسل جريراً بن عبد الله البجلي إلى ميسان، وهلال بن علفة التيمي إلى دست ميسان، **وأذكى المسالح** بعصمة الضبي وبالكلج الضبي؛ وبعرفجة البارقي؛ وأمثالهم في قواد المسلمين. ونزل هو في قرية من قرى الأنبار تسمى أليس». **وهكذا كان أول عمل قام به المثنى هو توزيع المسالح ـ وتعني بدقة، في المصطلحات الحديثة، مراكز المراقبة المتقدمة**؛ أما كلمة مسلحة فتعني لغوياً قوم يحملون السلاح ـ، ودعم هذه المسالح باختيار أفضل القادة وأكثرهم كفاءة وشجاعة. وما إن استقر المثنى وقواته في أليس حتى شرع في جمع المعلومات الضرورية من أهل البلاد. وكان في جملة من استشارهم رجل من أهل الحيرة؛ قال

للمثنى: «ألا ندلك على قرية يأتيها تجار مدائن كسرى والسواد، وتجتمع بها في كل سنة مرة، ومعهم فيها من الأموال؛ كبيت المال؛ وهذه أيام سوقهم؛ فإن أنت قدرت أن تغير عليهم وهم لا يشعرون؛ أصبت فيها مالاً يكون غناء للمسلمين، وقووا به على عدوهم دهرهم»[1]. وسأل المثنى: «وكم بين مدائن كسرى وبينها؟» وجاءته الإجابة: «بعض يوم أو عامة يوم» فعاد للسؤال: «وكيف لي بها؟». فكانت الإجابة: **«نأمرك ـ بمعنى نشير عليك ـ أن تأخذ طريق البر حتى تنتهي إلى الخنافس؛ فإن أهل الأنبار سيخبرون عنك؛ فيأمنون؛ ثم تعوج ـ أو تعود ـ على أهل الأنبار؛ فتأخذ الدهاقين بالأدلاء؛ فتسير سواد ليلتك من الأنبار، حتى تأتيهم صبحاً فتصبحهم غارة»**.

لقد كان المثنى يعمل في إقليم خاضع لحكم الفرس؛ وكان للفرس فيه عيون ـ جواسيس ـ، ولهذا أشار من استنصحهم المثنى بالقيام بمناورة خداعية، فيتوجه بقواته إلى الخنافس ثم يعود ليلاً إلى الأنبار؛ ويأخذ من حاكمها أو كبيرها ـ دهقان ـ أدلاء، يستعين بهم في تحركه نحو هدفه ـ وهو سوق الخنافس ـ. وهذا ما فعله المثنى، فسار إلى الخنافس ثم عاد منها إلى الأنبار، فوصلها ليلاً، واستنزل صاحب حصنها: **«فأكرمه وخوَّفه واستكتمه، وقال له: إني أريد أن أُغير، فابعث معي الأدلاء إلى بغداد حتى أغير منها إلى المدائن»**.

ويمكن هنا الإشارة إلى أن المثنى لم يُعلِم صاحب حصن الأنبار بخطته ولا بالهدف الذي يقصده، بل إنه أعطاه اتجاهاً مغايراً فقال له إنه يريد التوجه بقواته إلى بغداد من أجل الإغارة على المدائن. وأخذ المثنى الأدلاء، حتى إذا ما اقترب من هدفه، أوقف قواته، وسأل: **«من ينتدب للحرس؟»** فانتُدِب له قوم، فقال لهم: **«اذكوا حرسكم». وبعث الطلائع فحبسوا الناس ليسبقوا الأخبار**، فضمن المثنى بذلك الأمن لقواته؛ كما ضمن بواسطة الطلائع عزل قواته عن أي اتصال خارجي، وذلك حتى (يسبقوا الأخبار). وكان المثنى يثق يقيناً بقواته ثقة مطلقة، ولكنها تدابير الحيطة في بلاد يمكن اعتبارها معادية، وقد يتفوه أحد المقاتلين، على غير إرادة منه، بكلمة عن هدف التحرك، فيلتقطها من يستثمرها ويعمل على إنذار أهل الخنافس.

---

(١) تاريخ الطبري ـ خبر الخنافس ـ أحداث سنة ١٣ هـ.

ونزل الناس وهم آمنون فطعموا وتوضؤوا وصلوا واستعدوا. ثم قاد المثنى قواته؛ وقام بإغارته، وكانت إغارة رائعة؛ ثم عاد غانماً ظافراً «**ومعه الأدلاء يقطعون الصحارى والأنهار حتى وصلوا الأنبار، فاستقبلهم دهاقين الأنبار بالكرامة، واستبشروا بسلامته؛ وكان موعده الإحسان إليهم إذا استقام لهم من أمرهم ما يحبون**».

وإذن؛ فإن تعاون الأدلاء وكبار القوم ـ الدهاقين ـ مع المثنى قد تم بناء على وعد المثنى لهم: «بالإحسان إليهم إذا استقام لهم من أمرهم ما يحبون». وقد وفى المثنى بوعده، فصار بالمستطاع زيادة اعتماد العرب المسلمين وقياداتهم على المتعاونين معهم من أبناء البلاد، لتأمين متطلبات الأمن والاستطلاع. وكان لزاماً على قائد الميدان أيضاً أن يؤمن إرسال ما هو ضروري من معلومات إلى قائده الأعلى ـ أمير المؤمنين ـ سواء كان ذلك بناء على طلب من أمير المؤمنين، أو كان ذلك لإيضاح موقف يتطلب اتخاذ قرار من قبل أمير المؤمنين ذاته، ومثال ذلك ما طلبه أمير المؤمنين عمر من قائد حرب العراق سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنهما ـ عندما كتب له: «**اكتب لي أين بلغك جمع قوات الفرس ومن رأسهم الذي يريد مصادمتكم، فإنه قد منعني من بعض ما أردت الكتابة به؛ قلة علمي بما هجمتم عليه؛ والذي استقر عليه أمر عدوكم. فصف لنا منازل المسلمين؛ والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر إليها؛ واجعلني من أمركم على الجلية**»(١).

ويمكن هنا أيضاً ذكر قصة دورية استطلاع خرجت للإغارة على الحيرة؛ فلما قطع الفرسان جسرها، سمعوا جلبة وأزفلة، فأحجموا عن الإقدام، وأقاموا كميناً حتى يتبينوا؛ فما زالوا كذلك حتى جازوا بهم؛ فإذا خيول تتقدم تلك الغوغاء، فتركوها فعبرت الطريق إلى الصنين، وإذا هم لم يشعروا بهم؛ وإنما ينتظرون ذلك العين لا يريدونهم؛ ولا يأبهون لهم، إنما همتهم الصنين ـ وإذ أخت آزاذمرد بن آزاذبه ـ مرزبان الحيرة ـ تزف إلى صاحب الصنين ـ وكان من أشراف العجم ـ فسار معها من يبلغها مخافة ما هو دون الذي لقوا؛ فلما انقطعت الخيل عن الزواف ـ الذين يزفون العروس ـ والمسلمون كمين في النخل؛ وجازت بهم الأثقال؛ حمل بكير على شيرزاذ بن آزاذبه، وهو بينها وبين الخيل؛ فقصم صلبه؛ وطارت الخيل على

---

(١) تاريخ الطبري ـ ذكر ابتداء أمر القادسية ـ أحداث سنة ١٤ هـ.

وجـوهها؛ وأخـذوا الأثقال وابنـة آزاذبـه، في ثـلاثين امرأة من الـدهاقين ومـائة من التوابع؛ ومعهم مـا لا يدرى قيمتـه، ثم عاج واستـاق ذلك؛ فصبـح سعداً بعـذيب الهيجانات، بما أفاء الله على المسلمين؛ فكبَّروا تكبيرة شـديدة فقال سعد: «أقسم بالله لقد كبرتم تكبيرة قوم عرفت فيهم العز».

ويمكن إيجاز قصة دورية الاستطلاع بما يلي:

١ ـ تحركت الدورية ليلاً للإفادة من الظلمة.

٢ ـ كان تحرك الدورية صامتاً بحيث لم يتمكن العدو من اكتشاف أمرها.

٣ ـ عندما بوغتت الدورية بأصوات، نصبت كميناً بين شجـر النخيل، وتـوقفت عن التحرك حتى تكشف حقيقة الأمر.

٤ ـ عندما عرفت الدورية حقيقة الموقف تركت قوات فرسان العدو الذين يحرسـون القافلة بالتقدم وفصلت بين قوة الحرس والقافلة.

٥ ـ انقض قائد الدورية وقوته على القافلة؛ بصورة مباغتة؛ فتمـزقت قوة الحـرس، وقادت قوة الاستطلاع القافلة، وعادت بها إلى معسكر المسلمين.

عندما جاء سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ لقيادة حرب العراق، كان قـد مضى على وجود العرب المسلمين في العراق زهاء سنتين، فعرفوا الأرض وطبيعـة السكـان، وكل مـا هو ضـروري من المعلومات، ولهـذا لم تعد هنـاك ثمة حـاجـة لاستخـدام الأدلاء. غير أن تقـدم قوات الفـرس، تطلب الحصـول على معلومـات متجددة وبصورة مستمرة. ولهذا عمل سعد على تكثيف دوريات الاستطلاع، فبعث قبل معركة القادسية بأيام قوة استطلاعية (كـالطليعـة) بقيادة طليحـة (وأخرى بقيـادة عمر). (وجاء العيون إلى سعد فأخبره بنزول رستم وجيشه بساباط) (ونزول الجالنوس وجيشه بالحيرة). **ثم أرسل سواد بن مالك وحميضة في مائة مائة من الخيل، للإغارة على معسكرات الفرس... ولم يكتف بذلك، فعندما اقترب رستم ونزل النجف، بعث سعد الطلائع، وأمرهم أن يصيبوا رجلاً ليسأله عن أهل فارس ـ وكانت الطليعة تضم من المقاتلين حتى العشرة ـ.** وجاءت طليعة تحمل أسيراً؛ فاستجوبـه سعد، وعلم منه أن جيش رستم يضم من الجند عشرين ومائة ألف، وأن الأتباع مثلهم خدَّام لهم. ويظهر ذلك بشكل واضح حرص سعد على اتخاذ كل ما هو ضروري من تدابير

الحيطة؛ لحماية قوات المجاهدين في سبيل الله مع حرصه على جمع المعلومات عن العدو حتى دخول المعركة مباشرة. ثم تابع سعد تطبيق مبادىء الحيطة خلال المعركة، من ذلك على سبيل المثال؛ ما يبرزه النص التالي: «**بعث سعد ليلة الهرير طليحة وعمراً إلى مخاضة أسفل من العسكر ليقوما عليها خشية أن يأتيه الفرس منها؛ وقال لهما: إن وجدتما القوم قد سبقوكما إليها فانزلا بحيالهم وإن لم تجداهم فأقيما حتى يأتيكما أمري**».

لم تختلف قصة الفتوح في المشرق ـ بلاد الفرس أو العجم ـ عن قصة فتح العراق من حيث استخدام الأدلاء وأعمال الاستطلاع القتالي وتنظيم شبكات العيون ـ الجواسيس ـ. كذلك كانت أيضاً قصة فتوح المغرب العربي ـ الإسلامي ما بين مصر والمحيط. وقد برزت ملامح هذه القصة بصورة أكثر وضوحاً في فتح الأندلس. فقد بدأت ـ أو بالأحرى سبقت ـ أعمال الاستطلاع القتالي نزول المسلمين بالأندلس (غزوة طريف). وعندما نزل طارق بن زياد وجند المسلمين «**كان معهم يليان ـ حاكم سبتة ـ المستأمن إليهم في رجاله وأهل عمله؛ يدلهم على العورات، ويتجسس لهم الأخبار**»[1]. وعندما وصل طارق إلى قرطبة: «وكمن المسلمون بعدوة نهر شقندة في غيضة أرز شامخة؛ وأرسلت الأدلاء؛ فأمسكوا راعي غنم، فسئل عن قرطبة؟ فقال: رحل عنها عظماء أهلها إلى طليطلة، وبقي فيها أميرها في أربعمائة فارس من حماتهم. وسئل عن سورها؟ فأخبر أنه حصين عال فوق أرضها؛ إلا أن فيها ثغرة ووصفها لهم».

وعندما نزل موسى بن نصير الأندلس؛ واحتل الجزيرة الخضراء عقد مجلساً ـ مؤتمراً ـ في الموضع الذي أقام به يومها قواعد (مسجد الرايات) وقال لمن حضر مجلسه: «ما كنت لأسلك طريق طارق؛ ولا أقفو أثره». فقال له العلوج الأدلاء أصحاب يليان: «نحن نسلك بك طريقاً هو أشرف من طريقه؛ وندلك على مدائن هي أعظم خطراً وأعظم خطباً؛ لم تفتح بعد».

لقد كانت أعمال الاستطلاع القتالي، وأعمال الرائدة، والطلائع، هي بعض الوسائط لجمع المعلومات وضمان أمن القوات، وقد سبقت الإشارة إلى ما يعرف

---

(١) نفح الطيب ـ دار صادر ـ بيروت ١٩٦٨ (١/٢٥٧ ـ ٢٧٠).

باسم (استطلاع القائد) على نحو ما فعله عمرو بن العاص[1] وعلى نحو ما فعله خالد في (فتح دمشق)[2]، فكانت عملية استطلاع القائد هي لإكمال المعلومات، ولوضع الخطة المناسبة، ومن ذلك على سبيل المثال ما فعله صلاح الدين عندما فتح القدس. فعندما وصل صلاح الدين بجيشه «بقي يطوف خمسة أيام حول المدينة لينظر من أين يقاتله لأنه في غاية الحصانة والامتناع، فلم يجد عليه موضع قتال إلا من جهة الشمال، نحو باب عمود أو كنيسة صهيون، فانتقل إلى هذه الناحية؛ ونصب تلك الليلة ـ ليلة العشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ ـ المنجنيقات» وشرع في رمي أسوار القدس.

ب ـ العيون (الجاسوسية)

وضع الرسول ﷺ قواعد فن الحرب الإسلامي، عبر ممارساته العملية ومن خلال أوامره وتوصياته؛ وأبرز بخاصة أهمية الحصول على المعلومات، بقدر يعادل حرمان أعداء الله من معلومات يفيدون منها في كيدهم المسلمين والنكاية بهم، والشواهد كثيرة ومعروفة؛ من إرسال للطلائع، واستجواب أسرى (غزوة بدر الكبرى)، ومن حرص على تضليل العدو (غزوة الأحزاب). ومما هو معروف أيضاً قول الرسول وهو يعد العدة ويستعد لفتح مكة: (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها). ومن اتخاذ لتدابير الحيطة ومنع تسرب المعلومات «قصة حاطب بن بلتعة الذي حمل رسالة لامرأة لإنذار قريش باستعداد الرسول لغزو مكة؛ فكشفها الرسول ﷺ».

وهنا لا بد من القول إن كل مسلم كان عيناً للمسلمين؛ فمسؤولية ضمان (أمن المسلمين) هي مسؤولية عامة، ومشتركة. فكان لزاماً على كل مسلم أن يسرع إلى رسول الله ﷺ، وإلى خلفائه من بعده، وإلى أمراء المسلمين ـ قادة الأجناد ـ للإعلام عن كل ما يعرض أمن المسلمين للخطر. وقد التزم المسلمون بهذا المبدأ طوال عهودهم، وعملوا بموجبه؛ وكثيراً ما تبرز، في سير المغازي والفتوحات وفي أخبار أمراء المسلمين، قصص (المتطوعين)، إذا ما جاز التعبير، والذين يقطعون الفيافي

---

(١) انظر الفقرة السابقة (الاستطلاع والاستطلاع القتالي).

(٢) انظر الفقرة السابقة (المباغتة).

والقفار؛ ويجوبون الآفاق وهم يصلون الليل بالنهار، لإعلام أمير الجند أو أمير المسلمين عن (معلومة) تتعلق بأمن المسلمين، ولم يكن ذلك يتعارض أو يتناقض مع حرص أمراء المسلمين على تنظيم (شبكة العيون). وقد سبقت الإشارة إلى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه «كان لا يخفى عليه شيء من عمله»[1].

وقد سار بنو أمية على هذا النهج، فكانت (عيونهم) تسير مع الجيوش، وتلازم الولاة. **وإذن فقد ربط أمراء المسلمين بين مسألة (الأمن الداخلي) ومسألة (الأمن الخارجي) واعتبروهما مسألة واحدة**. فتحقيق الأمن عبر إقامة العدل وإنصاف المظلومين؛ وتطبيق قواعد الشريعة الإسلامية، هو السبيل لدعم الجبهة الداخلية وحرمان أعداء الإسلام من التسلل إليها واستثارتها وتحريضها (لإشغال العرب المسلمين بأنفسهم وصرفهم عن عدوهم). ويظهر أن أمير المؤمنين المنصور (٩٥ - ١٥٨ هـ/ ٧١٣ - ٧٧٤ م) قد رغب في الاستعانة بأهل بيته وأقاربه للحصول على المعلومات، وليكونوا عيوناً على الناس؛ غير أنه خشي أن يؤدي ذلك إلى تعرضهم لمآزق لا تتناسب مع مكانتهم، فجنَّبهم المهانة، «واستعان على ذلك بمواليه»[2]. ومعروفة هي قصة المنصور عندما عض على أصبعه وقال ثلاث مرات: «آه» فلما سئل عما به؛ قال: «من لي بصاحب بريد يكتب لي خبر القاضي وصاحب الشرطة وصاحب الخراج، على الصحة، إذ بصلاحهم تصلح الدولة والملك».

وإذن فقد كان (**صاحب البريد**) هو المسؤول عن (الأمن الداخلي) بالدرجة الأولى؛ بالإضافة إلى ما يتهدد المسلمين من أخطار خارجية. وهذا ما تبرزه القصة التاريخية التالية: «**كتب صاحب البريد في مصر إلى الخليفة المتوكل خبر - البجاة - الذين قتلوا عدة من المسلمين الذين يعملون في المعادن في بلاد البجاة**، فهرب المسلمون منها خوفاً على أنفسهم، وخاف أهل صعيد مصر منهم. فولى المتوكل محمد بن عبد الله القمي لمحاربتهم، وكلفه بدعم تلك الكور - النواحي - وهي قفط

---

(١) تاريخ الطبري - أحداث سنة ١٧ هـ - خبر عزل خالد بن الوليد (٤/ ٦٧).

(٢) الكامل في التاريخ - أحداث سنة ثمان وخمسين ومائة - بعض سيرة المنصور (٥/ ٤٧ و ٤٩).

والأقصر وأسنا وأرمنت وأسوان، وأمره بمحاربة البجاة. وأمر عامل حرب مصر؛ عنبسة بن إسحاق الضبي، بإعطائه من الجند ما يحتاج»[1]. ويظهر ذلك أن (صاحب البريد) هو الذي اتصل بالخليفة مباشرة في بغداد؛ ولم يتصل بأمير مصر، ولا (بعامل حرب مصر) الذي وقع العدوان على أهل بلاده؛ ومقابل ذلك، فإن الخليفة لم يكلف قائد حرب مصر برد العدوان؛ وإنما كلف قائداً معيناً لتنفيذ واجب محدد هو (حرب البجاة) رغم أن الجند الذين سيقاتلون (البجاة) هم من المصريين.

لقد حفظ التاريخ العربي الإسلامي كثيراً من قصص العيون - الجواسيس - وطرائق التعامل معهم، وتنظيمهم، وتدابير الحماية لهم، وكذلك تدابير الوقاية ضدهم، إذ من المحتمل دائماً ألا يكون العين - الجاسوس - مخلصاً، فيكون بحسب التعاريف الحديثة (جاسوساً مزدوجاً) أو (عيناً للعدو). من ذلك قصة الجاسوس (تنذر)[2] الذي وثق به قتيبة بن مسلم الباهلي؛ ولما علم العجم بعزم قتيبة غزوهم ومهاجمتهم، أعطوا تنذر مالاً ليصرف عنهم قتيبة؛ فجاء تنذر، وطلب إلى قتيبة أن يجتمع به على انفراد. فصرف قتيبة الناس؛ ولم يبقِ منهم إلا ضراراً بن حصين الضبي؛ وعندها قال تنذر لقتيبة: «هذا عامل يقدم عليك؛ وقد عزل الحجاج؛ فلو انصرفت بالناس إلى مرو». وعرف قتيبة على الفور كذب العين وما يريده، فاستدعى مولاه سياه، وقال له: «**اضرب عنق تنذر**» فقتله، ثم قال لضرار: «لم يبق أحد يعلم هذا الخبر غيري وغيرك، وإني أعطي الله عهداً إن ظهر هذا الحديث من أحد حتى تنقضي حربنا هذه، لألحقنَّك به. فاملك لسانك. فإن انتشار هذا الحديث يفت في أعضاد الناس». ثم أذن للناس فدخلوا، فراعهم قتل تنذر؛ فوجموا وأطرقوا؛ فقال قتيبة: «**ما يروعكم من قتل عبد أحانه الله**». **قالوا: «إنا كنا نظنه ناصحاً للمسلمين»**. قال قتيبة: «بل كان غاشاً لهم؛ فأحانه الله بذنبه؛ فقد مضى لسبيله، فاغدوا على قتال عدوكم؛ والقوهم بغير ما كنتم تلقونهم به». وكان لقتيبة أسلوبه في المحافظة على (أمن العمل)، وكان هذا الأسلوب يعتمد على (كتمان

---

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة إحدى وأربعين ومائتين - ذكر غارات البجاة بمصر - ٥/ ٢٩٥.

(٢) تاريخ الطبري - أحداث سنة سبع وثمانين - خبر غزو قتيبة ببكند ٦/ ٤٣٠.

السر) و(القيام بالمناورات الخداعية).

وتعطي الأمثولة السابقة نموذجاً لهذا الأسلوب. فقد عمل قتيبة على قتل تنذر حتى لا يشيع الحديث الكاذب فيفت من عضد الجند؛ كذلك هدد قتيبة من يثق به؛ وهو ضرار؛ بأنه إذا أشاع الحديث الذي سمعه فسيلحقه بتنذر ويقتله. وكذلك فعل عندما أراد غزو سمرقند؛ فقد جاءه المجشر بن مزاحم السلمي؛ ويظهر أنه كان يعرف نوايا قتيبة. فقال له: «أخلني؛ أي دعني اجتمع بك على انفراد» فأخلاه. فقال المجشر: «**إن أردت السغد يوماً من الدهر فالآن؛ فإنهم آمنون من أن تأتيهم من عامك هذا**». وسأله قتيبة: «هل أشار بهذا عليك أحد؟» قال: «لا» وعاد قتيبة فسأله: «وهل أعلمته أحداً» ورد المجشر: «لا» فقال له قتيبة: «والله لئن تكلم بـه أحد لأضربن عنقك». فأقام قتيبة يومه ذلك، فلما أصبح من الغد، دعا أخاه عبد الرحمن بن مسلم الباهلي؛ فقال له: «سر في الفرسان والمرامية - الرماة - وقدم الأثقال إلى مرو». ومضى عبد الرحمن يتبع الأثقال يريد مرو فلما أمسى كتب إليه: «**إذا أصبحت، فوجِّه الأثقال إلى مرو؛ وسر في الفرسان والمرامية نحو السغد؛ واكتم الأخبار؛ فإني بالأثر**». ووصل المسلمون وأحاطوا بسمرقند، وأرسل أهل سمرقند يطلبون الدعم من ملك الشاش وأخشاذ وفرغانة، فأجمع ملوك هذه الأقاليم على دعم أهل سمرقند؛ وانتخبوا فرساناً من أبناء المرازبة والأساورة والأشداء الأبطال، فوجهوهم، وأمروهم أن يباغتوا معسكر المسلمين بإغارة ليلية: «**وجاءت عيون المسلمين فأخبروهم**»، فانتخب قتيبة ثلثمائة من أهل النجدة واستعمل عليهم أخاه - صالح بن مسلم - فصيَّرهم في الطريق الذي يخاف أن يؤتى منه. «**وبعث صالح عيوناً يأتونه بخبر القوم... فرجعت إليه عيونه فأخبروه أنهم يصلون إليه من ليلتهم**». ففرق صالح خيله ثلاث فرق؛ فجعل كميناً في موضعين؛ وأقام على قارعة الطريق. وكانت معركة حاسمة تمت فيها إبادة قوة الدعم[1].

سار أمراء بني أمية في الأندلس على نهج أسلافهم في الشام؛ في كل أمورهم؛ ومنها مسألة تنظيم شبكات العيون؛ ومثال ذلك أمير المسلمين هشام بن عبد الرحمن (١٣٩ - ١٨٠ هـ/ ٧٥٦ - ٧٩٦ م) الذي ذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز

(١) تاريخ الطبري - أحداث سنة ٩٣ هـ - فتح سمرقند (٦/٤٧٢ - ٤٧٣).

«فكان يبعث بقوم من ثقاته إلى الكور ـ النواحي ـ فيسألون الناس عن سير عماله؛ ويخبرونه بحقائقها؛ فإذا انتهى إليه حيف ـ ظلم ـ من أحدهم؛ أوقع به وأسقطه؛ وأنصف منه؛ ولم يستعمله أبداً»، ومثله الحكم بن هشام (١٥٤ ـ ٢٠٦ هـ/ ٧٧٠ ـ ٨٢١ م) الذي «كانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس»[١].

وهنا يمكن العودة مرة أخرى إلى (العيون المتطوعين) والذين كان لهم دور في كل مكان وزمان على امتداد الصفحة الجغرافية لبلاد المسلمين. من ذلك قصة الحكم بن هشام مع الشاعر الأندلسي العباس الذي كان يجوب وادي الحجارة في الثغر الأعلى (شمال الأندلس) عندما سمع امرأة تقول: «واغوثاه بك يا حكم، لقد أهملتنا حتى كلب العدو علينا؛ فأيمنا وأيتمنا» فسألها عن شأنها. فقالت: «كنت مقبلة من البادية في رفقة، فخرجت علينا خيل عدو، فقتلت وأسرت».

وعاد الشاعر العباس، فأنشد قصيدة وصف فيها خوف الثغر واستصراخ المرأة باسمه[٢]. فأنف ونادى في الحين بالجهاد والاستعداد، وقاد جيشه، وكانت معركة وادي الحجارة الظافرة التي أعزّت المسلمين في الثغور، وأنصفت المرأة المظلومة.

ومثال ذلك أيضاً قصة الحاجب المنصور ابن أبي عامر مع أحد رسله الذي كان يتردد على الثغور؛ وسار في بعض مسيراته إلى بلاد البشكنس (الباسك) وزار إحدى الكنائس «فعرضت له امرأة قديمة الأسر، وعرّفته بنفسها وأعلمته، وقالت له: أيرضى المنصور أن ينسى بتنعُّمه بؤسها ويتمتع بلبوس العافية، وقد نضت لبوسها. وزعمت أن لها عدة سنين بتلك الكنيسة محبسة، وبكل ذل وصغار ملبسة؟» وعاد الرسول فأعلم المنصور؛ فاستعد المنصور للجهاد من فوره، وأصبح غازياً، وسار إلى الثغور، فأطلق المرأة وأنصفها ومعها اثنتين مثلها[٣].

ومثلها أيضاً قصة الأسيرة الهاشمية التي صاحت وهي في أيدي الروم «وامعتصماه» وحمل أحد العيون صرخة الاستغاثة، وألقاها في أذن المعتصم،

---

(١) نفح الطيب ١/٣٣٦ و٣٤٢.
(٢) نفح الطيب ١/٣٤٣.
(٣) نفح الطيب ١/٤٠٤.

فكانت معركة عمورية الشهيرة[1]، والتي أبرزت في الواقع الملامح الأساسية لتدابير الحيطة والأمن.

ومنها: «الأمر الذي أصدره المعتصم إلى قائد أحد جيوشه ـ أشناس ـ والذي كلفه فيه **بتوجيه قائد من قواده في سرية يلتمسون رجلاً من الروم؛ لجمع المعلومات عن ملك الروم**؛ فوجه أشناس مائتي فارس بقيادة عمر الفرغاني، فدخل حتى بلغ أنقرة، وفرق أصحابه في طلب رجل رومي؛ **فأتوه بجماعة بعضهم من عسكر ملك الروم؛ وبعضهم** من السواد، فحملهم إلى أشناس».

ومنها: «تجمعت جيوش المعتصم بأنقرة؛ فأقاموا ثلاثة أيام؛ **ثم جعل المعتصم العسكر ثلاثة عساكر؛ عسكر فيه أشناس في الميسرة؛ والمعتصم في القلب؛ وعسكر الأفشين في الميمنة؛ وجعل بين كل عسكر وعسكر فرسخان؛ وأمر كل عسكر أن يكون له ميمنة وميسرة**. وسار إلى عمورية». وعندما وصل المعتصم وعسكره إلى عمورية؛ **طاف حولها؛ وقسمها بين القواد**؛ وجعل لكل واحد منهم أبراجاً منها على قدر أصحابه. «**وكان رجل من المسلمين قد أسره الروم بعمورية، فتنصر؛ فلما رأى المسلمين؛ خرج إليهم فأخبر المعتصم أن موضعاً من المدينة وقع سوره من سيل**» وأنه تم إصلاح هذا الموضع إصلاحاً ظاهرياً، وأرى المعتصم ذلك الموضع، فأمر بضرب خيمته هناك ونصب المجانيق على ذلك الموضع... وكتب قائد حامية عمورية إلى ملك الروم يعلمه أمر السور؛ وأن المسلمين قد أحاطوا بالمدينة، **وأعطى الكتاب إلى رجلين؛ فأخذهما المسلمون، وسألهما المعتصم وفتشهما، فرأى الكتاب**، وأمر لكل من الرجلين ببدرة ـ عشرة آلاف درهم ـ فأسلما... **وأمر المعتصم بالاحتياط في الحراسة ليلاً ونهاراً**؛ حتى لا يقوم قائد الحامية بهجوم مباغت على المسلمين في محاولة لاختراق الحصار؛ والفرار.

فالمعتصم في هذه الموقعة، حرص على جمع المعلومات **بالاستطلاع القتالي والحصول على الأسرى**، ونظم الحماية لكل رتل من الأرتال (**ميمنة وميسرة**)، وقام بما يسمى (**استطلاع القائد**) عندما وصل إلى عمورية، وجاء المسلم الذي أرغم على التنصر، فكان **عيناً للمسلمين ـ تطوعاً ـ**. وقد ساعدت تدابير الحيطة على أخذ

---

(1) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ثلاث وعشرين ومائتين، فتح عمورية (٥/٢٤٧).

الـرجلين رسولي قـائد حـامية عمـورية ـ واسمـه ناطس ـ **فـاستجـوبهمـا المعتصم شخصياً**؛ ولم يسمح لأحد باستجوابهما، فحصـل على ما يـريده من المعلومـات، وأحسن إليهما فأسلما. وأفاد من المعلومـات التي توافـرت له عن نيـة قائـد حاميـة عمورية، **فأمر بتشديد الحراسة ليـلاً ونهاراً**. وكـانت تدابيـر الحيطة والأمن عـاملاً حاسماً فيما تحقق من نصر كبير أنزله الله على المسلمين؛ وبقيت قصة فتح عمورية أغنيـة خالـدة على ألسنة الشعـراء؛ وصفحـة مشرقـة في جـوف سفـر الفتـوحـات الإسلامية؛ وملحمة من ملاحمهم الرائعات.

كذلك كـانت (معركـة الزلاقـة ـ في الأندلس) سنـة ٤٧٩ هـ ـ ١٠٨٦ م. فقد استنصر المعتمد بن عباد (أمير قرطبة) بأمير المـرابطين (يـوسف بن تاشفين) الـذي استجـاب لنـداء مسلمي الأنــدلس، فعبر من المغــرب إلى الأنـدلس، واستقبله المعتمد، وأقام ابن تاشفين معسكره غير بعيد عن معسكر مسلمي الأندلس. وحرص المعتمد على تنظيم الحراسة لحماية معسكر ابن تاشفين، نظراً لجهل جند المغرب بالأرض وبالعدو: «**فأذكى المعتمد عيونه في محلات الصحراويين خوفاً عليهم من مكايد الأذفونش ـ ألفونسو ملك الفرنج وقشتالة ـ إذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد، وجعل يتولى ذلك بنفسه**، حتى قيل: إن الرجل من الصحراويين لا يخرج على طرف المحلة لقضاء أمر أو حاجة إلا ويجـد ابن عباد بنفسـه مطيفـاً بالمحلة، بعـد ترتيب الخيل والرجال على أبواب المحلات»(١).

وكما كانت لابن عباد عيونه لحماية المسلمين، كذلك كانت له عيونه في معسكر الأعداء. فقد أراد الأذفونش الغدر بالمسلمين، ومهاجمتهم بصورة مباغتـة. إذ كان الأذفونش قد حدد يوم السبت موعداً للمعركة حتى لا تكون المعركة لا في يوم عيـد المسلمين ـ الجمعة ـ ولا في يوم عيد الصليبيين ـ الأحد ـ **فعرف المعتمد أنها حيلة من الأذفونش وخديعة، وأعلم بذلك ابن تاشفين وأمر الناس ليكونوا على استعداد يوم الجمعة كل النهار، وبات الناس ليلتهم على أهبـة واستعداد**. «ثم جـاء بالليـل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة الأذفونش؛ وسمعا ضوضاء الجيوش واضطراب الأسلحة. **ثم تلاحق بقية الطلائع مؤكدين تحرك الأذفونش؛ ثم**

---

(١) نفح الطيب ٤/٣٦٤ ـ ٣٦٥.

جاءت الجواسيس من داخل محلتهم تقول: استرقنا السمع فسمعنا الأذفونش يقول لأصحابه: «ابن عباد هو مسعر هذه الحروب، وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ وذوي بصائر في الحروب فهم غير عارفين بهذه البلاد؛ وإنما قادهم ابن عباد، فاقصدوه واهجموا عليه، واصبروا؛ فإن انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده، ولا أرى ابن عباد يصبر لكم إن صدقتموه الحملة». ولكن ابن عباد لم يباغت؛ ولا بوغت المسلمون، وصبر ابن عباد، وصبر المسلمون؛ وانتصروا، ومزقوا جيش الصليبيين الحاقد.

لقد تصاعد دور (العيون) مع تصعيد الصراع مع الصليبيين؛ فقد كان كل طرف يحرص على جمع أكبر قدر من المعلومات لضمان أمن القوات. ولقد حفظت الأوابد الكثير من قصص هؤلاء وأحداثهم، من ذلك قصة الحاجب المنصور مع (عيون العدو) والقصة كما ذكرتها المصادر التاريخية: «كان الحاجب المنصور جالساً في بعض الليالي؛ وكانت ليلة شديدة البرد والريح والمطر؛ فدعا بأحد الفرسان؛ وقال له: **انهض الآن إلى فج طليارش؛ وأقم فيه؛ فأول خاطر يخطر عليك سقه إلي**. ونهض الفارس وبقي في الفج واقفاً على فرسه رغم البرد والريح والمطر؛ وإذ وقف عليه قرب الفجر شيخ هرم على حمار له، ومعه آلة حطب. فقال له الفارس: إلى أين تريد يا شيخ؟ فقال: وراء الحطب. فقال الفارس في نفسه: هذا شيخ مسكين؛ نهض إلى الجبل يسوق حطباً، فما عسى أن يريد المنصور منه؟ وتركه حتى ابتعد عنه قليلاً، ثم فكر في قول المنصور، وخاف سطوته، فنهض إلى الشيخ؛ واقتاده إلى المنصور، فوجده جالساً لم ينم ليلته. فقال المنصور للصقالبة: فتشوه! ففتشوه فلم يجدوا معه شيئاً. فقال المنصور: **فتشوا برذعة حماره، فوجدوا داخلها كتاباً من نصارى كانوا قد نزعوا إلى المنصور يخدمون عنده إلى أصحابهم من النصارى ليقبلوا ويضربوا في إحدى النواحي الموصوفة**. فلما انبلج الصبح؛ أمر بإخراج أولئك النصارى إلى باب الزاهرة، فضربت أعناقهم؛ وضربت رقبة الشيخ معهم»[1].

يطالع القارىء لصفحات التاريخ العربي ـ الإسلامي أوصافاً للقادة، مثل ما قيل

---

(١) نفح الطيب ١/٤١١.

عن خالد بن الوليد أو قتيبة بن مسلم الباهلي أو موسى بن نصير أو عبد الرحمن الداخل الذي قيل فيه: «لم ترفع للأمير عبد الرحمن الداخل راية على عدو إلا هزمه؛ ولا بلد إلا فتحه، شجاعاً؛ مقداماً؛ شديد الحذر، قليل الطمأنينة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يكل الأمر لغيره»[1]، أو ما قيل في الحاجب المنصور: «غزا، الحاجب المنصور، نيِّفاً وخمسين غزوة، لم تهزم له راية. . . ولم ينكب قط في حرب شهدها، وما توجهت عليه هزيمة؛ وما انصرف عن موطن إلا قاهراً غالباً، على كثرة ما زاول من الحروب»[2]. فماذا تعني مثل هذه المقولات؟ إنها تعني ببساطة حرص قادة العرب المسلمين على تطبيق مبادىء الأمن وتدابير الحيطة تطبيقاً دقيقاً؛ والتماس كل الأسباب التي تضمن حماية القوات، وتؤمن الوقاية ضد كل مباغتة محتملة.

(١) نفح الطيب ١/٤٠٠ و٤٠٧.
(٢) نفح الطيب ٣/٤٩.

٤

الاستطلاع والغزوات الاستطلاعية

أصبحت المدينة المنورة دار هجرة وجهاد؛ منذ أن دخلها رسول الله ﷺ وصحابته مهاجرين إليها؛ وما كان الرسول ﷺ؛ وقد أمر بالجهاد؛ ليغفل عن أعداء الإسلام والمسلمين؛ فكان يحرص كل الحرص على جمع المعلومات بشتى السبل؛ وبمختلف الوسائل، ومنها ما يعرف اليوم باصطلاح (الاستطلاع القتالي).
وكان أول عمل واضح في هذا المضمار هو إرسال سرية (عبد الله بن جحش) في السنة الثانية للهجرة؛ حيث استدعى رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش؛ وسلّمه كتاباً؛ وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه؛ فيمضي له أمره به؛ ولا يستكره أحداً من أصحابه. وسار عبد الله ومعه ثمانية رهط من المهاجرين، مدة يومين ثم فتح الكتاب، وقرأ ما فيه: «**سر حتى تنزل بنخلة - بين مكة والطائف - فترصد بها قريشاً؛ وتعلم لنا من أخبارهم**». ومضى عبد الله إلى تنفيذ المهمة؛ وعاد إلى المدينة؛ ومعه قافلة تجارية، وأسيران من قريش.

وفي (وقعة بدر الكبرى) سار النبي ﷺ حتى وصل قريباً من بدر؛ فأقام معسكره؛ وبعث الزبير بن العوام في عصابة من أصحابه إلى ماء بدر؛ وليسوا يحسبون أن قريشاً خرجت لهم؛ فعاد الزبير ومعه أسير؛ فشرع الصحابة في استجوابه والرسول ﷺ قائم يصلي؛ فكان الأسير إذا صدق في قوله اتهمه الصحابة بالكذب، وإذا كذب عليهم، بسبب شدة وطأتهم عليه، صدقوه؛ فلما انتهى الرسول من صلاته، وجه حديثه إلى صحابته: **والذي نفسي بيده؛ إنكم لتضربونه إذا صدق؛ وتتركونه إذا كذب**). ثم شرع الرسول باستجوابه؛ وعرف منه عدد المشركين الذين جاؤوا من مكة لقتال

المسلمين؛ وهم بين التسعمائة والألف؛ لأنهم كانوا ينحرون في اليوم ـ كما قال الأسير ـ بين تسع وعشر جزائر (نوق جمع ناقة).

لم تكن (**غزوة مؤتة**)، في سنة ثمان للهجرة، إلا عملية (استطلاع قتالي)؛ فقد كانت قوة الغزوة لا تزيد على ثلاثة آلاف مقاتل؛ وكانت مهمتها (بقيادة زيد بن حارثة) ثم (جعفر بن أبي طالب الطيار) ثم (عبد الله بن رواحة) محددة بالوصول إلى تخوم بلاد الشام؛ لاستطلاع أحوال الروم ومن والاهم من العرب؛ فسارت هذه القوة إلى (معان من أرض الشام) فعرفت أن هرقل ملك الروم قد نزل (مؤاب ـ من أرض البلقاء) في مائة ألف من الروم؛ وانضمت إليه المستعربة من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلى في مائة ألف منهم. فسار المسلمون إلى البلقاء، حيث كانت (وقعة مؤتة) الشهيرة[1].

عرف قادة العرب المسلمين أهمية الاستطلاع؛ لا سيما عند العمل في مناطق قتالية جديدة؛ ولهذا لم يكن غريباً أن تتضمن أول رسالة وجهها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح ـ رضي الله عنهما ـ وقد تولى عمر إمارة المؤمنين: «. . . **لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة؛ ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده لهم ـ تستطلعه ـ وتعلم كيف مأتاه؛ ولا تبعث سرية إلا في كشف من الناس ـ جماعة كثيفة ـ وإياك وإلقاء المسلمين في هلكة**»[2].

ويتشابه مضمون هذا الأمر؛ مع ذاك الأمر الذي أصدره الوليد بن عبد الملك إلى عامله موسى بن نصير، عندما استأذنه بعبور البحر وغزو الأندلس، إذ قال له: «**خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها؛ ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال**» فأجاب موسى: «إنه ليس ببحر زخار؛ وإنما هو خليج؛ منه يبين للناظر ما خلفه». فرد أمير المؤمنين الوليد على موسى: «**وإن كان؛ فلا بد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه**». فما كان من موسى إلا أن أرسل قوة استطلاعيه من ألف رجل بقيادة رجل اسمه (طريف) فنزل بالموضع الذي عرف بعدئذ باسم (جزيرة طريف) فأغار على الجزيرة، ثم عاد سالماً غانماً. فوجه موسى قوة استطلاعية ثانية من ألف رجل

(١) تاريخ الطبري ـ أحداث سنة ٢ و٣ و٨ هـ.

(٢) تاريخ الطبري ـ أحداث سنة ١٣ هـ.

بقيادة شيخ من البرابرة اسمه (أبو زرعة)، فعبرت إلى الأندلس؛ وأغارت وأحرقت وأصابت سبياً؛ وعادت وقد حققت واجباتها بنجاح، وأصبح باستطاعة موسى توجيه جيش الفتح بقيادة (طارق بن زياد)(١).

لقد تزايدت أهمية الاستطلاع القتالي منذ أن سارت جيوش الفتح إلى ما وراء الجزيرة العربية؛ وباتت هناك حاجة متعاظمة للمزيد من المعلومات عن العدو والأرض والقوات الصديقة، وذلك من أجل تقدير الموقف بصورة صحيحة؛ واتخاذ القرارات المناسبة. وهذا ما أبرزته رسالة أمير المؤمنين عمر إلى سعد بن أبي وقاص؛ رضوان الله عليهما؛ وقد علم عمر بتحرك الفرس نحو القادسية! فجاء في رسالته ما يلي: «... **اكتب إلي أين بلغك جمعهم؟ ومن قائدهم - رأسهم - الذي يلي مصادمتكم؟ فلقد منعني من بعض ما أردت الكتابة به قلة علمي بما هجمتم عليه والذي استقر عليه أمر عدوكم. وصف لنا منازل المسلمين؛ والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر إليها؛ واجعلني من أمركم على الجلية؟**»(٢). وأجاب سعد برسالة أوضح فيها الطبيعة الجغرافية لمنطقة الأعمال القتالية المتوقعة (القادسية) ووصفها وصفاً دقيقاً؛ وذكر له موقف السكان الذين أظهروا ارتباطهم بالفرس وعداءهم السافر للعرب المسلمين؛ كما ذكر له اسم قائد قوات الفرس (رستم)، وذكر أيضاً سلوك العدو الذي يحاول استثارة العرب المسلمين وجرهم إلى خوض المعركة في الوقت والزمان والمكان الذي يختاره؛ وما يقوم به هو - سعد - لفرض زمن المعركة ومكانها على الفرس.

ويتشابه هذا الموقف مع موقف الحجاج بن يوسف الثقفي؛ يوم وصلته رسالة من قتيبة بن مسلم الباهلي (سنة ٨٩ هـ) يعلمه فيها أنه هاجم بخارى، غير أن ملكها (وردان خذاه) قد تمكن من صده؛ فلم يظفر بشيء. فكتب إليه الحجاج: «**صور لي - بخارى - وابعث لي بصورتها**». وعندما اطلع الحجاج على الصورة كتب لقتيبة: «**ارجع إلى - بخارى - وائتها من مكان كذا وكذا**»(٣).

---

(١) نفح الطيب ٢٥٣/١.
(٢) تاريخ الطبري - ذخائر العرب - ٤٩١/٣.
(٣) تاريخ الطبري - ٤٤٠/٦.

وإذن، فقد أصبح الاستطلاع القتالي الذي يقدم لقادة الميدان ما يحتاجونه من المعلومات؛ من المصادر التي تقدم، في الوقت ذاته، ما تحتاجه القيادة العليا (الاستراتيجية) من المعلومات. وكذلك؛ فكما كانت لقادة الميدان وسائلهم الأخرى للاستطلاع، وجمع المعلومات (العيون أو الجواسيس؛ الأدلاء؛ الأنصار المتطوعين) فكذلك كان للقيادة العليا (أمير المؤمنين) وسائل أخرى للحصول على المعلومات غير تلك التي يرسلها قادة الجيوش؛ ومنها: الوفود التي كانت تذهب للمدينة المنورة لمقابلة أمير المؤمنين؛ ومنها الأمناء الذين يختارهم ويعينهم أمير المؤمنين لمرافقة الجيوش ومعرفة أحوالها: «**وكانت لعمر بن الخطاب ـ رحمه الله ـ العيون في كل جيش**»[1] وكانت لا تخفى على عمر خافية من أعمال عماله وأمراء جنده».

وبذلك، كان بالمستطاع تحقيق التقاطع في المعلومات، والتأكد من صحتها، والتنسيق بين ما تحتاجه القيادة العليا من المعلومات وبين ما تحتاجه قيادات الميدان من تلك المعلومات، وهذا ما يفسر بوضوح دقة تلك القرارات والأوامر التي كانت تصدر عن (أمراء المؤمنين ـ عامة)، وتأخذ طريقها للتنفيذ الدقيق على مستوى قادة الميدان..

ويمكن بعد ذلك أخذ فكرة عن أساليب الاستطلاع القتالي وطرائقه عند العرب المسلمين. كان جيش سعد بن أبي وقاص قد تحرك من المدينة المنورة إلى (زرود) التي اعتبرت منطقة لحشد القوات، ثم سار منها إلى (شراف) حيث جرى تنظيم الجيش للقتال؛ وتحرك بعدها إلى (عذيب الهجانات) المتاخمة (للقادسية). ولهذا فقد كان التحرك من شراف إلى عذيب الهجانات في تشكيل القتال، حيث رفع سعد الطلائع والمقدمات أمام الجيش بقيادة (زهرة بن الحوية)، وقد تحدث أحد المجاهدين في سبيل الله ممن عملوا مع المقدمات بقوله:

«وصلت المقدمات بقيادة زهرة بن الحوية إلى عذيب الهجانات؛ **ولم تغادرها حتى وصل الجيش بقيادة سعد ـ بن أبي وقاص ـ**. فلما وصلها عاد زهرة **وخرج مع المقدمات في وجه الصبح**؛ فلما طلع النهار وظهرت العذيب، وكانت من المراكز

---

(١) تاريخ الطبري ـ أحداث سنة ١٣ هـ (٣/٤٧٦).

الأمامية المتقدمة للفرس ـ مسلحة ـ تبين أن هناك رجالاً على الأبراج وبين الشرفات؛ **فتوقف الفرسان المتقدمون حتى لحقت بهم بقية قوة المقدمات، ثم تقدمت** المقدمات إلى العذيب، ودخلتها؛ فخرج منها رجل يركض نحو القادسية؛ وتبين أنه ليس هناك أحد في العذيب؛ فكان ذاك الرجل هو الذي كان يتنقل بين الأبراج والشرفات لخداع المسلمين وتضليلهم؛ ثم إنه انطلق هارباً بعد أن جمع ما يحتاجه من معلومات عن المسلمين؛ وأسرع فرسان المقدمة لمطاردته فلم يلحقوا به؛ **وسمع بذلك زهره فتبع الفرسان، ثم تجاوزهم وهو يطارد الرجل ويقول: إذا أفلت فإنه سيعلمهم بخبرنا؛ وأدركه عند خندق معسكر الفرس فقتله.** وعجب جند المقدمات من شجاعة ذلك الرجل الفارسي؛ ومن علمه بالحرب؛ وشجاعته ورباطة جأشه؛ ولولا ابتعاده عن معسكر الفرس ما لحق به زهرة ولا أصابه. ووجد المسلمون في العذيب رماحاً ونشاباً وأسفاطاً من جلود وغيرها؛ فانتفعوا بها. **ثم عمل زهرة على بث الغارات في جوف الليل؛** ووجه قوة بقيادة بكير بن عبد الله الليثي ـ وفيها الشاعر القيسي الشماخ ـ **وثلاثين رجلاً من المعروفين بالنجدة والبأس؛** وأمرهم بالإغارة على الحيرة»[1].

تظهر هذه (القصة)، على قصرها وإيجازها؛ أهم الشروط الواجب توافرها في قوة الاستطلاع القتالي، وكذلك طرائق عمل هذه القوة ومنها:

١ ـ التحرك أمام كتلة القوة الرئيسة للجيش واحتلال مواقع متقدمة، وعدم مغادرتها قبل تسليمها لقيادة الجيش وقواته.

٢ ـ تحرك قوة الاستطلاع القتالي في أوقات مناسبة ـ في الليل مثلاً أو في الفجر ـ تبعاً لبعد منطقة العمل عن قاعدة الانطلاق.

٣ ـ توجيه عناصر استطلاع ومفارز صغيرة نحو الاتجاهات الخطرة (فقد كانت قوة المقدمات تضم حوالى مائة مقاتل؛ أرسل منها زهرة ثلاثين رجلاً إلى الحيرة).

٤ ـ اختيار عناصر المقدمات من المقاتلين الذين تتوافر لهم خبرة قتالية وكفاءة عالية (أهل النجدة والبأس).

٥ ـ أن تتوافر لعناصر الاستطلاع القتالي قدرة حركية عالية (سرعان الخيل).

---

(١) تاريخ الطبري ـ أحداث سنة ١٤ هـ (٣/٤٩٣ ـ ٤٩٤).

لقد عرف قادة العرب المسلمين أن واجب قوة (**الاستطلاع القتالي**) هو (**الاستطلاع وليس القتال**)، وأنه إذا ما اضطرت هذه للقوة للقتال؛ فعليها عدم الاشتباك مع قوة كبيرة قدر المستطاع، وأن تعود إلى قاعدتها بسرعة لتقدم ما توافر لها من المعلومات، وهذا ما تبرزه العملية الاستطلاعية التالية:

تقدمت قوات الفرس؛ وقد انتظمت في ثلاثة جيوش؛ فنزل رستم وجيشه بالنجف؛ ونزل الجالنوس وجيشه بين النجف والسيلحين؛ ونزل ذو الحاجب بين رستم والجالنوس. فوجه سعد بن أبي وقاص قوتين استطلاعيتين؛ فأمر طليحة بالتوجه لمعسكر رستم؛ وأمر عمرو بالتوجه إلى معسكر الجالنوس؛ فخرج عمرو، وما لبث سعد أن وجه قوة ثالثة (بقيادة قيس بن هبيرة) وقال له: «اتبع آثارهما؛ فإن لقيت قتالاً فأنت عليهم ـ قائدهم ـ». وسار قيس فالتقى بعمرو قرب النجف، فقال قيس لعمرو: «ما تريد؟» وأجاب عمرو: «أريد أن أغير على أدنى عسكرهم» فقال له قيس: «لا أدعك والله وذاك! أتعرض المسلمين لما لا يطيقون!». ورجعا ومعهما أسرى وخيول للفرس؛ وجاءا إلى سعد فقدَّما له ما توافر من المعلومات؛ وشكا كل واحد منهما صاحبه؛ فأما قيس فشكا عصيان عمرو، وأما عمرو؛ فشكا غلظة قيس. فقال سعد: «**يا عمرو؛ الخبر، أو المعلومات؛ والسلامة أحب إليَّ من مصاب مائة من المسلمين بقتل ألف من الفرس. أتعمد إلى حلبة فارس فتصادمهم بمائة؟! إن كنت لأراك أعلم بالحرب مما أرى**».

جابه قادة العرب المسلمين مواقف كثيرة فرضت عليهم بالضرورة القيام بأنفسهم بجمع المعلومات أو ما بات معروفاً باسم (**استطلاع القائد**) ومن ذلك قصة (**عمرو بن العاص**) مع (**أرطبون**).

وكان (أرطبون) هذا قائداً من قادة الروم البيزنطيين؛ ووصفته المصادر العربية أنه: «أدهى الروم؛ وأبعدها غوراً؛ وأنكاها فعلاً». فلما انتصر العرب المسلمون في اليرموك؛ ثم في فحل؛ رجع إلى فلسطين، فأعاد تنظيم قواته فيها؛ فأقام معسكره في (أجنادين) وحصَّن مواقعه، واحتفر الخنادق؛ كما أقام حامية قوية في الرملة؛ وثالثة في إيلياء (القدس). وتوجه عمرو بن العاص لقتاله؛ وكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن

الخطاب عنه؛ فقال عمر رضوان الله عليه مقولته الشهيرة: «قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عمّا تنفرج».

وأقام عمرو على حصار أرطبون أشهراً (سنة ١٥ هـ) وهو لا يقدر عليه بشيء؛ وظهرت له الحاجة لجمع معلومات لم يتمكن أحد تأمينها له؛ فقرر التوجه بنفسه لجمع المعلومات؛ ودخل على أرطبون كأنه رسول؛ فأبلغه ما يريد؛ وسمع كلامه؛ وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد؛ وقال أرطبون في نفسه: «**والله إن هذا لعمرو؛ أو إنه للذي يأخذ عمرو برأيه؛ وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله**». ثم دعا جندياً من حرسه؛ فهمس في أذنه: «اخرج؛ فقم مكان كذا وكذا؛ فإذا مر بك فاقتله». وفطن له عمرو، فقال: «قد سمعتَ مني وسمعتُ منك؛ فأما ما قلته فقد وقع مني موقعاً؛ وأنا واحد من عشرة؛ بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنعاونه ويشهدنا أموره؛ فارجع فآتيك بهم الآن؛ فإن رأوا في الذي عرضت مثل الذي أرى؛ فقد رآه أهل العسكر والأمير؛ وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم؛ وكنت على رأس أمرك». وأجاب أرطبون «نعم»، وطمع في أن يقتل عشرة بدلاً من قتل واحد. واستدعى رجلاً، فهمس في أذنه: «أذهب إلى فلان فرده إلي». فرجع إليه الرجل. وعندها قال أرطبون لعمرو: «انطلق فجيء بأصحابك» فخرج عمرو؛ ورأى ألا يعود لمثلها؛ وعلم أرطبون أن عمرو قد خدعه؛ فقال: «**خدعني الرجل؛ هذا أدهى الخلق**». ونظم عمرو بن العاص هجومه؛ وقد عرف نقاط ضعف التنظيم الدفاعي للروم؛ واقتتلوا بأجنادين قتالاً شديداً كقتال اليرموك؛ حتى أنزل الله نصره على المسلمين، ونزل عمرو بأجنادين؛ وهرب أرطبون إلى القدس.

ارتبطت أعمال (الاستطلاع القتالي) بدهياً بنشاط الأعمال القتالية؛ وتزايد حدتها؛ فكلما شهدت جبهات القتال هدوءاً واستقراراً؛ كلما تناقصت الحاجة للحصول على المعلومات وبالتالي للاستطلاع القتالي؛ وكانت شبكات العيون ـ المراقبين والجواسيس ـ تؤمن للأمراء ولقادة الجيوش المعلومات الضرورية لإدارة البلاد وضمان الأمن على التخوم وفي الثغور؛ ومقابل ذلك؛ فكلما تصاعدت حدة القتال في (ديار الحرب) كلما تزايدت الحاجة للمعلومات؛ وقد ظهر أن هناك نوعين من الاستطلاع القتالي: «**أولهما**: تضطلع بتنفيذه الطلائع والمقدمات التي تتقدم الجيوش أو الكتل الرئيسة من قوات العرب المسلمين. **وثانيهما**: وتضطلع بتنفيذه

قوات يتم تشكيلها بصورة خاصة لتأمين الحصول على معلومات معينة (عن العدو وعن طبيعه الأرض بخاصة؛ وما يتوافر فيها من المساعدات أو العوائق)، بحيث تتحرك قوات العرب المسلمين إلى أهدافها؛ وهي على معرفة تامة بأهدافها وبطبيعة أرض الأعمال القتالية المتوقعة.

كان قتيبة بن مسلم الباهلي من كبار قادة الميدان في حروب العرب المسلمين؛ وكانت جبهة قتاله متاخمة لبلاد الصين والهند والترك؛ وكانت له أيامه وحروبه المستمرة والمتصلة؛ فكان من طبيعة الأمور أن يركز اهتمامه على تنظيم (الاستطلاع القتالي)، وقد عرف عنه: «**أنه كان إذا رجع من غزاته كل سنة اشترى اثني عشر فرساً من جياد الخيل؛ واثني عشر هجيناً؛ فيقام على خدمتها إلى وقت الغزو؛ فإذا تأهب للغزو وعسكر؛ قيدت وأضمرت؛ فلا يقطع نهراً بخيل حتى تخف لحومها؛ فيحمل عليها من يحمله في الطلائع، وكان يبعث في الطلائع الفرسان من الأشراف؛ ويبعث معهم رجالاً من العجم ممن يستنصح على تلك الهجن ـ أدلاء ـ.** وكان إذا أمر بطليعة؛ أمر بلوح فنقش، ثم يشقه شقتين، فأعطى شقه لقائد الطليعة؛ واحتفظ بالشق الثاني، وأمره أن يدفن الشق في موضع يصفه له من مخاضة معروفة؛ أو تحت شجرة معلومة أو خربة؛ ثم يبعث بعده من يستخرجها ويأتيه بها؛ ليعرف ما إذا كان قائد طليعته صادقاً أم لا»[1].

ويظهر من ذلك؛ أن قوة (الاستطلاع القتالي) ذات تنظيم واحد، في اختيار وسائطها (الخيول) وفي اختيار رجالها؛ سواء كانت هذه القوة من أصل المقدمات؛ أو كانت منفصلة عنها وتابعة للقائد الأعلى في الميدان مباشرة؛ ويعود السبب في ذلك على ما هو واضح للتشابه في طرائق العمل وفي تنفيذ الواجب؛ وفي التعامل مع العدو. ويمكن بالتالي التوقف عند ما تضمنته رسالة الخليفة الأموي مروان بن محمد إلى ابنه عبد الله وقد وجهه للقتال ـ وهي الرسالة التي وضعها عبد الحميد الكاتب ـ وجاء فيها بما يتعلق بالطلائع:

«**تقدم في طلائعك**؛ فإنها أول مكيدتك ورأس حربك ودعامة أمرك؛ **فانتخب لها من كل قادة وصحابة رجالاً ذوي نجدة وبأس وصرامة وخبرة؛ حماة كفاة**؛ قد صلوا

---

(١) تاريخ الطبري ـ أحداث سنة ٩٦ هـ (٦/٥٠٣ ـ ٥٠٤).

بالحرب وتذاوقوا سجالها وشربوا مراراً كؤوسها. . . ثم انتقهم على عينك؛ **واعرض كراعهم - خيولهم - بنفسك؛ وإياك أن تقبل من دوابهم إلا إناث الخيول؛ فإنها أسرع طلباً؛ وأنجى مهرباً؛ وألين معطفاً؛ وأبعد في اللحوق غاية وأصبر في معترك الأبطال إقداماً**. . . واعلم أن الطلائع هي حصون المسلمين وعيونهم؛ وهي أول مكيدتك؛ فانتخب للولاية عليهم رجلاً بعيد الصوت - مشهور الاسم - ظاهر الفضل؛ نبيه الذكر؛ له في العدو وقعات معروفات؛ وأيام طوال؛ وصولات متقدمات؛ قد عرفت نكايته وحذرت شوكته وهيب صوته»[1].

ولكن ما هي قوة الطليعة؟ وما هو عدد أفراد قوة الاستطلاع القتالي؟ قد لا تكون هناك حاجة للقول إن حجم قوة الاستطلاع القتالي وعدد أفراد قوة الطلائع يتزايد طرداً مع تزايد حجم كتلة القوة الرئيسة؛ كما أنه يتزايد تبعاً للواجب - أو المهمة -. غير أن الحجم الاعتيادي الذي استخدم في قوة الاستطلاع القتالي هو مائة مقاتل، بينما كان عدد أفراد قوة كل طليعة يتراوح ما بين الواحد حتى العشرة. ولكن كان يتم في كثير من الأحيان تكثيف قوة الاستطلاع القتالي؛ وزيادة عدد زمر الطلائع وتكثيفها، وقد ظهر ذلك منذ أيام القادسية، ثم أصبح من الأمور المتعارف عليها، وهو ما يبرزه النص التالي:

«عندما نزل سعد بالقادسية؛ **بعث سواد بن مالك وحميضة؛ كل في مائة رجل؛** ونهاهما أن يمعنا؛ فأغارا على (النهرين) وأوغلا؛ وبلغ سعداً أن فرسانه - خيله - قد وغلت؛ **فدعا عاصم بن عمرو وجابراً الأسدي؛ فأرسلهما في آثارهما يقتصانها، وسلكا طريقهما - وقال لعاصم: «إن جمعكم قتال فأنت عليهم»**. وفي يوم آخر؛ أمر سعد قوات الطلائع **أن يصيبوا رجلاً ليسأله عن أهل فارس - أي يأتوه بأسير -**. فخرجت الطلائع بعد اختلاف؛ **وقد أجمع الملأ من الناس أن الطليعة من الواحد إلى العشرة؛** فأخرج سعد طليحة في خمسة؛ وعمرو بن معد يكرب في خمسة»[2].

---

(١) جمهرة رسائل العرب - رسالة عبد الحميد الكاتب ٢/٥٠٨ - ٥٢٢. ويمكن أن يضاف إلى ذلك ما قاله شاعر لمتونة وأهل الأندلس - أبو بكر الصيرفي - (مقدمة ابن خلدون - وصية علي رضي الله عنه، وتحريضه لأصحابه يوم صفين).

واجعل من الطلاع أهل شهامة   للصدق فيهم شيمة لا تخدع

(٢) تاريخ الطبري - ذخائر العرب - أحداث سنة ١٤ هـ (٣/٥١١ - ٥١٢).

لقد سارت أعمال الفتوح على مراحل متتالية؛ ولم تسر بطريقة مستمرة ومتواصلة؛ فقد انطلقت جموع المجاهدين في سبيل الله للعمل على مناطق جغرافية تجهلها تماماً؛ سواء في المشرق أو في المغرب؛ وكان لا بد من التعامل أيضاً مع شعوب لا يعرف عنها العرب المسلمون إلا النذر اليسير؛ فكان التوقف بين كل مرحلة من مراحل الفتوح والمرحلة التالية لها هي مرحلة استطلاع قتالي؛ إذ كانت تنطلق سرايا المجاهدين في سبيل الله من قاعدتها التي حصَّنتها ودعمتها ونظمتها لارتياد أطراف تلك القاعدة؛ ولاستطلاع طبيعتها الجغرافية؛ وللتعرف على طبيعة السكان وعاداتهم ومواطن ضعفهم وقواتهم؛ حتى إذا ما نضجت الثمرة وحان قطافها؛ انطلقت جموع المجاهدين في سبيل الله نحو أهدافها وهي على معرفة تامة بهذه الأهداف.

وإذن فلم تكن المرحلة الفاصلة ما بين الفتوح الكبرى هي مرحلة توقف أو جمود أو عطالة؛ وإنما كانت مرحلة نشاط قتالي مستمر؛ بغزوات صغرى؛ تحمل كل صفات أعمال الاستطلاع القتالي وميزاته.

ويمكن اعتبار سيرة عقبة بن نافع وفتوحه في أفريقية، نموذجاً لما سبق ذكره؛ وتأكيداً له؛ فقد فتح العرب المسلمون مصر وأفريقية (برقة وطرابلس) منذ سنة ٢٠ هـ؛ «**فأقام عقبة بن نافع في برقة وزويلة؛ منذ أن فتحها أيام عمرو بن العاص، وله في تلك البلاد جهاد وفتوح**. ثم إن معاوية بن أبي سفيان استعمله على أفريقية؛ وسيَّر إليه عشرة آلاف فارس؛ **سنة خمسين للهجرة؛ فدخل أفريقية؛ وانضاف إليه من أسلم من البربر**؛ فكثر جمعه؛ ووضع السيف في أهل البلاد؛ لأنهم كانوا إذا دخل إليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الإسلام؛ فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا وارتد من أسلم، وشيد القيروان وتم أمرها سنة خمس وخمسين ـ وسكنها الناس ـ. **وكان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا فتغير وتنهب**؛ ودخل كثير من البربر الإسلام. واتسعت خطة المسلمين، وثبت الإسلام»[١].

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة خمسين (ولاية عقبة بن نافع أفريقية؛ وبناء مدينة القيروان).

وهكذا مضت فترة ثلاثة عقود من عمر الزمن ـ تقريباً ـ ما بين فتح مصر وأفريقية وبين فتوح عقبة (الكبرى) في ولايته الثانية لأفريقية؛ وهي الفتوحات التي وصلت به إلى المحيط الأطلسي (سنة ٦٢ هـ).

لقد أصيبت تلك الفتوحات بانتكاسات متتالية؛ وظهر واضحاً أنه لا بد من مضي فترة زمنية أخرى؛ للحصول على المزيد من المعلومات أيضاً حتى تتوافر الظروف المناسبة لاستقرار الفتح؛ وهذا ما فعله الولاة على أفريقية تباعاً؛ فاستمرت سرايا العرب المسلمين وغزواتهم في عملها؛ وهي تدمر المقاومات القريبة؛ وتجمع المعلومات؛ بكل السبل والوسائل، وليس بالاستطلاع القتالي وحده.

وهناك (**قصة خالد بن يزيد القيسي**) التي تؤكد ارتباط المعلومات بالأعمال القتالية للعرب المسلمين؛ وهي قصة ترتبط بأعمال الجاسوسية والعيون أكثر من ارتباطها بالاستطلاع القتالي؛ غير أنه من المناسب التعرض لها هنا نظراً لعلاقتها بمسيرة الأحداث وتطورها. وكانت قصة خالد بن يزيد القيسي قد بدأت في الفترة التي أعقبت استشهاد عقبة بن نافع (سنة ٦٢ هـ) ثم استشهاد (زهير بن قيس البلوي) سنة ٦٩ هـ، وما وقع خلال هذه الفترة من اضطرابات شملت أفريقية كلها (بسبب ثورة كسيلة ثم ثورة الكاهنة).

وكانت الكاهنة قد انتصرت على المسلمين؛ وأخذت منهم أسرى؛ أطلقت سراحهم واحتفظت بخالد بن يزيد، وجعلته بمثابة ولد لها؛ وعهدت إليه بمرافقة ولديها والبقاء معهما. فلما كانت سنة ٧٤ هـ؛ وجه عبد الملك بن مروان جيشاً كبيراً إلى أفريقية، وأمر واليها (حسان بن النعمان الغساني) بالسير لقتال الكاهنة والقضاء على ثورتها. «**فأرسل حسان رسولاً سراً إلى خالد بن يزيد بكتاب يستعلم منه الأمور؛ فكتب إليه خالد جوابه في رقعة؛ يعرِّفه تفرق البربر؛ ويأمره بالسرعة؛ وجعل الرقعة في خبزة. فلما تسلم حسان الخبزة من الرسول؛ وجد أن الرقعة قد احترقت بالنار؛ فعاد إلى خالد وكتب إليه بما كتب أولاً؛ وأودعه قربوس السرج. فسار حسان نحو الكاهنة؛ فالتقوا واقتتلوا أشد قتال؛ وكثر القتل حتى ظن أنه الفناء؛ ثم نصر الله المسلمين وانهزم البربر؛ وقتلت الكاهنة؛ ثم إن البربر استأمنوا، فأمنهم حسان. وقدموا اثني عشر ألف مقاتل للجهاد مع العرب المسلمين، وجعل حسان**

ابني الكاهنة على قيادتهم؛ وشاع الإسلام في البربر»[1].

كانت هذه الأعمال هي المرحلة التمهيدية لما أعقب ذلك من فتوحات كبرى سنة ٨٩ هـ (على يد موسى بن نصير)، وكان الاستطلاع القتالي هو القاعدة التي استندت إليها أعمال الفتوح طوال فترة سبعين سنة تقريباً؛ ما بين الوصول إلى أطراف أفريقية في المشرق؛ وبين بلوغ نهاية أفريقية في المغرب.

لقد تكررت في المصادر التاريخية الإسلامية جملة «. . . وقامت قوة من المسلمين بالغزو؛ فأغارت ونهبت وسبت وعادت سالمة» وهذا تعبير عن (الإغارة الاستطلاعية) ووصف لها. ومن ذلك ـ على سبيل المثال ـ: «غزا المسلمون اللان ـ سنة اثنتين وأربعين ـ وغزوا أيضاً الروم؛ فهزموهم هزيمة منكرة وقتلوا جماعة من بطارقتهم»، «ثم كانت غزوة بسر بن أرطاة الروم؛ ومشتاه بأرضهم، سنة ثلاث وأربعين، حتى بلغ القسطنطينية»، «ومما كان في سنة أربع وأربعين؛ دخول المسلمين مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بلاد الروم ومشتاهم بها؛ وغزو بسر بن أرطاة البحر»، وكذلك «كان مشتى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بأرض الروم سنة خمس وأربعين، وعاد منها في السنة التالية فمات في حمص». وفي سنة ثمان وأربعين: «كان مشتى أبي عبد الرحمن القيني أنطاكية؛ وصائفة عبد الله بن قيس الفزاري؛ وغزوة مالك بن هبيرة السكوني البحر؛ وغزوة عقبة بن عامر الجهني البحر بأهل مصر وبأهل المدينة». وفي سنة تسع وأربعين: «كان مشتى مالك بن هبيرة السكوني بأرض الروم، وغزوة فضالة بن عبيد جزيرة جربة؛ وشتا بها، وفتحت على يديه وأصاب فيها سبياً كثيراً. وكانت صائفة عبد الله بن كرز البجلي بأرض الروم. وكانت غزوة يزيد بن شجرة الرهاوي في البحر؛ فشتا بأهل الشام. كذلك كانت غزوة عقبة بن نافع البحر؛ فشتا بأهل مصر. وكانت غزوة يزيد بن معاوية الروم، حتى بلغ القسطنطينية، ومعه ابن عباس؛ وابن عمر؛ وابن الزبير؛ وأبو أيوب الأنصاري»[2].

ويظهر هنا أنه لم تكن هناك ـ وفي هذه الفترة ـ معارك حاسمة؛ وإنما كانت هناك مسيرات في البحر، وتحركات في البحر؛ هدفها الأول الاستطلاع. وكانت الغزوات

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٧٤.

(٢) تاريخ الطبري ـ أحداث السنوات المذكورة في المتن ـ النص ـ.

تتزايد كثافة في بعض السنوات بحيث يكون أكثر من صائفة وأكثر من شاتية وأكثر من غزوة بحرية؛ دون أن يحدث قتال مع الروم ـ البيزنطيين ـ إلا في حدود ضيقة؛ وفي بعض الأحيان، إذ كان الهدف الأول هو جمع المعلومات؛ والمحافظة على درجة عالية من الاستعداد القتالي.

جابه المسلمون بعدئذ قوات الحملات الصليبية؛ وكان المسلمون في الأندلس على احتكاك دائم واقتتال مستمر مع الفرنج الصليبيين؛ بينما شكَّل وصول الفرنج إلى بلاد الشام صدمة عنيفة لأمراء المسلمين وقادتهم الذين كانوا يجهلون تقريباً كل شيء عن هذه الوافدة الجديدة. ولهذا أخذت أعمالهم القتالية كل أشكال (الاستطلاع القتالي) والتي كان يتم تنفيذها غالباً في إطار إغارات وكمائن؛ مع تجنب الاشتباك في أعمال قتالية مباشرة قدر المستطاع؛ ومثال ذلك ما حدث سنة ٤٩٥ هـ ـ ١١٠١ م (أي بعد أربع سنوات من وصول الفرنج إلى بلاد الشام). فقد تحركت في تلك السنة قوات حملة صليبية من (أنقرة) وسارت على اتجاه الشمال الشرقي للوصول إلى جنجرة. ولكن المشاكل بدأت منذ تحرك هذه القوات، فقد عمل سلطان قونية (قلج أرسلان بن سليمان ابن قتلمش) على تخريب البلاد حتى لا يجد الفرنج ما يأكلونه؛ وأسرع صاحب ملطية وسيواس (كمشتكين ابن الدانشمند طايلو) على تجديد تحالفه مع قلج أرسلان، وكذلك فعل صاحب حلب (رضوان بن تتش) على إرسال جيش من قواته لدعم قلج أرسلان. وعندما وصل الفرنج إلى جنجرة، وقد استنزفت قوتهم، عجزوا عن فتح جنجرة، فقرروا متابعة التحرك على الاتجاه ذاته للوصول إلى قلعة كومنين ـ على بحر قزوين ـ على أن الرحلة إلى كستموني كانت بطيئة وشاقة؛ إذ نفذ الماء؛ **ودمر الترك المسلمون كل المحصولات؛ وركض الفرسان الترك في دروب متوازية؛ لإثارة الاضطراب والفوضى والارتباك في مقدمة الجيش الصليبي**، وتارة في مؤخرته؛ ولم يبتعد الصليبيون كثيراً حتى تعرضت مقدمة جيشهم المكونة من سبعمائة من اللومبارديين **لهجوم مباغت قام به الفرسان الأتراك**؛ فولّى الفرسان اللومبارديون الأدبار، بعد أن تركوا مرافقيهم من المشاة للقتل، واضطرت مؤخرة الجيش الصليبي، في الأيام التالية، للاقتتال باستمرار مع الترك؛ وأصبح جيش الفرنج بكامله مرغماً على التحرك بشكل كتلة متراصة؛ **وكان من المحال عليه إرسال جماعات لتأمين الأغذية**

والأعشاب واستطلاع أخبار العدو. وعندما وصل جيش الفرنج إلى مدينة (مرسيفان) في منتصف الطريق؛ بعد مشقة وجهد كبيرين؛ وقعت قوات المقدمة في كمين نصبه الأتراك المسلمون؛ وقتل فيه بضع مئات من العساكر الألمان؛ فتم تنظيم جيش الفرنج لخوض معركة حاسمة ضد المسلمين؛ وأخذ الترك المسلمون، منذ أن بدأت المعركة، في استخدام طريقتهم التي يتقنون استخدامها بمهارة عالية؛ **فكان الرماة يحملون على الفرنج ويطلقون السهام؛ ثم يبادرون إلى الانسحاب؛ بينما يظهر غيرهم من جهة أخرى.** ولم يمضِ وقت طويل حتى لاذ اللومبارديون بالفرار وهم في حالة الذعر الشديد، وخلفوا وراءهم نساءهم وقسيسيهم، وتبعهم عساكر البجناك (البوسنة)، وظل الفرسان الفرنسيون، وبعض الألمان، وهم يقاتلون بشجاعه حتى ما بعد الظهر؛ وعندما حل الظلام؛ اكتملت عملية فرار جيش الفرنج؛ وخلف وراءه متاعه وأثقاله غنيمة للمسلمين. وتابع فرسان الترك مطاردتهم للفارين؛ فلم يتمكن من الفرار إلا الفرسان، أما المشاة فقد تعرضوا جميعاً للقتل، وبلغت الخسائر أربعة أخماس الجيش؛ وغنم الترك مقادير كبيرة من الثروة والأسلحة والأسرى[١].

ويمكن أن يضاف إلى ذلك ما ورد من أحداث سنة (٤٩٩ هـ - ١١٠٥ م)[٢] حيث ذكر ما يلي: «**تكررت الحروب والغارات بين عسكر دمشق وبغدوين - بلدوين ملك القدس - فتارة لهؤلاء؛ وتارة لهؤلاء؛** فلما كانت هذه السنة؛ عهد بلدوين بإمارة الجليل إلى - هيو سانت أومر - وشجعه على أن ينتهج سياسة عدوانية مع المسلمين؛ فكان أول ما قام به هيو من أعمال أنه شيَّد على الجبال **قلعة تبنين للسيطرة على الطريق الذي يربط صور وبانياس ودمشق.** ثم شيد **قلعة علعال.** وخاف حاكم دمشق - طغتكين - عاقبة ذلك وما يحدث به من الضرر؛ فجمع عسكره وخرج إلى مقاتلتهم؛ وكان هيو قد أغار على الأراضي الخصيبة الواقعة إلى الشرق من الجليل؛ وعاد بغنيمة ثقيلة؛ فانقضَّ عليه طغتكين، وأصيب هيو بجراح أودت بحياته. وانهزم الفرنج إلى حصنهم واحتموا به، فقال طغتكين: من أحسن قتالهم؛ وطلب مني أمراً فعلته معه؛ ومن أتاني بحجر من حجارة الحصن أعطيته خمسة

(١) تاريخ الحروب الصليبية (٢/٤٣ - ٤٦).

(٢) تاريخ الحروب الصليبية (٢/١٥٤ - ١٥٥) والكامل في التاريخ - أحداث سنة تسع وتسعين وأربعمائة (ذكر الحرب بين طغتكين والفرنج).

دنانير. فبذل الرجال ـ المشاة ـ نفوسهم، وصعدوا إلى الحصن وضربوه؛ وحملوا حجارته إلى طغتكين؛ فوفى لهم بما وعدهم؛ وأمر بإلقاء الحجارة في الوادي؛ وأسروا من بالحصن؛ فأمر طغتكين بهم فقتلوا كلهم؛ واستبقى الفرسان أسرى ـ وكانوا مائتي فارس ـ ولم ينج ممن كان في الحصن إلا القليل، وعاد إلى دمشق منصوراً فزين البلد أربعة أيام؛ **وخرج منها إلى ـ رفنية** ـ وهو من حصون الشام؛ وقد تغلب عليه الفرنج، وملكه وقتل به خمسمائة رجل من الفرنج».

يظهر استعراض تاريخ الحروب الصليبية أن أعمال (الاستطلاع القتالي) كانت ذات أهداف متنوعة كثيراً؛ شملت، فيما شملته، الحصول على أسرى؛ وإبادة المقاومات المنعزلة؛ وممارسة ضغوط على العدو لحرمانه من حرية العمل العسكري؛ وتدمير المزروعات وإحراق الحقول لحصار العدو اقتصادياً والتضييق عليه؛ وكذلك استدراج العدو للقتال في مناطق يختارها المسلمون؛ إو إرغامه على دخول المعركة. ولعل أبرز عملية استطلاع قتالي ـ حملت هدفاً سياسياً ـ هي تلك التي سبقت يوم حطين، وعرفت باسم (صفورية ـ أو عيون كريسون)[1].

«ذلك أن كونت طرابلس عقد هدنة مع صلاح الدين الأيوبي شملت إمارة زوجته بالجليل، وأراد صلاح الدين اختبار صدق ريموند ـ كونت طرابلس ـ فأرسل إلى ولده الأفضل يأمره أن يرسل قطعة صالحة من الجيش إلى بلد عكا ينهبونه ويخربونه؛ وكان على هذه القطعة أن تسير عبر أراضي الكونت ريموند (أو ريمند بن ريمند الصنجيلي) فتم استئذانه، وقامت (قوة الاستطلاع القتالي بقيادة أمير حران والرها مظفر الدين كوكبري بن زين الدين) بمهمتها على أفضل وجه؛ وصادفت في طريقها قوات فرسان الداوية والأسبتارية، وجرت بينهم حرب تشيب لها المفارق السود، ثم أنزل الله نصره على المسلمين؛ فانهزم الفرنج؛ وقتل منهم جماعة وأسر الباقون. وفيمن قتل مقدم الأسبتارية ـ روجر ـ وكان من فرسان الفرنج المشهورين؛ وله النكايات العظيمة في المسلمين؛ **ونهب المسلمون ما جاورهم من البلاد وغنموا وسبوا وعادوا سالمين**؛ وكان عودهم على طبرية وبها الكونت (ريموند) الذي لم

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ٢/٧٣١ ـ ٧٣٤ ـ والكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (ذكر الغارة على بلد عكا).

ينكر ما حدث؛ فكان ذلك فتحاً كثيراً؛ فإن الداوية والأسبتارية هم جمرة الفرنج، وسيرت البشائر إلى البلاد بذلك».

لم تختلف مسيرة الفتوحات الإسلامية العثمانية في أوروبا؛ عن مسيرة فتوحات العرب المسلمين، والتي حدثت قبل ذلك بقرون؛ وبخاصة من حيث (الاستطلاع القتالي). إذ كانت كل عملية قتالية بمثابة عملية (استطلاع قتالي) للعملية التالية لها. ولعل أوضح مثال على ذلك هو فتح مدينة القسطنطينية (إسلام بول) ذاتها.

«ففي سنة ٧٥٦ هـ - ١٣٥٥ م أرسل ملك الروم - جان باليولوج - وفداً إلى السلطان العثماني أورخان الأول؛ وطلب إليه المساعدة لصد غارات ملك الصرب دوشان الذي ضم إليه قبائل الصقالبة الغربية؛ وفتح بمساعدتهم بلاد البلغار، وزحف على عاصمة بلاد الروم. فأسرع أورخان وأرسل جيشاً ضخماً لنجدته؛ لكن الموت دهم دوشان؛ قبل وصول المسلمين العثمانيين. **ولكن المسلمين أفادوا من ذلك؛ فعندما نزلوا بساحل أوروبا، تحققوا ضعف مملكة الروم؛ وما آلت إليه من الضعف والانحلال؛ فأخذ السلطان أورخان في تجهيز الكتائب سراً لاجتياز البحر واحتلال بعض نقط على الشاطىء الأوروبي، تكون مركزاً لأعمال العثمانيين في أوروبا،** حتى إذا سنحت الفرص وساعدت المقادير؛ حاصروا مدينة القسطنطينية براً وبحراً؛ ودخلوها فاتحين.

وفي سنة ٧٥٨ هـ - ١٣٥٧ م، اجتاز سليمان باشا أكبر أولاد السلطان أورخان وولي عهده مضيق الدردنيل - ومعه أربعون من أشجع جنوده - تحت أستار الظلام؛ حتى إذا وصلوا إلى الضفة الأخرى قبضوا على ما كان بها من القوارب؛ وعادوا بها إلى الضفة المعسكرة عليها جيوشهم؛ فانتقل الجيش إلى ضفة أوروبا وكان عدده ثلاثين ألفاً، واحتل ميناء تزنب، وغاليبولي ومدناً أخرى منها أبسالا وردستو»[1].

لقد مضى زهاء قرن من عمر الزمن على هذه العمليات قبل أن يفتح الله للمسلمين عاصمة الروم التي طالما نبت عنها سيوف المسلمين؛ وطالما أعجزت المجاهدين في سبيل الله وامتنعت عليهم؛ وكان العرب المسلمون يعرفون منذ

---

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ١٢٥ - ١٢٧).

الحصار الأول للقسطنطينية (سنة ٥٠ هـ - ٦٧٠ م) أنه من المحال عليهم فتح عاصمة بلاد الروم ما لم تتم لهم السيطرة على الغرب الأوروبي، وهذا مما حمل موسى بن نصير على التقدم عبر الغرب للوصول إلى القسطنطينية من الغرب وفتحها. غير أن هذه المعرفة كانت تحتاج للوسائل اللازمة من أجل الإفادة منها؛ وقدر للعثمانيين المسلمين امتلاك هذه الوسائل. وقد يكون من المثير حقاً أن العملية، التي اعتبرت بكاملها عملية استطلاع قتالي، قد بدأت بالتنفيذ عملياً بعملية استطلاع قتالي صغرى؛ نفذها سليمان ابن أورخان في الليل؛ ومعه أربعون مقاتلاً، فكانت عملية استطلاع صغرى في إطار عملية استطلاع كبرى.

لقد عرفت الحروب الثورية الإسلامية كل أنواع الاستطلاع القتالي؛ وتشكِّل حصالة تلك التجارب مصدراً ثرّاً للخبرات الثرّة والوفيرة؛ فقد كان المجاهدون في سبيل الله يحرصون كل الحرص في حروبهم ضد القوات الاستعمارية على معرفة مخططات العدو ونواياه وأهدافه وقواته وأسماء قادته؛ فاتبعوا من أجل ذلك كل الوسائل المتاحة؛ ولم تكن الإغارات والكمائن إلا الطرائق التنفيذية لأعمال الاستطلاع القتالي. وقد كانت هذه الأعمال بدورها متكاملة مع الوسائل الأخرى - الجاسوسية -، فكانت هذه الأعمال هي النموذج المصغَّر لأعمال الاستطلاع القتالي التي مارسها العرب المسلمون طوال حروبهم؛ وعرفوا بواسطتها أفضل السبل لتحقيق انتصاراتهم الرائعة.

الفصل الخامس

أبحاث في الجهاد في سبيل الله

١ ـ العنف في الحروب الإسلامية

٢ ـ المسألة القومية

٣ ـ مدرسة الحرب الإسلامية وخصائصها.

٤ ـ تعلم الحرب في مدرسة الحرب.

١

العنف في الحروب الإسلامية

جابه المجاهدون في سبيل الله تحديات ثقيلة منذ البدايات المبكرة لتشكيل مذهبهم العسكري، غير أن تلك التحديات لم تأخذ طابع الصدام بين مذاهب عسكرية مختلفة، وإنما أخذت شكل صدام بين المذهب العسكري الإسلامي من جهة؛ وبين دول وأمبراطوريات تمتلك قدرات حربية ضخمة، ولديها خبرات قتالية عالية، وكفاءات قيادية وتنظيمية كبيرة؛ يتم توظيفها واستخدامها لتحقيق أهداف الدولة، ولتنفيذ رغبات القيصر أو الملك، إذ لم يكن للفرس أو الروم أو سواهم مذهب عسكري مشتقٌّ عن العقيدة الدينية ومتلاحم بها، ولهذا لم تأخذ حروب المسلمين مع أعدائهم الطابع الديني أو العقائدي؛ رغم أن دولة الروم البيزنطيين كانت تدين بدين المسيحية؛ ورغم أن دولة الفرس كانت تمتلك مذاهب فكرية وفلسفية (مثل الزرادشتية) أحلَّتها محل الأديان. وكان من نتيجة ذلك تباين أساليب القتال واختلافها. فعندما انطلق العرب المسلمون للفتوح؛ كانوا يحملون كتاب الله بأيمانهم، وهدفهم رفع كلمة الله حتى تكون هي العليا، وتعريف أهل الدنيا بدين الدنيا والآخرة؛ وبناء مجتمعات إسلامية جديدة، فكان العنف بالتالي محدداً وخاضعاً للهدف الكبير، واقتصر استخدامه على أرض المعارك. فلا قتل ولا تدمير ولا عنف خارج حدود ميادين القتال، إلا لمن أشهر سلاحه ضد العرب المسلمين.

وجابه الروم والفرنج على جبهتي الشام والأندلس موقفاً صعباً، إذ عرفوا أن انتصار العرب المسلمين لم يكن بسبب كثرتهم؛ ولا بسبب قوة سلاحهم، وإنما بسبب الإيمان الذي غمر قلوبهم، وبسبب تلاحم فرض الجهاد في سبيل الله

بعقيدتهم الدينية، هذا فيما كانت المسيحية قد ألزمت أتباعها بالسلام، وبدون تحديد مضمون للسلام؛ مع الدعوة لنبذ الحرب والقتال، فكان هناك انفصال كامل بين الدين المسيحي وبين الظروف التي تفرض حمل السلاح والقتال.

وهكذا، وعلى الرغم من الدعوات للسلام، فإن نار الحرب لم تتوقف ولم تخمد؛ سواء بين أبناء الدين الواحد، مثل غزوات أمبراطور الروم (جوستينيان)[1] لبلغاريا وإيطاليا وبلاد الغال (فرنسا)، ومثل حروب (باسيل الثاني)[2] بعدئذ ضد المسيحيين البلغار وضد الفرس وضد الأفارقة. وقد ظهر في بلاد الروم؛ وفي الغرب؛ من حاول بعد ذلك تسويغ الحرب، مثل (القديس أوغسطين - أو - أوغستين)[3] الذي أعلن بأنه «يجوز أن تنشب الحرب بأمر الله». وقد أفاد الملوك والأمراء في بلاد الصليبيين من هذا التسويغ لإعطاء حروبهم ظاهرتها الدينية وصفتها الشرعية، كما أفادت الكنيسة بدورها من ذلك لتوجيه غرائز القتال نحو الهدف الذي يخدم مصلحتها، وأصبحت الحرب المقدسة التي تخدم مصلحة الكنيسة هي حرب جائزة بل مرغوب فيها. وجاء البابا (ليو الرابع) ليعلن في منتصف القرن التاسع الميلادي - الثالث الهجري: «أن كل من يموت في سبيل الدفاع عن الكنيسة سوف يلقى من الله الجزاء الأوفى». ثم جاء البابا (يوحنا الثامن) بعد سنوات قليلة: «فجعل ضحايا الحرب المقدسة من الشهداء؛ فإذا لقوا مصرعهم وهم يحملون سلاحهم؛ امَّحت ذنوبهم». وقرر البابا (نقولا الأول) مبدأ إضافياً عبَّر عنه بقوله: «إن كل من وقع

---

(١) جوستينيان الأول (Justinien - I) أمبراطور بيزنطة، ولقب بأمبراطور الشرق (٥٢٧ - ٥٦٥ م) حارب القاندال؛ وانتصر على الفرس، وفتح أفريقية وإيطاليا؛ وظهر في عهده عدد كبير من قادة الحرب المشهورين أمثال: نرسيس وبيلزير.

(٢) باسيل الثاني: (Basil - II) أمبراطور بيزنطة (٩٥٧ - ١٠٢٥ م) أصبح أمبراطوراً سنة ٩٧٦ م. أخضع بلغاريا؛ وشن حروباً كثيرة ضد العرب المسلمين؛ وازدهرت أمبراطورية الروم في عهده.

(٣) القديس أوغسطين (Saint - Augustin) قس أبرشية هيبون القريبة من مدينة بون - عاصمة ألمانيا الغربية حالياً - (٣٥٠ - ٤٣٠ م) عاش حياة ماجنة فاسقة قبل أن يتحول ليكون رجل كنيسة، ثم لم يلبث أن أصبح من كبار رجال الدين المسيحي؛ كتب مؤلفات كثيرة من أهمها (مدينة الله) و(الاعترافات) و(معاهدة الرحمة) وهي مؤلفات اشتهرت بنزعتها الفلسفية الأخلاقية.

تحت طائلة حكم الكنيسة لما ارتكبه من الذنوب، ينبغي عليه ألا يحمل السلاح إلا من أجل قتال الكفار ـ الذين هم المسلمون»[1].

وهكذا، ولدت (صكوك الغفران) وبدأ استخدام التعابير الإسلامية ذاتها؛ وتقليد معتقدات المسلمين. وكانت صياغة مبدأ (توجيه الحقد الداخلي) من أصعب الأمور؛ إذ كان لا بد من إقامة السلام الداخلي لتوجيه الحقد ضد العدو الخارجي الممثل بالعرب المسلمين؛ وذلك محاكاة وتقليداً لمضمون الآية الكريمة: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[2].

وضمنت الكنيسة بفرضها السلام على المسيحيين «مصالحها والمحافظة على أملاكها من المغيرين؛ ومثيري الحروب. وانعقدت مجالس عديدة لهذه الغاية، منها المجلس الذي انعقد في (فيردان سور لو دوب)[3] سنة ١٠١٦م، والذي صيغ فيه نص قسم ـ يمين ـ أقسم النبلاء بموجبه ألا يرغموا رجال الدين على أن ينخرطوا في جيشوهم؛ أو يغيروا على محاصيلهم، أو يصادروا دوابهم». والتزم الناس ـ في فرنسا خاصة ـ بهذا القسم عن طيب خاطر؛ وصار القسس ورواد الكنائس يرددون في صلواتهم: السلام... السلام... السلام. ثم انعقد مجلس ناربون سنة ١٠٥٤ م: «وتقرر حماية أمتعة الكنيسة والفقراء من آثار الحرب، واحترامها؛ وفرض عقوبة الحرمان من الكنيسة على كل من يتعرض لها». وتقرر بعد ذلك أنه لا ينبغي لمسيحي أن يقتل مسيحياً، لأن كل من يقتل مسيحياً فكأنه أهدر دم المسيح.. ولكن ذلك كله لم يضع حداً للاقتتال بين المسيحيين، وأبرز مثال لذلك ما فعله (وليم الفاتح)[4] الذي انتهك (هدنة الله) وشن الحرب ضد أخيه المسيحي (هارولد الثاني) في يوم السبت؛ كما أن ملكة الروم ـ البيزنطيين ـ (أنا كومنين) جزعت لما تعرضت له القسطنطينية من هجوم على أيدي فرسان الغرب، الذين ضمت صفوفهم عدداً كبيراً

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ١/١٢٦ ـ ١٢٧.

(٢) سورة الفتح ـ الآية ٢٩.

(٣) ڤردان سور لو دوب: (Verdin - sur le dubs).

(٤) وليم الفاتح: (دوق نورماندي وملك إنكلترا. ولد سنة ١٠٢٧ م؛ وفتح إنكلترا سنة ١٠٦٦ م وانتصر على هارولد الثاني في معركة هاستينغ الشهيرة: (Hastings) فأعاد تنظيم المملكة على أسس جديدة؛ واعتمد على طبقة النبلاء الأرستقراطية العسكرية ـ مات سنة ١٠٨٧ م.

من القسس المصلحين المقاتلين. ولم تنعم أملاك الكنيسة بالسلام؛ حيث استمر ـ العلمانيون ـ في الهجوم عليها، فكان أن عادت الكنيسة لتحويل الجهد الحزبي لأتباعها من أجل قتال الوثنيين (المسلمين). ويمكن بعد ذلك الانتقال إلى ما تضمنه خطاب البابا ـ إيرمان الثاني في (مجمع كليرمونت) يوم ٢٨ تشرين الثاني ـ نوفمبر سنة ١٠٩٥ م (٤٨٨ هـ) حيث انطلقت من هذا المجمع الشرارة التي ألهبت الغرب والشرق بنار الحروب الصليبية؛ وقد تضمن الخطاب ـ فيما تضمنه ـ ما يلي: «فلينطلق المسيحيون بالغرب لنجدة الشرق. ينبغي أن يسير الأغنياء والفقراء سواء؛ ينبغي أن يكفوا عن قتل بعضهم بعضاً، وأن يباشروا، عوضاً عن ذلك، القتال الحق، فيؤدون ما أمر الله به أن يُعمل، وسوف يكون هادياً ومرشداً لهم. ومن يلق مصرعه في المعركة تحلل من ذنوبه؛ وغفر الله له خطاياه. فالحياة هنا أضحت تعسة كثيرة الشرور؛ بعد أن أضنى الناس نفوسهم في تدمير أجسادهم وأرواحهم، وبعد أن استبد بهم الفقر والبؤس. وسوف ينعمون هناك بالسعادة والرخاء؛ ويكونون أصدقاء أوفياء لله؛ فلا ينبغي التمهل والإرجاء. وليستعدوا للمسير عند حلول الصيف، وليكن الله هاديهم»(١).

هكذا، وبعد خمسة قرون تقريباً من ظهور الإسلام؛ تشكل ما يمكن تسميته (بالمذهب العسكري الصليبي) والذي لم يكن إلا محاكاة لفريضة (الجهاد في سبيل الله) لا في مجال اقتباس المصطلحات والتعابير فحسب بل أيضاً في مجال أساليب العمل، ولكن بقي هناك فارق كبير بين المفاهيم الإسلامية والمفاهيم الصليبية، كالفارق بين التعاليم الإلّهية والقوانين الوضعية؛ تلك تسير مع النفس وتستقر في القلب، وتستنفر مواهب العقل، وهذه تستجيب لمتطلبات مرحلية خلال فترة زمنية محددة. تلك تتصف بالاستمرار والديمومة؛ وهذه تتصف بما يتصف به البشر من تقلبات في الأحوال؛ بتغير الظروف والأزمان.

ولقد تعلم الفرنج بعضاً مما فضَّل الله به عباده المسلمين، وعجزوا عن تعلم الكثير مما لم تتمكن عقولهم من استيعابه، وأول ما عجز الفرنج الصليبيون عن تعلُّمه تحقيق التوازن بين (هدف الحرب) و(غاية السلم) وما ينجم عن ذلك من تقييد

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ١/١٦١ ـ ١٦٢.

لاستخدام العنف في الحرب، وتحديد استخدامه بميادين القتال؛ وبمن يحمل السلاح لقتال المسلمين. ولقد برز مثل هذا التباين بوضوح كبير منذ الأيام الأولى لما عرف باسم (الحروب الصليبية) سواء على أرض أندلس المسلمين، أو على أرض صقلية وبقية جزر البحر الأبيض المتوسط، أو في الحملات الصليبية على أرض بلاد الشام؛ حيث اقترنت الأعمال القتالية للفرنج الصليبيين بالمذابح الجماعية؛ التي لم يكن لها علاقة لا بالحرب ولا بميادين القتال، بل كان ضحيتها الأبرياء (المدنيون) من سكان المدن والقرى.

كانت مدينة أنطاكية أول مدينة دخلها الفرنج الصليبيون من مدن بلاد الشام؛ وذكرت المصادر التاريخية عن هذا الحدث ما يلي: «دخل الفرنج البلد من الباب ونهبوه وقتلوا من فيه من المسلمين»[١]. وورد في مصدر تاريخي آخر ما يلي: «أخذ الصليبيون يتدفقون من الأبواب؛ وانحاز إليهم السكان من اليونانيين والأرمن؛ في قتل من وقع نظرهم عليه من الترك؛ من الرجال والنساء؛ وهلك في أثناء هذه الفوضى عدد كبير من المسيحيين... وتعرض للنهب بيوت سكان أنطاكية؛ من المسيحيين والمسلمين سواء، وعبث الفرنج وحطموا ما صادفوه من النفائس والأسلحة. فما من أحد من الناس يستطيع أن يرتاد الشوارع، دون أن تتعثر قدماه بالجثث»[٢].

سار الفرنج بعد ذلك إلى (معرة النعمان) فأجروا مذبحة جديدة ورد في ذكرها ما يلي: «لما صعد الفرنج سور المدينة ـ معرة النعمان ـ تحير المسلمون؛ ودخلوا دورهم؛ فوضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام فقتلوا ما يزيد على مائة ألف وسبوا السبي الكثير وملكوه»[٣].

على أن أكبر مذبحة قام بها الفرنج هي تلك التي نفذوها في القدس عندما استولوا عليها: «دخل الفرنج المدينة؛ وركب الناس السيف، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين. واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود، فاعتصموا به، وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً؛ منهم جماعة

---

(١) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة إحدى وتسعين وأربعمائة (ذكر ملك الفرنج مدينة أنطاكية).

(٢) تاريخ الحروب الصليبية ١/٣٣٢ ـ ٣٣٤.

(٣) الكامل في التاريخ ـ أحداث سنة ٤٩١ (ذكر ملك الفرنج معرة النعمان).

كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان، وجاور بذلك الموضع الشريف».

وذكر في مصدر آخر ما يلي: «انطلق الصليبيون في شوارع مدينة القدس، وإلى الدور والمساجد؛ يقتلون كل من يصادفهم من الرجال والنساء والأطفال، دون تمييز؛ واقتحم باب المسجد ثلة من الصليبيين فأجهزت على جميع اللاجئين... وحينما توجه ريموند آجيل في الضحى لزيارة ساحة المعبد؛ أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه. وفر يهود بيت المقدس جميعاً إلى معبدهم الكبير، غير أنه تقرر القبض عليهم بحجة أنهم ساعدوا المسلمين، فلم تأخذهم بهم الرحمة والرأفة، فأشعلوا النار في المعبد؛ ولقي اليهود بداخله مصرعهم محترقين. وتركت مذبحة بيت المقدس أثراً عميقاً في جميع العالم، ليس معروفاً بالضبط عدد ضحاياها، غير أنها أدت إلى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود... ووطد المسلمون العزم على ضرورة طرد الفرنج، فلم يثر التعصب الإسلامي من جديد إلا التعصب المسيحي الذي دل عليه ما لجأ إليه الصليبيون من سفك الدماء. فلما حدث فيما بعد؛ أن سعى بعض عقلاء اللاتين لأن يجدوا أساساً للتعاون بين المسلمين والمسيحيين؛ كانت ذكرى هذه المذبحة تعترض دائماً الوصول إلى اتفاق»[1].

يمكن التساؤل بعدئذ: كيف استطاعت جيوش المجاهدين في سبيل الله؛ أن تلزم نفسها ذلك الإلزام الدقيق والصارم بقصر العنف على ميادين القتال، ولم تتجاوزه إلى أهالي البلاد التي فتحها الله على أيديهم؟ وكيف لم تستبد شهوة الانتقام أو نشوة النصر بالمسلمين في يوم من الأيام؛ فيعملوا على توسيع دائرة العنف والبطش إلى ما وراء أفق ميدان الاقتتال؟ ثم كيف لم يتمكن قادة الفرنج الصليبيين من كبح جماح جيوشهم والسيطرة عليها لإيقاف المذابح التي لم تكن في يوم من الأيام إلا عودة بالإنسان إلى عصور البربرية والهمجية وإلى عصر تحكم الغرائز البدائية بالإنسان المحارب؟ ثم لماذا لم تحاول جيوش الفرنج ولا قادتها التعلم من

---

(١) الكامل في التاريخ - أحداث سنة اثنين وتسعين وأربعمائة - وتاريخ الحروب الصليبية ١/٤٠٤ - ٤٠٥.

المجاهدين في سبيل الله فضائلهم الحربية، رغم وفرة ما تعلمـوه لصياغـة مذهبهم العسكري؟.

هنا تبرز الظاهرة المثيرة بأوضح صورها وبأعمق مضامينها ومعانيها؛ بين شريعة الله وبين قوانين البشر عباد الله، بين الأصالة وبين التقليد؛ وعلى كل حال؛ فهنـاك ظاهرة أكثر إثارة ولو أنها طبيعية بحسب ما برهنت عليها التجارب التاريخية باستمرار؛ فظاهرة العنف لا بد وأن تعود على صاحبها بأسوأ النتائج؛ وأوخم العواقب.

فالكنيسة التي وجهت الحقد والعنف ضد المسلمين؛ دفعت ثمنه بما نالها من العنف، وظهر ذلك أثناء الحملات الصليبية ذاتها. ففي سنـة ٥٥١ هـ ـ ١١٥٦ م، قاد (الكونت رينالد شاتيون) أحد أمراء الحمـلات الصليبية وحـاكم الكرك بعـدئذ؛ حملة لمهاجمة قبرص لم يكن هدفها إلا السلب والنهب والقتل والتدمير، وتعـرض أهل جزيرة قبرص لمذابح رهيبة ولدمار شامل لم يعرفه تاريـخ الجزيـرة منذ فتحهـا العرب المسلمون قبل ذلك بخمسـة قرون تقـريباً. وفي سنـة ٦٣٨ هـ ـ ١٢٠٤ م، توجهت حملة صليبية إلى عاصمة الـروم البيزنـطيين (القسطنـطينية)، وجـرى نهب المدينة وذبح أهلها مما حمل الفرنج ذاتهم على تذكر ما تميزت به حروب المسلمين من الشفقة والرحمة بالضعفاء والمستضعفين من الرجال والنساء والأطفال.

لقـد كان من خيـر المسلمين؛ ومن مصلحة المسلمين؛ ألا يتعلم الفـرنج من فضائلهم، ومنها (عدم التطرف في العنف وعـدم تجاوز حـدوده)؛ إذ إن ما ارتكبـه الفرنج من المذابح؛ وما طبقوه من الممارسات الجائرة، قد شكّل سدّاً عائقاً أمام أية محاولة للالتقاء والتعايش بين الغرب الصليبي والشرق المسلم؛ ولم يكن باستطاعة المسلمين إلاّ الوفاء لشهدائهم الذين ذبحهم الفرنج غدراً، وإلاّ الانتقام لجـراحهم المفتوحة، والتي ما زادتها الأيام إلا عمقاً واتساعاً، ومزيداً من النزف بسبب استمرار ما كان يقوم به الفرنج من المذابح بين فترة وأخرى، ممـا جعل المسلمين يـربطون باستمرار سلسلة جرائم الفرنج بعضها ببعض، فيزيدهم ذلك تصميماً وإصراراً وعناداً لاقتلاع جذور الحقد والكراهية والشر التي زرعها الفرنج على أرضهم.

وهكذا فعندما قام الفرنج بإجراء مذبحة في عكا سقط فيها تجار من المسلمين، سنة ٦٨٩ هـ ـ ١٢٩٠ م كان ذلك إيذاناً لإنهاء وجود من بقي من الفرنج على أرض

بلاد الشام. وكذلك فعندما حاول الفرنج الانتقام لطردهم من بلاد الشام، فوجهوا حملة إلى الإسكندرية ونهبوها وذبحوا أهلها (سنة ٧٦٥ هـ ـ ١٣٦٥ م) كان ذلك إيذاناً للمسلمين بطرد جاليات الفرنج التجارية من مصر، ومهاجمة قاعدة العدوان (قبرص).

ولكن؛ إذا لم يتعلم الفرنج الصليبيون من المسلمين شيئاً من فضائلهم الحربية، فلماذا لم يتعلم المسلمون بدورهم أسلوب الفرنج في العنف والتطرف؟ أو بتعبير أكثر وضوحاً؛ لماذا لم يجابه المسلمون العنف بالعنف والقتل بالقتل والعدوان بالعدوان؟.

في الواقع، لم يقصر السلف في الرد على العنف بعنف أكبر، ولكنه العنف المقيَّد بميادين القتال، وفي هذا رد على ما يتفوه به بعضهم عن عمد وبسوء نية، وبعضهم بعفوية ـ وربما بسذاجة ـ وهم يقولون بأن ما نزل بالمسلمين من الهزائم؛ مثل خروجهم من الأندلس؛ ومثل استيلاء الروسيا على المشرق الإسلامي ـ ما بين شرق الأورال وهضاب التيبت ـ لم يكن إلا نتيجة (للرحمة) و(الشفقة) التي رفع رايتها العرب المسلمون في حروبهم، وأنه لو اتَّبع العرب المسلمون في ذروة انتصارهم؛ واتَّبع كذلك المسلمون الذين حملوا بعدئذ راية الجهاد في سبيل الله، ما طبقه الفرنج الصليبيون ـ أو أعداء الإسلام بصوة عامة ـ من البطش والإبادة؛ لما نزل بالعالم الإسلامي ما نزل به من المحن والنوائب والكوارث؛ ولبقي الإسلام راسخاً في الأرض التي وطئتها جحافل المسلمين الظافرة. فهل كانت تلك السياسة الاستراتيجية المرتبطة بفريضة (الجهاد في سبيل الله) والموصوفة بالرحمة والشفقة والرأفة هي حقاً سبب الانتكاسات التي نزلت بالمسلمين؟ والأهم من ذلك: هل كانت تلك السياسة الاستراتيجية عامل ضعف، أم كانت عامل قوة في الحروب الإسلامية؟ ألم تكن تلك السياسة الاستراتيجية هي التي انتصرت وحملت الكثير من الشعوب على اعتناق الإسلام؟ وهل استطاع الفرنج الصليبيون، وسواهم من أصحاب مدارس العنف والتطرف، تثبيت أقدامهم فيما فتحوه وفيما استعمروه من أقطار الدنيا؟ ولماذا يتم تجاهل بقية العوامل المتشابكة في صلب الحرب؛ وهي أن الشعوب المعادية للإسلام وأهله قد تحالفت كلها تحالفاً مقدساً أحياناً وتحالفات غير مقدسة في كثير من الأحيان، فكانت لها خاصة التفوق الكبير في القوى المقاتلة مما

مكنها من تحقيق النصر على المسلمين، ولكن إلى حين؟.

لا ريب أن المشككين الذين يطرحون من المقولات ما يتناقض مع الحقائق، إنما يمسكون ببعض الظواهر التي تفتقر إلى الكثير من الدقة وإلى قسط كبير من الوضوح؛ إذ إن القضية في أساسها بالنسبة للجهاد في سبيل الله هي قضية توازن بين (غاية السلم) و(هدف الحرب) على نحو ما سبق عرضه. وقد انفرد مذهب (الجهاد في سبيل الله)، وعلى امتداد أربعة عشر قرناً من الصراع المسلح المستمر، ومن الاقتتال العنيف، في تحقيق هذا التوازن الذي عجزت عن بلوغه كافة المذاهب العسكرية الأخرى؛ رغم ما بذلته من محاولات، ورغم ما وضعته من مبادىء، وما رفعته من شعارات.

وعودة إلى مسألة (هدف الحرب) عند العرب المسلمين. وهو الهدف الذي حددته شريعة الله بقوله تعالى: **﴿يا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونكُمْ من ٱلْكُفارِ وَليجدُوا فِيكُمْ غِلْظَة، وٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ مع ٱلْمُتقينَ﴾**[1] وقال: **﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ، حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا ٱلْوَثَاقَ؛ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً، حَتَّى تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾**[2] وقال أيضاً: **﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَىٰ ٱلْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾**[3].

وتحدد هذه الآيات الثلاث من محكم التنزيل بشكل واضح؛ ودونما لبس أو غموض، (هدف الحرب) وهو قتال الكفار قتالاً لا هوادة فيه ولا رحمة ولا شفقة حتى يفيؤوا إلى أمر الله. غير أن هذه الشواهد وما يماثلها قد حددت أيضاً، وبوضوح غني عن البيان والتفسير؛ موطن اللجوء إلى العنف والشدة والغلظة؛ وهو (ميدان القتال) حيث يحتشد (الذين يلون المسلمين في ميدان اللقاء).

وبذلك تميز بلوغ هدف الحرب عند المسلمين بما عرف اليوم تحت اسم (الحسم في الصراع المسلح)، وهو تدمير قوات العدو تدميراً كاملاً على أرض المعركة. وعندما تزول المقاومة؛ ينفتح مجال العمل أمام المسلمين لبناء المجتمع

---

(١) سورة التوبة ـ الآية ١٢٣.

(٢) سورة محمد ـ الآية ٤.

(٣) سورة الفتح ـ الآية ٢٩.

الإسلامي، وإقامة حدود الله على أرض الله في مناخ من الاستقرار والسلام والأمن؛ ويتحول الإنسان المسلم - المجاهد في سبيل الله - من مقاتل عنيد وصلب - كجلمود الصخر إذا ما جاز التعبير - إلى إنسان رقيق رحيم ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ تجاه إخوانه المسلمين العاملين في بناء المجتمع الإسلامي - من كان قد أسلم من قبل؛ ومن دخل الإسلام بعد أن حرره المسلمون من طغيان قوة الكفر العاتية؛ وجبروتها الزائل - وأدرك أن (القوة لله جميعاً).

وهكذا فهم العرب المسلمون؛ منذ أيام النبوة الأولى؛ ذلك التوازن الرائع بين (هدف الحرب) و(غاية السلم). ولم تكن كلمات الرسول الأعظم ﷺ يوم فتح مكة (اذهبوا فأنتم الطلقاء) إلا النموذج الذي أخذ به العرب المسلمون وطبقوه في كل فتوحاتهم، بداية بفتح دمشق ونهاية بفتح (سمرقند) في المشرق و(طليطلة) في المغرب. ولهذا لم يكن غريباً أن يصدم المسلمون صدمة قوية وعنيفة لما ارتكبه الفرنج الصليبيون على أرض بلاد الشام، وفي كل مكان التقى فيه الفرنج بالمسلمين؛ من المذابح البشعة وأعمال القتل والإبادة. ولكن تلك الصدمة على قسوتها وشدتها لم تحمل المسلمين على تغيير نهجهم أو تبديل سلوكهم، وقد عرفوا بتجربتهم، وعبر ممارساتهم المستمرة، صحة نهجهم وأفضليته على أي نهج آخر. ولقد ضم تاريخ الحروب الصليبية شواهد لا نهاية لها عن تمسك المسلمين بنهجهم؛ وعدم محاولة محاكاة الفرنج في أساليبهم وطرائقهم، ولعل أفضل أمثولة هي موقف صلاح الدين الأيوبي يوم فتح القدس؛ فقد جاءه وفد من الفرنج يعرض شروط تسليم المدينة للمسلمين، فقال صلاح الدين للوفد: «لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة ٤٩٢ هـ من القتل والسبي، وجزاء السيئة بمثلها». ولم يلبث صلاح الدين أن عدل عن موقفه - وهو في موقف القوة والاقتدار - فاستبدل القتل بالفداء. وخرج الصليبيون يجرون أذيال الخيبة (سنة ٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م). وخرج البطريرك الكبير الذي للفرنج، ومعه من أموال البيع (الكنائس) منها الصخرة والأقصى والقمامة (القيامة) مما لا يعلمه إلا الله تعالى؛ وكان له من المال مثل ذلك؛ فلم يعرض له صلاح الدين؛ فقيل له: «لتأخذ ما معه فتقوي به المسلمين». فقال: «لا أغدر به»(1). وكان صلاح قبل ذلك قد أمر بالفداء يوم حطين، وعفى عن الكثير،

---

(1) الكامل في التاريخ - دار الكتاب العربي - (٩/١٨٢ - ١٨٦) أحداث سنة ٥٨٣ هـ.

ولم يـأمر إلا بقتـل فرسـان الطوائف الـدينية (الأسبتـارية والـداوية) نـظراً لنكايتهم بالمسلمين وشدتهم عليهم ودورهم في التحريض باستمـرار على إيذاء المسلمين، علاوة على أمير الكرك رينالـد شاتيـون الذي ذبحـه صلاح الـدين بيده جـزاء وفاقـاً لمحاولة غزوه الديار المقدسة (مكة والمدينة) ولغـدره بقوافـل المسلمين، وإلحاق الأذى بهم.

وقد سار الأتراك المسلمون (العثمانيون) على نهج أسلافهم، خلال مواجهتهم للحملات الصليبية على أرض أوروبا، وحتى في فتح القسطنطينيـة ذاتها (يـوم ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٥٧ هـ/ ٢٩ أيار ـ مايو سنة ١٤٥٣ م). فعندما دخل السلطان محمد الفاتح المدينة، أصدر أمره بمنع كل اعتداء على السكان، فساد الأمن حالاً؛ وسمى المدينة باسم (إسلام بول ـ أي مدينة الإسلام) وأعلن في كافة الجهات أنه لا يمانع بإقامـة شعائـر ديانـة المسيحيين؛ وأعطاهم نصف الكنـائس، وجعل النصف الآخر جوامع للمسلمين؛ فرجع إلى المدينة من كان قد غادرها من المسيحيين، هذا فيما كانت محاكم التفتيش في تلك الفترة، تطارد وتبيد بقايا المسلمين في الأندلس.

هكذا تفوَّق مذهب (الجهاد في سبيل الله) على (المذهب العسكري الصليبي) ولم تكن الانتصارات الكبيرة التي أحرزها المسلمون في الشرق والغرب على امتداد صفحة زمنية امتدت لأكثر من سبعة قرون من عمر الزمن (من القـرن الحادي عشـر حتى الثامن العشر الميلادي ومنتصف القرن التاسع عشر) إلا ثمرة وإلاَّ نتيجة لالتزام المجاهدين في سبيل الله بقواعد الجهاد في سبيـل الله، وبالمبـادىء التي حددتهـا العقيدة الدينية ـ الإسلامية ـ.

كـذلك لم يؤكـد مذهب (الجهـاد في سبيل الله) هـذا التفوق على (المـذهب العسكري الصليبي) فحسب، بل إنه أكد هذا التفوق على جميع المذاهب العسكرية التي عرفتها الدنيا منذ أقدم العصـور، وحتى الأزمنة الحـديثة، والأمثلة كثيـرة وغير محدودة، في تاريخ الأمم والشعوب؛ يمكن اختيار بعض النماذج على سبيل المثال لا الحصر.

العنف في المـذهب الـروسي: اشتـركت روسيـا في حـرب السبـع سنـوات، واجتاحت جيوشها سنة ١٧٥٧ م بلاد بروسيا؛ وكتب فريدريك الكبيـر، في مجلده

الثالث، عن أعمال القوات الروسية ما يلي: «كان الروس يشنقون السكان الأبرياء على الأشجار؛ ويبقرون بطونهم؛ ويمزقون أجسادهم؛ ويستخرجون قلوبهم وأحشاءهم، ويجدعون أنوفهم ويصلمون آذانهم؛ ويكسرون عظام أقدامهم؛ ويشعلون النيران بالقرى والأكواخ؛ ويشكلون حلقات حول البيوت المحترقة؛ ليقذفوا بالنار كل من يحاول الفرار من سكان هذه البيوت. وقد أثارت قسوتهم الوحشية بصورة خاصة النبلاء ورجال الدين؛ فعمل الجنود الروس على شد وثاق هؤلاء؛ وربطوهم بذيول خيولهم؛ وانطلقوا لسحلهم موجة بعد موجة؛ أو تجريدهم من كل ثيابهم؛ ودفعهم إلى ألسنة اللهب المحتدمة، ووصل انتقامهم، المجرد من كل شعور إنساني، إلى درجة ممارسة الأساليب الوحشية ضد الأموات، فكانوا يفتحون القبور ويقذفون بقايا ما يجدونه فيها؛ ليتناثر في كل مكان فوق سطح الأرض»[1].

العنف في المذهب الأمريكي: كانت الحرب الأهلية الأمريكية، أول تجربة للمذهب العسكري الأمريكي، وقد برز اسم (شيرمان) على أنه من أكبر قادة هذه الحرب. وكان شيرمان أول محرض لعودة الحرب إلى صورتها البربرية، وخرق كل صلاته باتفاقيات الحرب التي تم التوقيع عليها في القرن التاسع عشر؛ وقد استولى شيرمان في ١ أيلول ـ سبتمبر ١٨٦٤ م على أطلنطا ـ التي اعتبرت (الباب الجنوبي لدولة الانفصال ـ الجنوبيين) ولكن بعد أن تركها خالية من السكان ـ وكتب ما يلي: «لو زمجر السكان واحتجوا ضد بربريتي وشراستي، فإنني سأرد عليهم: إن الحرب هي الحرب؛ فإذا كانوا يريدون السلم، عليهم أن يوقفوا هم وعائلاتهم الحرب». فكان الإرهاب والعنف والتطرف هو العنصر الأساسي في سياسة شيرمان. وقد أوضح شيرمان سياسته هذه في مقولات كثيرة منها: «لا فائدة من احتلال جورجيا، نظراً لأن التدمير التام للطرق والمنازل والسكان سيقضي على كل مواردها العسكرية؛ وفي وسعي أن أتابع التقدم جاعلاً جورجيا تعوي وتصرخ، إلى أن نستطيع إعادة إسكانها بسكان آخرين»، و«لو اضطررت للهجوم، فإنني أشعر عندئذ بأن من حقي اللجوء إلى أقسى التدابير، وسأحاول جهدي عدم كبح جماح جيشي». و«إننا لا نحارب جيوشاً معادية فحسب، بل إننا نحارب أيضاً شعباً معادياً، وعلينا أن نجعل الشيوخ

---

(١) فريدريك الكبير ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ ص ٧٧.

والشبان؛ والأغنياء والفقراء، يعرفون بقبضة الحرب الحديدية؛ والحقيقة إن كل الجيش يغلي برغبة لا يخمد أوارها للانتقام من كارولينا الجنوبية، وإن فرائصي لترتعد من مصيرها المرتقب»(١).

جاءت بعد ذلك أحداث الحرب العالمية الثانية لتبرز مبدأ (العنف) في المذهب العسكري الأمريكي، ولتضعه فوق كل المبادىء. ولقد كان (القصف الاستراتيجي) لأوروبا هو النموذج الواضح لتطبيق هذا المبدأ الذي انتهى بتفجير النار النووية فوق هيروشيما وناغازاكي، وجاءت الحرب الڤيتنامية، وما ضمته من أسفار رهيبة عن العنف والتطرف، مما استثار ضمائر كثير من الأمريكيين.

وقد يكون بالمستطاع إيجاد الحجج والذرائع للدفاع عن العنف، مثل اتساع نطاق الحرب بسبب أساليب (الحروب الشعبية) وعدم القدرة على التمييز بين المحاربين وغير المحاربين؟ وقد يكون بالمستطاع أيضاً القول، للدفاع عن العنف: إن القادة لا يستطيعون ضبط قواتهم دائماً في ظروف الحرب الحديثة؟ ولكن كيف استطاع قادة العرب المسلمين السيطرة على قواتهم للحد من العنف في الحرب ولماذا قصر غيرهم عن بلوغ هذه الغاية؟. المسألة ببساطة هي أن جيوش المجاهدين في سبيل الله قد ألزمت نفسها عن قناعة وإيمان بحدود الحرب كما فرضها الله في شريعته الحق، بينما اعتمدت المذاهب العسكرية ـ ومنها المذهب العسكري الأمريكي ـ على تفجير عامل الحقد، ضد الأعداء الآخرين؛ وبكلمة أكثر وضوحاً تفجير الحقد لبلوغ هدف سياسي ـ دنيوي ـ فيما كان المذهب العسكري الإسلامي يضع الأسس لبناء عالم ما بعد الحرب، وذلك قبل الشروع في الحرب وأثنائها.

المذهب العسكري الألماني: اجتاح الألمان أقاليم الاتحاد السوڤييتي في فترة كان فيها وضع الجبهة الداخلية السوڤييتية متدهوراً للغاية، فقد كان الاضطهاد الذي مارسته قيادة ستالين أسوأ بكثير من أي اضطهاد قام به أي قيصر من القياصرة الروس. فالأوكرانيون ـ ومعظمهم من التتار المسلمين، والقوازق والبالطيقيون وعدد كبير من القوميات والطوائف الدينية الإسلامية ـ كانوا يعيشون محنة وأهوال السنوات العشر من جماعية الزراعة في عهد ستالين (١٩٢٨ ـ ١٩٣٨) والتي ذُبح خلالها أو نُفي أو

---

(١) إدارة الحرب ـ فوللر. ترجمة أكرم ديري ـ دار اليقظة ـ بيروت ـ ١٩٧١ ص ١٧١ ـ ١٧٢.

مات أكثر من عشرة ملايين نسمة. وهكذا فعندما تقدمت الجحافل الألمانية في روسيا سنة ١٩٤١؛ تنفس أكثر من أربعين مليوناً من الرجال؛ تنفس الصعداء؛ وذلك بعد تحريرهم في أوكرانيا وروسيا البيضاء وفي دول البلطيق فقط، فكل ما كان على هتلر أن يفعله حينئذ هو اختراق الحدود الروسية وممارسة دور المحرر، ووضع حد لظلم جهاز الحكم السوڤييتي. . ولو أنه فعل ذلك لما كسب لقضيته الأقليات والجماعات الإسلامية فقط، بل لأمكن له تجزئة وتفتيت الجيوش السوڤييتية. وكان هذا هو بدقة ما كان يخشاه ستالين ويخافه وقد عبر عن مخاوفه بقوله: «إنه لا يعتقد بأن الألمان سيرتكبون حماقة الحرب بأسلحتهم فقط». ولكن الألمان ارتكبوا هذه الحماقة، رغم اعتماد هتلر بشكل خاص على الشعوب الإسلامية في الاتحاد السوڤييتي؛ حيث جرى التركيز الإعلامي على «العلاقة الروحية الودية بين ألمانيا وشعوب القفقاس». وكان الغزو الألماني لروسيا قد بدأ يوم ٢٢ حزيران ـ يونيو ١٩٤١ م. وعندما استولى الألمان على كييف بعد ثلاثة أشهر، كان عدد الأسرى الروس قد تجاوز المليون ونصف المليون، وانضم إليهم بعد ثلاثة أشهر أخرى مليون جديد. وكان السبب في ارتفاع عدد الأسرى الروس هو أن كثيراً منهم كانوا يرون في الحرب فرصة لتغيير النظام في روسيا؛ وكانوا يرغبون في انتصار ألمانيا. وقد انضم عدد كبير من الضباط السوڤييت إلى القوات الألمانية وعرضوا أن يقاتلوا ضد قوات السلطة السوڤييتية؛ واستقبل الأوكرانيون القوات الألمانية باعتبارها قوات تحرير؛ وكان هتلر في أنظارهم أنه (محرر أوروبا). وأظهر المواطنون في روسيا البيضاء رغبتهم في القتال إلى جانب الألمان. وروى القائد الألماني غودريان في مذكراته: «بأن نساء القرى في مناطق القتال كن يحملن الخبز والزبدة والبيض على أطباق خشبية، ويعملن على تقديمه للجنود الألمان، كما كان الناس في مدينة روستوف ينتظرون في كل الشوارع لاستقبال القوات الألمانية، والترحيب بها وتقديم الخدمات لها»(١).

ولكن سرعان ما تبدل الموقف في غير مصلحة الألمان؛ إذ لم يتمكن جندهم من إقامة علاقات حسنة مع السكان؛ فقد كانت التوجيهات الصادرة إليهم تقضي بإبادة الروس ـ دونما أي تمييز أو تفريق ـ، وهذا ما أكدته وثائق وشواهد كثيرة ومعروفة، ومنها النموذج التالي والذي عثر عليه في ثياب الملازم الألماني غوستاف سيغل،

---

(١) إدارة الحرب ـ فوللر ـ دار اليقظة ـ بيروت ـ ١٩٧١ ص ٤١٦ ـ ٤١٨.

والذي قتل في القفقاس، وجاء فيه: «أيها الجندي! تذكر ونفذ؛ إنه لا يوجد لديك قلب ولا أعصاب؛ ففي الحرب لا حاجة لك بها، اقتل في نفسك الحنان والشفقة؛ واقتل أي روسي؛ ولا تقف إذا كان أمامك عجوز أو امرأة أو فتاة أو صبي. اقتل وبذلك تنقذ نفسك من القتل، وتؤمن مستقبل عائلتك؛ وتكسب لنفسك المجد إلى الأبد». ولهذا لم يكن غريباً أن يعمل رئيس الغستابو - الشرطة السرية - في مدينة ميكويان السوڤييتية (شاخار جري) في كانون الأول - ديسمبر ١٩٤٢، على تنظيم عملية قتل جماعة الأطفال الذين كانوا موجودين في مستشفيات ومصحات مدينة تيبردا، حيث جرى حمل ٥٤ طفلاً، وتم وضعهم في سيارة بعضهم فوق بعض؛ ثم سلط عليهم الغاز، وبعد ساعة قذف بهؤلاء الأطفال - بعد موتهم - في وادي قرب تيبردا!.

وجرى في ٣٠ كانون الأول - ديسمبر ١٩٤٢ أيضاً؛ إعدام وقتل خمسين امرأة وطفل في قرية (نوفوبرد - خلادني) واقتيد بقية السكان إلى قرية (داخو فسكايا) حيث تم، أثناء الطريق، إعدام باقي سكان القرية؛ ثم أحرقت كافة المساكن؛ واقتيدت قطعان الماشية، ونهب كل الأثاث والتجهيزات. وقتل الجنود الألمان في إقليم (كراسنادار) وحده، وشنقوا؛ وخنقوا بالغاز (٦١٥٤٠) روسياً أكثرهم من النساء والشيوخ والأطفال، كما اقتادوا ٣٢ ألف شاب وفتاة للعمل في ألمانيا[1].

ولقد عرفت كل أرجاء أوروبا أعمالاً وحشية مماثلة مما ارتكبه الألمان رداً على أعمال المقاومة، كمثل مذبحة (أورادور)[2] الشهيرة، حيث جرى جمع سكان البلدة في كنيسة كبيرة وأُضرمت فيها النار، فاحترقت الكنيسة ومن كان فيها يوم ١٠ حزيران - يونيو ١٩٤٤.

ولعل قصة العنف في المذهب العسكري الألماني، خاصة؛ تبرز ما يناقضها من التوازن الذي ضمنه (الجهاد في سبيل الله) وما توافر فيه من الفضائل. وكم هو فارق مميز كبير بين وصية أمير المؤمنين أبي بكر رضي الله عنه وقد أطلق جيوش الفتح، وأوصاها بكلمته الشهيرة((لا تقتلوا ولا تغلوا) وبين أوامر هتلر (اقتلوا ودمروا...).

---

(١) ملحمة القفقاس - أندريه غريتشكو - دمشق - ١٩٧١ ص ٣٠١ - ٣٠٣.

(٢) اورادور: (Oradour - Sur Glane).

وكم هو فارق مميز وكبير بين أسلوب تعامل الفاتحين من العرب المسلمين مع سكان الأقاليم التي فتحها الله للعرب المسلمين، وبين أسلوب تعامل الفاتحين الألمان مع سكان الأقاليم التي فتحتها جحافل الغزو الألماني وأخضعتها لحكمها. فهل من غرابة إذا لم يستقر الفتح الألماني لأكثر من بضع سنين؟ وهل من الغرابة إذا ما استقر الإسلام في قلوب الأقاليم التي عرفت الإسلام عن طريق العرب المسلمين، وأصبحت هذه الأقاليم هي دعامة الإسلام وهي المدافعة عنه، وهي التي اضطلعت بالعبء الأكبر في رد حملات الفرنج الصليبيين بما فيها مجابهة هذه الحملات على أرض أوروبا ذاتها بقيادة الأتراك العثمانيين؟.

لقد اعتبرت الفتوحات الإسلامية، من وجهة نظر بعض الباحثين المعاصرين، بأنها (حركة تحرير) لأنها حررت الشعوب المستعبَدَة من ظلم حكامها وطغيانهم وجبروتهم. وقد يكون ذلك صحيحاً من زاوية ضيقة، زاوية الأخذ بالظواهر فقط؛ إذ لو عمل العرب المسلمون على معاملة الشعوب التي فتحوا أقاليمها بالظلم والطغيان؛ لعجزوا عن ضمان الاستقرار في تلك الأقاليم. وإذن فقد كان التحرير - إذا ما جاز التعبير - هو المرحلة الأولى للتعريف بالإسلام.

العنف في المذاهب العسكرية الغربية: إذا ما اشتركت المذاهب العسكرية الغربية بمجموعة من العوامل المشتركة، فإن عامل العنف والإرهاب يشكل القاسم المشترك بينها جميعاً. وقد عرفت أقاليم العالم الإسلامي والوطن الغربي؛ أسفاراً ضخمة من هذا العنف وذاك الإرهاب؛ بخاصة خلال أيام الاستعمار، والأمثلة لا تتسع لها المجلدات ولا الأسفار ولا الملاحم، منها ما عرفته الجزائر على أيدي الفرنسيين عندما غزوها سنة ١٨٣٠ م، وسجله مؤرخ فرنسي في لوحات كثيرة كقوله: «لم تعرف مدينة في العالم ما عرفته الجزائر من الفوضى يوم اجتاحتها القوات الفرنسية؛ فقد اختفت الحلق والسلاسل والعقود والصواري والأخشاب، ونهبت الأموال والأثاث والحلي من المنازل؛ وكثر الأعتداء على الأشخاص والأعراض»[١]. ولم يكن ذلك سوى البداية لسلسلة من الجرائم التي استمرت

---

(١) جهاد شعب الجزائر - دار النفائس - بيروت (المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي) ١٤٠٠ هـ ص ٨٩.

حلقاتها في التزايد والاتصال طوال ١٣٠ عاماً من عمر الزمن. ولم تتعلم فرنسا شيئاً من الإنسانية لا من تجاربها الذاتية؛ ولا من التجربة التي تعرضت لها على أيدي الألمان خلال فترة الاحتلال (١٩٤٠ - ١٩٤٤)، فقامت بتدبير مذبحة سطيف الشهيرة والتي اشتركت فيها القوات البرية والبحرية والجوية الفرنسية وسقط فيها من (أسطيف) وما حولها أكثر من ٤٥ ألف شهيد من المسلمين معظمهم من النساء والأطفال والشيوخ. ولم تكن مذابح الفرنسيين في تونس وفي الشام (سوريا ولبنان) خلال فترة ما سمي بالانتداب أقل شهرة من مذابح الفرنسيين في الجزائر[1].

كذلك كانت مذابح الإنكليز منافسة لمذابح الفرنسيين سواء في مصر (وأشهرها مذبحة دنشواي) أو في السودان، أو في فلسطين، حيث سجل الإنكليز أبشع الجرائم بحق العرب الفلسطينيين طوال فترة انتدابهم (١٩١٩ - ١٩٤٨) مما مهد لأكبر جريمة في القرن العشرين (جريمة إقامة إسرائيل على أرض فلسطين).

وحتى إيطاليا، لم تكن، عندما توافرت لها الفرصة، إلا منافسة لبقية المذاهب العسكرية الغربية في مجال العنف والإرهاب. وتعتبر قصة الاستعمار الإيطالي لليبيا، من بدايتها وحتى نهايتها، قصة الإرهاب والعنف، حيث تعرض العرب المسلمون في ليبيا (برقة وطرابلس) إلى مذابح وفظائع وانتهاك للمحرمات وسلب ونهب؛ مما لا يمكن نسيانه مهما تقادم الزمن؛ ومهما تباعدت الأيام.

ولهذا لم يكن الإرهاب والعنف في المذهب العسكري الإسرائيلي إلا تطبيقاً متكرراً لما تضمنته المذاهب العسكرية الغربية (الاستعمارية). فإسرائيل التي اصطنعها الغرب الأوروبي وأقام ركائزها على أرض فلسطين؛ ما هي إلا إفراز صليبي تشكل اليهودية رأس الحربة فيه. ولقد وضع الغرب لإسرائيل مذهبها العسكري؛ فكان لزاماً أن يكون هذا المذهب مطابقاً للمذاهب العسكرية الغربية (الأوروبية) في كثير من مبادئه وأسسه ومرتكزاته ومن بينها العنف والإرهاب. ولعل ذلك هو الذي يحمل على الاعتقاد، حتى لدى الباحثين الغربيين المنحازين لإسرائيل بصورة طبيعية، وبتأثير رواسب حقدهم الصليبي، بأن مصير إسرائيل لن يكون أفضل من

(١) الثورة الجزائرية - دار الشورى - بيروت ١٩٨٢ م - ١٤٠٢ هـ، ص ٧٠ (مذبحة سطيف) ٨ أيار - مايو ١٩٤٥.

مصيـر الاستعمار الغـربي ذاته؛ وأن العنف لا بـد من أن يصطدم في النهـاية بعنف مضاد، معادل في القوة للعنف الإسرائيلي ومضاد له في الاتجاه.

إن للقوة غرورها؛ وإن للنصر نشوته؛ ولقد انتصر العرب المسلمون على ذاتهم بكبح جماح نفوسهم عن الهوى، فكان انتصارهم على الذات هو سبيلهم للنصر على أعدائهم في ميادين الحروب، فلم يغتروا بقوتهم، ولم تشملهم نشوة النصر، فكيف يعرف الغرور لنفوسهم سبيلاً وهم الذين يؤمنون بأن النصر من عند الله؛ وأن القوة لله جميعاً؟..

لقد انطلق العرب المسلمون من قاعدة (الإنسانية الرحبة). فالإسلام هو رحمة للعالمين، ولهذا لم يكن للحقد ولا للكراهية دور في توجيه فعاليات الحرب؛ وفي تحديد مساراتها. بينما انطلقت المذاهب العسكرية الأخرىٰ من قاعدة (المصلحـة الـدنيويـة) ومن خلال (المنـافسة لـلاستعمار والهيمنـة والسيطرة)؛ فكـان لا بد من الاعتمـاد على استثارة المشـاعر غيـر النبيلة ـ كـالحقـد والكـراهيـة ـ. ولا ريب أن المشاعر المنطلقة من الغرائز البدائية قد تكون أكثـر استثارة وأشـد تحريضـاً لنفوس المحاربين؛ غير أنها، وفي الوقت ذاته، أكثر تدميراً للعلاقات الإنسانية؛ بما تتركـه من جراح عميقة، وبما تثيره من ردود فعل غاضبة، برهنت في كل التجارب التاريخية أنه لا بد لها في النهاية من أن تجد طريقها للانتقام والثأر.

وهكـذا دمـر المغـول ـ التتـار ـ ذاتهم بمـا تـركـوه من مشـاعـر الغضب لـدى المسلمين؛ وهكـذا أيضاً دمـر الصليبيون أنفسهم بمـا أثاروه من الحقـد المضـاد؛ وكذلك الأمر بالنسبة للاستعمار الغربي الذي انزاح عن الصفحة الجغرافية للعالم؛ بعد أن ترك جراحات لا تنسى وذكريات لا تمحى، ولا تزيلها الأيام، ولا تنتقص من مرارتها الدهور.

لقد شغلت مسألـة (العنف في الحرب) تفكيـر رجال السيـاسة والقـادة وعلماء الاجتماع والنفس والقانون والفلسفة، في الأزمنـة القديمـة والحديثـة على السواء، وتعاظم هذا الاهتمام منذ ظهور أسلحة التدمير الشامل (الغازات أو الحرب الكيميائية والحرب البكتربولوجية والحرب النووية)، وصـدرت تشريعـات دولية (مثـل قوانين جنيف لمعاملة الأسرى والمدنيين). ولكن من المعروف أن كل الجهود بقيت معلقة

بالقرار الذي يتخذه قـادة الدول المحـاربة من رجـال الساسـة والحرب. وتلك هي الممارسات الإسرائيلية نموذجاً للتحدي ضد الشرائع والقوانين الدولية؛ فهل يمكن للقوانين الوضعية أن تصل لنتائج مشابهة لتلك التي جاء بها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً من عمر الزمن، ونفذها المجاهدون في سبيل الله في كافة حروبهم القديمة منها والحديثة؟ وهل يمكن للمذاهب العسكـرية العـالمية أن تحقق التـوازن بين (هدف الحرب) و(غاية السلم) على نحو ما حققته جيوش المجاهدين في سبيل الله؟

٢

المسألة القومية

تضمن أدب الحرب ـ مذكرات القادة ـ في الحرب العالمية الثانية، إطراء فخماً، ومدحاً جزيلاً لأولئك القادة الكبار من أمثار أيزنهاور ومونتغومري؛ الذين استطاعوا أن يضموا في جيوشهم مقاتلين من جميع الجنسيات؛ ومن كل الألوان والعروق؛ ومن شتى الأديان والمذاهب؛ وأن يحققوا الانسجام بين هؤلاء المقاتلين في إطار (وحدة الهدف). وكذلك الأمر بالنسبة للقادة السوڤييت الذين نجحوا في زج المقاتلين من جميع القوميات التي يضمها الاتحاد السوڤييتي؛ وقد اعتبروا أن ذلك إنجازاً من الإنجازات الرائعة في الأزمنة الحديثة. وتجاهل هؤلاء وأولئك تلك التجارب التاريخية التي امتدت على صفحة الزمن طوال أربعة عشر قرناً، وشملت الصفحة الجغرافية لمعظم أرجاء العالم القديم؛ حيث حشد الإسلام في جيوشه أمماً لا تحصى وجنسيات لا يطالها حصر، وأقواماً لا تعد، وصهرها جميعاً في بوتقة واحدة؛ وهي (بوتقة الهدف) الذي حددته فريضة (الجهاد في سبيل الله). ولئن كان صهر المحاربين في بوتقة (وحدة الهدف) قد أثارت الإعجاب بكفاءة القادة في الأزمنة الحديثة؛ فلطالما وقف الشعراء والكتاب والمؤرخين في القديم؛ وهم في حالة من الذهول، أمام هذه الظاهرة العظيمة التي أبرزتها فريضة الجهاد في سبيل الله؛ والتي أخذت تطبيقاتها العملية وممارساتها التطبيقية عبر تجارب قادة جيوش المجاهدين في سبيل الله[١].

---

(١) من ذلك ما جاء في قصيدة الشاعر الإنكليزي روبرت سوزي ـ وانظر تاريخ العرب في أسبانيا ـ عبد الله عنان ـ طبعة أولى ـ ١٩٢٤ ص ٣٥ ومنها: =

لقد شرَّف الله عز وجل أمة العرب بالإسلام؛ وأعزَّها به، فكان من حقها أن تزهو على الدنيا وأن تفخر بما أسبغه الله عليها من الشرف. غير أن أمة العرب أدركت ـ منذ أيام النبوة الأولى ـ أن حمل رسالة الإسلام وتعريف أهل الدنيا بها؛ إنما هو تكليف بالدرجة الأولى، ولا تفاخر إلا بالتقوى؛ ولا شرف إلا بالعمل الصالح. وهكذا وبروح من التجرد والإخلاص للتكليف؛ وبتواضع من يحمل أمانة تثقل كاهله إلى أن يؤديها؛ سارت جموع المجاهدين في سبيل الله لتسليم الأمانة وأداء الرسالة، إيمانهم يعمر قلوبهم؛ وسيوفهم بأيمانهم؛ وكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ دليلهم وهاديهم، ففتحوا ما فتحه الله لهم من رحاب الدنيا؛ وعرَّفوا أهل الدنيا بدين الله الحق؛ ولم يكن الدين دين العرب ـ كما قال شاعر شعوبي في يوم من الأيام ـ وإنما كان دين الله الحق، حمل العرب شرف أمانة تعريف أهل الدنيا بما جاء به من الخير والفضائل، وأقبل أهل الدنيا من كل الشعوب؛ وحملوا مع العرب شرف نقل الأمانة وحمل الرسالة، فكان (هدف الحرب) الذي حدده الإسلام؛ هو الهدف المشترك لكل الأقوام التي اعتنقت الإسلام ديناً.

ولقد حرص الخلفاء الراشدون؛ ومن تبعهم من خلفاء بني أمية؛ على إسناد قيادة جيوش الفتح إلى القادة العرب؛ ثقة منهم أن العرب هم الأكثر قدرة على فهم تعاليم الإسلام وتوجيهاته وأوامره ونواهيه، وهم الأكثر كفاءة بالتالي على إقامة حدود الله على أرض الله.

فالقضية لم تكن قضية تعصب قومي أعمى ـ كما يُزعم أحياناً ـ وإنما كانت قضية

= جمع لا يحصى من عرب وبربر وشآم وروم، وفرس وقبط وتتار عصبة واحدة،
يفيض شبابها إيماناً فتياً وطيد الدعائم،
وتستعر حماسة برائع ماضيها،
ولم يك الزعماء أقل ثقة بالنصر وقد أخلصوا في محالفتهم. يتيهون كثيراً بتلك القوة الجارفة،
التي وثقوا من أنها حيث اندفعت تستمر ظافرة؛ دون منازع إلى الأمام،
حتى يصبح الغرب مقهوراً للشرق، ويطأطىء الرأس إجلالاً لمحمد،
وينهض الحجاج من أقاصي المتجمد؛ ليطؤوا بأقدام التوبة والإخلاص،
الرمال المحرقة فوق صحارى العرب؛ وأرض مكة الصخرية.

حرص على تحقيق الهدف، وهو بناء المجتمع الإسلامي على الأرض التي يفتحها الله للمسلمين، وبالتالي لم تكن القضية القومية، بالنسبة للعرب المسلمين، هي قضية عصبية قبلية جاهلية؛ ولا قضية تعصب لغوي إلا بقدر ما توفره هذه اللغة من قدرة لفهم واستيعاب ما جاء في كتاب الله؛ وما تضمنته أحاديث رسول الله ﷺ. كذلك لم تكن قضية تعصب لأرض، فالأرض هي أرض الله يرثها عباده الصالحون. فلا غرابة إن تساوى تحت راية الجهاد في سبيل الله كل من حمل السلاح دفاعاً عن دين الله؛ ونصرة للإسلام وأهله.

لقد كانت جيوش الأمبراطوريات في العالم القديم - كالروم والفرس - هي جيوش عنصرية إذا ما جاز استخدام اصطلاح العنصرية نظراً لعدم وضوح مفهوم القومية والعنصرية في تلك العهود القديمة. فكان الفرس يعتمدون، بالدرجة الأولى، على العنصر الفارسي؛ وكان الروم يعتمدون على العنصر الرومي - الغربي - وهذا لا يعني أن تلك الجيوش كانت لا تستعين بأبناء الشعوب المختلفة التي تحكمها لتلبية متطلبات جيوشها وتأمين احتياجاتها. كما جرت محاولات لدمج الشعوب المقهورة بالشعب المنتصر - الحاكم - كمثل محاولة الإسكندر المقدوني الكبير؛ عندما فتح بلاد فارس ووصل إلى الهند، لمزج الشعوب وتحقيق نوع من التجانس العرقي بين أبناء الأمبراطورية الواحدة. ولكن من المعروف أن مثل هذه المحاولات كانت محدودة، وذات ظروف زمنية ومكانية محددة، بحيث إنها انهارت بزوال أصحابها، وبقي هناك ثمة تمايز واضح بين الشعوب التي ضمتها أمبراطورية واحدة. ولما جاء العرب المسلمون؛ أفسحوا في جيوشهم المجال الرحب أمام أبناء الشعوب المختلفة لحمل شرف راية الجهاد في سبيل الله، فأقبل أبناء هذه الشعوب ليعيشوا مع العرب المسلمين جنباً إلى جنب؛ وكان العيش تحت السلاح؛ ومعاناة ظروف الحرب ومشاقها؛ هي البوتقة التي صهرت الأفكار والمشاعر؛ ووحَّدت بين العروق والأجناس؛ وأزالت الفوارق؛ وكان من طبيعة الأمور أن ينهل أبناء الشعوب المختلفة من المنهل الذي أمد العرب بالقدرة المتفوقة - المعنوية - فكان لا بدَّ من تعلم اللغة العربية. وبذلك تكامل البناء؛ إذ بينما كانت سيوف العرب المسلمين تفتح الأرض، كان كتاب الله يفتح قلوب عباد الله على الأرض. وتعارفت الشعوب وتآخت - في الله - وتصاهرت، ولكن هذه المصاهرة لم تكن هي الهدف، وإنما كانت مجرد وسيلة

للتعارف والتعايش. وكان هذا الدمج بين الشعوب الإسلامية؛ أقوى من كل النزعات الشعوبية الجاهلية والتي كان لا بد لها من أن تطل برأسها بين فترة وأخرى؛ على نحو ما كان منها بين العرب ذاتهم في بداية عهدهم في اعتناق الإسلام. إذ أدركت الشعوب بسرعة ما عرفه العرب المسلمون من قبل؛ مدى الفارق الكبير بين حمل السلاح في غير ما هدف؛ أو لتحقيق هدف غير نبيل لا يتناسب مع ما تتطلبه الحرب من الجهود والتضحيات، وبين حمل السلاح لتحقيق هدف نبيل يحمل الخير للبشرية جمعاء.

وهكذا لم يمضِ أكثر من جيل واحد أو جيلين على الفتح؛ حتى أقبلت شعوب بكاملها على حمل راية الجهاد في سبيل الله؛ وقد أخذت عن العرب المسلمين تعاليم القرآن والسنة؛ وأتقنت النطق بلسان العرب، واقتبست أسس الجهاد في سبيل الله وقواعده وتعاليمه. ولم ينظر خلفاء المسلمين ولا قادتهم ولا شعوبهم إلى هذا التطور تلك النظرة الجاهلية المحدودة والضيقة؛ بل إنهم احتضنوه واستوعبوه ورحبوا به. وكيف لهم ألَّا يرحبوا به طالما أنه قد جاء مطابقاً لما خرجوا من جزيرتهم لتحقيقه؟ ثم كيف لهم ألَّا يرحبوا بحدوثه وقد أمدَّ الدولة العربية الإسلامية بقدرة قتالية جديدة تساعدها على مجابهة التحديات المتعاظمة يوماً بعد يوم؛ وعلى كافة الجبهات؟ كذلك الأمر بالنسبة لبقية الشعوب التي عرفت الإسلام واعتنقته ديناً؛ فهي لم تنظر إلى منافسة العرب المسلمين في ملكهم وسلطانهم، وإنما نظرت إليهم نظرة المتعلم إلى أستاذه ومعلمه، واعترفت لهم بفضل الريادة والهداية، وليس من المهم إذا ظهرت منهم نزعات منحرفة، فلطالما عانى العرب ذاتهم من الانحرافات التي أخذت أحياناً شكل (الردة).

لقد عرفت كافة الشعوب ما عرفه العرب المسلمون عبر تجاربهم المتتالية، فضل فريضة الجهاد في سبيل الله في صهر التناقضات الاجتماعية كافة؛ وفي تجاوز الفوارق العرقية جميعاً؛ وفي توحيد الجهود والقوى جميعها في إطار وحدة الهدف؛ مع تحديد أساليب العمل لمجابهة المواقف المختلفة التي تبرز في ميادين القتال بصورة طبيعية؛ أو بصورة مباغتة وغير متوقعة. وكانت تلك الشعوب تجهل من قبل قضية العمل في جيوش ضخمة؛ إذ كانت قوات تلك الشعوب ممزقة بين التبعيات والولاءات المختلفة للزعماء المتعاونين بعضهم مع بعض أحياناً؛ والمتناحرين

بعضهم ضد بعض في أحيان أخرى. فلما جاءهم الإسلام، ووحَّد لهم مفاهيم حياتهم في سلمهم وحربهم؛ أمكن لهم حشد جميع القوى في جبهة واحدة وضد عدو واحد ـ هو العدو غير المسلم ـ وتبع ذلك بصورة طبيعية ظهور كفاءات قيادية لم يكن هناك من سبيل لظهورها عندما كانت القوات محدودة الحجم؛ ومحدودة القدرة على العمل.

وهكذا؛ وكما أبرزت مسيرة الفتوح وأعمالها القتالية ما توافر لقادة العرب المسلمين من الكفاءات العالية، فكذلك أبرزت المسيرة المتصلة لقافلة الجهاد في سبيل الله ما توافر من كفاءات قيادية رائعة في وسط الشعوب التي أخذت عن العرب المسلمين تعاليم وفرائض الإسلام والجهاد؛ حيث استطاعت هذه الكفاءات القيادية أن تفرض ذاتها بقوة على جبهات القتال كافة، وفي كل الظروف الجغرافية والمناخية؛ وعلى سبيل المثال؛ فإن نور الدين زنكي؛ وصلاح الدين الأيوبي والمظفر قطز والظاهر بيبرس والأشرف خليل ويوسف بن تاشفين والسلطان بايزيد ومحمد الفاتح وخير الدين بربروس وسواهم ممن يضيق المجال عن ذكرهم، قد برهنوا على ما تميزوا به من الكفاءات القيادية المثيرة؛ والتي لا ينافسها إلا تلك التي أظهرتها أعمال قادة العرب المسلمين أيام الفتح، وإن ظهور هؤلاء القادة المسلمين ـ من غير العرب ـ لا يعني بداهة غياب الدور العربي ـ الإسلامي؛ إذ استمر العرب المسلمون في ممارسة دورهم في التوجيه والمراقبة وتصحيح الانحرافات والمواقف الخاطئة عند ظهورها، كما أن ظهور هؤلاء القادة المسلمين ـ من غير العرب ـ لا يعني بداهة انتصار الشعوبية على العرب المسلمين؛ فقد بقيت الجيوش الإسلامية هي البوتقة التي تصهر في تنظيمها ومن خلال أعمالها القتالية كل الأقوام والأجناس؛ وتدمج بصورة عملية بين كل الشعوب.

وإذاً؛ فقد كان من دواعي فخر هؤلاء القادة ـ ولو أنهم لم يكونوا يتيهون اعتزازاً بهذا الفخر الذي يعود فضله للإسلام ديناً وللجهاد في سبيل الله ممارسة عملية وتطبيقاً ـ أنهم تمكنوا من قيادة أقوام شتى متنافرة في أشكالها، متباينة في عروقها وأجناسها، مختلفة في أصول مواطنها؛ وقد وضعت كلها عصبية الجاهلية وراء ظهرها؛ ونبذت عوامل الفرقة والتمزق من بينها، وبقي الإسلام هو الحكم الفيصل

بين الجميع؛ وبقيت لغة القرآن هي اللسان المشترك للجميع؛ وبقي الإيمان الذي وقر في القلوب هو رباط الأخوة في الله التي ربطت الجميع؛ وشدت بعضهم إلى بعض فكانوا البنيان المرصوص. لقد انفتحت أقطار الأرض على الإسلام؛ وكانت فريضة الجهاد في سبيل الله قادرة باستمرار على مجابهة المستجدات وعلى استيعاب التطورات؛ ذلك أن أرض الإسلام تشكِّل مسرحاً واحداً للأعمال القتالية.

لقد جابه العرب المسلمون، منذ أيام الفتح الأولى، مسألة اختلاف المناخ عما عهدوه وألفوه وتكيفوا معه؛ كما جابهوا تباين الطبيعة الجغرافية من جبال ووهاد وسهول وغابات، فكان على الأقوام الأخرى أن تجابه بدورها ما جابهه العرب المسلمون، وهي تنطلق من أقاليمها الضيقة إلى رحاب الدنيا الفسيحة، وأن تتعرض للمعاناة ذاتها؛ وعلى سبيل المثال؛ فقد كان جوُّ آسيا الوسطى الصحراوي مشابهاً لأرض الجزيرة العربية ومناخها؛ كذلك كان جوُّ الصحراء الكبرى في وسط أفريقية مماثلاً في تكوينه وطبيعته لتكوين الجزيرة العربية وطبيعتها، فكان على شعوب هذه الأقاليم من ترك وبربر؛ من آسيويين وأفارقة؛ أن يتجاوزوا حدود المناطق التي عرفوها وتكيفوا معها؛ للعمل في مناطق تمتد من سيبيريا وبلاد القفقاس ـ القوزاق أو القوقاز ـ شمالاً، حتى المحيط الهندي جنوباً؛ ومن جنوب البحر الأبيض المتوسط إلى شماله؛ ومن الصحراء الكبرى حتى شمال الأندلس؛ مع ما في ذلك من تباين كبير في الطبيعة الجغرافية، ومع ما في ذلك من اختلاف كبير في الأنواء والمناخ.

لقد كانت مجابهة اتساع مسرح العمليات جغرافياً؛ وحل المشكلات بالاعتماد على القدرة الحركية العالية للقوات، وضرورة العمل في مختلف المناطق والأجواء، من المسائل الصعبة التي أمكن إيجاد الحلول لها من خلال تطوير الأساليب العملية لتطبيق فريضة الجهاد في سبيل الله. ولكن المسألة الأكثر صعوبة هي مجابهة المشكلات الناجمة عن اختلاف الشعوب، التي كانت تستوطن في الأقاليم التي فتحها الله للمسلمين؛ على ما بين هذه الشعوب من تباين في العادت والتقاليد؛ وعلى ما كان بينها من تنافر في المعتقدات والأفكار.

ولقد استطاع قادة العرب المسلمين تطوير مفاهيمهم الغسكرية باستمرار ـ ضمن حدود قواعد الجهاد في سبيل الله وليس خارجاً أو بعيداً عنها ـ من أجل حل

المشكلات التي واجهتهم؛ سواء في ميادين القتال، أو في بناء المجتمعات الإسلامية، فكان (الجهاد في سبيل الله) سباقاً للمذاهب العسكرية الأخرى كافة والتي عرفها العالم من بعد، من حيث إلقاء مسؤوليات بناء مجتمع ما بعد الحرب على كاهل قادة الحرب ذاتهم؛ وذلك على نحو يماثل تماماً ما قام به القادة العسكريون في الحربين العالميتين الأولى والثانية. هذا من ناحية؛ ومن ناحية ثانية؛ فقد كان على قادة العرب المسلمين إغناء مضمون (الجهاد في سبيل الله) بما يضيفونه من خبراتهم القتالية، وتجاربهم الاجتماعية، ومن خلال ما يتعرفون عليه بدراستهم لطبيعة الشعوب والأقاليم الأخرى. ولعل في حديث (موسى بن نصير) إلى أمير المؤمنين (سليمان بن عبد الملك)(1) ما يؤكد دور القادة في تطوير مفاهيم فريضة الجهاد في سبيل الله وإغنائها بالخبرات العملية، وليس هذا الحديث على كل حال إلا نموذجاً لشواهد كثيرة ومتنوعة مما حفظه التراث الخالد للأمة العربية الإسلامية.

وقد جاء التابعون من أبناء الشعوب الإسلامية ـ غير العربية ـ فساروا على نهج السلف الصالح؛ فلا غرابة إن كان القادة من أبناء هذه الشعوب قد تشابهوا مع السلف في منهجهم القيادي وفي مفاهيمهم لإدارة الحرب، وفي أساليبهم في التعامل مع أبناء الشعوب التي تولوا قيادة رجالها في السلم والحرب، وما من حاجة للقول ـ والشواهد التاريخية أكثر من أن تحصر ـ بأن معطيات فريضة الجهاد في سبيل الله هي التي أفسحت المجال الرحب أمام أبناء الشعوب المختلفة للعمل المشترك؛ وهي

---

(1) جلس موسى بن نصير يوماً إلى سليمان بن عبد الملك ـ بعد عودته إلى دمشق واستقراره فيها ـ فسأل سليمان: أي الأمم كانوا أشد قتالاً؟ وأجاب موسى: إنهم يا أمير المؤمنين أكثر من أن أصفهم. فقال له سليمان: أخبرني عن الروم! فقال موسى: «أسود في حصونهم؛ عقبان على خيولهم؛ نساء في مواكبهم؛ إن رأوا فرصة افترصوها، وإن خافوا غلبة فأوعال ترقل ـ تسرع ـ في أجبال. لا يرون عاراً في هزيمة تكون لهم منجاة» قال سليمان: أخبرني عن البربر! وأجاب موسى: «هم يا أمير المؤمنين أشبه العجم بالعرب؛ لقاء ونجدة وصبراً وفروسية وسماحة بادية؛ غير أنهم يا أمير المؤمنين غدر ـ قبل إسلامهم» قال: فأخبرني عن الأسبان، وأجاب موسى: «ملوك مترفون، وفرسان لا يجبنون»، فقال سليمان: فأخبرني عن الفرنج. وأجاب موسى: «هناك يا أمير المؤمنين العدد والعدة؛ والجلد والشدة؛ وبين ذلك أمم كثيرة؛ ومنهم العزيز ومنهم الذليل؛ وكلاً قد لقيت بشكله» (موسى بن نصير ـ مشاهير قادة الإسلام ـ دار النفائس ـ بيروت ـ ص ٥٩ ـ ٦٠).

التي أزالت كل العوائق التي تعود لفوارق اللون أو الجنس أو المذهب، فنشأ بذلك مجتمع عالمي ـ لا شعوبي ولا قومي ـ يحكمه دين الله، وتسوده العدالة والأُخوة في الله والفضائل؛ عندما لم تكن هذه المسميات معروفة في قواميس الأمم الأخرى، ولا في شرائعها، ولا في دساتيرها، وخرج بذلك وبصورة طبيعية تماماً ما يمكن تسميته بالمذهب العسكري الإسلامي، من طابعه المحدود؛ إلى نطاقه العالمي الإنساني.

لقد كان فضل فرض (الجهاد في سبيل الله) على أمة العرب كبيراً؛ إذ إنه صقل فضائلهم الحربية، ووجَّهها نحو الاتجاه الصحيح. ولم يكن فضل هذه الفريضة على الشعوب الأخرى التي اعتنقت الإسلام بأقل من فضله على العرب؛ فقد كان لكل شعب فضائله الحربية المميزة له؛ وكان لكل أمة من الأمم تقاليدها ومفاهيمها وحتى أساليبها في حماية نفسها؛ والدفاع عن وجودها. ولكن الاقتتال في غير ما هدف كان كثيراً ما يستنزف قدرات تلك الشعوب، بل وحتى إنه كان يصل بها أحياناً إلى مرحلة الدمار الكامل، فجاءت فريضة (الجهاد في سبيل الله)، وأزالت تلك المفاهيم البدائية للدفاع عن الوجود، وأصبح كل شعب مسلم وهو يشكل قسماً متلاحماً بمجموع الشعوب الإسلامية، فكان الدفاع عن كل قسم هو مسؤولية الجميع، وهو الفريضة التي تلزم المسلمين، مهما تباعدت أقطارهم ومهما تناءت أمصارهم، الإسراع لنصرة إخوانهم في الله.

وإذا كانت هذه الشعوب قد حملت راية الجهاد في سبيل الله؛ ودافعت عن الإسلام وأهله؛ فكذلك عملت بقية الشعوب الإسلامية على حماية كل قوم من أقوامها، وبذلك تحقق الأمن للجميع؛ وفقاً لمفاهيم الأمن الحديثة. فهل من الغريب بعد ذلك؛ إن حافظت أغلبية الشعوب الإسلامية ـ حتى اليوم ـ على أصالتها وعلى وجودها؛ وعلى انتمائها القومي؛ وذلك على نحو ما كانت عليه قبل قرون عديدة؟ وهل من الغريب أن تتمسك تلك الشعوب بالإسلام ديناً، وبالجهاد في سبيل الله مذهباً؛ وهو الذي حفظ لها وجودها رغم كل الكوارث والمحن والنكبات التي تعرضت لها الشعوب الإسلامية؟

لقد بقيت الشعوب الإسلامية وهي محتفظة بتكوينها القومي، وبتنظيمها الاجتماعي وبالكثير من عاداتها وتقاليدها التي لا تتعارض مع العقيدة الإسلامية،

فكانت باستمرار مجتمعات حرب وسلم؛ تستعد للحرب وتعدُّ لها وتخوضها؛ وهي تبني في الوقت ذاته مجتمعات السلم للأجيال القادمة. فكانت في تنظيمها وإدارتها؛ وفي مفاهيمها قبل كل شيء؛ نماذج متقدمة لتنظيم المجتمعات الإنسانية؛ وهو ما يشابه أحدث ما وصلت إليه المجتمعات المعاصرة. ولكن رغم هذا النزوع القومي الذي يعبر عن التمسك بالأصالة الذاتية؛ فإنها لم تكن تعتبر نفسها إلا جزءاً متلاحماً مع الجسد الإسلامي الكبير. ولم يعمل المذهب العسكري الإسلامي الذي حمل أعباء الفتوح؛ بل لم يحاول أبداً؛ تدمير النوازع القومية أو القضاء عليها؛ بل إنه عمل على حمايتها وصيانتها ورعايتها؛ حتى تبقى قوة ثابتة وراسخة في مجموعة القوى الإسلامية، فكان من طبيعة الأمور إذاً أن تنتقل قوات العرب المسلمين عبر الأبعاد الجغرافية الشاسعة؛ لنصرة أمير مسلم؛ أو للدفاع عن أقوام من المسلمين؛ تعرضوا لعدوان خارجي - على نحو ما فعله العرب المسلمون في فتوح الشرق والغرب - كذلك كان من الطبيعي أيضاً أن تنتقل تلك الأقوام والشعوب، وتسير المسافات ذاتها وربما أبعد منها، لنصرة العرب المسلمين، عندما يتعرضون لخطر أو للغزو الخارجي؛ وهذا ما يفسر ببساطة تحرك المرابطين ومن بعدهم الموحدين من أفريقية؛ لنصرة إخوانهم مسلمي الأندلس عندما واجهوا ثقل الحملات الصليبية المنحدرة عليهم من الشمال (أوروبا). وهذا ما يفسر أيضاً قدوم الترك والخوارزمية والسلاجقة والأكراد وسواهم من أقاصي الشرق لنصرة إخوانهم في بلاد الشام، وذلك عندما تعرضت ديار الإسلام لغزو الفرنج الصليبيين. ولم تكن حركة الأتراك العثمانيين، وإقامتهم لدولتهم التي قدِّر لها أن تعيش سبعة قرون تقريباً من عمر الزمن؛ إلَّا استجابة للتحديات التي فرضها الفرنج على المسلمين.

وهكذا ومن خلال فريضة (الجهاد في سبيل الله) استطاع المسلمون تكوين قدرة قتالية عالمية؛ تجاوزت مفاهيم الأمن القومي المحدودة بحدود جغرافية ضيقة؛ والمميزة بقيم اجتماعية أو فوارق عنصرية.

لقد حفظ تاريخ الشعوب الإسلامية؛ فيما حفظه؛ ذلك التشابه والتماثل في سلوك المجاهدين في سبيل الله؛ بشجاعتهم وإقدامهم؛ بتجردهم وإخلاصهم؛ بتعاونهم وتلاحمهم؛ بالإيثار الذي كان يزين فعالهم، فكان كلٌّ يفدي الآخرين ويسابقهم لأداء الفريضة مع الاستئثار بمواطن الخطر؛ بقدرتهم على احتمال كره

القتال، وصلابتهم في مجابهة الظروف الصعبة التي فرضتها ميادين القتال؛ وكانت هذه الفضائل الحربية هي القاعدة المشتركة، وهي الأرض الصلبة التي استند إليها المجاهدون في سبيل الله في أعمالهم وممارساتهم وسلوكهم؛ مما يؤكد دور فريضة الجهاد في سبيل الله في تكوين المقاتلين؛ وتحقيق الانسجام والتشابه والتماثل في هذا التكوين، بعيداً عن عصبية العشيرة والقبيلة؛ وبعيداً عن جاهلية القومية ونـزعة العرقية. ولم تكن هناك حاجة في ظل هذه (الفضائل الحربيـة) للبحث عن وسائـل دعم (روح الجماعة) و(أخوة الوحدة أو التشكيل القتـالي) و(عصبية رفـاق السلاح) وسواها من القيم الوضعية ذات التأثير المحدود. ويمكن على ضوء ذلك فهم وإدراك السبب فيما تعرضت له هذه الفضائل الحربية من التجريح والتشكيك والهجوم؛ من جانب أعداء العرب المسلمين خاصة، وأعداء المسلمين بصورة عامة، عبر الهجوم الشـامل بجـانبيه المـادي والمعنوي على كـل مقومـات الأمـة العـربيـة والشعـوب الإسلامية؛ وهو الهجوم الذي تركز بصورة خاصة على المعطيات القومية، والفوارق العرقية، والاختلافات اللغوية؛ والتباين في الأشكال والألـوان والطبـائع والعـادات والتقاليد.

يصل البحث بذلك إلى (البدعة الضلالة) المتمثلة بمفاهيم القومية الحـديثة، والمستـوردة مع كـل الوافـدت التي باتت معـروفة بـاسم (الغزو الفكـري) للعالم الإسلامي وللوطن العربي. ولقد برهنت التجربة التاريخية على أنه ما من سلاح إلا وله حدان؛ وأنه ما من فكرة وضعية إلا ولها جانباها السلبي والإيجابي. ولعل من أبرز الأمثلة الشهيرة والمعروفة قصة الثورة الفرنسية التي قامت لتحقيق مبادىء: الحريـة والأخوة والمساواة؛ وإذا بعجلة الثـورة تسحق هذه المبـادىء وتسحق معها الشعب الفرنسي أيضاً؛ فقد سارت الثورة الفرنسية على أشلاء أبنائها وجثثهم وهم الذين ما قامت الثورة إلا من أجلهم. ومثلها الثورة الاشتراكية (الشيوعية) التي ما قامت إلا من أجل نصرة العمال والفلاحين (وطبقة البروليتاريا)، فإذا بعجلة الثورة تسحق الشعب الروسي بكامله ومعه كل الشعوب التي جرفها تيار الاشتراكية، ولم تكشف عن خيبة أملها إلا بعد سبعين عاماً من تفجر الثورة الاشتراكية، عندما وجدت نفسها وقد فقدت كل شيء يعتز به الإنسان وهو إنسانيته. والأمر مماثل أيضاً بالنسبة للبدعة الضلالة ـ بدعة القومية ـ التي تم تصديرها للعالم الإسلامي في إطار خاص ومحدد؛ من أجل

تحقيق هدف خاص ومحدد أيضاً.

ومن المعروف أن القرن التاسع عشر قد عرف ـ في جملة ما نسب إليه ـ بأنه عصر تفتح القوميات، حيث كان للعامل القومي دوره في توحيد كل من ألمانيا وإيطاليا، وقد أفادت الدول الغربية من هذه البدعة لاستخدامها سلاحاً ضد الدولة العثمانية الإسلامية التي كانت تضم تحت جناح الإسلام قوميات لا يحيط بها عدد ولا يطالها حصر. وأمكن استخدام هذا السلاح بكفاءة عالية ومهارة كبيرة لتجريد الدولة العثمانية من ممتلكاتها في أوروبا، ولفصلها عن بقية الأمم والشعوب الإسلامية.

وقد يكون من الصعب التعرض لمجموعة الأحداث التي عاشتها الدولة العثمانية على امتداد القرن التاسع عشر، والتي تشكل صفحة محزنة من الصراعات والحروب التي خاضتها الدولة العثمانية ضد دول أوروبا الغربية وضد الدولة الروسية بصورة خاصة، والتي أدَّت إلى انفصال رومانيا (الأفلاق والبغدان) ثم اليونان عن الدولة العثمانية، (سنة ١٨٥٦)، ثم جاء دور الصرب والجبل الأسود وبقية الأقاليم التي تشكل حالياً (يوغوسلافيا وألبانيا)، حيث عملت روسيا على تحريض البوسنة والهرسك للقيام بالثورة التي أحبطتها القوات العثمانية، فما كان من إنكلترا إلا أن وجهت الدعوة للدول الست العظمى (روسيا والنمسا وبروسيا وفرنسا وإيطاليا) لعقد اجتماع في استنبول (إسلام بول) في ٥ تشرين الأول ـ أكتوبر سنة ١٨٧٦ تحت شعار (تسوية حالة المسيحيين في الدولة العثمانية). وقد كان أغرب ما في الأمر أن الدولة العثمانية التي عقد هذا المؤتمر على أرضها وفي عاصمتها، لم تدع لحضور الجلسات، ولم يطلب إليها إرسال مندوب عنها لحضور المؤتمر الذي قرر مطالبة الدولة العثمانية بتقسيم بلغاريا إلى ولايتين يكون ولاتهما من المسيحيين؛ بالإضافة لطلبات أخرى؛ رفضتها الدولة العثمانية بصورة طبيعية وبدهية. فتم عقد مؤتمر آخر في لندن ـ وبدعوة من إنكلترا أيضاً ـ في ٣١ آذار ـ مارس ١٨٧٧ م، لوضع لائحة من أجل (تحسين أحوال النصارى في الدولة العثمانية) وقد ختمت هذه اللائحة العتيدة بالفقرة التالية: «وتحتفظ الدول الست لنفسها بحق اتخاذ الوسائل التي تراها لتأمين خير النصارى»[1]. وقد ردت الدولة العثمانية على ذلك بمذكرة مستفيضة جاء فيها:

---

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية ـ الأستاذ المحامي محمد فريد بك ـ دار النفائس ـ بيروت ـ ١٤٠١ هـ ـ ص ٦١٦.

«لقد ثبت لدول أوروبا أن الاضطراب الذي وقع في بعض الولايات، إنما نشأ بنتيجة التحريض الخارجي، والدولة العثمانية غير مسؤولة عنه ولا مطالبة به، فلا حقَّ لدولة الروسيا أن تربط بين سحب قواتها المحتشدة على الحدود وبين حدوث الاضطراب... **وليس لدى السلطان العثماني شك بأن من مصلحته، بل من الواجب عليه؛ أن يضمن حقوق رعيته من النصارى. ولكنه لا يقبل بأن يقتصر الإصلاح على النصارى فقط... وهو يعترض على عدم المبالاة الواضحة بالتنكر لحقوق رعيته من المسلمين. وإنه لأمر منكر أن الإصلاح الذي من شأنه أن يشمل المسلمين بالراحة والمنفعة، يكون في عيون أوروبا بالبصيرة المنصفة مما لا يلتفت إليه»**.

واستندت روسيا إلى رفض الدولة العثمانية لمطالب الدول الست؛ وانفردت بحرية العمل، فشنت على الدولة العثمانية آخر حروب التوسع الروسية ضد الدولة العثمانية (١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ م)، والتي انتهت بإخراج المسلمين العثمانيين من دول أوروبا الشرقية التي أعيد تنظيمها على أساس قومي.

وقد يكون من المثير ملاحظة أن الحركة القومية في دول أوروبا الشرقية قد اقترنت بالعقيدة الدينية وتلاحمت بها؛ حيث استثمرت روسيا **(حجة حماية المسيحيين ـ الأرثوذكس)** بالدعوة القومية تحت شعار **(حماية الأخوة السلافيين)**، بينما نظمت الدعوة القومية في قاعدة الدولة العثمانية (الطورانية) تحت أهداف علمانية، وبفصل الدين عن القومية، وهو ما ظهر بعدئذ واضحاً في حركة (كمال أتاتورك) الذي ألغى الخلافة العثمانية، واتجه بالدولة التركية نحو الغرب، متنكراً لتاريخ يمتد في بطون التاريخ لعهد اعتناق الترك للإسلام منذ القرون الأولى للفتوح الإسلامية.

ومثل ذلك حدث بالنسبة لحركات الانبعاث القومي، سواء في الوطن العربي، أو في الأقاليم الإسلامية الأخرى (فالحركة القومية السورية، والحركة الفرعونية في مصر، والحركة الوثنية في السودان؛ والحركة الرومانية في تونس والجزائر والمغرب لفصل العرب عن البربر، والحركة المارونية ـ ذاتها ـ ليست إلا دعوة للعودة إلى جاهلية قومية تتجاوز كل تاريخ العرب المسلمين).

ولقد جاءت الحركة الصهيونية في هذا الإطار ذاته، حيث تلاحمت فيها الدعوة الدينية بحركة الانبعاث القومي على ما تردده المصادر الغربية في شواهد كثيرة ومعروفة منها على سبيل المثال ما ورد في مقدمة بحث من الأبحاث الأمريكية الحديثة؛ تضمنت ما يلي: «**إن سبب تعقد الصراع العربي ـ الإسرائيلي، هو تداخل هذا الصراع مع سياسات الدول العظمى. ففي بداية العهد لظهور كل من القوميتين العربية والصهيونية، كانت كل منهما تطلب العون من القوى العظمى لتحقيق أهدافها القومية؛ وبتطور الصراع بين القوميتين، حاولت الدول الكبرى استغلال هذا الصراع لمصلحتها، ولزيادة نفوذها في الشرق الأوسط**»(١).

وقد يكون من المناسب قبل متابعة البحث؛ التوقف عند بعض الظواهر المتناقضة في هذه المقولة، كما في مثلها من المقولات الصادرة عن مراكز أبحاث الغرب الأوروبي، ومنها:

أولاً: ما من مجال للمقارنة بين أمة عربية عميقة الجذور في التاريخ، وبين شتات من اليهود الذين لا تربط بينهم لا رابطة قومية ولا حتى رابطة دينية، إلا إذا جاز تسمية تلك الرموز مثل التابوت والنجمة السداسية والشمعدان، بأنها دين يمكن له جمع شمل أمة؛ تجاوزها التاريخ منذ قرون ودهور.

ثانياً: إن الحركة القومية الصهيونية قد اصطنعت وشكلت في مراكز الدول العظمى؛ وبقيت مرتبطة بها، بينما فرضت هذه المراكز نفسها فرضاً على الوطن العربي وعلى الشعب العربي ـ خلال ليل الاستعمار ـ. وإذا ما لجأت الدول العربية إلى القوى العظمى، فليس من أجل دعمها لإقامة بناء قوميتها وإنما من أجل حماية نفسها ضد تلك القوى العظمى؛ وقصة الثورة العربية الكبرى، وغدر الإنكليز، من القصص المعروفة والتي ستبقى أبد الدهر شاهداً على حقد الغرب على الأمة العربية.

ثالثاً: لقد ربطت الحركة الصهيونية ـ بحسب ما تمت تسميتها ـ بين الديانة

---

(١) السياسات الدولية والصراع العربي الإسرائيلي (روبرت فريدمان) مركز الدراسات العسكرية ـ دمشق ـ ١٩٧٣ ص ٧.

اليهودية والانبعاث القومي، بينما تركزت الحركة القومية العربية لتكون حركة منفصلة عن الدين الإسلامي، والشواهد معروفة لكل إنسان مسلم على الأرض العربية وعلى كل أرض كانت للإسلام داراً، إذ من المسموح به رسمياً التحدث بكل الأمور القومية والمذهبية السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولكن من غير المسموح به أبداً، حتى في بلاد كانت من القواعد الأساسية لانطلاقات جيوش الفتح العربي الإسلامي، التحدث عن الرابطة الثابتة بين العرب والإسلام، وعن تلاحم الرباط القومي بالرباط الديني لدى الشعب العربي ـ الإسلامي.

وعودة إلى البحث: لقد تشكلت روسيا تحت مظلة المذهب الأرثوذكسي من الديانة المسيحية؛ وعندما قضي على الحكم القيصري بقيام الدولة الاشتراكية؛ واجهت الاتحاد السوڤييتي (قضية القوميات)، فتفرغ الزعيم السوڤييتي ستالين لبحث هذه المسألة، وجعل من الاشتراكية المذهب الأرثوذكسي الجديد ـ كما يسميه الغربيون ـ. ولعل من يطالع أدب الحرب السوڤييتي في الحرب العالمية الثانية؛ يدرك بعمق مدى التركيز الكبير لربط المذهب العسكري السوڤييتي بالعقيدة الاشتراكية، ويبرز ذلك مدى حاجة الدول الحديثة لربط مذهبها العسكري برباط عقائدي وثيق؛ له صفة الشمول، وهو ما جاء به الإسلام قبل أربعة عشر قرناً؛ وطبقه بنجاح قادة المسلمين، على امتاد الصفحة الجغرافية للعالم القديم؛ وعلى امتداد الصفحة الزمنية التي وصلت بين ظهور الإسلام؛ وبين الأزمنة الحديثة.

تلك هي (البدعة الضلالة)، بدعة المذاهب القومية والاشتراكية وسواها من البدع التي صدرت بنماذج خاصة بالوطن العربي ـ الإسلامي، وبالعالم الإسلامي. وليست هذه البدع منفصلة، على كل حال؛ عن عمليات تفسير أحداث التاريخ الإسلامي تفسيراً خاصاً يتجاوز الحدود الزمنية والمكانية لتلك الأحداث، مع منحها أفكاراً حديثة لم تكن تحتملها ولا هي مناسبة لها ـ كمثل تفسير نهج الصحابي أبي ذر الغفاري بالنهج الاشتراكي، أو كمثل وضع ثورة الزنج أو ثورة القرامطة في إطار الثورات الاشتراكية الحديثة ـ.

وعلى هذا النحو تسير عملية ابتداع واصطناع الأفكار القومية والوطنية؛ ورفع الشعارات المثيرة، لاستخدامها في غير ما تهدف إليه؛ ومن ثم إفراغ الأفكار

والمفاهيم من مضامينها؛ وترك الشعوب الإسلامية وهي في حالة من التشتت والضياع والفراغ الفكري.

لقد شرف الله عز وجل أمة العرب بالإسلام، وأعز الله الإسلام ونصره وأيَّده بأمة العرب، ولولا ذلك ما كان للعرب شأن في التاريخ، ولا كان لوجودهم ثقله على أرض الله، وما كان للسانهم ـ لغتهم ـ هذا الذكر الذي تتناقله مآذن الدنيا في كل مكان يذكر فيه اسم الله. وعرف العرب المسلمون موقعهم في الدنيا من خلال إيمانهم بقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلْنَّاسِ؛ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(١)، فكان التفاضل بالعمل الصالح وبالتقوى، وذاك هو أساس تقويمهم للناس والدول؛ للأقوام والشعوب. ومن هنا، فقد يكون من الصعب خداعهم أو تضليلهم عن أهدافهم وغاياتهم، وقد تضطرهم ظروف واقعهم لتجاوز ظواهر الأمور؛ غير أنهم لا ينحرفون عن نهجهم القويم؛ الذي ما عرفوا الخير والعزة إلا يوم عرفوه؛ وتمسكوا به، وما عرفوا الذل والهوان إلا يوم اتبعوا سواه؛ من البدع والضلالات؛ وعز من قائل: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ ٱللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(٢).

---

(١) سورة آل عمران ـ الآية ١١٠.

(٢) سورة الحج ـ الآية ٤٠.

٣

مدرسة الحرب الإسلامية وخصائصها

يتعاظم الاهتمام بمدارس الحرب العالمية يوماً بعد يوم ؛ ويتناسب هذا الاهتمام مع تزايد التطور في مجالات العلم والتقانة ؛ وقد يكون ذلك أمراً طبيعياً يقبله المنطق السليم دونما أي تحفظ. فالارتفاع المذهل لثمن الحرب ونفقاتها من جهة ؛ وتزايد العلاقة بين غاية السلم وهدف الحرب من جهة ثانية ؛ والاتصال الجغـرافي لمسرح عمليات الحرب في الأزمنة الحديثة، والحاجة للحسم العسكري بأسرع ما يمكن ؛ وغير ذلك من العوامل والحوافز ؛ قد أكد ضرورة إعادة البحث باستمرار في تجارب الحرب منذ فجر التاريخ، واستخلاص دروسها وخبراتها. وتشكل مـدرسة الحـرب الإسلامية في هذا المضمار نسيجاً خاصاً ومميزاً عن بقية المدارس الحربية العالمية، القديمة منها والمعاصرة ؛ إذ لا بد من الاعتراف بأن لكل مدرسة من تلك المدارس خصائصها ومميزاتها، فهي بالتالي تشكل إرثاً ثميناً للأقطار أو الأقوام التي شكلتهـا عبر تجاربهـا وعبر مـا بذلتـه من الدمـاء وما قـدمته من التضحيـات خلال المـراحل التاريخية المتتالية، مما يجعلها أكثـر جدارة وأفضـل حقاً بـالإفادة من ذاك الإرث، ولكن ذلك لا يتعارض أبداً مع حقيقة أن تلك المدارس على تنوعها وبقدر تباينهـا، تشكل ثروة إنسانية من حق كـل الأمم والشعوب الإفـادة منها ؛ والتعلم من دروسهـا وخبراتها.

وفي الواقع ؛ فإن محاولات التعلم من مدارس الحرب هي محاولات قديمة جداً ارتبطت بظهور تاريخ فن الحرب منـذ أقدم العصـور، وليست الكتابـات المصريـة (الهيروغلوفية) التي نحتت على صخور الكرنك والإهرامـات والمسلات، وكـذلك

تعاليم الحكيم الصيني (صن تزو) إلا السطور الأولى في الملحمة الطويلة للتعلم من الحرب وتعليمها؛ وإلا المراحل المبكرة لتشكيل مدارس الحرب الفكرية؛ والتي استمرت حتى الأزمنة الحديثة. وإذا كان الكاتب العسكري الألماني (كلاوزفيتز) ومثله الفرنسي (جوميني) قد اعتبرا من أشهر كتّاب القرن التاسع عشر، فإنهما لم يكتسبا شهرتهما العالمية إلا من خلال نظرياتهما وآرائهما عن الحرب مما استخلصاه من تجارب محدودة (تجارب الحرب النابوليونية). وبالمقابل فقد جاء الكاتبان العسكريان البريطانيان (ليدل هارت) و(جون فوللر) ليحتلا مركزاً متقدماً جداً بفضل تجاوزهما للتجارب المحدودة، وللبحث في كل ما أمكن لهما بحثه عبر مدارس الحرب العالمية، فكانت لهما الريادة في مضمار استخلاص دروس الحرب على المستوى العالمي، ومثل هؤلاء ظهر جياب، وهوتشي مينه في ڤييتنام (الهند الصينية) وماوتسي تونغ في (الصين)، فأفادوا من تجارب مدارسهم الحربية القديمة لبناء وتشكيل مدارسهم المعاصرة التي اكتسبت بدورها أبعاداً عالمية، عبر ربط دروس الماضي ببناء المستقبل العسكري لبلادهم، ولم يكن الفرنسي (فوش) ومثله (ديغول) إلاّ من بعض تلامذة أستاذ التاريخ العظيم.

ومن الملاحظ أن هؤلاء وسواهم قد أعرضوا عن البحث في مدرسة الحرب الإسلامية، إلا بقدر ضئيل وسطحي أحياناً، وقد يكون السبب في ذلك هو عدم قدرة هؤلاء الباحثين وسواهم تقويم مدرسة الحرب الإسلامية تقويماً صحيحاً، بسبب الصعوبات اللغوية، أو بسبب تجاهل متعمد في إطار العداء التاريخي والحقد الديني على كل ما هو عربي - إسلامي.

لعل أول ما يستثير اهتمام الباحث في مدرسة الحرب الإسلامية؛ هو ديمومة هذه المدرسة واستمرارها عبر الزمن. فقد انطلق العرب المسلمون إلى دنيا الفتوح في السنة الثانية عشرة للهجرة (سنة ٦٣٣ م). وفي سنة ٩٢ هـ (٧١٠ م) كانت سنابك خيول العرب المسلمين تضرب بعنف بلاد الغال (فرنسا) في حين كانت خيول أخرى لهم قد فتحت بخارى وسمرقند في أقصى الشرق، واقتحمت جدار الصين العظيم؛ فوصلت خلال ثمانين عاماً ما بين مشرق العالم القديم ومغربه، وارتادت سهوله وقفاره، وخاضت بحوره وأنهاره. ولعل سرعة الفتح هذه - قياساً مع وسائط حرب الحركة التي كانت مستخدمة ومتوافرة في تلك الحقبة التاريخية وهي

الخيول والجمال ـ هي التي حملت الباحثين الأجانب في التاريخ العربي ـ الإسلامي، بحثاً سطحياً، أو الراغبين في الافتراء عليه افتراء حاقداً ولئيماً، على تفسير معجزة الفتوح الإسلامية بأنها حدثت في (غفلة من الزمن) أو في حالة تحلُّل وتفسُّخ القوى التي كانت قائمة على أرض العالم القديم (مثل الفرس والروم والبربر والترك والقوط وسواهم . . .).

غير أن إمعان النظر في مجرى الفتوح وتطورها يظهر وبشكل واضح أن هذه الفتوح لم تحدث في غفلة من الزمن؛ ولم تحدث بسبب تحلل القوى التي جابهت قوات العرب المسلمين وحاربتها؛ وإنما حدثت، وبمثل تلك السرعة؛ بفضل ما توافر للعرب المسلمين من موارد القدرة المعنوية الهائلة التي أمدتهم بها العقيدة الإسلامية، ثم بسبب توافر مذهب قتالي متقدم استند في أصوله وفروعه إلى العقيدة الدينية؛ وبسبب توافر شعب بكامله تحت السلاح، عمل تحت قيادة جيل من القادة الأكفاء الذين شكلتهم وأنشأتهم مدرسة الإسلام الدينية ـ العسكرية.

لم تكن معارك الفتوح على كل حال سهلة ولا هيِّنة؛ وفقاً لما تؤكده المصادر التاريخية العربية المعروفة بأمانتها ودقتها وصحتها؛ فقد كانت مسيرة الجهاد في سبيل الله شاقة وصعبة شكلت بمجموعها ملحمة متصلة؛ خاضها المجاهدون في سبيل الله بإيمان راسخ وإرادة صلبة وتصميم عنيد وصبر كبير، وليست المعارك الشهيرة مثل اليرموك والقادسية ونهاوند وبابليون والإسكندرية ووادي لكة ـ بالأندلس ـ إلا بعض النقاط البارزة في ملحمة الفتوح الخالدة.

لم تتوقف الحروب عند حدود الأقاليم والبلاد التي فتحها الله للعرب المسلمين، ولم يصل الصراع المسلح إلى نهايته بانتهاء عصر الفتوح العظمى (العصر الأموي)، فقد بقيت أبواب الجهاد في سبيل الله مفتوحة على مصاريعها في كل الجبهات، سواء مع الترك والهنود والصينيين في أقصى المشرق، أو على جبهة الروم ـ البيزنطيين ـ على الحدود الشمالية لبلاد الشام والعراق؛ أو ضد الفرنج وبقايا الروم على جبهة شمال الأندلس؛ علاوة على الحروب في جزر البحر الأبيض المتوسط. وأصبحت المعارك على الحدود، وحرب الثغور، هي مدرسة الحرب المميزة طوال فترة الحكم العباسي؛ وعلى امتداد أربعة قرون تقريباً من عمر الزمن. وكانت معارك هذه

الحروب تأخذ شكلاً منتظماً ودورياً ومتسارعاً في بعض الأحيان، لتأخذ، في أحيان أخرى، شكل اشتباكات محدودة ومتباعدة، وقد تخلل ذلك بعض المعارك البارزة والحاسمة (مثل معركة زبطرة في عهد الرشيد؛ ومعركة عمورية في عهد المعتصم). وقد اضطلع بأداء فريضة الجهاد في سبيل الله خلال هذه الحقبة أقوام شتى، اشتهروا بتفرغهم لخوض غمار الحروب؛ من أمثال الحمدانيين (في حلب) والأتراك والسلاجقة (وأشهر معاركهم معركة ملازكرد) ضد الروم، وكذلك الغزنويين ـ أو آل سبكتكين ـ الذين سجلوا صحائف رائعة في فتوح الهند ـ واختصوا بها دون سواهم ـ. أما في مغرب العالم الإسلامي فكان للمرابطين والموحدين وسواهم من عرب وبربر دورهم في تطوير الجهاد في البحر وعلى جبهة أندلس المسلمين. فكانت جبهات القتال على تباعدها الجغرافي، تكاد تشكل جبهة متصلة ومتكاملة (لديار الحرب). ولم تكن هذه الحروب الخارجية على وفرتها وكثرتها هي النوع الوحيد من الحروب الذي برز خلال هذه الحقبة الزمنية؛ بل كانت هناك حروب أكثر ضراوة وأشد خطراً يمكن تسميتها (بحروب الردة المتجددة) أو (الحروب الأهلية بحسب التسميات الحديثة) أو (الحروب الثورية) ومنها: ثورة الزنج، وحركة القرامطة؛ والحركة الفاطمية (في مصر)، علاوة على الصراعات ما بين الأقوام بعضها ضد بعض (كاقتتال السلاجقة واقتتال المرابطين والموحدين في المغرب الغربي ـ الإسلامي). وتشكل هذه الحروب بمجموعها نماذج متقدمة ومعقدة للحروب الثورية وللحروب النظامية ضد القوات الثورية.

جاءت الحروب الصليبية بعد ذلك؛ لغزو المشرق العربي الإسلامي (٤٩١ ـ ٦٩٠ هـ/ ١٠٩٧ ـ ١٢٩١ م) وأقام الفرنج لهم مملكة وإمارات لم يعمر أكثرها طويلاً على أرض بلاد الشام؛ فيما عاش بعضها ـ وبصورة خاصة الإمارات الساحلية مثل إمارة عكا ـ لفترة أطول. ودارت معارك طاحنة، فكانت الحرب مستمرة ـ إلا من بعض فترات الهدنة القصيرة والمحدودة ـ. وعلى الرغم من تركيز جهد الفرنج الصليبيين على بلاد الشام؛ إلا أن الاقتتال شمل جبهات المسلمين كافة؛ بداية من جبهة الأندلس؛ ومروراً بجبهة البحر الأبيض المتوسط وأقطار المغرب العربي الإسلامي؛ ونهاية ببلاد آسيا الصغرى وبلاد الشام.

وعلى كل حال؛ فإن الحروب الصليبية لم تتوقف بطرد الفرنج الصليبيين من

بلاد الشام، وتركز جهد الفرنج على بلاد الأندلس، ثم على أقطار المغرب العربي الإسلامي؛ فيما أخذ الأتراك العثمانيون على عاتقهم نقل الحرب إلى أرض أوروبا، فأصبحت أقطار أوروبا الشرقية (بلغاريا؛ والصرب؛ واليونان؛ وألبانيا ورومانيا وقسم من النمسا ـ هنغاريا) هي المسرح الجديد للحروب الصليبية. ولم تكن هذه الحروب على وفرتها واتساع ميادينها هي كل ما عرفه المسلمون خلال تلك المرحلة؛ فقد دهمهم خطر أكبر تمثل في اجتياح المغول ـ التتار ـ لأقطارهم في المشرق؛ وهو الاجتياح الذي دمر في طريقه الخلافة العباسية؛ والذي وصل غايته عندما وصل إلى فلسطين؛ حتى إذا ما وقعت معركة عين جالوت (٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ/ ٢٩ آب ـ أغسطس ١٢٥٩ م) حدث التحول الحاسم، وتم طرد المغول ـ التتار ـ من بلاد الشام بعد هزيمتهم المنكرة؛ وأصبح باستطاعة المسلمين التفرغ بدرجة أكبر لقتال الفرنج الصليبيين؛ رغم محاولات المغول المتجددة للهجوم على بلاد المسلمين في الشام؛ وضد الأتراك العثمانيين في آسيا الصغرى.

لم يكن خروج المسلمين من الأندلس (غرناطة سنة ٨٩٧ هـ ـ ١٤٩١ م) هو نهاية الصراع المسلح ضد الفرنج الصليبيين، وكذلك لم يكن فتح المسلمين للقسطنطينية (إسلام بول سنة ٨٥٧ هـ ـ ١٤٥٣ م) هو نهاية الحرب على جبهة الغرب، فقد قام الأسبان والبرتغاليون بالهجوم على أقطار المغرب العربي الإسلامي؛ واحتلوها طوال مائة عام تقريباً. كما تابع الأتراك العثمانيون رفع راية الجهاد في سبيل الله ضد الفرنج على جبهة البحر؛ وعلى أرض القارة الأوروبية، ودارت معارك طاحنة؛ تخللتها حملات ضخمة؛ إلا أن المسلمين استطاعوا في النهاية طرد الفرنج من أقطار المغرب العربي ـ الإسلامي، كما استطاعوا تحقيق الاستقرار على جبهة أوروبا الشرقية؛ وفرضوا دورهم على السياسات الأوروبية طوال قرنين تقريباً من عمر الزمن (الخامس والسادس عشر وحتى منتصف القرن السابع عشر)، حيث عادت جبهة الغرب للتفجر بانفتاح جبهة جديدة على المسلمين هي جبهة الروسيا، التي وضعت الدولة العثمانية تحت مطرقة روسيا وسندان أوروبا.

ولقد استنزفت هذه الحروب المستمرة قدرة المسلمين على امتداد الجبهات ـ وخاصة قدرة الدولة العثمانية ـ وأعاقتها عن التطور؛ حتى إذا ما جاءت الثورة الصناعية، وحصلت الدول الأوروبية بنتيجتها على قدرة متفوقة؛ عادت إلى الهجوم

الشامل ضد بلاد المسلمين من جديد؛ ولكنها لم ترفع في هذا الهجوم راية الصليبية بصورة علنية، وإنما استعاضت عنها برايات جديدة تتناسب مع ما عرفته أوروبا من تحولات نحو العلمانية ـ بتأثير الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية ومبادئهما ـ وأصبحت هذه الرايات الجديدة تحمل اسم (الحروب الاستعمارية) والتي انتحل الغرب باسمها (حمل رسالة التقدم) إلى الأقطار الأخرى في العالم على أيدي (الرجل الأبيض المتفوق)، وكانت رسالة التقدم والتفوق تشتمل في مضمونها أهداف الحروب الصليبية كما بات معروفاً.

ولم تكن حملة نابليون بونابرت على مصر سنة ١٢١٣ هـ ـ ١٧٩٨ م إلا البداية الأولى لهذا التحول، حيث انطلقت الدولتان الغربيتان الكبيرتان (بريطانيا وفرنسا) في سباق محموم للسيطرة على العالم؛ مما أفسح المجال أمام الدول الأوروبية الأخرى ـ حتى الصغيرة منها مثل هولندا وبلجيكا وحتى إيطاليا ـ للسير في أعقاب فرنسا وبريطانيا، فكانت أقطار المغرب العربي الإسلامي أول من تعرَّض للحروب الاستعمارية، ثم تبعتها بقية الأقطار الإسلامية في أفريقية وآسية. وبات لزاماً على الشعوب الإسلامية أن تخوض حروبها ومعاركها في حدود بلادها الإقليمية؛ وأن تبدل من أساليب قتالها، معتمدة، بالدرجة الأولى، على قدراتها الذاتية المحدودة، وعلى ما يصلها من دعم قليل من الشعوب الإسلامية المجاورة، وأحياناً من الدولة العثمانية التي انتهى دورها بتصفية واقتسام بلادها وإلغاء الخلافة منها (سنة ١٣٤٢ هـ ـ ١٩٢٣ م).

ولم يكن ذلك الفصل الأخير في الحرب الضارية ضد العرب المسلمين بخاصة، وضد المسلمين بصورة عامة؛ فقد عمل الاستعمار الغربي على استنزاف الشعوب الإسلامية استنزافاً كاملاً، وترك في جسدها جراحات عميقة ونازفة باستمرار. إذ على الرغم من زوال الاستعمار الغربي، فقد بقيت الشعوب الإسلامية في حالة حرب دائمة، ولم يكن إنشاء الكيان الصهيوني على أرض فلسطين ـ مثلاً ـ إلا عملية إقامة قاعدة متقدمة للفرنج الصليبيين في قلب العالم العربي ـ الإسلامي.

كذلك؛ فإن الحروب الموجهة ضد المسلمين في أفريقيا وآسيا، مثل الحرب في القرن الأفريقي؛ وفي جنوب السودان؛ وفي لبنان؛ والحرب العراقية الإيرانية؛

والحروب الهندية الباكستانية، والحرب الأفغانية، والصراع في الفيليبين ليست بمجموعها إلاَّ استطالات للمخططات المعادية للمسلمين؛ والتي تهدف لإشغال المسلمين بهمومهم ومتاعبهم وحرمانهم بالتالي من بناء مستقبلهم.

والأمر الواضح؛ هو أن القوى المعادية للإسلام وأهله لم تعد ترفع رايات الصليبية؛ بل إنها استعاضت عنها برايات مختلفة تتناسب مع وضع كل إقليم من الأقاليم الإسلامية؛ وذلك لتجزئة معارك الحرب الشاملة، وإعطائها الزي المناسب للعصر وأفكاره ومعتقداته (أيديولوجياته). ومقابل ذلك؛ فإن المسلمين في جميع ديارهم وأمصارهم؛ لم يحاولوا الجهر بحقيقة هذه الحرب؛ وأهدافها؛ رغم إدراكهم لمضمونها الحقيقي، إلا من تعبيرات مخنوقة؛ أو من إشارات رمزية، وذلك نتيجة غياب الوحدة القيادية والسياسية للعالم الإسلامي من جهة؛ وبسبب عنف وضراوة الحملة الموجهة ضدهم من جهة ثانية؛ واضطرارهم بالتالي لمسايرة أعدائهم في عدم الإعلان عن أهداف لم يذكرها الأعداء ذاتهم بصورة سافرة. غير أن المسلمين في جميع ديارهم وأمصارهم يعرفون معرفة جيدة؛ ويدركون إدراكاً عميقاً؛ طبيعة الحرب التي يعيشونها، وأهداف هذه الحرب التي لم تعد خافية ولا مستترة، رغم كل محاولات التضليل والخداع.

وخلاصة القول: لقد مضت وانقضت فترة أربعة عشر قرناً من عمر الزمن؛ والسيف العربي ـ الإسلامي لا زال مشهراً؛ لم يعرف الاستقرار في غمده، فكانت تجربته مع الحرب تجربة طويلة الأمد ومثيرة، ضمَّت من الأحداث أغربها وربما أطرفها؛ وعرفت من المعارك أقساها وربما أمرَّها، وشهدت من الانتصارات أرفعها وأسماها وأنبلها؛ وعاشت من الانتكاسات والهزائم أصعبها، وخرج الإنسان المسلم من ذلك كله وهو أشد مراساً وأوفر بأساً؛ وربما كانت هذه التجربة على امتداد عهدها وطول أمدها، وما تخللها من الأحداث؛ هو الذي زاد من رصيد الإنسان المسلم؛ وجعله أكثر ثقة، وأكبر أملاً بقدرته على متابعة دوره على أرض الله؛ داعية للحق والفضائل؛ محارباً للظلم والرذائل، مسهماً في تطوير المفاهيم الإنسانية العادلة؛ في زمن ضاعت فيه مفاهيم الحق والخير والعدالة وساد فيه الظلم والاستبداد والطغيان.

لم تكن استطالة أمد التجربة التاريخية للحروب الإسلامية هي الخاصة الفردة

أو الميزة الوحيدة لهذه التجربة الخالدة؛ وإنما هناك ميزة ثانية اقترنت بها وتلاحمت معها، وهي ميزة تنوع الأشكال القتالية، وتباين الطرائق والأساليب الحربية.

لقد انطلق العرب المسلمون من عاصمتهم (المدينة المنورة) كالسيل الجارف؛ وخاضوا معاركهم الظافرة حتى فتح الله لهم بلاد الشام والعراق ومصر. ثم تابعوا سياسة الفتوح حتى وصلوا أقصى حدود المشرق والمغرب، فكانت استراتيجية الفتوح بالتالي استراتيجية هجومية؛ تميزت بكافة خصائص حرب الحركة؛ مثل تنظيم الاستطلاع والحرص على أمن القوات، وتأمين الإمداد الإداري للقوات؛ مع الحرص على تطبيق مبادىء الحرب على نحو ما باتت معروفة مثل: المبادأة والمباغتة والحسم ووحدة القيادة الخ... وكانت أساليب القتال على مستوى العمليات مزيجاً من أساليب الحرب النظامية ـ التقليدية، وأساليب الحرب الثورية؛ فكان من أبرز خصائصها الأعمال التشتيتية واستنزاف قدرة الخصم القتالية وقوته المعنوية بالعمليات الخاصة مثل الإغارات والكمائن والهجمات الليلية. وظهرت كفاءة العرب المسلمين خلال هذه المرحلة بتنظيم الحركة التي كانت مركبة من حركة برية وحركة بحرية؛ مع تنظيم المعسكرات والإقامة واتخاذ ترتيبات أمن المسير والإقامة والتنظيم للمعركة، وإتقان أعمال الحصار وفتح القلاع والحصون.

وقد جابه العرب المسلمون خلال ذلك موقفاً صعباً تمثل في عدم تمكنهم من القضاء على تهديد الروم ـ البيزنطيين في البر والبحر؛ وكان من الصعب عليهم اعتماد استراتيجية دفاعية جامدة تجاه هذا التهديد الخطير، فكان أن طوَّروا استراتيجيتهم الهجومية، في البر والبحر، وعملوا على تنظيم الصوائف والشواتي، والتي لم تكن إلا غزوات منتظمة ودورية، لإشغال الروم بأنفسهم، وصرفهم عن تهديد ثغور المسلمين وحدودهم؛ فكانت هذه الغزوات أشبه بما أصبح يعرف حديثاً باسم (الضربات الإجهاضية المسبقة) والهادفة إلى تدمير استعدادات العدو القتالية؛ وذلك قبل أن تصل هذه الاستعدادات غايتها؛ وتصبح قادرة على توجيه تهديد حقيقي وخطير لثغور المسلمين.

وكذلك، فقد طور العرب المسلمون قدراتهم البحرية، ونظموا غزواتهم في هذا الإطار ذاته (إطار الضربات الإجهاضية المسبقة)، وأمكن استنزاف قدرة الروم

على مراحل متتالية ومستمرة، فأمكن خلال عقود قليلة (عشرات السنوات) انتزاع السيادة البحرية في البحر المتوسط من قبضة الروم؛ وتحول ما كان يسمى باسم (بحر الروم) فصار يحمل اسم (بحر الشام).

جابه الروم هذا التطور في الأساليب والمفاهيم القتالية بتطوير مشابه ومماثل؛ مما زاد من درجة تعقيد الأساليب القتالية، وزيادة حدتها وشدتها، حتى أخذت أحياناً شكل حملات حربية ضخمة. وكانت الحدود على طرف جبهتي الصراع هي الميدان الحقيقي لهذا الاقتتال العنيف طوال قرون متتالية، استمرت عملياً حتى قيام الحروب الصليبية (سنة ٤٩١ هـ ـ ١٠٩٧ م).

وقد جابه العرب المسلمون موقفاً مشابهاً على الحدود الشمالية للأندلس (خلال الحكم الأموي)، فأفادوا من خبراتهم المتوافرة لهم، ونظموا الثغور والصوائف والشواتي، وطبّقوا الأساليب ذاتها، فأمكن لهم إحباط غزوات الفرنج وأعمالهم العدوانية القادمة عبر جبال البيرينيّه.

تعرض المسلمون لمواقف جديدة بوصول الحملات الصليبية إلى بلاد الشام، فكان عليهم خوض حرب دفاعية لحماية مدنهم وقراهم، مما ألزمهم بالتالي العمل لتطوير استراتيجيتهم الهجومية، التي لم يكن باستطاعتهم على كل حال إهمالها أو التخلي عنها، فتشكلت استراتيجية هجومية بأساليب دفاعية، أو دفاع تكتيكي وعلى مستوى العمليات في إطار استراتيجيتهم الهجومية، فكانوا يخرجون بجيوشهم وقواتهم إلى ظاهر مدنهم لقتال الفرنج في معارك جبهية ـ تصادمية ـ. وكانوا يحرصون على حسم المعارك بعيداً عن المناطق الحصينة والمدن للإفادة من قدرتهم الحركية العالية ومهارتهم في إدارة المعارك. ومقابل ذلك، فقد أظهر الفرنج اهتماماً كبيراً بامتلاك القلاع والحصون؛ وشحنها بالحاميات القوية، لتكون قواعد للعدوان على ما يحيط بها من بلاد المسلمين؛ الأمر الذي حمل المسلمين بدورهم على تطوير وسائل الحصار، وإتقان فنونه وأساليبه، وانتزاع هذه القلاع والحصون من قبضة مغتصبيها ـ الفرنج ـ. ولقد دارت معظم معارك المرحلة الأولى من المد الصليبي حول القلاع والحصون؛ حتى إذا ما انتقل المسلمون للهجوم الشامل ـ أيام الزنكيين ثم الأيوبيين؛ ومن بعدهم المماليك ـ أخذت هذه القلاع في العودة إلى

قبضة المسلمين الذين أهملوا ما كان ثانوياً منها ودمروها، بينما احتفظوا بما كانوا يحتاجونه منها في حروبهم، ودعموها وزادوا من تحصينها؛ حتى إذا ما انتهت الحملات الصليبية؛ وخرج الفرنج من بلاد الشام؛ زالت كل أهمية للقلاع، وأخذت طريقها نحو التحول إلى متاحف للذكريات؛ محتفظة لنفسها بأسرار ما شهدته من الأحداث؛ وبما عاشته من الوقائع والأيام.

وهكذا بقيت استراتيجية المسلمين خلال هذه المرحلة شبيهة كل التشابه مع استراتيجيتهم في حروب الثغور؛ إذ خاضوا حروبهم ضد الفرنج الصليبيين دفاعياً بأساليب وطرائق هجومية؛ أو بتعبير أكثر دقة: لقد بقيت استراتيجية حربهم هجومية؛ وبقيت طرائق عملياتهم هجومية؛ رغم أنهم كانوا يخوضون حرباً دفاعية هدفها حماية ديار الإسلام وثغورها وأهلها.

لعله من المثير حقاً ملاحظة ذاك التشابه والتماثل في إدارة حرب المسلمين ضد الفرنج الصليبيين وذلك رغم تباعد الجبهات؛ ورغم تباين القيادات. فالمعروف أن المرابطين، ثم الموحدين ومن بعدهم بنو مرين؛ هم الذين تولوا بصورة رئيسة قيادة الجهاد في سبيل الله ضد الفرنج؛ على جبهتي الأندلس والمغرب العربي - الإسلامي؛ علاوة على الجبهة البحرية في غرب البحر الأبيض المتوسط، وكانت أساليبهم وطرائقهم متشابهة مع أساليب وطرائق إخوانهم في المشرق العربي - الإسلامي.

وشكّل هذا التشابه برهاناً ثابتاً وأكيداً على التأثير الثابت والعميق لفريضة الجهاد في سبيل الله؛ علاوة على تأثير الدروس والخبرات المستخلصة من تجارب الحروب التي خاضها العرب المسلمون، منذ بداية الفتوح وحتى قيام الحروب الصليبية. ولهذا لم يكن غريباً أن تستمر هذه الأساليب، وأن تتطور بثبات حتى تصل إلى الأتراك العثمانيين الذين مارسوا دورهم أيضاً في تطوير أساليبهم وطرائقهم عندما نقلوا الحرب إلى ساحة أوروبا وإلى ساحة الجبهة البحرية الواصلة بين جنوب أوروبا وشمال أفريقيا. فكانت حروب الأتراك العثمانيين على الجبهتين المذكورتين ـ وعلى سواهما أيضاً ـ شبيهه في تخطيطها وفي تنفيذ معاركها بتلك التي نفذها العرب المسلمون على امتداد صفحة الفتوح الإسلامية. وقد يكون من الصعب قبول أي

تفسير لهذا التشابه على أنه مجرد رد فعل على مواقف متماثلة؛ ولو أنه لا مجال لإنكار دور التشابه في المواقف وتأثيرها على ردود الفعل المضادة. كذلك من الصعب قبول أي تفسير لهذا التشابه على أنه نتيجة للتماثل في التسلح وفي الوسائط القتالية المستخدمة، التي لم تتطور تطوراً كبيراً منذ أيام الفتح الأولى وحتى فتح القسطنطينية، حيث بقيت الأسلحة النارية والمدفعية في مرحلتها البدائية، وحيث لم يكن لها ذاك التأثير الحاسم على مسيرة الأعمال القتالية. وعلى هذا فالتفسير الوحيد والمقبول لظاهرة التشابه هو أن فريضة الجهاد في سبيل الله؛ والتي بقيت بأصولها ثابتة وبطرائق تنفيذها متطورة هي التي شكّلت ذاك التشابه الذي كان باستمرار تعبيراً عن الرؤية الصحيحة لأهداف الاقتتال، وبالتالي البحث عن الطرائق المناسبة لتحقيق تلك الأهداف ـ على مستوى الأعمال القتالية ـ وذلك دون إهمال أو انتقاص من قيمة العوامل الأخرى (أساليب العدو؛ وتطور الأسلحة).

اجتحات الهجمة الاستعمارية الكبرى بعدئذ أقطار العالم الإسلامي كافة، ولم تكن شدة وطأتها وقوة ثقلها واحدة. إذ بينما بقيت أفغانستان وباكستان ومصر تحظى بقدر أكبر من حرية العمل الإداري والسياسي؛ كانت هناك أقطار أخرى قد حملت ثقل الهجمة الاستعمارية بكل قسوتها وكامل وحشيتها (مثل الجزائر وليبيا ـ أو طرابلس وبرقة كما كانت معروفة من قبل). ولكن؛ وفي الحالات جميعها، كان على أقطار العالم الإسلامي خوض حروبها ومعاركها ضد القوى الاستعمارية تحت قيادة قادتها المحليين؛ وبمعزل نسبي عن دعم الأقطار الإسلامية الأخرى، ولو أن التضامن الإسلامي لم يفقد وجوده في الحالات كلها، إذ كان المسلمون لا يترددون في دعم ثورات إخوانهم في الأقطار المختلفة؛ قدر استطاعتهم وبقدر ما كانت تسمح لهم الظروف المحيطة بهم؛ وكان هذا الدعم الذي غلب عليه الطابع المعنوي أكثر مما كان دعماً مادياً، ولو أن الدعم المادي بقي في كثير من الأحيان عاملاً لا يمكن إهماله أو التنكر له.

ويظهر هنا أيضاً التشابه في أساليب الحروب الثورية الإسلامية وتماثلها؛ فقد بقيت هذه الحروب تعتمد على الإيمان ورصيده المعنوي الهائل، وعلى حتمية الانتصار النهائي للمسلمين؛ وعلى الدعم السياسي والمادي الذي تستطيع تقديمه

مجموعة الشعوب الإسلامية. وقد انطلقت الحروب الثورية الإسلامية بمجموعها من بيوت الله (المسجد الجامع) ورفعت كلها راية الجهاد في سبيل الله.

ولم تكن الشعارات الوطنية أو القومية أو الاجتماعية التي فرضتها الدول الأجنبية في عهود الاستعمار حتى تمارس دورها بديلاً عن (الجهاد في سبيل الله) إلَّا شعارات ذات دور ثانوي وهامشي، والأكثر من ذلك هو أن هذه الشعارات قد تلاحمت بفريضة الجهاد في سبيل الله رغم إرادة الاستعمار؛ ورغم توجيه دوائر الأبحاث والدراسات والإعلام المرتبطة به والعاملة في خدمته. وهذا ما يفسر تشابه الحروب الثورية التي عرفتها أقطار العالم العربي الإسلامي خاصة والأقطار الإسلامية عامة؛ والتي لم تكن ثورة شامل في القوقاز؛ وثورة المهدي في السودان، وثورة عبد القادر الجزائري ومن بعده ثورة المقراني والحداد في الجزائر، وثورة عبد الكريم الخطابي في الريف ـ المغرب ـ، وثورة عمر المختار في ليبيا؛ إلا بعض نماذجها، ثم هل تختلف ثورة الثوار في أفغانستان، وثورة الحجارة في فلسطين (والتي بدأت سنة ١٩٨٨)، إلا استمراراً وإلَّا تطويراً لذاك الإرث الثوري، وإلَّا تعبيراً عن أصالة وعمق تأثير فريضة الجهاد في سبيل الله في نفوس المؤمنين، وذلك على الرغم من الظلمة القاتمة المحيطة بأفق الثورة والثوار؟.

لقد استثارت هذه الظاهرة في الواقع اهتمام الباحثين الغربيين ـ بصورة خاصة ـ وعلى سبيل المثال فقد تفجرت الحرب الڤيتنامية والثورة الجزائرية في وقت متقارب، وكان هدفهما واحداً وهو التحرر من الاستعمار الفرنسي، غير أن كل ثورة اختلفت عن الأخرى بمنطلقاتها وبطرائق عملها وبأساليبها، وليس ذلك بسبب الاختلاف في الطبيعة الجغرافية أو التكون الديموغرافي لكل من الشعبيين الجزائري والڤييتنامي، وإنما بسبب التباين في القاعدة التي انطلقت منها الثورتان. ولهذا لم يكن من الغريب أن يعمل باحث غربي فرنسي، عاش مع تجربة الثورتين عن قرب؛ على إبراز الخصائص المميزة لثورة الجزائر، وتصنيفها في إطار (الحروب الثورية الإسلامية) وهذا الباحث هو الجنرال بوفر، الذي كان له دوره أيضاً في حملة السويس (سنة ١٩٥٦).

يبرز من خلال ما سبق ذكره عن خاصة الديمومة ـ أو الاستمرارية ـ وخاصة

التنوع في الأشكال القتالية، خاصة مميزة ثالثة وهي المرونة والقدرة على التكيف مع المستجدات الناجمة سواء عن اتساع مسارح الأعمال القتالية (أو البعد الجغرافي) أو تنوع الشعوب الإسلامية التي ترفع راية الجهاد في سبيل الله (وهو ما سبق التعرض له في الفقرة السابقة ـ المسألة القومية) والتي تعطي للجهاد في سبيل الله ذاك (البعد الديموغرافي). يضاف إلى ذلك القدرة على التكيف مع المستجدات الناجمة عن تطور التقانة، وزيادة تعقيد أسلحة الحرب والوسائط القتالية، إذ إن فريضة الجهاد في سبيل الله لم تحدد نوعاً معيناً من التسلح، وإنما دعت لإعداد كل ما هو مطلوب، وكل ما هو متوافر من الوسائط المادية ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾.

والمهم في الجهاد في سبيل الله هو أن يبقى كل جهد مبذول لرفع راية الإسلام؛ ولحماية الإسلام؛ وللدفاع عن المسلمين وديارهم؛ مهما تباعدت تلك الديار وتناءت، وهو ما يضمن تحقيق (مبدأ الأمن الجماعي) وفقاً للمفاهيم الحديثة. فشعار (الدفاع عن الوطن الاشتراكي) الذي يتردد في كل عمل من أدب الحرب السوڤييتي، وشعار (الدفاع عن الديمقراطية، أو الدفاع عن الحريات) الذي يطرحه قادة الغرب، وقادة الولايات المتحدة الأمريكية بخاصة، ليست في واقعها إلاَّ شعارات هدفها تحقيق (الأمن الجماعي) بما يتوافق مع مضمون فريضة (الجهاد في سبيل الله).

لقد تشكلت المذاهب العسكرية العالمية في الأزمنة الحديثة، بحيث لم يمضِ على معظمها أكثر من قرون قليلة؛ وحتى تلك القديمة منها، كالمذهب العسكري الصيني أو الياباني، حتى عرفت انقطاعاً طوال قرون كثيرة، بينما احتفظت فريضة (الجهاد في سبيل الله) بخصائصها ومميزاتها؛ عبر القرون، فشكلت بذلك نسيجاً متصلاً ومتكاملاً. وقد عرف المسلمون فضل فريضة الجهاد في سبيل الله عليهم، وعرفوا ما يبذله أعداء الإسلام والمسلمين من جهود لتعطيل هذه الفريضة وتشويهها وتغييب معطياتها، وإذن فلا غرابة إن تمسَّك المسلمون بما عرفوا فيه عزَّتهم، وما حفظ لهم وجودهم، ولا غرابة أن يتزايدوا تصميماً على بعث فضائل الجهاد في سبيل الله، رغم كل المعوقات والصعوبات.

٤

تعلم الحرب في مدرسة الحرب

أصبح تعلم الحرب في الأزمنة الحديثة علماً وفناً. علم لأنه يتم في إطار دراسة منهجية علمية ومنظمة تتخصص فيها مدارس عسكرية تتباين بحسب مستوياتها التعليمية؛ وتختلف من حيث تخصُّصها ومن حيث هدف الدراسة فيها. والتعلم فن أيضاً لأنه يعتمد على الإبداع وعلى عدم التقيد بالقوالب الجامدة التي لا تستطيع استيعاب المستجدات في عصر التقانة المتسارعة، وما تحدثه هذه التقانة من تغيير في طرائق القتال وأساليبه. ويعتمد تعلم الحرب؛ وخاصة على مستوى إدارة الحرب؛ على خلاصة التجربة التاريخية لفن الحرب عبر الأزمنة والعصور؛ ولهذا لم يعد غريباً أن يتعاظم الاهتمام بدراسة تاريخ فن الحرب والتاريخ العسكري وتاريخ تطور الأسلحة والأساليب القتالية يوماً بعد يوم؛ لا سيما في زمن التطور المتسارع للتقانة وتزايد التعقيد في إدارة الحرب وأساليب خوضها.

وإذا كان القرن التاسع عشر قد حدد بوضوح الأبعاد الحديثة للتاريخ العسكري من خلال أبحاث العسكريين الغربيين من أمثال (كلاوزفيتز)[1] الألماني

(١) كلاوزفيتز: (Carl Marie Von ClausWitz) جنرال بروسي ومنظر عسكري (١٧٧٠ - ١٨٣١ م) استخلص أبحاثه ودراساته من تجربة حروب الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية التي خاض بعض معاركها تحت قيادة أشهر القادة البروسيين من أمثال (شارنهورست: Scharnhorst) و(جينسيناو: Geneisnau) وبقيت أبحاثه ودراساته من أشهر الكتابات في القرنين التاسع عشر والعشرين؛ وترجم كتابه الشهير (فن الحرب) إلى معظم لغات العالم، وبقيت بعض نظرياته محتفظة بقيمتها رغم تقادم الزمن.

و(جوميني)[1] الفرنسي، وغيرهما؛ ومن خلال التطبيقات العملية للقائد الألماني (فون مولتكه)[2]. فقد حظي القرن العشرين باهتمام غير محدود لإعادة تقويم التجربة التاريخية لفن الحرب من خلال إعادة دراسة التاريخ العسكري، منذ أقدم الأزمنة وحتى العصر الحديث؛ مع استعراض وبحث كل التجارب لكل الأمم والدول قدر المستطاع.

ولقد تميزت بريطانيا بتقديم أشهر كاتبين عسكريين في القرن العشرين، هما (ليدل هارت)[3] و(جون فوللر)[4]، حيث عمل الاثنان على العودة بأبحاثهم إلى

---

(١) جوميني: جنرال فرنسي، من أصل سويسري؛ خدم في بلاط قيصر روسيا (١٧٧٩ - ١٨٦٩). وضعه بعض الباحثين على مستوى كلاوزفيتز، من حيث ما قدمه لتكوين (الفكر العسكري الحديث)، غير أنه لم يصل إلى مرتبة كلاوزفيتز من حيث الشهرة العالمية. من أشهر مؤلفاته (حروب فريدريك الكبير) و(حروب الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية) وصدرت في سبع وعشرين مجلداً، وكذلك كتابه (بحث في العمليات العسكرية الهامة) و(ملخص فن الحرب) الذي ظهر في مجلدين في العام ١٨٣٨ م، وترجم إلى عدد من لغات العالم.

(٢) فون مولتكه: (Helmuth Von Moltke) جنرال بروسي، ورئيس هيئة الأركان البروسية خلال الحرب البروسية - الفرنسية ١٨٧٠. وقد عاش في الفترة (١٨٠٠ - ١٨٩١) كان تلميذاً لكلاوزفيتز؛ اشتهر بكفاءته القيادية وبأنه أول من نظَّم هيئة الأركان تنظيماً حديثاً؛ واهتم بالتطبيق العلمي لمبادىء الحرب، وبتعليم التاريخ العسكري في المدارس الألمانية. عمل خبيراً في القسطنطينية لخدمة الدولة العثمانية.

(٣) ليدل هارت: (Sir Basil Henry Liddell Hart) ضابط بريطاني ومنظِّر عسكري (١٨٩٥ - ١٩٧٠) اشترك في الحرب العالمية الأولى على الجبهة الغربية؛ وأصيب بجراح بالغة؛ فسرِّح من الجيش سنة ١٩٢٧ برتبة نقيب؛ وانصرف للكتابة العسكرية في الصحف البريطانية (ديلي تيليغراف والتايمز). وأصدر مجموعة كبيرة من الكتب والأبحاث والدراسات المستخلصة من تجارب الحروب. وكانت نظريته عن (حرب الحركة) التي استخلصها من تجربة حرب المغول التتار من أشهر النظريات، حيث طبَّقها الألمان في (حرب الصاعقة) كما اشتهرت نظريته عن (التقرب غير المباشر) والهادفة إلى كسب الحرب بأقل جهد ممكن.

(٤) ش. فوللر: (John - Fredrick John - Charles Fuller) ضابط بريطاني ومنظِّر عسكري (١٨٧٨ - ١٩٦٦ م). خدم في حرب البوير ثم في الحرب العالمية الأولى، وأصبح قائداً لفرق المدرعات البريطانية. وقد ناضل بعد الحرب العالمية الأولى نضالاً شاقاً ومريراً من أجل تطوير سلاح المدرعات، ونقل بسبب ذلك إلى الهند، ولم تتح له فرصة قيادة =

أقدم التجارب التاريخية؛ منذ أيام الإسكندر المقدوني وهاني بعل ومروراً بالقرون الوسطى، ونهاية بحروب الأزمنة الحديثة؛ وقد أخذا بحكمة بسمارك القائلة: «**يقول الحمقى إنهم لا يتعلمون إلا من تجاربهم الخاصة؛ أما أنا فأفضل الإفادة والتعلم من تجارب الآخرين**».

وقد سار على هذا النهج عدد غير محدود من الكتاب والباحثين والمؤرخين في معظم أقطار العالم؛ بهدف التعلم من (تجارب الآخرين). وقد اصطدم هذا الاتجاه بمعارضة قوية، ذهبت أحياناً إلى حد إنكار الفائدة من تعلم التجربة التاريخية أو استقراء خبراتها واستخلاص دروسها؛ فيما ذهبت مدارس فكرية أخرى إلى الاهتمام بالتجربة التاريخية الشاملة لقصة الصراع على أرض الدنيا، مع التركيز الشديد على التجربة الذاتية (المدرسة السوفييتية؛ والمدرسة الأمريكية بدرجة أقل). هذا في حين اتجهت مدارس فكرية أخرى إلى حد الانغلاق على التجربة الذاتية؛ دون كبير اهتمام بالمدارس الفكرية الأخرى (الكورية، الفييتنامية، الصينية إلى حد معين)، وذلك على أساس أن هذه التجربة الذاتية قد جاءت نتيجة عوامل جغرافية ثابتة، ونتيجة تكون سكاني ـ ديموغرافي ـ أصيل وشبه ثابت؛ إلى جانب معاناة أوضاع تاريخية مشابهة؛ مما يعطي التجربة الذاتية أبعاداً لا تمتلكها التجربة الشاملة للتاريخ العسكري. فهل ذلك كله إلا دليلاً على الأهمية المتعاظمة لدراسة التاريخ العسكري؟ وهل تتناقض التجربة الذاتية مع التجربة التاريخية الشاملة لفن الحرب؟ وأين هو موقع دروس فريضة (الجهاد في سبيل الله) أو المذهب العسكري الإسلامي؟.

لقد تضمنت الفقرة السابقة خصائص مدرسة الحرب الإسلامية: الاستمرار؛ والتنوع، والمرونة، والبعدين الجغرافي والديموغرافي، مما يجعلها مدرسة حديثة ومتطورة. فكيف تعلم المسلمون في مدرسة الحرب التي شكلوها عبر جهادهم وعبر تضحياتهم؛ وعبر ما قدموه من الشهداء ومن سيول الدماء، ليسجلوا بها أروع صفحات تاريخ فن الحرب؟

= المدرعات في الحرب، فانصرف للكتابة العسكرية؛ وصدرت له مؤلفات كثيرة، تميزت بعمق التحليل وبأسلوب مميز، ومن أشهرها (المعارك الحاسمة في التاريخ).

لا بد وقبل كل شيء من القول إن التعلم من الحرب، ومن تجاربها، يتطلب توافر استعداد فكري من جانب المتعلم، وهذا مما يعني ببساطة ضرورة وجود قدرة إبداعية تعتمد على فكر متطور حتى يستطيع المتعلم استيعاب المواقف المختلفة، والإحاطة بها؛ وتحليلها بصورة صحيحة، وإيجاد الحلول الناجعة لها. وإذا لم تتوافر هذه القدرة الإبداعية فلن يفيد المتعلم شيئاً لا من تجارب الآخرين ولا حتى من تجاربه الذاتية، وسيبقى مثله كمثل ذلك الضابط - الجنرال - الذي عمل طويلاً مع جيوش نابليون بونابرت، ثم كتب إلى نابليون شاكياً من عدم ترفيعه بينما تم ترفيع الآخرين، وربما ممن جاء بعده إلى الخدمة. وجاء في رسالة ذلك الضابط: «لقد خضت معك عشرات المعارك، وعبرت معك جبال الألب مرتين». فأجابه نابليون: «لقد عبر بغلي معي جبال الألب أيضاً». لقد كان هذا الجنرال يفتقر إلى القدرة الإبداعية؛ فلم يتعلم من الحرب شيئاً؛ ولا تعلَّم من تجارب القادة الآخرين، فكان مثله كمثل من شبهه نابليون به.

لقد انطلق العرب المسلمون إلى عالم الفتوح، ومعهم من الزاد تلك التوجيهات العامة والمبادىء الأساسية التي حددتها لهم آيات القرآن الكريم، بالإضافة إلى السنن التي وضعها الرسول ﷺ. وكان في جعبتهم أيضاً تلك الحصالة من التجارب الذاتية والمتوارثة عبر حروبهم القبلية المحدودة (الإغارات وقتال الكر والفر). . وكان على قادة العرب المسلمين أن يجابهوا من المواقف ما لم يعرفوه من قبل، وما لم يعهدوه. ولم يكن أقل هذه المواقف صعوبة أو تعقيداً ذاك الموقف المستجد والذي نجم عن الانتقال من التنظيم القبلي للقوات المقاتلة، إلى تنظيم الجيوش التي تحولت دفعة واحدة من نظام القبيلة المسلحة إلى نظام الأمة المجاهدة؛ مع ما استتبع ذلك من زيادة كبيرة في حجم الجيوش، واتساع أكبر لمسارح العمليات، علاوة على ما فرضته ظروف الفتح من مجابهة لجيوش ضخمة، عريقة في تنظيمها؛ غنية بخبراتها الحربية المتوارثة عبر عهود طويلة، وتوافرت لها قدرات وإمكانات لم يتوافر منها شيء عند الإنطلاقة الأولى للفتح. وهنا يظهر السؤال: هل كان قادة العرب المسلمين يمتلكون القاعدة الفكرية التي تمكنهم من التعلم من تجارب الآخرين وخبراتهم (الفرس والروم)؟ وإذا كانت مثل هذه القاعدة الفكرية متوافرة؛ فماذا كان باستطاعتهم تعلُّمه أو اقتباسه من أعدائهم؟. .

لقد أفاد رسول الله ﷺ ـ على ما هو معروف ـ من خبرات سلمان الفارسي لحفر الخندق في معركة الخندق، وكذلك فقد تعلم العرب المسلمون من أعدائهم ـ الفرس والروم ـ استخدام المجانيق وسواها من وسائط الحصار. ولكن ممن تعلم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضوان الله عليه ـ تنظيم الجيش العشري، وتقسيمه إلى جماعات وفصائل وسرايا (مئات) وكتائب الخ . . . ؟ وممن تعلم تنظيم مناطق التجمع والحشد، وما يجب على الجيوش أن تفعله في كل منطقة، وذلك عندما وجه جيش سعد بن أبي وقاص إلى العراق؟ . وقبل ذلك؛ ممن تعلم الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه؛ توجيه الجيوش إلى بلاد الشام، على محاور مستقلة للعمل على مسارح عمليات متباعدة؟ ثم لماذا لم يرسل إلى العراق إلا جيشين أحدهما يبدأ من الشمال والثاني ينطلق من الجنوب، بما يتوافق مع الطبيعة الجغرافية للبلاد؟ ثم كيف استطاع قادة الجيوش التكيف مع الظروف المستجدة؛ فطبقوا أساليب مبتكرة هي مما يمكن تسميته مزيجاً من أساليب الحرب الثورية وأساليب حرب القوات النظامية؟ .

لقد رأى خالد بن الوليد تنظيم جيوش الروم في اليرموك؛ فكيف استطاع إعادة تنظيم الجيش العربي الإسلامي بمثل تلك السرعة، حتى يستجيب لظروف المعركة ومتطلباتها (نظام الكراديس أو الكتائب)؟ وهل كان باستطاعة قوات العرب المسلمين ـ في اليرموك والقادسية ـ تحقيق ما أنجزوه من انتصارات حاسمة؛ لو قلدوا تنظيم قواتهم على مثل تنظيم الروم والفرس؟ . ويمكن الاستمرار بعد ذلك في طرح أسئلة لا نهاية لها عن كل موقف اتخذه العرب المسلمون وقادتهم خلال حروب الفتح .

لقد كان للعامل المعنوي (الإيمان) دوره الأساسي والحاسم في مسيرة الفتوح وفي تطورها؛ غير أن ذلك لا ينتقص من دور العقل المبدع؛ أو يلغي دوره؛ بل على النقيض من ذلك؛ فقد فتح الإيمان مغاليق العقول والأبصار؛ فتجلى الإبداع الذي تجاوز حدود تقليد الآخرين؛ أو الاقتباس منهم ومحاكاتهم إلى الإبداع الذاتي، الذي استطاع أن يحسب بدقة؛ وأن يوازن بإحكام، بين مجموعة العوامل المتشابكة في الصراع؛ والتي لم يكن أقلها شأناً: تنظيم قوات العدو، وتسليحه، وموقف السكان (الأنصار) وطبيعة مسرح العمليات، والقوات الصديقة؛ وقدراتها القتالية؛

وفضائلها الحربية. وبذلك استطاعت الجيوش الصغيرة في عددها؛ والضعيفة في تسلحها والقوية بإيمانها؛ الانتصار على جيوش عريقة في قدمها؛ غنية بخبراتها؛ قوية بعددها وأسلحتها. وإذن؛ فمن المحتمل جداً، وهذا أمر طبيعي؛ أن يكون العرب المسلمون قد أفادوا من بعض خبرات أعدائهم وتجاربهم؛ إلا أن هذا التعلم بقي محدوداً، لأن ظاهرة الإبداع هي التي طغت على التعلم.

يمكن مقابل ذلك طرح السؤال المضاد: لماذا لم يحاول قادة الفرس والروم التعلم من التجربة الذاتية للعرب المسلمين؟ ولماذا لم يتمكنوا من إحباطها والقضاء عليها وهي لا تزال في مهدها وفي عهد بداياتها المبكرة؟

هناك عاملان على الأقل منعا قادة أعداء المسلمين؛ من فرس وروم؛ من التعلم من العرب المسلمين:

أولهما: الاستعلاء والغرور.

وثانيهما: حالة الانغلاق الفكري والجمود الذي هيمن على قادة جيوش الدولتين.

فأما بالنسبة **للعامل الأول** ـ وهو الاستعلاء والغرور ـ فلا شيء يفسد التعلم مثل النقيصتين المذكورتين. فقد عاش العرب أحقاباً طويلة وهم تحت جنح الدولتين العظميين؛ يخضعون لهما؛ ويأتمرون بأمرهما. فلما انطلقت جحافل العرب المسلمين للفتح، استصغر الفرس والروم هذه القوى الهزيلة؛ بالمقارنة مع ما توافر للروم والفرس من جيوش جرَّارة، واستهانوا بشأنها، واستخفوا بتسلحها، فلم يحاولوا ـ حتى مجرد محاولة ـ معرفة التحولات الجديدة التي أعادت تشكيل الأمة العربية ـ الإسلامية، ومنحتها رصيداً معنوياً وفكرياً متفوقاً، هذا الرصيد هو أساس النجاح أو الفشل في الحرب؛ كما في شؤون الحياة كلها.

وبما أن الصراع المسلح هو حوار إرادات متصارعة، فقد غابت إرادة الصراع بمعناها الفكري على مستوى قيادات الفرس والروم؛ في حين كان رصيد هذه الإرادة ضخماً في وسط قيادة العرب المسلمين، كما في وسط قواتهم؛ مما ساعد العرب المسلمين على تطوير تجربتهم الذاتية؛ وحرم الفرس والروم من كل تجاربهم.

أما العامل الثاني ـ وهو عامل الانغلاق الفكري والجمود ـ فسببه التزام قيادات الفرس والروم بأفكار تقليدية وأساليب صلبة؛ تعلّموها ومارسوها طويلاً عبر تجاربهم وأعمالهم القتالية؛ مما شكل لديهم قناعات ثابتة بصحتها، وبعدم إمكان تطويرها. ولم يكن باستطاعة قادة الفرس والروم وهم في هذه الحالة من (الانغلاق الفكري) رؤية التطورات والمستجدات التي جاء بها العرب المسلمون؛ ولم يتمكنوا من فهمها واستيعابها وتقويم درجة خطورتها بصورة واقعية وحقيقية. فكان مثل الفرس والروم في تجربة التعلم، كمثل المقولة العربية الشهيرة: «النملة أعرف بما في بيتها، مما يعرفه الفيل عن بيت النملة». وكانت هذه المعرفة هي ركيزة أساسية من ركائز انتصار العرب المسلمين وهزيمة أعدائهم.

لقد قال القائد الألماني الكبير (فون مولتكه) في مجال التعلم من الحرب: **«يجب علينا ونحن نستعد للحرب؛ استخلاص أفضل الدروس من تجاربنا الخاصة، ولكن يجب علينا أيضاً؛ وباستمرار، أن نستفيد من تجارب الآخرين لكي لا نقف ضمن أفق محدود»**.

ولقد استطاع العرب المسلمون استخلاص أفضل الدروس من خلال تجاربهم الذاتية ـ الخاصة ـ وحوَّلوها إلى تطبيقات عملية على أرض القتال؛ وفي الوقت ذاته؛ فإنهم لم يمتنعوا عن تطوير طرائقهم وأساليبهم من خلال حوار الإرادات المتصارعة؛ غير أن هذا التطوير جاء ضمن طرائقهم وأساليبهم ذاتها؛ ووفقاً لمفاهيمهم الخاصة، فكان ذلك إغناء لفكرهم العسكري، ولحصالة خبراتهم؛ بينما امتنع الفرس والروم ـ للأسباب التي سبق ذكرها ـ عن تطوير طرائقهم وأساليبهم، وعجزوا عن فهم واستيعاب مستجدات الصراع؛ فوقفوا وهم في حالة من الذهول والارتباك أمام كل ما كانت تقع عليه أبصارهم من مستجدات الصراع. وهذا لا يعني بداهة استسلام الفرس والروم للسلبية؛ فقد عملوا على سبيل المثال على زج أربعة جيوش ضخمة لسحق قوات العرب المسلمين على أرض بلاد الشام؛ ولم يعرف قادة الروم يومها أن القدرة الحركية العالية لقوات العرب المسلمين؛ والكفاءة القيادية العليا لهم؛ ستعمل بسرعة أكبر لتجنب المآزق المحتملة، ولإعداد الرد المناسب ضدها. وهكذا فعل الفرس على جبهة العراق؛ عندما بدؤوا مجابهة قوات العرب المسلمين بقوات

متفوقة في عددها وتسلحها؛ فعمل العرب المسلمون، من جانبهم، على استنزاف قوات الفرس وتدميرها على التتابع بمجموعة من المعارك المتتالية (أيام خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة الشيباني في العراق). فكان كل نصر للعرب المسلمين يزيد من قدرتهم القتالية مادياً ومعنوياً؛ وينتقص من قوة أعدائهم بالقدر ذاته؛ فلما جاءت معركة القادسية، بعد ذلك، كان العرب المسلمون قد بلغوا مرحلة من التقدم والتطور، يمكن تسميتها، تجاوزاً بمرحلة التوازن الاستراتيجي؛ وبذلك أمكن لهم تحقيق انتصارهم الحاسم.

لقد تعلم العرب المسلمون من تجاربهم الذاتية أكثر مما تعلموه من تجارب صراعهم مع أعدائهم؛ وعلى سبيل المثال: فقد كان لهزيمة (خالد بن سعيد) على مسرح عمليات الشام، وهزيمة القوات في معركة الجسر (قس الناطف أو قرقيساء أو المروحة) دور أساسي وحاسم في حمل قادة العرب المسلمين على اختيار مسارح العمليات بما يتناسب مع قدراتهم الحركية وفضائلهم الحربية وبما يسمح لهم بالمناورة بحرية تامة مع الحرص على الإمساك بالمبادأة دائماً وحماية المؤخرات وضمان أمن القوات؛ مما ظهر واضحاً بعد ذلك في كل المعارك الحاسمة التي خاضها العرب المسلمون، وأحرزوا فيها انتصاراتهم الرائعة.

ومقابل ذلك؛ فإن التجارب القتالية الناجحة كانت تفرزها باستمرار التجارب الناجحة الأخرى؛ وهكذا؛ وعبر التجارب الذاتية بالدرجة الأولى، طوَّر العرب المسلمون فن الحرب الذي يحمل ميزاتهم القتالية وخصائصهم الحربية، وإن اقتباس بعض الأفكار والأساليب عبر حوار الإرادات المتصارعة مع الآخرين، لم يكن هو الأساس في فن الحرب العربي ـ الإسلامي؛ لا سيما وأن العرب المسلمين كانوا يطبقون هذه الأفكار والأساليب في حدود إمكاناتهم ومفاهيمهم؛ ووفقاً لما تتطلبه كل حالة من الحالات؛ وما يقتضيه كل موقف من المواقف، وثمة فارق كبير بين التقليد والمحاكاة؛ وبين الاقتباس والتطوير، أو ما سبق وصفه (بالإبداع الذاتي).

وعلى كل حال؛ وإذا كان هناك ثمة اقتباس أو تعلم من الآخرين، سواء على مستوى الأساليب التعبوية ـ التكتيكية؛ أو على مستوى العمليات، فقد كان العرب

المسلمون يمتلكون مفاتيح التفوق في مجال الفكر الاستراتيجي وفي مجال إدارة الحرب؛ وهذا هو العامل الأكثر أهمية؛ مما أفسح المجال أمام العرب المسلمين لاستخدام قدراتهم وإمكاناتهم على أفضل وجه ممكن، وليس بالمستطاع هنا أبداً القول بأن العرب المسلمين قد تعلموا من تجارب الآخرين.

هنا، وفي مجال الفكر الاستراتيجي؛ يمكن التعرض - علاوة على كل ما سبق ذكره - إلى استراتيجية التقرب غير المباشر، وإلى التوازن على مسارح العمليات، وإلى الاحتفاظ بقوات احتياطية على المستوى الاستراتيجي؛ وإلى التوازن بين غاية السلم وهدف الحرب، وإلى تقنين العنف، وإلى تطبيق استراتيجية برية - بحرية متكاملة الخ...

كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يصف قيادة عمرو بن العاص - رضي الله عنهما -: «بأنها قيادة حذق ومهارة». وفي الحقيقة فإن استعراض مسيرة الفتوح تظهر أن كل القادة قد تمتعوا بهذه الميزة؛ فكانت حروبهم حروب حذق ومهارة. فالمفاوضات والاتصالات التي كان يجريها قادة العرب المسلمين مع قادة جيوش أعدائهم؛ قبل كل معركة من المعارك الحاسمة، وكذلك تلك العمليات الخاصة التي كانت تسبق كل معركة؛ لم يكن لها من هدف إلا إقناع قيادات العدو وقواتها بعجزهم عن مجابهة قوات العرب المسلمين؛ وتثبيط عزائمهم، وإحباط إرادتهم القتالية؛ وبالتالي تحقيق استراتيجية التقرب غير المباشر والتي تعني بحسب المفاهيم الحديثة إلحاق الهزيمة بالعدو، قبل بدء المعركة، أو هزيمته بأقل جهد قتالي ممكن؛ ويمكن أن يضاف إلى ذلك حرص قوات العرب المسلمين باستمرار على تطويق مجنبات العدو؛ والوصول إلى مؤخراته، حتى تنهار مقاومته؛ فكانت حروب العرب المسلمين بحق (حروب حذق ومهارة بحسب وصف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه) و(حروب تقرب غير مباشر بحسب التسميات والمصطلحات الحديثة). فكان الهدف دائماً هزيمة العدو معنوياً قبل هزيمته مادياً، والقصص بعد ذلك كثير، والشواهد متوافرة ومعروفة؛ وكان ذلك في طليعة عوامل نصر المسلمين.

لقد ظهر لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومنذ بداية الفتوح؛ أن

هناك ثمة حاجة للاحتفاظ بقوة احتياطية سريعة الحركة (كمثل قوات التدخل السريع) في الأزمنة الحديثة؛ فخصص لكل إقليم على قدره قوة من الفرسان، من فضول أموال المسلمين، لمجابهة الحالات الطارئة، أو لكون كائن ما كان، وكانت هذه القوة تعمل بأمر الخليفة مباشرة. ولقد ظهرت قيمة هذه القوة وأهميتها في مناسبات كثيرة، منها مجابهة قوات الروم التي وصلت بهجوم كبير إلى مدينة حمص (سنة ١٧ هـ) حيث أمر الخليفة بتحريك هذه القوات من الكوفة إلى حمص (بقيادة القعقاع بن عمرو التميمي).

والمهم في الأمر هو أن الإبداع الاستراتيجي يتوافق مع أحدث متطلبات الاحتياط الاستراتيجي التي تحتفظ به القيادة العليا؛ سواء من حيث تنظيمه كقوات خفيفة وجاهزة للعمل باستمرار، أو من حيث ارتباطها بالقائد الأعلى مباشرة وخضوعها لأوامره. وقد أصبح هذا الإبداع تقليداً ثابتاً ضمن لمسارح العمليات ما تحتاجه من التوازن والاستقرار. وبالإضافة إلى ذلك، فقد أمكن ضمان هذا التوازن والاستقرار أيضاً بفضل تنسيق التعاون بين الجبهات، ودعم الجيوش الإسلامية بعضها لبعض. ومثال ذلك ما فعله أبو بكر الصديق رضي الله عنه عندما وجه قسماً من جيش العراق إلى بلاد الشام (بقيادة خالد بن الوليد) عندما احتاج هذا الجيش للدعم قبل معركة اليرموك، وكذلك ما فعله أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه عندما وجه جند العراق من الشام، بعد اليرموك (بقيادة هاشم بن عتبة والقعقاع بن عمرو التميمي) لدعم جيش العراق أثناء معركة القادسية، ومعروفة بعد ذلك قصة توجيه الجيوش من إقليم إلى إقليم آخر لدعم مسيرة الفتوحات في المشرق والمغرب. فكانت مسارح العمليات تشكل، من وجهة نظر القائد الأعلى، مسرحاً متصلاً وواحداً على الرغم مما بين الأقاليم من التباعد. وكانت الجيوش العربية الإسلامية، تشكل بمجموعها قوة واحدة، وكانت هذه هي الوسيلة الأمثل والطريقة الأفضل لمعالجة نقطة الضعف المتمثلة بقلة قوات العرب المسلمين بالمقارنة مع اتساع مسارح العمليات، وبالمقارنة مع حجم القوى المعادية ووفرة عددها. فهل كان لدى الفرس والروم مثل هذه الإبداعات؟ وهل تعلّم قادة العرب المسلمين ـ على اختلاف مواقعهم القيادية وتباينها ـ مثل هذه الطرائق أم أنها الإبداعات التي برزت من خلال مواجهة المواقف المستجدة بقلوب مؤمنة وعقول متفتحة؟ ثم هل هنالك ثمة تجربة تاريخية تماثل هذه

التجربة العربية الإسلامية في قدمها وفي أصالتها وفي تطابقها مع معطيات الحروب الحديثة ومع مبادئها وأسسها؟.

ليست القضية هي قضية تعصب للتجربة العربية الإسلامية التي برزت بعض ملامحها من خلال ما سبق عرضه من الفصول ومن الفقرات؛ ولو أن مثل هذا التعصب بات ضرورياً في إطار تعصب الأمم الأخرى لتراثها ولقواعد أصالتها رغم ما تتظاهر به من التسامح ومن الانفتاح الفكري. كذلك ليست القضية هي قضية الدعوة للانغلاق الفكري وللعزلة وللانغلاق على الذات ضد تجارب الآخرين؛ إذ من المحال إحراز التطور؛ وأي تطور؛ بمعزل عن الحوار الفكري والاقتباس والتعلم. ولكن من المحال إجراء مثل هذا الحوار ما لم تتوافر قاعدة فكرية صلبة وقوية يمكن الاستناد إليها لاكتساب المعرفة وتطويرها، على نحو يماثل تماماً ما فعله الأجداد الذين ما كان باستطاعتهم تطوير ما طوروه وإبداع ما أبدعوه؛ لو لم تكن لديهم القدرة الكافية للتطور والإبداع. وليست قضية التعلم على كل حال بأكثر من قضية تكيف مع المستجدات التي تبرز كل يوم؛ لا سيما في عصر التطورات المتسارعة للتقانة.

تبرز هنا ظاهرة لا بد وأنها صدمت معظم الباحثين والكتاب والمؤرخين من المسلمين ـ ومن العرب المسلمين بصورة خاصة ـ. إذ كثيراً ما عمل الباحثون الأجانب ـ والغربيون منهم بخاصة ـ على تركيز أبحاثهم ودراساتهم على تاريخ الأقدمين من فراعنة وفينيقيين وفرس ورومان وإغريق وسواهم؛ حتى إذا ما وصلوا إلى القرن السابع الميلادي ـ عصر الفتوحات الإسلامية ـ تجاوزوه بقفزة واحدة إلى العصور الوسطى والأزمنة الحديثة، التي تبدأ بالقرن السادس عشر أو السابع عشر. وهم إذا ما بحثوا فيها، عالجوها برفق كبير؛ ومن خلال ملامح عامة أو جزئيات منفصلة ذات صبغة سطحية؛ فهل كانت هذه الحقبة التاريخية عقيمة من تجارب الحروب وخبراتها؟ أم هو الجهل بتاريخ العرب المسلمين ولغتهم؟ وإذا كان الأمر كذلك؛ فكيف استطاع هؤلاء الباحثون حل رموز اللغة الهيروغليفية؟ وكيف أمكن لهم قراءة ما تضمنته اللغات القديمة المندثرة؟ وهل يمكن تفسير ذلك بغير التجاهل المتعمد للتجربة الإنسانية التي قدمها العرب المسلمون في كل مجال، وفي مجال فن الحرب بصورة خاصة؟

القضية ببساطة هي قضية طمس لمعالم التجربة الذاتية العربية الإسلامية، في

إطار الحرب الشاملة والمستمرة ضد كل ما هو عربي وإسلامي، تماماً كمثل طمس الآثار الإسلامية الأندلسية بطلاء الكلس (قبل أن يعمل الزعيم الأسباني السابق فرانكو على رفعها من مسجد قرطبة). ولقد اتبعت في عملية الطمس والتشويه هذه طرائق شتى؛ منها التجاوز والإهمال؛ ومنها التحريف والتبديل؛ ومنها التفسير الخاطىء والتحليل المنحرف للأحداث؛ ومنها التركيز على نقطة مشرقة واحدة ـ لا يمكن تجاهلها ـ وإثارتها بانفعال حتى تغيب بقية النقاط الأكثر إشراقاً والأكثر أهمية. فلماذا يتم ذلك في معالجة تجربة مضى عليها ردح غير قصير من عمر الزمن؟.

إن التجربة الذاتية للعرب المسلمين هي تجربة تحمل في شكلها ومضمونها قدرة هائلة للتطور والاستمرار؛ وهي بطبيعتها متصلة بالحاضر غير منفصلة عنه؛ علاوة على ما ترسله من الظلال المتقدمة نحو أفق المستقبل. ولهذا فإن الحرب ضدها ومحاولة طمسها مرتبطة ارتباطاً عضوياً وثيقاً بالحرب الشاملة ضد العرب المسلمين؛ وضد المسلمين عامة؛ ولقد باتت معالم هذه الحرب وأبعادها معروفة؛ إذ طالما تعرض لعلاجها المفكرون المعاصرون بأساليب شتى وبطرائق متنوعة؛ بحسب زوايا النظر إلى هذه الحرب؛ وبحسب اختصاص الذين يتعرضون لها. ومهما كان عليه الأمر؛ فالمسألة الحاسمة هي أن التجربة الذاتية للعرب المسلمين ـ وفقاً لما سبق عرضه ـ ليست تجربة رصيد معنوي هائل مجرد عن القاعدة الفكرية، بل إن الأمر على النقيض تماماً؛ فقد بقي ذاك الرصيد المعنوي وعبر التجربة التاريخية الطويلة مقترناً بالرصيد المادي، أو بمجموعة القوى المتوافرة للشعوب الإسلامية، مما ضمن للمسلمين المنطلق القوي الذي حرم أعداء العرب المسلمين من القاعدة التي توفر لهم ما كان متوافراً للمسلمين. ومن هنا تأتي الدعوة المستمرة لاستلهام التجربة الذاتية؛ والعودة إليها؛ ولكن دون انغلاق ولا تصلب، على نحو ما تفعله بعض المذاهب العسكرية التي ربما أثملها ما حصلت عليه من نجاحات معاصرة محدودة؛ فانطلقت من هذه النجاحات لانتحال صفة (التفوق المطلق)، ولتصم آذانها وتغمض أبصارها عما تحفل به دروس التاريخ في القديم والحديث؛ ولتتجاهل ما يحمله كل يوم من التطورات والمستجدات. ويمكن على ضوء ذلك التساؤل: ما هي الحقيقة الثابتة التي يمكن استخلاصها في مجال تكوين الفكر العسكري المعاصر؟

إن هـذه الحقيقة هي الـدور المتعاظم للتـاريخ العسكـري في تكـوين الفكـر العسكري، وإغنائه خصباً بالمعرفة؛ ومرونة في منهج التفكيـر؛ بحيث أنه لـم يعـد بالمستطاع أبداً القول: ليذهب التاريـخ إلى جهنم، ولتذهب تجـاربه ودروسـه إلى المتاحف ـ متاحف الذكريات ـ ويكفي في مجال الإعداد للحرب، إتقان استخدام الأسلحة، وتملك مفاتيح تقانة العصر، بحيث يكفي للمحارب ما يتعلمه في حدود اختصاصه، وفي حـدود مرتبتـه ومسؤوليته. ذلـك أن استخدام الأسلحـة، والتطور المتسارع للتقانة، وتنوع الاختصاص في الأزمنة الحديثة، ليس بأكثر من ثمرة لذاك التطور المستمر عبر الأزمنة السحيقة؛ والذي لم يتوقف حتى وصل إلى ما وصل إليه اليوم.

وإذن، فقد يكون من المحال فصل المعارف العسكرية الحديثـة عن جذورهـا التاريخية؛ والتي تشكل التجربة الذاتية للعرب المسلمين جـزءاً كبيراً منهـا ـ إن لـم يكن أهم هذه الأجزاء فيها ـ. ولعل من أفضل ما تقدمه التجربة الذاتية؛ والتجارب التاريخية للآخرين؛ هي التعلم على ممارسة الـطريقة الصحيحـة للتفكير في وسط الضباب الكثيف الذي يحيط بالمعركة الحديثة؛ ووسط كافة المباغتات المحتملة.

كان الماريشال الفرنسي (فـوش) من رواد التعلُّم من التجربـة التاريخيـة؛ وقد سئل ذات يوم: «عندما تكـون في ساعـة من الساعـات التي يتوجب عليـك فيها أن تتـدخل؛ هـل يساعـدك شيء من هذه الـدراسات العميقـة في التاريـخ على حـل المعضلات؟» فأجاب فوش على الفور: «أبداً! إلا أن هذه الدراسات تعطيني الثقة».
وإذا كان في رد فوش ما يبرز الدور اللاشعوري الفاعل للمعرفـة التاريخيـة؛ إلا أن الحقيقة هي أن التجربة التاريخية تعطي أكثر من الثقة، فالخطط الحربية التي وصلت إلى درجة كبيرة من التعقيد؛ ليست في معظمها إلا تطويراً للمناورات القديمة ولتحرك القوات في أعمال التطويق والتوغـل العميق وضرب المؤخـرات على نحو مـا طبقه ونفذه قادة العرب المسلمين منذ (١٤٠٠ سنة)، وعلى نحو ما نفذه قبل ذلك كبار قادة الحـرب من أمثال رعمسيس الثـاني وقادة أسبـارطة وإيبـامينونـداس، ثم من تبعهم وقلَّدهم في الأزمنة الحديثة من أمثال بطرس الأكبر وفريدريك الكبير ونابليون بونابرت الذي قال يوماً: «من الممكن تعلم التكتيك والتطورات وعمل المهندسين والمدفعية من الأنظمة والمذكرات؛ كما نتعلم الهندسة تقريباً؛ إلا أن معرفة الأجزاء العليا من

الحرب لا تكتسب إلا بالتجربة وبدراسة تاريخ الحروب ومعارك كبار القادة. أعد قراءة تاريخ معاركهم الثمانية والتسعين؛ واحذ حذوهم، تلك هي الوسيلة الوحيدة لتغدو قائداً عظيماً».

وكان القائد الروسي (سوفوروف) من كبار قادة القرن الثامن عشر (١٧٢٩ ـ ١٨٠٠ م). وكان يدافع عن التثقيف العسكري بواسطة التاريخ؛ ويطالب ضباطه بالانكباب على دراسة علم يتجاوز في أهميته كافة الأنظمة؛ وكان يطالبهم، بالإضافة إلى ذلك، بالتحلي بالصفات الأخلاقية وصفات الرجولة ـ الفضائل الحربية ـ التي تحلى بها كبار القادة في التاريخ؛ وكان يردد دائماً: «إن كلمة (لا أعرف) هي السبب في كثير من الشرور. إن التكتيك بدون تاريخ عسكري هو ظلمات، إن التاريخ هو فوق كل الأنظمة».

لقد أصبح (التاريخ العسكري) من المواد المقررة في جميع الكليات العسكرية في العالم، ولم يعد هناك ثمة جدل في فائدته وأهميته. وهنا يعود السؤال الحاسم: هل ضم تاريخ فن الحرب في العالم نماذج تضاهي أو تنافس أو حتى تسمو لمرتبة ما كان عليه، وما أظهره؛ قادة العرب المسلمين من الكفاءات القيادية ومن الفضائل الحربية؟ إن البحث الموضوعي يؤكد المرة بعد المرة أنه لم تتوافر لأمة من الأمم أجيال من القادة العسكريين كمثل ما توافر للعرب المسلمين خاصة وللمسلمين عامة، وإن الإنسان بطبيعته عدو ما يجهل، وقد بُذلت جهود ضخمة عبر أحقاب متتالية لإسدال ستار كثيف على ما تضمنه (تاريخ الجهاد في سبيل الله) من دروس ومن عبر ومن أمثولات رائعة تحتفظ أبداً بقيمتها وأهميتها، وليس ذلك إلا لحرمان الأجيال العربية المتتالية من معرفة ما توافر لها من إرث عظيم، ولإبعادها عن التعلُّم من تجاربها الذاتية؛ والتي تمدها برصيد معنوي وبفكر منفتح مشرق، ينير لها السبيل، ويبدد لها الظلمات التي أحيطت بها عن عمد وسابق تصور وتصميم.
﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾.

مراجع البحث

١ ـ في ظلال القرآن ـ سيد قطب.
٢ ـ صحيح مسلم بشرح الإمام النووي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٨١ .
٣ ـ تاريخ الطبري ـ ذخائر العرب ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٠ .
٤ ـ الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٩٦٧ .
٥ ـ تهذيب التاريخ الكبير ـ ابن عساكر ـ مطبعة روضة الشام ـ سنة ١٣٢٩ هـ.
٦ ـ تاريخ ابن خلدون ـ مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ ١٩٦٧ .
٧ ـ نفح الطيب ـ المقري التلمساني ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٨ .
٨ ـ المغرب في حلى المغرب ـ ذخائر العرب ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٥٣ .
٩ ـ تاريخ الدولة العلية العثمانية ـ دار النفائس ـ بيروت ـ ١٩٨١ .
١٠ ـ حاضر العالم الإسلامي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٧٢ .
١١ ـ تاريخ الشعوب الإسلامية ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ١٩٧٤ .
١٢ ـ تاريخ الحروب الصليبية ـ دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٧ .
١٣ ـ نظرية الحرب في الشريعة الإسلامية ـ مكتبة الفلاح ـ الكويت ـ ١٩٨١ .
١٤ ـ نظام الحكم في الشريعة والتاريخ ـ دار النفائس ـ بيروت ـ ١٩٧٤ .
١٥ ـ نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي ـ السلطة القضائية ـ دار النفائس ـ بيروت ١٩٧٨ .